الأدلة على صدق النبوة المحمدية

هذا الكتاب في الأصل
رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه
من جامعة أم القرى بمكة المكرمة
١٤٠٦ - ١٩٨٦
بإشراف الأستاذ محمد قطب.



الأدلة على صدق النبوة المحمدية

ورد الشبهات عنها

بقلم

هدى عبد الكريم مرعي

إشراف الأستاذ

محمد قطب

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار الفرقان

عمان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم



شكر وتقدير

أحمد الله جل وعلا على نعمائه ، وأسأله العون على شكر آلائه ، وبعد : فأتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل للأستاذ الفاضل محمد قطب المشرف على هذه الرسالة ، الذي استفدت من توجيهاته ونصائحه الشيء الكثير ، والذي وجدت منه الرعاية الأبوية التي دفعتني للكتابة في هذا الموضوع ، فجزاه الله خير الجزاء وبارك له وللأمة في علمه ووقته .

كما أتقدم بالشكر للقائمين على كلية الشريعة والدراسات الإسلامية وللقائمات على قسم الطالبات بجامعة أم القرى بمكة المكرمه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد الرحمة المهداة الى البشرية كافة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ، فإن الأمم تحب أن تجدد صلتها بقادتها وزعمائها ، وتجد من نفسها رغبة في الحديث عنهم ، والتعرف عليهم ، والتزود من سيرتهم بزاد يمدها بالقوة والعزم ، لمواصلة السير والتغلب على عقبات الطريق .

وإذا كان هذا جائزاً ومستساغاً بالنسبة للقادة والزعماء من البشر العاديين ، فإنه بالنسبة لرسول الله ﷺ واجب مفروض على كل جيل من أجيال المسلمين . واجب عليهم أن يتعرفوا على القائد الأعظم، الذي تفرد على مدى التاريخ البشري كله بشخصية فذة لم تتكرر في التاريخ ، وبدور فذ لم يتكرر كذلك في التاريخ . .

إن العظمة في شخص رسول الله ﷺ ، لا يدانيها شيء مما اصطلح الناس على تسميته بالعظمة في معتاد حياتهم . . ولو أن أحداً من البشر نال صفة واحدة من الصفات التي اشتمل عليها شخصه الكريم ﷺ ، لاستحق بصدق أن يوصف بأنه عظيم . فكيف بالعظمة التي تجتمع في طياتها عظمات ، والتي تجتمع فيها تلك العظمات المتعددة على توازن بينها واتساق ؟!

كيف بالشخصية التي يجتمع فيها المربي العظيم، والسياسي العظيم، والقائد العظيم ، والداعية العظيم ، والمقاتل العظيم ، والمجاهد العظيم ، الى جانب الأب العظيم والزوج العظيم والصاحب العظيم، مرتكزاً ذلك كله على شخصية العابد العظيم ، المتجرد لعبادة الله وحده بلا شريك .

لا جرم أنه الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه .

والحديث عن هذه الشخصية الفذة لا يستوعبه جيل ، ولا تستوعبه كل الأجيال . .

فكلما تفتحت أعين جيل من الأجيال على تلك العظمة الفذة ، رأى فيها ـ من خلال واقعه الذي يعيشه ، من خلال مشكلاته ومن خلال تطلعاته ، ومن خلال خبراته وممارساته ـ جوانب من العظمة ، وجوانب من العبرة ، وجوانب من الأسوة ، ربما لم تمر بالصورة ذاتها على جيل سابق ، على الرغم مما قد يكون من أوجه الشبه بين جيل وجيل في كل هذه الشؤون .

وإن هذا ذاته لهو معيار من معايير العظمة التي تفرد بها رسول الله ﷺ ، بوصفه الرسول المرسل الى البشرية كافة ، والى الأجيال كافة الى قيام الساعة ، على اختلاف ما بين جنس وجنس ، وجيل وجيل .

والأمر بالتأسي برسول الله ﷺ أمر منزل من الله لجميع المؤمنين في جميع العصور : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1] .

ولا بد ـ لكي تحدث الأسوة ـ أن يتعرف كل جيل من أجيال المسلمين على شخصية الرسول القائد المعلم ﷺ ، ليجدد به صلته ، ويكون قادراً على التلقي الصحيح منه ﷺ .

وجوانب الحديث عن شخصية الرسول الكريم متعددة تعدد جوانب

---

(١) سورة الأحزاب ٢١

شخصيته ﷺ ، وتعدد مواطن العبرة والأسوة ، وتعدد جوانب « المعرفة » عند الإنسان ذاته ، فكلما ازدادت معرفته ازدادت جوانب الرؤية عنده . . وما يمكن لكاتب واحد ، ولا لكتاب واحد ، أن يستوعب الحديث .

إنما حسب أي امرىء أن يتعرض لجانب من جوانب الحديث ، فيحسن تناوله ، ويحسن التعبير عنه . .

وقد اختارت الأخت « هدى » أن تتناول جانب « الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها » فبذلت في ذلك جهداً مشكوراً استطاعت به أن تقدم حشداً ضخماً من الأدلة في اتجاهات متعددة ، ما بين بشارات الكتب المنزلة السابقة (على الرغم مما أصابها من تحريف على يد أتباعها لإخفاء ما ورد فيها من بشارات بالرسول ﷺ) الى الحديث عن معجزاته ﷺ وأكبرها القرآن ـ معجزة التحدي ـ إلى جانب المعجزات الحية الأخرى ، وإخباره بالغيب ﷺ، ثم قرائن أحواله عليه الصلاة والسلام قبل البعثة وبعدها ، ودلالتها على النبوة ، الى الحديث عن الدلالة الموضوعية للرسالة المحمدية ، وكونها ليست مما يقدر البشر على مثله ، فلا يمكن إلا أن تكون وحياً منزلاً من عند الله ، ثم تناولت الشبهات التي أثيرت حول نبوته عليه الصلاة والسلام في القديم والحديث ففندتها تفنيداً علمياً موضوعياً يدحضها جميعاً ويبين تهافتها .

وقد كان بدهياً بالنسبة لها أن تركز الحديث على المعجزات ، وعلى المعجزة الكبرى الخالدة . . القرآن الكريم . فقدمت في هذا الجانب دراسة جيدة لجوانب من الإعجاز في كتاب الله ، فتكلمت عنه الاعجاز اللغوي ، والإعجاز التشريعي ، والإخبار بالغيب في القرآن الكريم ، ثم عن الإعجاز العلمي ، في أسلوب واضح مسترسل لا تكلف فيه ولا تعقيد ، يشد انتباه القارىء ، ويزيد القلوب المؤمنة اطمئناناً إلى عقيدتها الحقة ، ويفتح عيون الغافلين والمتغالين على جوانب من الحق الباهر في النبوة والرسالة والكتاب المنزل ، لا يملك أن يتجاهل دلالتها إلا معاند مكابر . .

وكان من الجوانب الطيبة التي وفقت الكاتبة اليها حديثها عن الشريعة

الإسلامية وتفردها بمزايا وخصائص لم تجتمع قط في تشريع بشري، وحديثها عن شمول الرسالة المحمدية لجوانب الحياة كلها في ترابط وتكامل وتوازن لا يتفق للتفكير البشري ، كما كان من طرائف بحثها دراستها لشبهات المستشرقين ، وكشفها لحقيقة ربما تغيب عن كثير من المبهورين بالاستشراق والمتأثرين به ، وهي أن الشبهات التي يثيرها المستشرقون حول نبوة الرسول ﷺ لا طرافة فيها ولا جدة ، إنما هي هي شبهات المشركين العرب في جاهليتهم ، لم يتغير منها الا ادعاء « البحث العلمي » ! و « التناول الموضوعي » !

إن البحث الذي نقدمه في هذه الكلمات جهد صادق قامت به الكاتبة ، نرجو له التوفيق في مجال الدعوة الاسلامية ، ونرجو لنا ولها القبول عند الله ، وأن يوفقنا الى العمل بما يحبه ويرضاه ، هو نعم المولى ونعم الوكيل . .

محمد قطب

مقدمة البحث

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[2] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزاً عَظِيماً ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء ، آية ١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان ٧٠ ـ ٧١ .

وأصلي وأسلم على نبي الهدى والرحمة محمد ﷺ ، الذي بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً وهادياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك .

وبعد :

فقد ختم الله تعالى باب النبوة بنبوة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، فكان آخر رسول في الموكب الكريم الذين اصطفاهم سبحانه وتعالى لهداية البشرية واصلاحها كلما تنكبت الصراط السوي وسارت في طريق الغواية والضلال .

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[1]

ويقول ﷺ : « لا نبي بعدي »[2] ، فلا نبوة بعده ، وكل من يدعي شيئاً من ذلك فهو من الدجالين الكذابين .

ولما كان الأمر كذلك فقد خصه الله تعالى بالدلائل الكثيرة والآيات العظيمة التي تشهد بصدق نبوته في كل زمان ومكان ، وهذا ما لم يحصل لنبي قبله .

ولما كانت هذه الأمة موحدة لله مصدقة برسوله ، كانت أعز أمة على وجه الأرض وأكثرها خيراً وأعزها جانباً ، وأكثرها أمناً ، وأسعدها حياة ، وقد جعلها الله تعالى بالايمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير أمة ، قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[3] . وجعلها الأمة الوسط التي تشهد

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤٠ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه جـ ٤ ص ١٨٧١ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

على الناس بعد أن تحمل الرسالة وتؤدي الأمانة وتقوم بما قام به أنبياء الله من قبل ، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[١] .

وظلت هذه الأمة بخير تتقدم ركب البشرية وتنشر النور وترشد الى الهدى ما دامت مؤمنة بالله ، متمسكة بكتابه ، متأسية برسوله ، ولكن الحال تبدل ، والأمر اختلف ، وتراجعت أمة القيادة وأستاذة العالم الى الوراء ، وتقهقرت في جميع الميادين وسرى الضعف في أوصالها وغلبتها أمم الأرض الأخرى .

ما سبب هذا ؟

اذا عرفنا أن سبب القوة هو ايمانها بالله وتحكيمها لكتابه واتباعها لرسوله ، فان سبب ضعفها هو ضعف الإيمان بالله وبرسوله وهجران كتابه وسنة نبيه ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٢] ، فنحن كما قال عمر رضي الله عنه : قوم أعزنا الله بالاسلام فاذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله .

إن أحوال الأمة الاسلامية تُبكي العين وتُدمي القلب وتقطع النفس ، ضعف وهزيمة ، فرقة واختلاف ، جوع وفقر ومرض ، دماء وأشلاء ، وصدق الرسول الكريم في قوله ﷺ : « تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها ، قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا إنكم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[٣] .

وأجد في نفسي ألماً شديداً ، وجرحاً عميقاً لما آلت اليه الحال ، وأنا على يقين بأن لا صلاح لهذه الأمة إلا بالاسلام ، وأن ما عداه من الشعارات

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٤٣ .
(٢) سورة محمد ، آية ٧ .
(٣) مسند أحمد جـ ٥ ص ٢٧٨ .

المرفوعة والدعوات المطلية لن تزيد الجرح إلا عمقاً ، والحال إلا سوءاً (م) ، وأكبر دليل على هذا ما نشاهده أمام أعيننا من تخلف متزايد وضعف متنام ، وفرقة متعاظمة .

والعالم كله ، وليس المسلمون فقط في شقاء ، بقسميه الغربي الرأسمالي ، والشرقي الشيوعي وليس للسعادة الحقيقية وجود ، لأن البشرية جمعاء ضلت عن شرع الله الحنيف وصراطه المستقيم ، دين الاسلام رسالة النبي الأمي محمد ﷺ .

لقد انتشرت الجريمة بكل أنواعها ، القتل والغصب والسرقة وخطف الأولاد والنساء وادمان الخمر وشرب المخدرات ونتج عن ذلك فقدان الأمن وتفشي الخوف والعقد النفسية والانهيارات العصبية والأمراض العقلية والجنسية .

إن المادة وحدها وعلى رأسها المال والجنس لم تستطع اسعاد الناس باشباع جانب الروح وجانب المادة والموازنة بينهما ، وهو ما يدعو اليه الاسلام ، يقول تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[1] .

وهذا البحث جهد متواضع ، ودعوة صادقة الى العودة الى دين الله والايمان برسالة محمد ﷺ ، موجهة للمسلمين وغير المسلمين .

للمسلمين بما فيه من التذكير لهم بمعجزة القرآن وبالمعجزات الأخرى .

ولأهل الكتاب بما فيه من التذكير لهم بما في التوراة والانجيل من بشارات برسول الله .

وللماديين بما فيه من أدلة علمية تؤكد صدق رسول الله فيما أخبر به .

---

(١) سورة القصص ، آية ٧٧ .

سائلة الله تعالى أن يكون هذا العمل مقبولاً عنده .

وقد جعلت البحث على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة ، على النحو التالي :

المقدمة : وهي بيان سبب اختيار الموضوع وخطته .

الباب الأول : بشارات الكتب السابقة .

ويشتمل على مقدمة وفصلين :

المقدمة : في إخبار القرآن الكريم ببشارات الكتب السابقة برسول الله وشهادة الأحبار والرهبان والملوك بنبوته .

الفصل الأول : في بشارات التوراة .

الفصل الثاني : في بشارات الانجيل .

الباب الثاني : معجزات رسول الله ﷺ :

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول : القرآن معجزة الرسول الكبرى .

الفصل الثاني : المعجزات الحسية .

الفصل الثالث : اخباره بالمغيبات .

الباب الثالث : قرائن أحواله ﷺ الدالة على نبوته .

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : قرائن أحواله قبل البعثة

الفصل الثاني : قرائن أحواله بعد البعثة .

الفصل الثالث : الدلالة الموضوعية للرسالة المحمدية على صدقه .

الباب الرابع : شبهات حول صدق النبوة المحمدية وردها :

ويشتمل على فصلين :

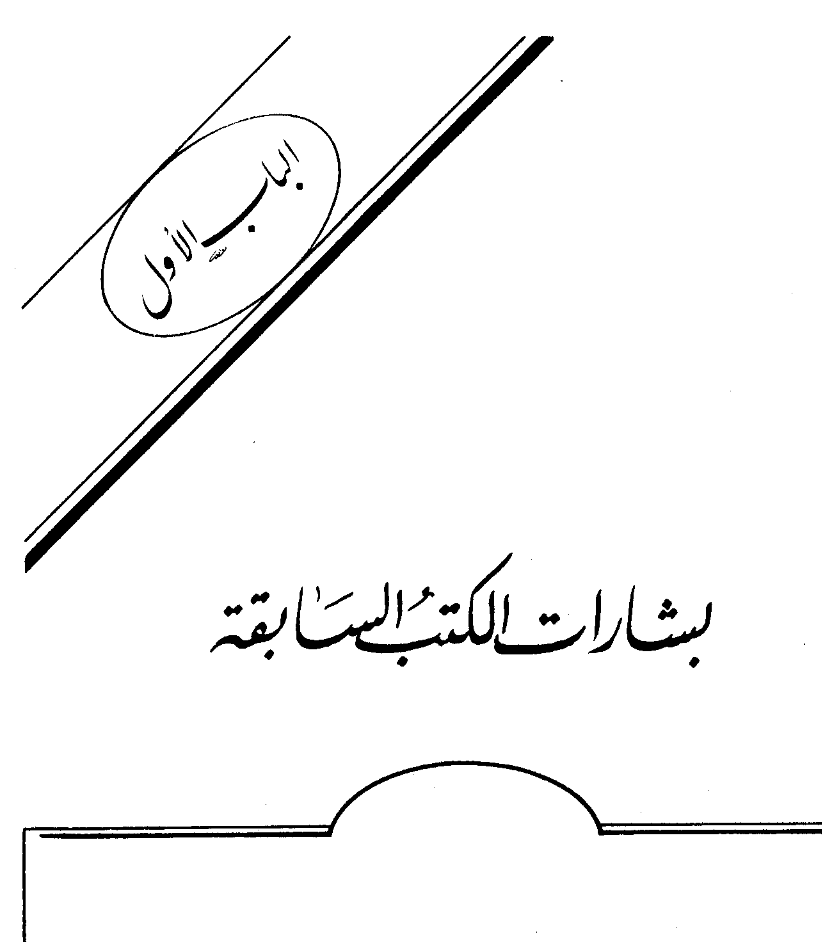
الفصل الأول : شبهات العرب قديماً وردها .

الفصل الثاني : شبهات المستشرقين وردها .

الخاتمة : في أهم نتائج البحث .

وأخيراً : نظمت فهرساً لمراجع البحث وآخر للموضوعات الواردة فيه .

وفي ختام هذه المقدمة أسأل الله التوفيق والسداد فان أصبت فمنه وحده وان أخطأت فمني ومن الشيطان وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وعلى آله وصحبه .



بشارات الكتب السابقة

ويشتمل على مقدمة وفصلين :

المقدمة : في إخبار القرآن الكريم ببشارات الكتب السابقة وشهادة الأحبار والرهبان والملوك بنبوته .

الفصل الأول : بشارات التوراة .

الفصل الثاني : بشارات الانجيل .

إخبار القرآن الكريم ببشارة الكتب السماوية السابقة برسول اللَّه ﷺ

قرر القرآن الكريم في آيات كثيرة أن جميع الأنبياء قد بَشَّروا أممهم ببعثة رسول اللَّه ﷺ ، وأخذوا عليهم العهد بالإيمان به وإتباعه ، كما أكَّد بأنَّ الكتب السابقة قد اشتملت على نصوصٍ تدل دلالة صريحة على اسم رسول اللَّه ﷺ وصفته وزمنه وبلده وَمَهَاجَرِهِ وغير ذلك من أخباره .

وقبل الكلام في هذه البشارات نعرض لعدد من الآيات القرآنية الكريمة التي تدل على اشتمال الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى على أخبار رسول اللَّه ﷺ .

الآيــة الأولــى :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[١] .

تصور هذه الآية الكريمة موقف اليهود من محمد ﷺ قبل أن يُبعَث ، وبعد أن بُعِث ، لقد كانوا ينتظرونه ويستفتحون به على المشركين ويحدثونهم

(١) سورة البقرة ، آية ٨٩ .

من أخبـاره الشيء الكثيـر ، فلمـا بعثـه اللّه ورأوا أنّ النبـوة سُلِبَت منهم إلى غيرهم ، كفروا به حسداً .

يقول ابن كثير رحمه اللّه : « كان اليهـود من قبل مجيء هـذا الرسـول عليـه الصلاة والسـلام بهذا الكتـاب يستنصرون بمجيئـه على المشـركين إذا قـاتلوهم ، يقولـون إنّـه سيبعث نبيّ في آخـر الـزمـان نقتلكم معـه قتـل عـادٍ وَإِرَم »[1] .

وقـال أبـو العـاليـة : « كـانت اليهـود تستنصـر بمحمـد على مشـركي العرب ، يقولون اللّهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نُعَذِبَ المشـركين ونقتُلَهُم ، فلما بعث اللّه محمـداً ورأوا أنّه من غيـرهم كفـروا بـه حسداً للعرب وهم يعلمون أنّه رسول اللّه ﷺ »[2] .

وروى أبو نُعَيْم في الدلائل عن ابن عباس : « أنَّ يهودَ كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول اللّه قبل مبعثه ، فلما بعثه اللّه من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقـال لهم معاذ بن جبـل وَبِشرُ بن البَـراء بن معـرور : يا معشـر اليهود اتقـوا اللّه وأسلمـوا ، وقـد كنتم تستفتحـون علينـا بمحمـد ، وَإِنّا أهـل الشرك تخبـرونا بـأنه مبعـوث وتصفونـه بصفتـه . فقـال سَلاَّمُ بنُ مِشْكَم : ما هو الذي كنّا نذكر لكم ما جاءنا بشيء نعرفه »[3] .

يقول الإمام ابن تيمية : « وهذا من أعظم ما دعـا الأنصار إلى الايمـان به ﷺ لمّا دعاهم إلى الإسلام ، حيث بايعوه من غير رهبة ولا رغبة »[4] .

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه ، قالوا : « ومما دعانا إلى الإسلام مـع رحمة اللّه وهـداه أنّا كنّـا نسمع

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٤ .

(2) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٤ .

(3) دلائل النبوة للأصبهاني . ص ٤٤ .

(4) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٣ ص ٢٨٣ .

من رجالٍ يهود ، كنّا أهلَ شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : « قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن نَتَّبعه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم » . فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث اللّه رسوله أجبنا حين دعانا إلى اللّه وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزلت هذه الآية »[1] .

الآية الثانية .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيْقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُوْنَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُوْن ﴾[2] .

يخبرنا سبحانه وتعالى أن علماء اليهود يعرفون صفة رسول اللّه ﷺ معرفة تامة كما يعرف الواحد منهم ولده الذي لا يشك فيه ، لكنهم يكتمون ذلك بغياً وحسداً .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار : « إنهم يعرفون النبي ﷺ بما في كتبهم من البشارة به ، ومن نعوته وصفاته التي لا تنطبق على غيره وبما ظهر من آياته وآثار هدايته كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شيء »[3] .

ثم إن الذين اطلعوا على التوراة يعترفون بأن صفة رسول اللّه ﷺ ثابتة فيها وأنها تنطبق عليه تماماً ، لذا سارعوا للدخول في الإسلام كأمثال عَبدِ اللّهِ بنِ سَلَّام وزيدِ بنِ سُعْنَةَ وغيرهما كثير .

يُروى أَنَّ عمر رضي اللّه عنه سأل عبد اللّه بن سَلّام عن رسول اللّه

---

(١) الجواب الصحيح جـ٣ ص ٢٨٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية ١٤٦ .
(٣) تفسير المنار جـ٢ ص ٢٠ .

ﷺ ، فقال : « أنا أعلم به مني بابني . قال : وَلِمَ ؟ قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبي ، فأما ولدي فلعل والدته خانت » . فَقَبَّلَ عمر رأسه[1] .

الآيــة الـثـالثــة :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

تؤكد هذه الآية الكريمة بأن صفات النبي محمد ﷺ ثابتة في كتب الأنبياء السابقين الذين بشروا أممهم به ليؤمنوا به ويتبعوه ، ولا تزال هذه الصفات مدونة في كتبهم يعرفها علماؤهم إلاَّ أنهم يتواصون بكتمانها أو يؤولونها تأويلات فاسدة .

لذا كان الرسول ﷺ يدعوهم إلى إتباعه ويقيم عليهم الحجة بما هو مدون في كتبهم من نعته ومبعثه ، لكنهم يعاندون ويكابرون وتأخذهم العزة بالإثم عن اتباعه .

يقول الإمام الرازي في التفسير الكبير : « وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والانجيل لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات ؛ والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله وينفر الناس عن قبول قوله ، فلما قال ذلك دلّ هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل

---

(١) الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٣٢١ .
(٢) سورة الأعراف ، آية ١٥٧ .

على صحة نبوته »[1] .

روى البيهقي عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه : « أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ ، فمرض ، فأتاه رسول اللَّه ﷺ يعوده فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة . فقال له رسول اللّه ﷺ : يا يهودي أنشدك باللَّه الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي ؟ قال : لا . قال الفتى : بلى واللَّه يا رسول اللَّه إنا نجد في التوراة نعتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إلّه إلَّا اللَّه وأنك رسول اللَّه . فقال النبي ﷺ : أقيموا هذا من عند رأسه وَلُوْا أخاكم »[2] .

ثم إن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أخبر بصفات رسول اللَّه ﷺ الموجودة في التوراة حيث كان يقرأها ويحفظها .

روى البخاري عن عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ قال : « لَقِيتُ عَبدَ اللَّهِ بنَ عَمْرِو بنِ العَاص قُلْتُ : أَخبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَوْرَاةِ . قَالَ : أَجَلْ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرآنِ : يَاْ أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَحِرْزاً لِلأُمّيّينَ أنتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيتُكَ المُتَوكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخّابٍ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنَاً عُمْيَاً وَآذَاناً صُمّاً وَقُلُوبَاً غُلْفَاً »[3] .

---

(١) التفسير الكبير ، جـ ١٥ ص ٢٣ .

(٢) الجواب الصحيح جـ٣ ص ٢٨٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب كراهية السخب في الأسواق ، جـ ٣ ص ٢١

الآيـة الـرابعـة :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[1] .

يبين اللّه سبحانه وتعالى في هذه الآية حقيقة دعوة عيسى عليه السلام وهي أنه جاء مصدقاً لما في التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، فهذه بشارة صريحة من نبي اللّه عيسى للرسول عليهما السلام سواء وجدت هذه البشارة في الأناجيل أم طمست من قِبَلِ الحاقدين الحاسدين .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه اللّه في تفسير هذه الآية :

« هذه الآية تصور حلقات الرسالة المترابطة يسلم بعضها إلى بعض وهي متماسكة في حقيقتها واحدة في اتجاهها ممتدة من السماء إلى الأرض حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة »[2] .

ويقول الزمخشري في معنى هذه الآية : « أي أُرسلتُ إليكم حال تصديقي ما تقدمني من التوراة وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي ، يعني أن تصديقي بكتب اللّه وأنبيائه ممن تقدم وتأخر ، ثم أورد رواية عن كعب الأحبار : أن الحواريين قالوا لعيسى : يا روح اللّه ، هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من اللّه باليسير من الرزق ويرضى اللّه منهم باليسير من العمل »[3] .

وقد جاء في الحديث الصحيح أن من أسماء الرسول ﷺ « أحمد » كما ورد في هذه البشارة .

---

(١) سورة الصف ، آية ٦ .

(٢) في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٥٥٦ .

(٣) الكشاف جـ ٤ ص ٩٨ ـ ٩٩ ، وانظر تفسير ابي السعود جـ ٨ ص ٢٤٤ .

روى البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الكُفْرَ وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمَي وَأَنَا العَاقِبُ »[1] .

ثم إن رسول اللّه ﷺ كان يخبر أصحابه أنه دعوة أبيه إبراهيم وبشارة أخيه عيسى عليهم الصلاة والسلام .

روى الإمام أحمد عن لقمان بن عامر قال : « سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَة قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بدءُ أَمْرِكَ ؟ قَالَ : دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيْمَ وَبُشْرَىٰ عِيْسَىٰ ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُوْرُ الشَّامِ »[2] .

ثم أن الأخبار قد تواترت عن الرهبان والملوك عند النصارى بأن النبي عيسى عليه السلام بشّر بالرسول ﷺ ، باسمه وصفته ومبعثه وأن كل ذلك ثابت في الأناجيل ، إلاَّ أنهم فعلوا كما فعل اليهود من قبلهم ، فعمدوا إلى إخفائها أو تأويلها تأويلات تبعد بها عن الحقيقة. لكن هناك الكثير منهم أراد اللّه له الهداية ، فصدّق بنبوة محمد ﷺ معلناً أنه مُبَشَّرٌ به عليه الصلاة والسلام من قِبَلِ عيسى عليه السلام ، أمثال النجاشي والجارود وغيرهما كثير .

جاء في كتاب دلائل النبوة للبيهقي : « أن جماعة من العرب التقوا براهب من الرهبان في الشام فأخبرهم بأنه سوف يبعث نبي من العرب

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ جـ ٤ ص ١٦٢ وقوله : « وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي » . قال ابن حجر : « أي على أثري ، أي أنه يحشر قبل الناس » وهو موافق لقوله في الرواية الأخرى « يحشر الناس على عقبي » وقوله : « وأنا العاقب » أي الذي ليس بعده نبي . انظر فتح الباري جـ ٦ ص ٥٥٧ .

(٢) مسند أحمد ٥/٢٦٢ .

وأمرهم باتباعه وأخبرهم أن اسمه محمد ، فلما رجعوا إلى أهلهم ولد لكل واحد منهم غلام فسماه محمداً[1] .

وهذا يدل على أن أهل الكتاب كانوا يعرفون اسم رسول اللَّه ﷺ ، وأن ذلك مدوّن في كتبهم .

الآيـة الخامسـة :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[2] .

توضح الآية الكريمة طبيعة العلاقة بين الأنبياء بعضهم مع بعض ، حيث يصدق بعضهم بعضاً لأن الدين مصدره واحد وحقيقته واحدة ، وهم السفراء الكرام ، بين اللَّه وبين الخلق ، فلا خلاف ولا تعارض بينهم بل الانسجام والترابط .

وتفيد هذه الآية أيضاً أن اللَّه سبحانه وتعالى أخذ العهد على أنبيائه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام أنه مهما آتى اللَّه أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من الإيمان بمن بعث بعده ونصرته .

عن علي وابن عباس رضي اللَّه عنهم قالا : « لم يبعث اللَّه نبياً ، آدم فمن بعده إلَّا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه »[3] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، جـ ١ ص ٣٧٨ ، فتح الباري ٦/٥٥٦ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٨١ .
(٣) فتح القدير جـ ١ ص ٣٥٧ .

ويقول الإمام الرازي : « اعلم أن المقصود من هذه الآيات تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ قطعاً لعذرهم وإظهاراً لِعِنادهم ، ومن جملتها ما ذكره اللَّه في هذه الآية وهو أن اللَّه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه وأخبر أنهم قبلوا ذلك » .

ويقول أيضاً : « اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على وجهين :

الأول : انه تعالى أخذ الميثاق منهم في أن يصدق بعضهم بعضاً .

والثاني : أن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنهم إذا بعث محمد عليه الصلاة والسلام فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه ، وهذا قول أكثر العلماء »[١] .

ويرى ابن كثير أن هذه الآية تتضمن كلا الوجهين واللّه أعلم .

والرسول عليه الصلاة والسلام صرح لأصحابه مرات عدة أنه لو كان عيسى وموسى أحياء لكانوا من أتباعه امتثالاً لعهد اللَّه الذي أخذه عليهم وقبلوه .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضي اللَّه عنه قال : « قال رسول اللَّه ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق وإنه واللّه لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلَّا أن يتبعني » وفي رواية أخرى « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلَّا اتباعي »[٢] .

الآيــة الســادســة :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ

---

(١) التفسير الكبير جـ ٨ ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٨ .

عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيل »[١] .

تقرر الآية الكريمة أن نبوة محمد ﷺ ونعته وما جاء به ثابت في الكتب السابقة وأن علماء بني إسرائيل يحيطون بذلك علماً .

واللّه سبحانه وتعالى يخاطب في هذه الآية المشركين ويقيم عليهم الحجة بقوله : ﴿أولم يكن لهم آية . . . ﴾ أي أولم يكن علم علماء بني اسرائيل بنعت رسول اللّه ﷺ وما جاء به وهو القران دليلاً على صحة القرآن ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام فيقلعوا عن تكذيبه ويبادروا إلى اتباعه علماً بأن الكثير من علماء بني إسرائيل صرحوا بهذا الأمر وسمع المشركون منهم مرات كثيرة قبل أن يبعث وبعد أن بعث لأنهم كانوا يخالطونهم ويأنسون إليهم ، والروايات التاريخية خير شاهد على ذلك .

يقول الإمام الرازي : « المراد منه ذكر الحجة الثابتة على نبوته عليه السلام وصدقه ، وتقريره أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا نصوا على مواضع في التوراة والانجيل ذكر فيها الرسول ﷺ بصفته ونعته وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لأن تطابق الكتب الإلّهية على نعته وصفته يدل قطعاً على نبوته »[٢] .

وهكذا فالآية فيها شهادة من اللّه على بني إسرائيل ، إذ بينت أن علماءهم يعرفون تماماً بأن محمداً ﷺ نبي وأن ما جاء به هو الحق ، صرح بذلك من آمن منهم ، وأسرَّ به من لم يؤمن لمن يأنس إليه .

روى أبو نعيم الأصبهاني في الدلائل عن صفية بنت حيي أنها قالت : « كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلاَّ أخذاني دونه ، قالت : فلما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة ونزل فناء بني

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٢) التفسير الكبير جـ ٢٤ ص ١٦٩ .

عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين ، قالت : فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس . قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الهم . قالت : فسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً »[1] .

وهكذا أضمر اليهود العداوة للنبي ﷺ منذ اللحظة الأولى ، مع علمهم الجازم بأنه النبي الحق الذي تنطبق عليه الصفات التي تحدثت عنها الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى .

الآية السابعة :

قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ واستَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[2] .

تتضمن هذه الآية الكريمة شهادة حبر من أعظم أحبار اليهود ومن أوسعهم علماً ، شهد له بهذا قومه أمام المصطفى ﷺ ، إنّه عبد الله بن سَلّام الذي مَنَّ اللّٰه عليه بمعرفة الحق واتباعه بما آتاه اللّٰه من العلم ، فلما سمع القرآن علم أنه الوحي الناطق بالحق ، وأنه من جنس ما نزل على الأنبياء قبل رسول اللّٰه ﷺ .

جاء في فتح القدير : « وشهد شاهد من بني إسرائيل العالِمين بما أنزل اللّٰه في التوراة على مثله (أي القرآن) من المعاني الموجودة في التوراة

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٩ .

(٢) سورة الأحقاف ، آية ١٠ .

المطابقة له من حيث اثبات التوحيد والبعث والنشور وغير ذلك ، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني وان اختلفت الألفاظ ، فآمن الشاهد وهو عبد اللّٰه بن سلام بالقرآن لما تبين له أنه من كلام اللّٰه ومن جنس ما ينزله اللّٰه على رسله »[1] .

وقصة اسلام هذا الحبر مشهورة ، فعندما قدم الرسول ﷺ المدينة نظر ابن سَلاّم إلى وجه الرسول عليه الصلاة والسلام نظرة فاحصة متأملة ، فأضاء اللّٰه بصيرته فتحقق أنه النبي المنتظر وأن وجهه ليس بوجه كذاب .

جاء في رواية البخاري عن أنس رضي اللّٰه عنه قال : « بلغ عبد اللّٰه بن سلام مقدم رسول اللّٰه ﷺ المدينة فأتاه فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلاّ نبي ، ما أول أشراط الساعة ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول اللّٰه ﷺ : « خبرني بهن آنفاً جبريل ، قال : فقال عبد اللّٰه : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقال رسول اللّٰه ﷺ . أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها . قال : أشهد أنك رسول اللّٰه . ثم قال : يا رسول اللّٰه إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبد اللّٰه البيت فقال رسول اللّٰه ﷺ : أي رجل فيكم عبد اللّٰه بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخبرنا وابن أخبرنا ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : أعاذه اللّٰه من ذلك . فخرج عبد اللّٰه إليهم ، فقال : أشهد أن لا إلٰه إلاّ اللّٰه وأشهد أن محمداً رسول اللّٰه ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه »[2] .

---

(١) فتح القدير جـ ٥ ص ١٦ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته جـ ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

وروى سعد بن أبي وقاص قال : « ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلّا لعبد اللّه بن سلام »[1] .

وأخرج الترمذي عن عبد اللّه بن سلام قال : « نزلت فِيَّ آيات من كتاب اللّه ، نزلت فِيَّ : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[2] ، ونزلت فيّ : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾[3] »[4] .

الآيـة الثـامنـة :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾[5] .

تصف الآية الكريمة حال طائفة من أهل الكتاب (النصارى) استجابت للدعوة الجديدة ، فآمنت بالنبي الأميّ إيماناً عميقاً جعل الدموع تجري من العيون من شدة تأثرهم بالحق الذي سمعوه من فم رسول اللّه ﷺ ، وتبين الآية الكريمة أن سر إيمانهم برسول اللّه ﷺ وما جاء به هو معرفتهم السابقة من خلال الكتب المقدسة عندهم بأن نبياً من العرب سيخرج آخر الزمان « انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » . وهكذا كانت المعرفة السابقة سبباً في الإيمان بهذا الدين الجديد .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب من أثنى على أخيه بما يعلم جـ ٧ ص ٨٧ . وصحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن سلام جـ ٤ ص ١٩٣٠ .

(٢) سورة الأحقاف ، آية ١٠ .

(٣) سورة الرعد ، آية ٤٣ .

(٤) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب عبد الله بن سلام جـ ٥ ص ٦٧٠ .

(٥) سورة القصص ، الآيتان (٥٢ ـ ٥٣) .

يقول الإمام البيضاوي في تفسيره : « نـزلت هذه الآيـة في مؤمني أهل الكتاب ، وأن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نـزوله أو تـلاوته باعتقادهم صحته في الجملة »(١) .

وقد روي في سبب نزول هذه الآية عدة روايات :

الأولى : قـال سعيد بن جبيـر ، نـزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي قـرأ عليهم ﴿ يس وَالقُرآنِ الحَكِيم ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا » .

الثانية : روى ابن إسحاق في السيرة قال : « قدم على رسـول اللَّه ﷺ عشرون رجلاً من النصارى وهو بمكة حين ظهر خبره بالحبشة ، فوجـدوه في المسجـد فكلموه وسـألوه ورجـال من قريش في أنـديتهم ، فلمـا فـرغـوا من مسـألتهم رسـول اللَّه ﷺ مما أرادوا دعـاهم إلى اللَّه عـزّ وجـلّ وتـلا عليهم القـرآن ، فلما سمعـوا فاضت أعينهم من الـدمع ثم استجـابوا لـه وآمنـوا بـه وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلمـا قامـوا من عنـده اعترضهم أبـو جهـل في نفـر من قـريش فقـال : خيبكم اللَّه من ركب بعثكم من وراءكم من أهـل دينكم لترتـادوا لهم فتـأتـوهم بخبـر الـرجـل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، مـا نعلم ركباً أحمق منكم . فقالـوا : سلام عليكم لا نجـاهلكم ، لنا أعمـالنـا ولكم أعمالكم ، لم نأل أنفسنا خيراً »(٢) .

وبمثل هذه الآية التي أتحدث عنها جاء في سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَىٰ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٣) .

---

(١) تفسير البيضاوي جـ ٤ ص ١٣٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .
(٣) سورة المائدة ، آية ٨٣ .

وهاتان الآيتان نزلتا في النجاشي وأصحابه ، قال بهذا الزهري والنسائي والطبراني وغيرهم . يقول ابن عطاء : « ما ذكر اللَّه به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشي وأصحابه »[1] .

شهادة بعض الأحبار والرهبان والملوك بنبوته ﷺ

ذكرت فيما مضى أن اللَّه سبحانه وتعالى أخبر في كتابه العزيز ببشارة الكتب السماوية السابقة بنبوة المصطفى ﷺ . وسأذكر في هذا المبحث شهادة الملوك والأحبار والرهبان بذلك قبل البعثة وبعدها مما دفع كثيراً منهم وممن سمع شهاداتهم إلى الدخول في الإسلام .

ومن المؤكد أن ذلك لا يصدر إلَّا عن علم حيث أنهم كانوا يقرأون في كتبهم بشارة الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام ومبعثه وصفاته مما جعلهم يحسون بقرب ظهوره ويخبرون كل من سأل أنه أظل زمان نبي وينعتونه بما عندهم .

شهادة الملوك بنبوته ﷺ

شهادة سيف بن ذي يزن بنبوته عليه الصلاة والسلام :

ذهب عبد المطلب في وفد قريش لتهنئة سيف بن ذي يزن بملكه ، فتكلم بين يدي الملك بكلام سر به الملك ، فأنزلهم دار الضيافة ، ثم أرسل الملك إلى عبد المطلب وأسرّ إليه بحديث وأمره بكتمانه ، قال له : إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي أدخرناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا أنه إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة ، هذا حينه الذي يولد فيه ، أو قد ولد اسمه

---

(١) فتح القدير جـ ٢ ص ٦٩ . .

محمد ، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه ، واللّه باعثه جهاراً وجاعل له منا أنصاراً ، يعبد الرحمن ويدجر الشيطان ويخمد النيران ويكسر الأوثان ويأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله ، ثم قال : والبيت ذي الحجب والعلامات على النقب انك تجده يا عبد المطلب غير ذي كذب . ثم قال : إني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يشرب استحكام أمره وأهل نصره وموضع قبره . وأمره أن يحتفظ به ويحذر اليهود لأنهم له أعداء[1] .

هذه شهادة ملك اليمن لرسول اللّه ﷺ قبل ولادته ، وهي صريحة واضحة لا غموض فيها ، منبثقة من علمه كما ذكر .

شهادة النجاشي بنبوته عليه الصلاة والسلام :

نقل ابن القيم رواية للواقدي ذكر فيها أن رسول اللّه ﷺ بعث إلى النجاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، فكتب إليه قائلاً : « بسم اللّه الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول اللّه من النجاشي أصحمة ، سلام عليك يا نبي اللّه من اللّه وبركات اللّه الذي لا إلّه إلّا هو ، أما بعد ، بلغني كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً[2] ، إنه كما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول اللّه صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه للّه رب العالمين »[3] .

وهكذا نفعه اللّه بعلمه فقاده إلى الإيمان واتباع النبي ﷺ لأنه منذ أن سمع القرآن أيقن أنه والانجيل والتوراة تصدر من مكان واحد ، فلذا أطلقها صريحة مدوية : « إن هذا القرآن والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة »[4]

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٥٦ ـ ٦٠ ، دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩ ، وقد ذكرت الخبر مختصراً .

(٢) التفروق : علامة تكون بين النواة والتمرة . هداية الحيارى ص ٣٥ .

(٣) هداية الحيارى ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٤) هداية الحيارى ص ٢٥ .

شهادة هرقل والمقوقس بنبوته ﷺ :

عرف المقوقس ملك مصر أن رسول اللّه نبي صادق ، ولكن عزّ عليه مفارقة ملكه واتباع رسول اللّه ﷺ .

روى الواقدي : « أن رسول اللّه ﷺ بعث كتاباً للمقوقس مع حاطب بن أبي بلتعة يدعوه فيه إلى الإسلام ، فقال المقوقس : « اني قد نظرت في أمر هذا النبي فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة من إخراج الخبء والاخبار بالنجوى ، ووصف لحاطب أشياء من صفة النبي ﷺ ، وقال : إِن القبط لا يطاوعونني في اتباعه وأنا أضنّ بملكي أن أفارقه »[1] .

وأيضاً هرقل الملك العالِم عرف أنه رسول اللّه ﷺ حقاً ، وَهَمَّ بمتابعته لولا أن رأى نفور فومه عندما دعاهم إلى ذلك ، فخافهم على نفسه وَضَنَّ بِملكه مع علمه أن هذا النبي سيملك ما تحت قدميه كما أخبر أبا سفيان بذلك عندما استدعاه ليسأله عن أخبار النبي ﷺ .

روى البخاري عن ابن عباس رضي اللّه عنه أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول اللّه ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بأيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : قلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل هذا عن هذا الزجل فإن كذبني فكذبوه . قال : فواللّه لولا الحياء من ان يأثروا عَلَيَّ كذباً لكذبت عنه ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟، قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من

---

(١) هداية الحيارى ص ٣٥

ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها . قال : ولم تمكنّي كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا اللّه وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا . قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّه . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أن ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألت أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان القول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعا بكتاب رسول اللّه ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرىٰ ، فدفعه إلى هرقل فقرأه . . . .

وكان هرقل حَزَّاءً[1] ينظر في النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إِني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن إِلَّا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول اللّٰه ﷺ ، فلما استخبره هرقل ، قال : اذهبوا فانظروا أيختتن هو أم لا فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون . فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص ، فلم يَرِمْ[2] حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي .

فَأَذِنَ هرقل لعظماء الروم في دَسْكَرَةٍ[3] له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي . فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الايمان قال : ردوهم علي وقال اني قلت مقالتي آنفاً اختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل[4] .

وفي رواية أبي نعيم في الدلائل عن محمد بن إسحاق أن هرقل قال لدحية حين قدم عليه بكتاب رسول اللّٰه ﷺ : ويحك واللّٰه إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل وأنه للذي كنا ننتظر نجده في كتبنا ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لأتبعته فاذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له أمره فهو

---

(١) حزاء : بالمهملة وتشديد الزاي أي كاهن ، يقال حزا التخفيف يحزو حزواً أي تكهن . فتح الباري جـ ١ ص ٤١ .

(٢) لم يرم : أي لم يبرح من مكانه فتح الباري جـ ١ ص ٤٣ .

(٣) الدسكرة : القصر الذي حوله بيوت . فتح الباري جـ ١ ص ٤٣ .

(٤) صحيح البخاري جـ ١ ص ٥ ـ ٧ .

والله في الروم أعظم مني وأجوز عندهم قولاً حتى أنظر ماذا يقول . فقال ضغاطر : صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتبنا باسمه ، قال : ثم دخل فألقى ثياباً سوداً ولبس ثياباً بيضاً ثم أخذ عصاه فخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال : يا معشر الروم أنه قد جاءنا كتاب أحمد يدعونا فيه إلى الله وإني أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن أحمد عبده ورسوله . قال : فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه»[1] .

شهادة بعض الأحبار بنبوته ﷺ قبل البعثة وبعدها وأثرها فيمن سمعها :

روى أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة عن حسان بن ثابت قال : والله إني لغلام يفعه ابن سبع سنين أو ثمان سنين أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهودياً يقول على أطم يثرب يصرخ : « يا معسر اليهود » فلما اجتمعوا عليه قالوا : ما لك ؟ ويلك ! قال . طلع نجم أحمد الذي يبعث الليلة »[2] .

وروى البيهقي أيضاً في كتابه دلائل النبوة عن ابن إسحاق عن سلمة بن سلامة بن وقش قال : « كان بين أبياتنا يهودي فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل ذات غداة فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثاً كائن بعد موت وذلك قبل مبعث رسول الله ﷺ ، فقالوا : ويحك يا فلان وهذا كائن ، إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون من أعمالهم . قال : نعم والذي يحلف به لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه ثم تقذفوني فيه ثم تطينون علي وإني أنجو من تلك النار غداً . فقيل : يا فلان ما علامة ذلك ؟ قال : نبي يبعث من ناحية هذه البلاد وأشار إلى مكة واليمن بيده . قالوا : فمتى نراه ؟ فرمى بطرفه فرآني وأنا

---

(١) دلائل النبوة للاصبهاني ص ٦٣ .

(٢) دلائل النبوة للاصبهاني ص ٦٣ .

مضطجع بفنايات أهلي وأنا أحدث القوم فقال : ان يستنفد هذا الغلام عمره يدركه ، فما ذهب الليل والنهار حتى بعث اللّٰه رسوله وانه لحي بين أظهرهم فآمنا به وصدقناه وكفر به بغياً وحسداً . فقلنا له : يا فلان ألست الذي قلت ما قلت وأخبرتنا ؟ قال : ليس به »[1] .

وهكذا أخبر اليهود جهاراً نهاراً عن قرب مبعث النبي وانتظروه وذكروا اسمه صراحة وحددوا الجهة التي سيبعث منها مما دفع من سمع ذلك منهم إلى الإيمان برسول اللّٰه واتّباعه .

وهذا ابن الهيبان حبر عظيم من أحبار اليهود آتاه اللّٰه علم الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام حيث قرأ البشارة ببعثة المصطفى عليه السلام في التوراة ، وأحس باقتراب الأمر ، فترك البلد الذي فيه ومشى يبحث عن النبي المبشر به ، فلما حانت ساعة الموت وأيقن أنه لم يُقدّر له أن يراه أخبر بذلك من حوله من اليهود لعلهم ينتفعون بذلك ، وبالفعل فقد كان لخبره أكبر الأثر في دخول نفر من شبابهم في الإسلام .

روى البيهقي في الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال : « هل تدري عما كان إسلام أسيد وثعلبة ابني سعية وأسد بن عبيد نفر من بني ذهل . لم يكونوا من بني قريظة وبني النضير كانوا فوق ذلك . فقلت : لا ، قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود يقال له ابن الهيبان فأقام عندنا ، واللّٰه ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس خيراً منه ، فقدم علينا قبل مبعث النبي ﷺ بسنين ، وكنا إذا أقحطنا وقل علينا المطر نقول : يا ابن الهيبان اخرج فاستسق لنا فيقول لا واللّٰه حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة . فنقول : كم ؟ فيقول صاعاً من تمر أو مُدَّيْنِ من شعير فنخرجه ، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه فنستسقي فواللّٰه ما يقوم من مجلسه حتى تمر الشعاب قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة فحضرته

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٣٤٦ ، دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٥ ـ ٣٦ .

الوفاة واجتمعوا إليه فقال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قالوا : أنت أعلم . قال : فإنه إنما أخرجني توقع خروج نبي قد أظل زمانه وهذه البلاد مهاجره فاتبعوه ولا تُسبقن إليه إذا خرج يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه ولا يمنعنكم ذلك منه ثم مات . فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة قال أولئك الثلاثة الفتية وكانوا شباباً أحداثاً : يا معشر يهود والله إنه لصفته ثم نزلوا فأسلموا وخلوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم »[١] .

وهذا مخيريق الحبر العالِم يرى أن من الواجب عليه أن ينصر النبي يوم أحد في قتاله مع المشركين .

روى أبو نعيم في الدلائل عن ابن إسحاق قال : « وكان في حديث مخيريق ، وكان حبراً وكان غنياً كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول اللّه ﷺ بصفته بما يجد في علمه وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد وكان يوم السبت ، قال : يا معشر اليهود واللّه إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت اليوم ، ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول اللّه ﷺ وأصحابه بأُحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه أن قتلت هذا اليوم فما لي لمحمد يصنع فيه ما أراه اللّه ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل فكان رسول اللّه ﷺ فيما بلغني يقول : مخيريق خير يهود ، وقبض الرسول عليه الصلاة والسلام أمواله ، فعامة صدقات رسول اللّه عليه السلام بالمدينة منها »[٢] .

وكذلك زيد بن سعنة يشهد للنبي ﷺ بأنه رسول اللّه ، وهو الموصوف في كتبهم ، لذا أعلن إسلامه .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٣٤٨ ، وانظر دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤٣ ـ ٤٤ .
(٢) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٩ ـ ٤٠ .

روى أبو نعيم في الدلائل عن عبد اللَّه بن سلام أن اللَّه عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعنة قال زيد : إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلَّا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلَّا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلَّا حلماً ، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله . . . . فقلت له : يا محمد هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا فقال : لا يا يهودي ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجل كذا وكذا ولا أسمي حائط بني فلان . قال : فقلت نعم . . .

قال زيد : «فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة فخرج رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من الصحابة فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار ليجلس إليه أتيته بجوامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ وقلت : ألا تقضيني يا محمد حقي فواللَّه ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلَّا لمطل ولقد كان لي بمخالطتكم علم . قال : فنظر إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في رأسه كالفلك المستدير ثم رماني بطرفه وقال : يا عدو اللَّه أتقول لرسول اللَّه ما أسمع وتفعل به ما أرى فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك ورسول اللَّه ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال : أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الاتباع ، اذهب يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته . قال زيد : فذهب بي عمر فقضاني وزادني عشرين صاعاً من تمر ، فقلت : ما هذه الزيادة ؟ فقال : أمرني رسول اللَّه أن أزيدك مكان ما رعتك . فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا ، فمن أنت ؟ فقلت : أنا زيد بن سعنة . قال : الحبر ؟ قلت : الحبر . قال : فما دعاك أن تقول لرسول اللَّه ﷺ ما قلت وتفعل به ما فعلت ؟ قلت : يا عمر كل علامات النبوة قد عرفت في وجه رسول اللَّه ﷺ حين نظرت إليه إلَّا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلَّا حلماً ، فقد خبرتهما ، فاشهدك يا عمر أني

قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وأشهدك أن شطر مالي - فإني أكثرها مالاً - صدقة على أمة محمد ﷺ . فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم . قلت : أو على بعضهم . فقال : فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمن به وصدقه وتابعه ، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة ثم قتل في غزاة تبوك شهيداً مقبلاً غير مدبر رحمه الله »[1] .

شهادة بعض الرهبان ومن سمع منهم بنبوة محمد ﷺ :

تواترت الأخبار بأن كثيراً من الرهبان شهدوا للرسول عليه الصلاة والسلام أنه النبي المنتظر المنعوت في كتبهم قبل أن يبعث .

من أمثال ذلك ، بحيرا الراهب الذي رآه وهو صغير مع عمه أبي طالب ، إذ كانوا متجهين في تجارة لهم إلى الشام ، فأخبر بحيرا أبا طالب بما رأى من علامات النبوة البادية عليه ، وأمره برعايته والحفاظ عليه ، وحذره من اليهود لأنهم أعداء له[2] .

ومن ذلك أيضاً نسطورا الراهب الذي أخبر ميسرة الغلام المرافق للرسول ﷺ في تجارة السيدة خديجة رضي الله عنها أنه نبي بما عرف من صفاته[3] .

ومنذ بزوغ فجر الدعوة وإشراقة شمسها شهد له عليه الصلاة والسلام عالِم من علماء النصرانية أنه النبي الموصوف في الإنجيل ، ذلك العالِم هو ورقة بن نوفل ، حينما ذهبت السيدة خديجة برسول الله ﷺ إليه بعد نزول الوحي عليه .

جاء في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٥٢ - ٥٥ .
(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٣٠٨ - ٣١٢ ، دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٢٥ - ١٢٧ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٣٣٧ ، دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٣٣ .

قالت : « أول ما بدئ به رسول اللّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم . . . . إلى أن قالت : فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء اللّه أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا أخي ماذا ترى ، فأخبره رسول اللّه ﷺ خبر ما رآه . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل اللّه على موسى يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول اللّه ﷺ : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت إلّا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[1] .

وهذا زيد بن عمرو بن نفيل قد استقامت فطرته واستعلت على الجاهلية طَوَّفَ الأرض بحثاً عن الدين الحق فالتقى بعدد من الأحبار والرهبان فأخبروه أن وراءك نبياً يبعث في أرض الحرم ، ووصفوه له بما ثبت لديهم من أوصاف ، فعاد من حيث أتى ينتظر هذا النبي ، فلم يشأ اللّه له أن يدركه فيموت على الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام .

روى البيهقي في الدلائل : « أن زيداً بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ، فقال لزيد : من أين أقبلت يا صاحب البعير ؟ قال : من بيت إبراهيم عليه السلام . قال : وما تلتمس ؟ قال : ألتمس الدين . قال : ارجع ، فإنه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك ، فأما ورقة فتنصر ، وأما زيد فعرض على النصرانية فلم توافقه ورجع وهو يقول لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً . . . . ثم يخرّ يسجد .

قال : وجاء ابنه الى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول اللّه إن أبي كاد

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ، جـ ١ ص ٣ ـ ٤ .

كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له ، قال : « نعم يبعث يوم القيامة أمة وحده »[1]

وفي رواية أخرى عند أبي نعيم عن عبد اللّه بن عامر عن أبيه قال : لقيت زيد بن عمرو وهو خارج من مكة يريد حراء يصلي فيه ، وإذا هو قد كان بينه وبين قومه سوء في صدر النهار فيما أظهر من خلافهم واعتزال آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم ، فقال زيد : يا عامر إني خالفت قومي واتبعت ملة إبراهيم خليل اللّه وما كان يعبد ابنه اسماعيل عليهما السلام من بعده وما كان يصلون إلى هذه القبلة ، فأنا انتظر نبياً من ولد اسماعيل من بني عبد المطلب اسمه أحمد ولا أراني أدركه ، فأنا يا عامر أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك المدة فرأيته فأقرئه مني السلام وسأخبرك يا عامر ما نعته حتى لا يخفى عليك . قلت : هلم . قال : هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليس تفارق عينيه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه حتى يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره فإياك أن تنخدع عنه فإني بلغت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم عليه السلام وكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقول هذا الدين وراءك وينعتونه مثلما نعته لك ويقولون لم يبق نبي غيره . قال عامر : فوقع في نفسي الإسلام . وكنت أخبرت رسول اللّه ﷺ بما أخبر به زيد بن عمرو فترحم عليه وقال : « لقد رأيته في الجنة يسحب ذيلاً أو ذيولاً »[2]

والمغيرة بن شعبة يفر من دعوة الحق ويأبى اللّه عليه إلَّا أن يشرح صدره للإيمان بما سمع من ملوك النصارى ورهبانهم وشهادتهم له أنه نبي صادق بشرت به كتبهم .

ذكر الأصبهاني في دلائل النبوة أن المغيرة خرج وبني مالك إلى مصر

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٣٨٤ .

(٢) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٦٢ .

ودخلوا على المقوقس فسألهم عن النبي ﷺ ، وما جاء به وموقف قومه منه وهم يجيبونه على ذلك فقال المقوقس : هو نبي مرسل إلى الناس كافة ولو أصاب القبط والروم تبعوه وقد أمرهم بذلك عيسى ابن مريم وهذا الذي تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور ويوشك قومه يدافعونه بالرماح .

قال المغيرة : فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاماً ذللنا لمحمد ﷺ وخضعنا وقلنا ملوك العجم يصدقونه ويخافونه في بعد أرحامهم منه ونحن أقرباؤه وجيرانه لم ندخل معه قد جاءنا داعياً إلى منازلنا ، ثم قال : فأقمت بالاسكندرية لا أدع كنيسة إلاَّ دخلتها وسألت أساقفها عما يجدون من صفة محمد ﷺ وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة - أبي غني أو أبي غثيم - كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم ، لم أر أحداً قط يصلي الصلوات الخمس أشد اجتهاداً منه ، فقلت : أخبرني هل بقي من الأنبياء ؟ قال : نعم وهو آخر الأنبياء ليس بينه وبين عيسى أحد وهو نبي قد أمرنا عيسى باتباعه ، وهو النبي الأميّ العربي اسمه أحمد ليس بالطويل ولا بالقصير في عينيه حمرة ليس بالأبيض ولا بالآدم ، يعفي شعره ، ويلبس ما غلظ من الثياب ، ويجتزئ بما لقي من الطعام ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالي من لاقى ، يباشر القتال بنفسه ، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم ، هم له أشد حباً من أولادهم وآبائهم ، يخرج من أرض القرظ[1] ومن حرم يأتي إلى حرم ، يهاجر إلى أرض سباخ ونخيل يدين بدين إبراهيم عليه السلام . . .

قال المغيرة: «فرجعت إلى النبي ﷺ فأسلمت وأخبرته بما قال الملك وقالت الأساقفة ، فأعجب ذلك رسول اللّه ﷺ وأحب أن يسمعه أصحابه فكنت أحدثهم ذلك في اليومين والثلاثة »[2] .

---

(١) القرظ : نوع نبات . انظر القاموس المحيط جـ ٢ ص ٤١٢ .

(٢) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤٧ ـ ٥٠ . وقد ذكرته مختصراً .

وهذا طلحة بن عبد الله يسارع إلى اتباع رسول الله ﷺ عندما أخبره راهب ببصرى أن محمداً رسول الله ، وأوصاه باتباعه .

روى البيهقي عن إبراهيم بن محمد بن طلحة قال : قال طلحة بن عبد الله : « حضرت سوق بصرى فإذا راهب بصومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهل الحرم ؟ قال طلحة : قلت : نعم . فقال هل ظهر أحمد بعد ؟ قال : قلت : ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذي يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه ، قال طلحة : « فوقع في قلبي ما قال ، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة ، فقلت : هل كان من حدث ؟ قالوا : نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ وقد تبعه ابن أبي قحافة . قال : فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت : اتبعت هذا الرجل ؟ قال : نعم ، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه ، فإنه يدعو إلى الحق . فأخبره طلحة بما قال الراهب ، فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب فسرّ عليه الصلاة والسلام بذلك »[1] .

وممن تأثر بأخبار الرهبان سلمان رضي الله عنه ، وقصة إسلامه مشهورة معروفة تواترت الأخبار بنقلها .

كان سلمان مجوسياً ولكن فطرته السليمة رفضت عبادة النار ، فأخذ يبحث عن دين يقبله العقل السليم فوجد النصرانية أفضل مما هو عليه فترك الأهل والأوطان لرفقة أرباب هذا الدين الجديد ومكث معهم مدة فكان كل راهب يموت يوصيه أن يذهب إلى راهب آخر مماثل له في الصلاح وهكذا حتى كان عند آخر واحد منهم في عمورية فحضرته الوفاة ، فقال له سلمان : إلى من توصيني ؟ فقال: أي بني والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

عليه آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى بين كتفيه خاتم النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل . فما أن وَارَىٰ صاحبه حتى أخذ يبحث في وسيلة توصله إلى ما ذكر له صاحبه، فالتقى بركب من تجار العرب فاتفق معهم أن يحملوه على أن يعطيهم ما يملك فوافقوا على ذلك فذهب معهم ولكنه لم يدرك ما يريد لأن التجار باعوه فأصبح مسلوب الحرية ، ويشاء اللّه أن يشتريه يهودي يسكن المدينة المكان الذي وصف له صاحبه أنه البلد الذي سيأتي إليه النبي مهاجراً فسرّ بذلك . فلما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة ذهب إليه سلمان ليعرف العلامات التي ذكرها له صاحب عمورية فيجدها فيه عليه الصلاة والسلام . عندها أعلن إسلامه للّه رب العالمين ، وعمل الرسول ﷺ وأصحابه على تخليصه من الرق ليعبد اللّه في حرية تامة رضي اللّه عنه وأرضاه »[1] .

وأيضاً الجارود يأتي إلى رسول اللّه ﷺ في وفد عبد القيس معلناً إسلامه للّه رب العالمين وقرأ أن صفة النبي عليه الصلاة والسلام ثابتة في الانجيل إذ كان عيسى عليه السلام قد بشّر به في الانجيل وأوصى باتباعه[2] .

ولم يقف الحد عند التبشير برسول اللّه وذكر مولده وأوصافه ومهاجره وأمته ، بل كان الرهبان يعرفون صورته ويحتفظ بعضهم بها .

روى البيهقي عن محمد بن جبير بن مطعم قال : « سمعت أبي جبيراً يقول : لما بعث اللّه عزّ وجلّ نبيه ﷺ وظهر أمره بمكة خرجت إلى الشام ، فلما كنت ببصرى أتتني جماعة من النصارى فقالوا لي : أمن الحرم أنت ؟ قلت : نعم . قالوا : أفتعرف هذا الذي تنبأ فيكم ؟ قلت : نعم . فأخذوني

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٣٥٨ وقد ذكرت الخبر مختصراً .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٣٦٩ .

بيدي فأدخلوني ديراً لهم فيه تماثيل وصور فقالوا لي : انظر هل ترى صورته ؟ قلت : لا . فأدخلوني ديراً أكبر من ذلك الدير وإذا فيه تماثيل وصور أكثر مما في ذلك الدير ، فقالوا لي : انظر هل ترى صورته ؟ فنظرت فإذا أنا بصفته وصورته ، وإذا أنا بصفة أبي بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله ﷺ . وقالوا لي . هل ترى صفته ؟ قلت : نعم . قالوا : أهو هذا ؟ وأشاروا إلى صفته ، قلت : اللهم نعم أشهد أنه هو . قالوا : أتعرف هذا الذي آخذ بعقبه ؟ قلت : نعم ، قالوا : نشهد أن هذا صاحبكم وأن هذا الخليفة من بعده »[1] .

وفي هذا القدر كفاية للدلالة على أن الملوك والأحبار والرهبان كانوا يعلمون أنه نبي صادق بما ثبت عندهم في كتبهم من البشارة به ونعته وأنه نبي آخر الزمان ولا نبي بعده عليه الصلاة والسلام .

بشارات الكتب السماوية :

بعد الحديث عن الآيات التي تؤكد أن الأنبياء السابقين بشروا أممهم برسول الله ﷺ ، وعن شهادة الملوك والأحبار له بالنبوة نعود الآن إلى الكتب المقدسة عندهم لاستخراج النصوص التي تشير إلى نبوته وصفاته وصفات أمته .

من المعلوم أن الكتب السماوية السابقة طرأ عليها التحريف والتغيير بأيدي علماء أهل الكتاب ، وهذا ما شهد القرآن عليهم به ، قال تعالى : **﴿ فَوَيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنَاً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ ﴾**[2] .

والواقع يشهد بهذا أيضاً فالخلاف الظاهر بين نسخ التوراة والإنجيل

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٨ ، دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية ٧٩ .

وطبعاتها قديماً وحديثاً يؤكد أن هذه الكتب قد حرفت وبدلت ، جاء في الجواب الفسيح : « وأنك تعلم إذا نظرت أيضاً إلى التوراة التي طبعها الكاثوليك تراها متخالفة متغايرة وكل نسخة لا توافق الأخرى وكذا أناجيلهم وعهدهم الجديد لا توافق بين نسخها وطبعاتها ، وهذا الحال مستمر في جميع فرقهم وسائر الأزمان وظاهر ظهور الشمس للعيان »[١] .

ومن ضمن النصوص التي تعرضت للتحريف النصوص التي تتحدث عن البشارة بمحمد ﷺ ، والشاهد على هذا أن علماء المسلمين المتقدمين نقلوا نصوصاً في كتبهم من النسخ التي كانت في عصرهم تنص صراحة على اسم النبي ﷺ ، وجادلوهم بهذه النصوص ومن هؤلاء العلماء الماوردي وابن القيم وابن تيمية والرازي والقرطبي وغيرهم .

أما في هذا العصر فلا وجود لمثل هذه النصوص التي تذكر اسم النبي صراحة ، ولكن على الرغم من هذا التغيير والتحريف فما تزال هناك الكثير من النصوص التي تذكر صفات النبي وصفات امته ومكان بعثته وغير ذلك ، وسأعرض في الفصلين القادمين لجملة من هذه النصوص .

---

(١) الجواب الفسيح ص ٥ لأبي البركات نعمان خير الدين الألوسي نقلاً عن نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٠٦ .

الفصــل الأول

بشارات التــوراة

البشــارة الأولــى :

ورد في سفر التكوين الأصحاح السادس عشر:

« وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِ تَكْثِيراً أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الكَثْرَةِ ، وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِ هَا أَنْتِ حُبْلَىٰ فَتَلِدِينَ ابْنَاً وَتَـدْعِيْنَ اسْمَهُ إِسْمَـاعِيلَ لِأَنَّ الـرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانَـاً وَحْشِيَّاً يَـدُهُ عَلَىٰ كُلٍّ وَاحِـدٍ وَيَدُ كُـلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِـهِ يَسْكُنُ » وفي طبعة قـديمة «وَيَـدُ الجَمِيعِ مَبْسُـوطَةٌ إِلَيْهِ بِالخُضُوعِ »[1] .

وفي نفس السفر الأصحاح الحادي والعشرين : « قُومِي احْمِلِي الغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ لِأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيْمَةً » .

يبين هـذا النص أن الملاك بشّـر هاجـر بـأن اللّه سيجعـل من ولـدهـا اسمـاعيل أمـة عظيمـة وأن سلطانه سيمتـد فـوق الجميـع ، ومعلوم أن نسـل إسماعيل عليه السلام لم يكن منهم أمـة عظيمـة ولا أيديهم فـوق الجميع إلاّ

---

(۱) أعلام النبوة للماوردي ص ۱۲۸ .

بعد أن بعث اللّه فيهم محمداً ﷺ ، فأصبح سلطانه ممتداً فوق الجميع شرقاً وغرباً فدانت له شعوب الأرض وخضعت له أممها ، وصاروا به أمة عظيمة [illegible] .

[illegible] شيخ الإسلام ابن تيمية : « لم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم لا أهل الكتاب ولا الأميّين ، فلم تكن يد ولد اسماعيل فوق الجميع حتى بعث اللّه محمداً ﷺ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث [illegible] ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ ﴾[1] ، فلما بعث صارت يد ولد اسماعيل فوق الجميع فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين »[2] .

ويقول الأستاذ محمد عزت الطهطاوي : « والمتتبع للنص العبري وهو : « يا هاجر قومي سي هاعر وهاجّر يقي اث نادح يولي لفي دل اتمي مايو » ، وتفسيره : يا هاجر قومي احملي هذا الطفل واحتفظي به فإن منه محمداً وذريته كنجوم السماء»[3] .

وهكذا ببعثة محمد ﷺ ، الذي هو من نسل إسماعيل عليه السلام حقق اللّه سبحانه ما وعد هاجر به إذ جعل من ابنها أمة عظيمة وكانت يده فوق الجميع .

البشارة الثانية :

ورد في سفر التكوين الأصحاح السابع عشر :

« وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ لِلَّهِ لَيْتَ إِسْمَاعِيْلُ يَعِيْشُ أَمَامَكَ ، فَقَالَ اللَّهُ بَلْ سَارَةُ

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٢٩ .

(٢) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣١٣ ـ ٣١٤ .

(٣) محمد نبي الاسلام ص ٧ .

امْرَأَتَكَ تَلِدُ لَكَ إِبْنَاً وَتَدْعُو إِسْمَهُ إِسْحاقَ وَأُقِيْمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدَاً أَبَدِيَّاً لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ هَاْ أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيْرَاً جِدّاً اثْنَي عَشَرَ رَئِيساً يَلِدُ وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيْرَةً » . وفي بعض النسخ القديمة : « وَأَمَا فِيْ إِسْمَاعِيلَ فَقَدْ قَبِلْتُ دُعَاءَكَ ، قَدْ بَارَكْتُ فِيهِ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَبِّرُهُ بِمُأَذْمُأْذْ »[1] .

يبين هذا النص أن اللّه وعد إبراهيم عليه السلام بمباركة ولده اسماعيل وذريته بأن يكون منه رؤساء يحكمون الناس ويجعل من نسله أمة عظيمة ، وقد تحققت هذه البركة بمبعث رسول اللّه ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام ، ولكن عنصرية اليهود تدفعهم إلى القول بأن البركة محصورة في إسحاق ولد إبراهيم عليهما السلام ونسله إلى الأبد كما ذكر في هذا النص ، وهذا من تحريفهم الظاهر في النص لأن هذا مناف لسنة اللّه ، فقد قال في القرآن الكريم : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[2] .

وجاء في التوراة ، سفر الخروج ، الأصحاح التاسع عشر : « إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِيْ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيْعِ الشُّعُوبِ » .

هكذا بصيغة الشرط ، أي إذا سمعوا التعاليم الإلّهية وحافظوا على عهد اللّه فإنه يختارهم ويفضلهم على الشعوب إلى الأبد . ومعلوم أن بني اسرائيل لم يحفظوا عهد اللّه ، وخالفوا تعاليمه ، لهذا فإنهم لا يستحقون هذه البركة الأبدية التي يزعمون ، ثم إن هذا النص يشير إلى اسم محمد ﷺ ، وهو قوله « مأذمأذ » بدل « كثيراً جداً » كما في النسخة القديمة ،

---

(١) هداية الحيارى ص ٦١ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٤ .

وكلمة بِمُأْذْمُأْذْ هي الموجودة في التوراة العبرية لكنها ترجمت بـ « جداً جداً » أو « كثيراً جداً » .

يقول الإمام ابن القيم : « وقد اختلف فيها علماء أهل الكتاب فطائفة يقولون معناها جداً جداً أي كثيراً كثيراً ، فإن كان هذا معناها فهو بشارة بمن عظم من بنيه كثيراً كثيراً ، ومعلوم أنه لم يعظم من بنيه أكثر من محمد ﷺ ، وقالت طائفة أخرى بل هي صريح اسم محمد . قالوا ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية ، فهي أقرب اللغات إلى العربية والأمثلة على ذلك كثيرة . فإذا أخذت لفظة « مأذمأذ » وجدتها أقرب شيء إلى لفظ محمد ، ويدل على ذلك أداة الباء في قوله « بمأذمأذ » ، فلا يقال أعظمه بجداً جداً ، بخلاف أعظمه بمحمد »[1] .

ويذكر بعض من أسلم من اليهود أن هذه الكلمة تعني محمداً بحساب الجمل الذي اشتهر فيه اليهود قديماً وحديثاً . يقول الدكتور أحمد السقّا : « إن الربانيين والأحبار من اليهود العبرانيين واليهود السامريين الذين أسلموا والذين لم يسلموا اعترفوا بأن اسم محمد موضوع بدله عمداً « بمأذمأذ » ليعرفه العلماء وحدهم إذا جاء ويكونون في حل من إنكاره إذا أرادوا » .

ثم يستشهد الدكتور السقا على ذلك بقول شموئيل بن يهوذا بن أيوب المتوفى سنة ٥٧٠هـ وهو من اليهود الذين أسلموا ، وبقول عبد السلام وكان من أحبار اليهود ، وقد أسلم في عهد السلطان بايزيد خان ، يقول شموئيل : « الإشارة إلى اسمه ﷺ في التوراة ، قال اللّه تعالى في الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة مخاطباً لإبراهيم عليه السلام : « وأما في اسماعيل فقد قبلت دعاءك ، قد باركت فيه وأثمره وأكثره جداً جداً » . ذلك قوله : « وليشماعيل شمعتيخا هني بيراختي أونو وهغريتي أوتو وهربيتي بمادماد » . فهذه الكلمة إذا عددنا حساب حروفها بالجملة وجدناه اثنين وتسعين وذلك

---

(١) هداية الحيارى ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

عدد حروف محمد ﷺ فإنه أيضاً اثنان وتسعون »[١] .

ووافقه على ذلك عبد السلام الذي صنف رسالة سماها بالرسالة الهادية حين اسلامه ، يقول فيها : « واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء في « بمأذْمأذ » ليست من نفس الكلمة ، بل هي أداة وحرف جيء به للصلة فلو أخرج منه اسم محمد لاحتاج إلى باء ثانية ، ويقال « بِمُأذْمُأذ » قلنا : من المشهور عندهم إذا اجتمع الباءان احدهما أداة والآخر من نفس الكلمة تحذف الأداة وتبقى التي هي من نفس الكلمة ، وهذا شائع في نفس الكلمة ، وهذا شائع في مواضع غير معدودة فلا حاجة إلى إيرادها »[٢] .

البشارة الثالثة :

جاء في سفر التكوين ، الأصحاح التاسع والأربعين :

« وَدَعَا يَعْقُوبُ بَنِيْهِ وَقَالَ اجْتَمِعُوا لأُنْبِئَكُمْ بِمَا يُصِيْبُكُمْ فِي آخِرِ الأَيَّامِ . . . . . لاَ يَزُولُ قَضِيبٌ مِن يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّىٰ يَأْتِيَ شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ » .

يبين هذا النص أن الملك والشريعة ستظل في آل يهوذا حتى يأتي نبي من غيرهم وله يكون خضوع الشعوب ، إذ من المعلوم أن ما بعد (حتى) من جنس مغاير لما قبلها ، ولو كان قصد يعقوب عليه السلام استمرار الملك والشريعة في بنيه إلى الأبد لما كان لكلامه فائدة .

فشيلون الذي ستخضع له الشعوب والذي يخبر عنه يعقوب في أواخر أيامه من هو ، ومن نسل من سيأتي ؟

ذكرت فيما سبق أن اللّه بارك إسماعيل كما بارك على إسحاق . وقد تحققت بركة إسحاق بأن بعث من نسله الكثير من الأنبياء وجعل منهم ملوكاً

---

(١) نبوة محمد في الكتاب المقدس ص ٣٣ ، ٣٥ .

(٢) اظهار الحق ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

يحكمون الناس ، أما إسماعيل عليه السلام فلم تتحق له البركة في نسله بعد ، إذن فالنبي الآتي الذي أخبر عنه يعقوب عليه السلام لا بد أن يكون من نسل اسماعيل لتتحقق بركة اللّه في نسل إسماعيل عليه السلام ، كما تحققت في نسل إسحاق عليه السلام من قبله .

ولم يأت من نسل إسماعيل عليه السلام نبي غير محمد ﷺ الذي خضعت له الشعوب وصرح بنسخ شريعة التوراة والانجيل ودعا أهل الكتاب إلى اتباعه واتباع ما جاء به لكنهم رفضوا وبقوا على ما هم عليه فبدد اللّه ملكهم به ﷺ .

يقول الحبر عبد السلام في الرسالة الهادية : « لا يزول حاكم من يهوذا ولا راسم من بين رجليه حتى يجيء الذي له وإليه تجتمع الشعوب »[1] .

يدل هذا النص على أن بعثة نبينا محمد ﷺ بعد تمام حكم موسى وعيسى عليهما السلام ، لأن المراد بالحاكم موسى لأنه ما جاء بعد يعقوب صاحب شريعة إلى زمن موسى إلاَّ هو ، والمراد بالراسم عيسى عليه السلام لأنه لم ينبأ أحد بعد موسى إلى زمن عيسى إلاَّ هو ، وبعدهما ما جاء صاحب شريعة إلاَّ محمد ﷺ ، فعلم أن المراد من قول يعقوب في آخر الأيام هو نبينا محمد ﷺ ، لأن بعثته في آخر الزمان بعد مضي حكم الحاكم والراسم . ويدل عليه أيضاً قوله : « حتى يجيء الذي له » أي الحكم بدلالة سياق النص ، وأما قوله : « وإليه تجتمع الشعوب » فهي علامة صريحة ودلالة واضحة على أن المراد منها هو محمد لأنه ما اجتمعت الشعوب إلاَّ إليه[2] .

البشارة الرابعة :

ورد في سفر التثنية الأصحاح الثامن عشر :

« يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيّاً مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي لَهُ

---

(١) اظهار الحق ص ٢٥٢ .

(٢) اظهار الحق ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

تَسْمَعُون . . . . . قَدْ أَحْسَنُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا أُقِيْمُ لَهُمْ مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ ، وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمَاً لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَىٰ فَيَمُوتُ ذَلِكَ النَّبِيُّ وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ كَيْفَ نَعْرِفُ الكَلاَمَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّم بِهِ الرَّبُّ ، فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ فَهُوَ الكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ فَلاَ تَخَفْ مِنْهُ » .

يقرر هذا النص أن اللّٰه سبحانه وتعالى سيبعث نبياً من وسط اخوة بني إسرائيل ، لا من بني إسرائيل أنفسهم ، لأنه لو كان المراد أنه سيبعثه من بني إسرائيل لقال : « منهم » بدلاً من قوله : « من وسط اخوتهم » .

ومعلوم أن اخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل وبنو عيسو وبنو أبناء قطورا زوجة إبراهيم عليه السلام . لكن بني عيسو وبني أبناء قطورا لم يظهر فيهم نبي بهذه الصفات المذكورة في النص ، ثم إنهم ليس لهم بركة كإسحاق وإسماعيل عليهما السلام كما ذكرنا سابقاً .

اذن فالنبي الذي سيبعث من اخوة بني اسرائيل هو من بني اسماعيل تحقيقاً لوعد اللّٰه إبراهيم عليه السلام بالبركة في نسل إسماعيل عليه السلام .

ويبين النص أن النبي المبعوث مثل موسى عليه السلام ، والنبي محمد ﷺ مماثل لموسى عليه السلام في كثير من الأمور ، من أهمها أنه أتى بشريعة ذات أحكام وفرائض وأنه مأمور بالجهاد وبالطهارة للصلاة وأنه عبد اللّٰه ورسوله مثل موسى عليه السلام . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَونَ رَسُولاً** ﴾[1] .

---

(١) سورة المزمل ، آية ١٥ .

ويبين النص أيضاً أن النبي المبعوث أميّ يحفظ ما يسمع لقوله : « اجعل كلامي في فمه » . ومعلوم أن النبي محمداً ﷺ كان كذلك .

ويبين النص أن هذا النبي أمين على الوحي يبلغ عن اللّه ما يسمع دون زيادة أو نقص لقوله : « فيكلمهم بكل ما أوصيه به » . والنبي ﷺ كان كذلك .

كما يبين أيضاً أن بني إسرائيل مطالبون بالسماع له وباتباع ما جاءهم به من اللّه وإلَّا سيعرضون أنفسهم إلى نقمة اللّه ورسوله لقوله : « ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي . . . . أنا أطالبه » ، أي أنتقم منه لعدم سماعه من النبي الذي بعثه اللّه إليهم ، والنبي محمد ﷺ بعث إليهم وإلى الناس كافة ودعاهم إلى اتباعه وعندما رفضوا انتقم اللّه منهم على يده حيث قُتِلَ من قُتِلَ منهم وأجلِيَ بعضهم عن ديارهم وسلبت أموالهم ، وذلك بسبب غدرهم وخيانتهم . يقول الشيخ رحمة اللّه الهندي : « ليس المراد بالانتقام من المنكر العذاب الأخروي الكائن في جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية لأن هذا الانتقام لا يختص بإنكار نبي دون نبي بل يعم الجميع فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعي فظهر منه أن هذا النبي يكون مأموراً من جانب اللّه بالانتقام من منكره »[1] . وفي هذا دلالة على أن النبي المبعوث مأمور بجهاد المنكرين وهذا ما جاء به سيد المرسلين لإعلاء كلمة اللّه في الأرض .

ويدل هذا النص أيضاً على أن شريعة الإسلام ناسخة لشريعة التوراة لكونهم مأمورين باتباعه كما هو واضح من النص .

كما أن النص يبين أن مصير النبي الذي يطغي ويكذب على اللّه أو يتكلم باسم آلهة أخرى فإنه يموت أي يقتل ، والنبي ﷺ حفظه اللّه من القتل رغم المحاولات الكثيرة لقتله وأنزل اللّه في حقه : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾[2] . فلو كان كاذباً أو يتكلم باسم آلهة أخرى ـ حاشا للّه ـ لما حفظه

---

(١) اظهار الحق ، ص ٢٤٢ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٦٧ .

ولأمكن من قتله ، وهذا يدل دلالة واضحة على أنه النبي الذي وعد اللّه به موسى عليه السلام .

ثم يبين النص علامة النبي الكاذب من الصادق ، فالذي يتحدث عن أمور غيبية مستقبلية ولم تحدث فهو نبي كاذب والصادق خلاف ذلك تماماً ، والنبي محمد ﷺ أخبر بالكثير من الأمور الآتية وحدثت وفقاً لما تحدث به ﷺ .

لذا فهذا النص من أوضح النصوص دلالة على النبي محمد ﷺ ، فكل ما ذكر فيه منطبق عليه ويؤكد أنه النبي الذي وعد اللّه موسى أن يرسله في آخر الزمان .

ولكن بعض الأحبار يقولون أن هذه البشارة بيوشع بن نون ، والبعض الآخر يقولون إنه لم يأت بعدُ النبيُّ المبشر به في النص ، والنصارى يقولون إن هذه البشارة بعيسى عليه السلام .

والجميع ليسوا على صواب لأن النص يذكر أن النبي الآتي آخر الزمان ليس من بني إسرائيل بل من إخوتهم ، ومعلوم أن يوشع وعيسى من بني إسرائيل ، فدلّ ذلك على أنهما ليسا هما المقصودين . ويؤكد ذلك أيضاً أن اليهود في زمن عيسى عليه السلام كانوا ينتظرون هذا النبي المشار إليه في هذه البشارة ، يقول الاستاذ إبراهيم خليل أحمد : « فَسَّرَ اليهود هذا النص بمجيء رسول منهم لا من ولد إسماعيل ، وكأن اللّه تعالى جعل هذه العبارة مجملة وألهمهم هذا التفسير حفظاً لهذه البشارة ، لأنهم لو عرفوا أن الرسول المبشّر به سيكون من ولد إسماعيل لأخفوها أو محوها وقد أثبتت الأيام أن الرسول المبشر به هو محمد ﷺ »[1] .

ثم إن النص يذكر أن النبي الآتي مثل موسى عليه السلام ومعلوم أن يوشع ليس مثل موسى عليه السلام ، لأن موسى صاحب شريعة ، ويوشع تابع

---

(١) محمد في التوراة والانجيل والقرآن .

لشريعة موسى ، وهذا لا ينطبق على عيسى عليه السلام لأنه لم يأت بشريعة جديدة وإنما كان تابعاً ومكملاً لشريعة موسى عليهما السلام ، وقد صرح بذلك بقوله : « لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس »[1] .

وعلى زعم النصارى فإن عيسى عليه السلام إلـه ، فهو إذاً ليس مثل موسى لأن موسى عبد اللّه ورسوله ، ثم إن التوراة تؤكد أنه لا يقوم مثل موسى في بني إسرائيل .

فقد جاء في سفر التثنية الأصحاح الرابع والثلاثين : « وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَىٰ الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهاً لِوَجْهٍ » .

ثم إنه ورد في النص لفظ « يقيم » في المستقبل ، ويوشع كان حاضراً مع موسى نبياً في ذلك الوقت .

وعلى زعم النصارى فإن عيسى عليه السلام قتِل وصُلِب ، فهذه البشارة لا تنطبق عليه لأن النص يذكر أن النبي الصادق لا يقتل بل يحفظه اللّه ، ولكن اللّه برأه مما قالوه فلم يقتل ولم يصلب[2] .

البشارة الخامسة :

ورد في سفر التثنية الأصحاح الثاني والثلاثين :

« فَرَأَىٰ الرَّبُّ وَرذَلَ مِنَ الغَيْظِ بَنِيْهِ وَبَنَاتِهِ وَقَالَ أَحجُبُ وَجْهِي عَنْهُمْ وَأَنْظُرُ مَاذَا تَكُونُ آخِرَتُهُمْ ، إِنَّهُم جِيلٌ مُتَقَلِّبٌ أولَادُ لَا أَمَانَةَ فِيْهِم ، هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلَهاً ، أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ فَأَنَا أُغِيرُهُم بِمَا لَيْسَ شَعْبَاً بِأُمَةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيْظُهُمْ » .

وفي نسخة قديمة : « وَبِشَعبٍ جَاهِلٍ أُغْضِبُهُمْ »[3] .

---

(١) انجيل متى ، الاصحاح الخامس .
(٢) اظهار الحق ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .
(٣) اظهار الحق، ص ٢٤٩ .

وورد في سفر أشعيا ، الأصحاح الخامس والستين نص مماثل : « أَصْغَيْتُ إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا ، وُجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي ، قُلْتُ : هأنذا لأُمَةٍ لَمْ تُسَمَّ بِاسْمِي » ..

تشير هذه النصوص إلى أن اللَّه سيصطفي أمة جديدة لحمل رسالة اللَّه إلى الناس من غير بني إسرائيل إغاظة لهم لكونهم خانوا الأمانة واتجهوا بالعبادة لغير اللَّه وساروا خلف أهوائهم وشهواتهم .

وتبين هذه النصوص صفات الأمة التي سيختارها اللَّه ، إنها أمة غبية جاهلة لم تسأل عن اللَّه ولم تبحث عنه ولم تسم باسمه ، أمة محتقرة في نظر اليهود بقهرهم بها .

وهذه الصفات لا تنطبق إلَّا على أمة العرب قبل نزول نور اللَّه عليها ، فقد كانت تعيش في جهل وضلال ، وكان العرب يعبدون الأصنام المنحوتة بأيديهم ، ولم تأب عقولهم ذلك ، ولم يُعمِلوا عقولهم في البحث عن اللَّه فهم في غيهم سادرون .

ثم إنهم لم يؤتوا حظاً من العلم لا العلوم العقلية ولا الشرعية، ولقد كان اليهود يحتقرونهم لأنهم أولاد الجارية وهم أولاد الحرة وهم أصحاب شريعة والعرب لا شريعة لهم ، ولكن اللَّه يفعل ما يشاء ويختار فقد بعث اللَّه من بين هذه الأمة الجاهلة نبياً هداهم إلى الصراط المستقيم محمد بن عبد اللَّه ﷺ ، وبه اصطفى هذه الأمة الجاهلة على بني إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[١] .

إلَّا أن بولس يقول إن الشعب الجاهل هو شعب اليونان ، وهذا كلام

---

(١) سورة الجمعة ، آية ٢ .

خاطىء لأن اليونانيين أهل حكمة من قديم الزمان .

يقول الشيخ رحمة اللّه الهندي : « ليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مُقَدَسِهم بولس ، لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلاثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم في العلوم والفنون وكان منهم الحكماء المشهورون مثل سقراط وأبقراط وأفلاطون وغيرهم . . . . . وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضاً بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح »[١] .

وان بولس نفسه يقول في رسالته الى أهل كورنثوس : « لِأَنَّ اليَهُودَ يَسألونَ آيَةً واليُونَانِيينَ يَطْلُبُونَ حِكْمَةً »[٢] .

البشارة السادسة :

ورد في سفر التثنية الاصحاح الثالث والثلاثين :

« وَهَـذِهِ هِيَ البَرَكَـةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَـا مُوسىٰ رَجُـلُ اللّهِ بَنِي إِسْرَائِيـلَ قَبْلَ مَوْتِهِ ، فَقَالَ جَاءَ الرَبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَاعِيرَ وَتَلأْلأَ مِن جَبَلِ فَارَانَ وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ القُدْسِ وَعَن يَمِيْنِهِ نَارُ شَـرِيعَةٍ لَهُمْ فَـأَحَبَّ الشَّعْبَ ، جَمِيعُ قِدِّيسِيهِ فِي يَدِكَ وَهُمْ جَالِسُونَ عِنْدَ قَدَمِكَ يَتَقَبَّلُونَ مِنْ أَقْوَالِكَ» .

وفي نسخة قديمة : « جَاءَ الـرَبُّ مِن سِينَـاءَ وَأَشْـرَقَ لَنَـا مِنْ سَـاعِيـرَ وَاستَعْلَنَ مِن جِبَالِ فَارَانَ وَمَعَهُ أُلُوفُ الأطْهَارِ وَفِي يَمِينِهِ سِنَةٌ مِن نَار »[٣] .

ذكر هذا النص الأماكن التي أنزل الله فيها على رسله الكتب الثلاثة

---

(١) اظهار الحق ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢) رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس ، الاصحاح الأول .

(٣) اظهار الحق ص ٢٥٠ .

التـوراة والانجيل والقـرآن حسب الترتيب الـزمني ، فقال : « جـاء الرب من سيناء » أي كلم الله موسى عليه السلام من سيناء وأنزل التـوراة عليه فيهـا ، وقال أيضاً : « وأشرق لهم من ساعير» أي أنزل الله الانجيل على عيسى عليه السـلام في ساعيـر ، قال : « وتـلألأ من جبـال فـاران أو واستعلن من جبـال فـاران » أي أنزل الله القـرآن على محمد ﷺ في أعلى جبـال فـاران ، وهـو جبل حراء ، وفاران هي مكة كما هو معلوم عند أهل الكتاب ، فقد جـاء في التوراة أن ابراهيم عليه السلام أسكن زوجته هاجر وولدها اسماعيل في بريـة فاران ، ففي سفر التكوين الاصحاح الحـادي والعشرين : « وَسَكَنَ فِي بَـرِّيَّةِ فَارَانَ وَأَخَذَت لَهُ أُمُّهُ زَوجَةً مِنْ أَرض ِ مِصْرَ» .

يقـول الامـام ابن تيميـة رحمـه الله : « قـال كثيـر من العلمـاء واللفظ لمحمد بن قتيبة ، ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غمـوض لأن مجيء الله من طور سيناء إنزاله التوراة على موسى عليه السلام من طور سيناء كالـذي هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلـك يجب أن يكون اشـراقه من سـاعير انـزاله الانجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير ـ أرض الجليل بقرية تدعى النـاصرة ـ وكمـا وجب اشراقـه من ساعيـر بالمسيـح فكذلـك يجب أن يكون استعلانه من جبـال فاران انـزاله القـرآن على محمد ﷺ ، وجبـال فاران هي جبال مكة ، قال (أي محمد بن قتيبة) : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة ، فإن ادعوا أنها غيـر مكة فليس يُنْكَـرُ ذلك من تحريفهم وافكهم ، قلنا : (والقائل ابن تيميـة) أليس في التوراة أن إبـراهيم أسكن هاجر واسماعيل فاران ؟ وقلنا : دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعـد المسيح ، فهـل تعلمون ظهر دين ظهور الاسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه ؟ »[1] .

ويقـول الإمام ابن القيم : « كـان مجيء التـوراة مثـل طلوع الفجـر ،

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣٠٠ .

ونزول الانجيل مثل اشراق الشمس ونـزول القرآن بمنـزلة ظهـور الشمس في السماء . ولهذا قال : « واستعلن من جبال فـاران » فإن محمـداً ﷺ ظهر بـه نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين كما يظهـر نور الشمس في مشـارق الأرض ومغاربهـا اذا استعلنت وتوسـطت السماء . ولهذا سماه الله سراجاً منيراً »[1] .

ولقـد ورد ذكـر هـذه الأمـاكن في القـرآن الكـريم في قـولـه تعـالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾[2] ، فـأقسم الله تعالى بهـذه الأماكن الثـلاث التي تجلى فيها نـور الله على رسله تعـظيمـاً لشـأنهـا وتدرج في قسمه من الأفضل الى الأفضل منـه الى الأعلى درجة في الفضـل وهـو القـرآن الكـريم . وفي هـذا دلالـة على أن القـرآن أعــظم من التـوراة والانجيل لأنه ناسخ لهما محفوظ من أي تغيير أو تحريف .

وأما قوله : « وأتى من ربوات القـدس » وفي النسخة القـديمة « ومعـه ألوف الأطهار » ولكنها حرفت لطمس البشارة ومعناها هذا ينطبق على محمـد ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم الذين كانوا أطهاراً في كل شيء .

ولكن الدكتور السقا يقول : « ان معنى ربوات القدس » أي جمـاعات عظيمة من الناس الذين طهر الله قلوبهم ، والربوات : الجماعـات العظيمـة من الناس ، ففي الزبور لداود عليه السلام : « الـرَّب يُعضُدُنِي لاَ أَخَـافُ مِن رِبْـوَاتِ الشُعُوبِ المُصْـطَفّينَ مِنْ حَولي» المـزمـور الثـالث ، والقـدس : أي القديس وهو الانسان الصالح[3] .

ويعتبـر هذا النص من أوضـح النصوص المبشـرة بـالنبي محمـد ﷺ ، حيث ذكر المكان الذي أنزل الله عليه فيه القـرآن ، وهو فاران التي هي مكة عند جميع أهل العلم .

---

(١) هداية الحيارى ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) سورة التين ، الآيتان ١ ـ ٢ .
(٣) نبوة محمد في الكتاب المقدس ص ٦٢ .

يقول الامام ابن تيمية : « ومعلوم باتفاق الأمم والنقل المتواتر أن اسماعيل تربى بأرض مكة فعلم أنها فاران وأنه وابراهيم عليهما السلام بنيا البيت الحرام »[1] .

ويقول الإمام الماوردي أيضاً : « وفاران هي جبال في مكة في قول الجميع »[2] .

ويقول الشهرستاني : « ولما كانت الأسرار الإلّهية والأنوار الربانية في الوحي والتنزيل والمناجاة والتأويل على مراتب ثلاث ، مبدأ ووسط وكمال ، والمجيء أشبه بالمبدأ ، والظهور أشبه بالوسط ، والاعلان أشبه بالكمال ، عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجيء من طور سيناء ، وعن طلوع الشمس بالظهور من ساعير ، وعن البلوغ الى درجة الكمال بالاستواء والاعلان على فاران ، وفي هذه الكلمات اثبات نبوة المسيح عليه السلام والمصطفى محمد صلى الله عليه وسلم »[3] .

البشارة السابعة :

المزمور الخامس والأربعون :

« فَاضَ قَلْبِي بِكَلَامٍ صَالِحٍ ، مُتَكَلِّمٌ أَنَا بِإِنْشَائِي لِلْمَلِكِ ، لِسَانِي قَلَمُ كَاتِبٍ مَاهِرٍ ، أَنتَ أَبْرَعُ جَمَالاً مِن بَنِي البَشَرِ ، انْسَكَبَتِ النِعْمَةُ عَلَى شَفَتَيْكَ ، لِذَلِكَ بَارَكَكَ اللّهُ إِلَى الأَبَدِ ، تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَىٰ فَخْذِكَ أَيُّهَا الجَبَّارُ جَلَالَكَ وَبَهَاءَكَ ، وَبِجَلَالِكَ اقْتَحِم ، ارْكَبْ مِنْ أَجْلِ الحَقِّ وَالدَّعَةِ وَالبِرِّ فَتُرِيْكَ يَمِيْنُكَ مَخَاوِفَ نَبْلُكَ المَسْنُونَةُ فِي قَلْبِ أَعداءِ المَلِكِ شُعُوبٌ تَحْتَكَ يَسْقُطُونَ » .

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣٠٦ .
(٢) اعلام النبوة للماوردي ص ١٢٩ .
(٣) الملل والنحل ص ٢١٣ .

وفي نسخة قديمة : « من أجل هذا باركَ الله عليه الى الأبد فتقلد أيها الجبار بالسيف لأن البهاء لوجهك والحمد الغالب عليك اركب كلمة الحق وسمة التأله ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة لهيبة يمينك ، وسهامك مسنونة ، والأمم يخرون تحتك »[1] .

يتضمن هذا النص عدة صفات لا تنطبق الا على النبي محمد ﷺ ، وان كان النصارى يقولون أن المبشر به في هذا النص هو المسيح عليه السلام ، وهذا غير صحيح لأن الصفات الواردة في النص لا تنطبق عليه ، واليهود يقولون ان النبي المبشر به في هذا النص لم يأت بعد وهذا خطأ أيضاً .

من هذه الصفات الواردة في النص قوله : « انسكبت النعمة على شفتيك » ، وفي هذا اشارة الى أن النبي الآتي فصيح بليغ في قوله ، ولقد كان النبي محمد ﷺ مشهوراً بالفصاحة والبلاغة في القول ، شهد له بذلك العدو قبل الصديق ، ويكفي أن معجزته الكبرى كانت في غاية الفصاحة والبلاغة أعجزت العرب أن يأتوا بمثله مع أنهم كانوا أمراء البلاغة والبيان في ذلك الوقت .

وقوله : «باركك الله الى الأبد » فيه دلالة على أن النبي الآتي مبارك فيه الى الأبد ، والنبي محمد ﷺ متصف بذلك ، فإن الله وملائكته يصلون عليه دائماً ، وقد أمرت أمته بالصلاة والمباركة عليه في كل صلاة الى الأبد .

وفي قوله : « تقلد سيفك على فخذك » دلالة على أن النبي الآتي متقلد سيفه محارباً لأعداء الله ، ومعلوم أن النبي محمداً ﷺ حمل السيف في وجه اعداء الله وقاتل المشركين بنفسه وأيده الله بالنصر في معاركه مع المشركين احقاقاً للحق وازهاقاً للباطل .

وفي قوله : « أيها الجبار » كناية عن قوته وقهره لأعداء الله ، وهذا

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣١٨ ، اثبات نبوة النبي ص ١٦٠ .

واضح من صفات رسول الله ﷺ ، فلقد كان يتمتع بقوة جسمية فائقة حتى انه صرع أكبر مصارعي العرب في زمانه ، وهو ركانة المشهور بقوته بين العرب ، فكان لا ينازل أحداً الا صرعه .

وأما عن شجاعة النبي ﷺ في الحروب ، فهي مشهورة معروفة حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله ﷺ .

وفي قوله : « نبلك المسنونة » والنبال من أسلحة المسلمين في حروبهم مع أعداء الله ، وكان النبي ﷺ يستعملها ويشجع على استعمالها . فلقد أثر عنه أنه كان يقول : « ارموا بني اسماعيل فإن أباكم كان رامياً»[1] .

وفي قوله : « شعوب تحتك يسقطون » ، ولقد سقطت شعوب كثيرة تحت سيطرته ﷺ ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

من هذا العرض يتضح لنا أن المقصود في هذه البشارة هو النبي محمد ﷺ ، وليس عيسى عليه السلام ، لأنه كان مستضعفاً في قومه ، ولم تقترن شريعته بهيبة ولم يتقلد السيف ولم تسقط تحته شعوب الى غير ذلك من الأمور .

البشارة الثامنة :

ورد في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة

« لِيَبْتَهِجِ الأَتْقِيَاءُ بِمَجْدٍ ، لِيُرَنِّمُوا عَلَى مَضَاجِعِهِم ، تَنْوِيهَاتُ اللّهِ فِي أَفْوَاهِهِم وَسَيفٌ ذُو حَدَّيْنِ فِي يَدِهِمْ لِيَصْنَعُوا نَقْمَةً في الأُمَمِ وَتَأدِيْبَاتٍ فِي الشُّعُوبِ لِأَسْرِ مُلُوكِهِمْ بِقُيُودٍ وَشُرَفَائِهِمْ بِكُبُوْلٍ مِنْ حَدِيدٍ لِيُجْزُوا بِهِمُ الحُكْمَ المَكْتُوبَ» .

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣١٤ .

وفي نسخة قديمه : « سبحوا الله تسبيحاً جديداً وليفرح بالخالق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر وسدد الصالحين منهم بالكرامة يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون الله بأصوات مرتفعة بأيديهم سيوف ذات شفرتين في الأمم الذين لا يعبدونه »[1] .

ويذكر هذا النص مجموعة من الصفات لا تنطبق الا على أتباع المصطفى ﷺ ولا تنطبق على أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

من هذه الصفات قوله : «يسبحونه على مضاجعهم » وهذه حال المؤمنين بالله المتبعين لرسول الله ﷺ يسبحون الله دائماً في أي وضع كانوا . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾[2] .

ومنها أيضاً قوله : « ويكبرون الله بأصوات مرتفعة » وهذه سمة المسلمين ، منهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في آذانهم للصلوات الخمس وفي حجهم وأعيادهم وسفرهم . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله اني أريد أن أسافر فأوصني ، قال : عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف »[3] .

ومنها أيضاً قوله : « وسيف ذو حدين في أيديهم » ، ومعلوم أن المسلمين اشتهروا بعمل هذا النوع من السيوف لأنها هي السيوف العربية الأصيلة على خلاف السيوف العجمية فإنها بشفرة واحدة ، وقد استعملوا هذه السيوف لإعلاء كلمة الله في الأرض .

وأما قوله : « ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب ، لأسر

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣١٤ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٩١ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الدعوات ، الباب السادس والاربعون جـ ٥ ص ٥٠٠ ، سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الحرس والتكبير في سبيل الله جـ ٢ ص ٩٣٦ ، مسند أحمد جـ ٢ ص ٣٢٥ وقال الترمذي حديث حسن .

ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد» فبأتباع محمد ﷺ انتقم الله من الأمم الكافرة وبسيف الحق ثابَتْ الشعوب الى رشدها ووقع في أيديهم الكثير من الشرفاء مثل الهرمزان(١) .

وأما قوله : «ليجروا بهم الحكم المكتوب» والحكم المكتوب في الزبور أن الأرض لله يرثها عباده الصالحون . قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾(٢) .

وفي الزبور المزمور السابع والثلاثين : «لِأَنَّ عَامِلِي الشَّرِّ يُقْطَعُونَ وَالَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ الرَّبَّ هُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ بَعْدَ قَلِيلٍ لَا يَكُونُ الشِّرِّيرُ ، تَطَّلِعُ فِي مَكَانِهِ فَلَا يَكُونُ ، أَمَّا الوُدَعَاءُ فَيَرِثُوْنَ الأَرْضَ وَيَتَلَذَّذُونَ فِي كَثْرَةِ السَلَامَةِ .... لِأَنَّ الرَّبَّ يُحِبُّ الحَقَّ وَلَا يَتَخَلَّى عَنْ أَتْقِيَائِهِ ، إِلَى الأَبَدِ يُحْفَظُونَ ، أَمَّا نَسلُ الأَشْرَارِ فَيَنْقَطِعُ ، الصِّدِّيقُوْنَ يَرِثُونَ الأَرْضَ وَيَسْكُنُونَهَا إِلَىٰ الأَبَدِ» .

وهكذا سيفني الله الأمم الكافرة ، ويحل محلهم الأمة التقية البارة والمتصفة بالصفات المذكورة في النص(٣) .

وبهذا يبين لنا نبي الله داود عليه السلام صفات الأمة المستخلفة في الأرض ، وهذه الأمة هي الأمة الاسلامية التي انطبقت عليها هذه الصفات المذكورة في النص .

البشارة التاسعة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح التاسع :

---

(١) نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٧٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ١٠٥ .

(٣) نبوة محمد في الكتاب المقدس ص ٧٤ ـ ٧٥ .

« لِأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَىٰ ابْنَاً وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيباً » .

وفي نسخة قديمة : « على كتفه علامة النبوة »[1] .

يشير هذا النص الى أخص الصفات الخلْقية بالنبي محمد ﷺ وهي الشامة التي خلقها الله له على كتفه كعلامة واضحة على نبوته .

فهذه بشارة واضحة بالنبي محمد ﷺ الذي وجد على كتفه خاتم النبوة ورآه الكثير من أصحابه ، ولم ينقل عن أحد من الأنبياء أنه كان له مثل ذلك لا سليمان ولا عيسى عليهما السلام .

جاء في الصحيحين عن السائب بن يزيد قال : ذهبت بي خالتي الى النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ان ابن أختي وَجِعٌ ، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت الى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زرّ الحَجَلَةِ[2] .

وفي قوله : « ويدعى اسمه عجيباً » أي لم يعهده بنو اسرائيل ، ثم ان قومه أصابهم العجب عندما سماه جده محمداً لأنه لم يكن مألوفاً عندهم أيضاً .

ويقول الاستاذ صالح السامرائي : « وقد ذكر الفاضل حيدر علي القرش في كتابه خلاصة سيف المسلمين المؤلف بالأردواي الهندي أن القسيس أو سكان الأرمني ترجم كتاب أشعيا باللسان الأرمني في سنة ألف وستمائة وست وستين وطبعت في سنة ١٧٣٣ وفيه في الباب الثاني والأربعين هذه الفقرة ونصها : « سبحوا تسبيحاً جديداً وأثر سلطنته على ظهره واسمه

---

(١) اثبات نبوة النبي ص ١٦٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المرضى والطب ، باب من ذهب بالصبي المريض ليدعى له جـ ٧ ص ١٠ . صحيح مسلم كتاب الفضائل ، باب اثبات خاتم النبوة جـ ٤ ص ١٨٢٣ .

أحمد » انتهت ، وهذه الترجمة موجودة عند الأرمن فانظروا فيها »[1] .

وهكذا صرح باسمه ووصفه ، فماذا بعد الحق الا الضلال .

البشارة العاشرة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح الحادي والعشرين :

« وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلَادِ العَرَبِ ، فِي الوَعْرِ فِي بِلَادِ العَرَبِ تَبِيْتِيْنَ يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ ، هَاتُوا مَاءً لِمُلَاقَاةِ العَطْشَانِ يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ ، وَافُوا الهَارِبَ بِخُبْزِهِ ، فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا ، مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ المَسْلُولِ ، وَمِنْ أَمَامِ القَوْسِ المَشْدُودَةِ ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَةِ الحَرْبِ ، فَإِنَّهُ هٰكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجدِ قِيدَارَ ، وَبَقِيَّةُ عَدَدِ قِسِيِّ أَبطَالِ بَنِي قِيْدَارَ تَقِلُّ لِأَنَّ الرَّبَّ إِلٰه إِسْرائيلَ قَد تَكَلَّمَ » .

هذه البشارة من أوضح البشارات برسول الله ﷺ ، حيث بينت مكان بعثته عليه الصلاة والسلام وسبب هجرته ، والمكان الذي هاجر اليه ثم أشارت الى مصير الذين أخرجوه من بلده وخاصة الجبابرة منهم وذلك بعد مضي سنة من الهجرة ، فهل في ذلك شك في أنه هو المراد من هذه البشارة .

يقول : « وحي من جهة بلاد العرب ، في الوعر في بلاد العرب » ففي هذه اشارة الى أن الجهة التي نزل عليها وحي الله هي بلاد العرب ، وفي الوعر وليس في السهل ، ومعلوم أنه لم ينزل على أي جزء من بلاد العرب الا في مكة المكرمة في جبل حراء .

ويقول أيضاً : « هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء ، وأوفوا الهارب بخبزه» والهارب والعطشان هو رسول الله ﷺ الذي فر من

---

(١) نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٤٩ .

أعدائه وأعداء دعوته . لكي يتمكن من نشر دعوته في العالمين كما أمره الله بذلك في مكان يكون فيه آمنا مطمئناً ، فهذا وصف لحالته عليه الصلاة والسلام وهو مهاجر الى المدينة المنورة ، لأن تيماء هي وادي القرى من أعمال المدينة ، ولقد ذكرها لأن أهلها صالحوا رسول الله ﷺ[1] .

ويقول أيضاً : « من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة » . وفي هذا بيان للسبب المباشر الذي دفع محمداً ﷺ الى الهجرة ، وهو أن المشركين اجتمعوا لقتله ﷺ ولكن الله أنجاه منهم بحفنة من تراب رمى بها في وجوههم فما أبصروه لما خرج من بيته مهاجراً ، ثم كان المشركون يعذبونه وأصحابه طيلة المدة التي مكثوها بمكة قبل أن يهاجروا الى المدينة .

وفي قوله : « مدة سنة كسنة الأجير يفني مجد قيدار ، وبقية عدد قِسِيِّ أبطال قيدار تقل» وفي هذا اشارة الى غزوة بدر التي حدثت بعد سنة واحدة من الهجرة ، ولقد أيد الله رسوله بالنصر ومكن له من المشركين حتى قتل الكثير من أبطالهم وصناديدهم ، وبنو قيدار هم العرب من أهل مكة . يقول الامام ابن القيم : « انه أحد أجداد النبي ﷺ »[2] .

البشارة الحادية عشرة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح الحادي والعشرين :

« قَالَ لِيَّ السَّيِّدُ اذْهَبْ ، أَقِمِ الحَارِسَ لِيُخْبِرْ بِمَا يَرَىٰ فَرَأى رُكَّاباً أزواجَ فُرْسَانٍ ، رُكَّابَ حَمِيرٍ ، رُكَّابَ جِمَالٍ . . . . وَهُوَ ذَا رُكَّابٌ مِنَ الرِّجَالِ ، أَزْوَاجٌ مِنَ الفُرْسَانِ ، فَأَجَابَ وَقَالَ سَقَطَتْ سَقَطَتْ بَابِلُ وَجَمِيعُ تَمَاثِيلِ آلِهَتِهَا المَنْحُوتَةِ كَسَّرَهَا إِلَى الأَرْضِ » .

---

(١) نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٦١ .

(٢) هداية الحيارى ص ٧٢ .

وفي نسخة قديمة : « قيل لي قم نظاراً ، فانظر ما ترى ، تخبر به ، قلت أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهمَا هوت آلهة بابل وتكسرت عليه أصنامها المنجورة »[1] .

هذا النص بشارة بمحمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، لأن راكب الحمار هو عيسى عليه السلام ، وهذا مشهور عند النصارى ، وراكب البعير هو محمد ﷺ ، وأن آلهة بابل المنحوتة لم تحطم الا بعد بعثته ﷺ .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « قالوا فراكب الحمار هو المسيح عليه السلام ، وراكب الجمل هو محمد ﷺ وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار وبمحمد سقطت بابل »[2] .

ويقول الامام ابن القيم : « وصاحب الحمار عندنا وعند النصارى هو المسيح وراكب الجمل هو محمد عليهما الصلاة والسلام ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار ، وبه سقطت أصنام بابل لا بالمسيح ، ولم يزل في اقليم بابل من يعبد الأوثان من عهد ابراهيم عليه السلام الى أن سقطت بمحمد ﷺ »[3] .

البشارة الثانية عشرة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح الخامس والثلاثين :

« تَفْرَحُ البَرِّيَّةُ وَالأَرْضُ اليَابِسَةُ وَيَبْتَهِجُ القَفْرُ وَيُزْهِرُ كَالنَّرْجِسِ ، يُزْهِرُ إزْهَاراً ، وَيَبْتَهِجُ ابْتِهَاجاً وَيُرَنِّمُ ، يُدْفَعُ إلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ بَهَاءُ كَرْمَلْ وَشَارُونَ .... حِيْنَئِذٍ تَتَفَتَّحُ عُيُونُ العُمْيِ وَآذَانُ الصُّمِّ تَتَفَتَّحُ .... وتَكُونُ هُنَاكَ سِكَّةٌ وَطَرِيقٌ يُقَالُ لَهَا الطَّرِيقُ المُقَدَّسَةُ ،

---

(١) اثبات نبوة النبي ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣٢٣ .

(٣) هداية الحيارى ص ٧٣ .

لَا يَعْبُرُ فِيْهَا نَجِسٌ بَلْ هِيَ لَهُمْ » .

وفي نسخة قديمة : « لتفرح أرض البادية العَطْشَىٰ ، ولتبتهج البراري والفلوات ولتزه لأنها ستعطي بأحمد محاسن لبنان وكمال حسن الدساكر والرياض»[1] .

يتضمن هذا النص البشارة بنبوته ﷺ وذلك بالاشارة الى الجهة التي بعث منها ، وما أحدثه الله من المجد والخيرات لهذه الجهة بعد أن كانت لا ذكر لها قبل مبعثه ﷺ .

ففي قوله : « تفرح البرية ويبتهج القفر» فالقفر والبرية هي بلاد العرب القاحلة المعروفة بالجزيرة العربية ، ومنها بعث خاتم الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه .

وفي قوله : « يدفع اليها مجد لبنان ، وبهاء كرمل وشارون » . أي أن هذه البلاد القاحلة التي لم يظهر فيها أنبياء سيدفع المجد الذي كان في بلاد الشام بظهور الأنبياء اليها ، وستصبح كثيرة الخيرات فيها المياه والأشجار كل ذلك ببركة نبيه ﷺ .

يقول الامام ابن القيم : «يريد : أجعل الكرامة التي كانت هناك (في الشام وبيت المقدس) بالوحي في ظهور الأنبياء للبادية بالنبي ﷺ وبالحج »[2] .

وقوله : « تتفتح عيون العمي وآذان الصم » في هذا اشارة الى ما صار عليه حال العرب بعد بعثة المصطفى ﷺ ، حيث أنار الله به بصائرهم فعرفوا الحق واتبعوه قولاً وعملاً .

وقوله : « وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة لا يعبر

---

(١) اثبات نبوة النبي ص ١٥٩ ، اعلام النبوة ص ١٣٠ .
(٢) هداية الحيارى ص ٧٤ .

فيها نجس بل هي لهم» في هذا اشارة الى فريضة الحج التي فرضها الله على كل مسلم ؛ والطريق المقدسة هي الطريق المؤدية الى مكة لأداء مناسك الحج ، ولا يسلك هذه الطريق غير المسلمين لأن اليهود والنصارى لا يحجون اليها .

البشارة الثالثة عشرة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح الثاني والأربعين :

« هُوَ ذَا عَبْدِي الذي أعْضُدُهُ ، مُخْتَارِيَ الَّذي سُرَّت بِهِ نَفْسِي ، وَضَعْتُ رُوْحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الحَقَّ لِلأُمَمِ ، لَا يَصِيحُ وَلَا يَرْفَعُ وَلَا يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ ، قَصَبَةً مَرضُوضَةً لا يَقْصِفُ وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لا يُطْفِيءُ ، إلى الأَمَانِ يُخْرِجُ الحَقَّ لا يَكِلُّ وَلَا يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الحَقَّ فِي الأرضِ وَتَنْتَظِرُ الجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ . . أَنَا الرَّبّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرّ فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْداً لِلْشَعْبِ وَنُوراً لِلأُمَمِ لِتَفْتَحَ عُيونَ العُمْيِ لِتُخْرِجَ مِنَ الحَبْسِ المَأْسُورِيْنَ مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الجَالِسِيْنَ فِي الظُّلْمَةِ » .

وفي نسخة قديمة : « عبدي ورسولي الذي سرت به نفسي ، أنزل عليه الوحي فيظهر في الأمم عدلي يوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، فلا يُسمَعُ صوته في الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحيي القلوب الغلف وما أعطيه لا أعطيه أحداً ، يحمد الله حمداً جديداً يأتي به من أقطار الأرض وتفرح البرية ، وسكانها يهللون الله على كل شرف ويكبرونه على كل رابية ولا يضعف ولا يُغلب ولا يميل الى الهوى مشفح ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوي الصديقين وهو ركن المتواضعين وهو نور الله الذي لا يطفأ أثر سلطانه على كتفيه »[1] .

يقول الامام ابن القيم : « وكلمة (مشفح) لفظة عبرانية مطابقة لاسم

---

(١) هداية الحيارى ص ٧٩

محمد معنى ولفظاً مقارباً كمطابقة (مؤذ مؤذ) ، بل أشد مطابقة . . قال أبو محمد بن قتيبة : (مشفح) محمد بغير شك واعتباره أنهم يقولون (شفحالاها) اذا أرادوا أن يقولوا الحمد لله ، واذا كان الحمد شفحا ، فمشفح محمد بغير شك »[1] .

يتضمن هذا النص مجموعة من الصفات التي تنطبق على نبينا محمد ﷺ ، تماماً كما شهد بذلك كعب الأحبار وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عمرو بن العاص ، فقد قالوا أن رسول الله ﷺ موصوف في التوراة مستندين الى ما جاء في هذا الاصحاح من سفر أشعياء من صفات ، مما يؤكد أن هذه البشارة بمحمد ﷺ وليست لأحد سواه .

ففي قوله : « عبدي الذي أعضده مختاري » أي أن الله سبحانه اختاره صلوات الله عليه لحمل الرسالة الالهية وأيده بالحجة الواضحة ونصره على عدوه ، وقوله : « عبدي » موافق لما جاء في القرآن بشأن النبي محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ »[2] .

وفي قوله : « وضعت روحي عليه » المقصود بالروح هنا الوحي ، وسمي بذلك لأن به حياة القلوب والأرواح ، وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾[3] .

وقوله : « يخرج الحق للأمم » أي يبلغ ما أنزل عليه من ربه الى الأمم لأنه ﷺ أرسل الى الناس كافة ، ولقد قام رسول الله ﷺ بهذا الأمر خير قيام .

---

(١) هداية الحيارى ص ٨٠ .

(٢) سورة الاسراء ، آية ١ .

(٣) سورة الشورى ، آية ٥٢ .

وقوله : « لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته » هذه الصفات تبدو واضحة جلية في سلوك رسول الله ﷺ ، فكان لا يصيح في الشارع لأن في ذلك رعونة وطيشاً ، ورسول الله ﷺ منزه عن هذا ، فهو قمة في الاتزان والوقار ، كيف لا والشريعة التي جاء بها تدعو الى غض الصوت وتعتبر رفع الصوت من أقبح الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيْرِ ﴾(١) .

وأما قوله : « لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض » في هذا اشارة الى قوته وشجاعته ﷺ في نشر الحق الذي جاء به الى الناس ، فقد جاهد صلوات الله وسلامه عليه في الله حق جهاده بكل ما أوتي من قوة في سبيل نشر الحق وازهاق الباطل ، لم يكل ولم يضعف يوماً من الأيام ، والتاريخ والسيرة العطرة خير شاهد على ذلك .

وقوله : « وتنتظر الجزائر شريعته » في هذا اشارة الى أن شريعة الاسلام عالمية ليست خاصة بالعرب وحدهم وانما هي لكل الأمم في كل زمان ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيْراً وَنَذِيْراً ﴾(٢) .

وفي قوله : « فأمسك بيدك وأحفظك » اشارة الى حفظ الله ورعايته لرسوله ﷺ، وهذا مطابق لما جاء في القرآن : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾(٣) .

وقوله : « أجعلك نوراً للأمم » هذه حال رسول الله ﷺ فإنه نور من الله أضاء به القلوب المظلمة بالكفر فأصبحت مشرقة بالايمان قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ

---

(١) سورة لقمان ، آية ١٩ .

(٢) سورة سبأ ، آية ٢٨ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٦٧ .

السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِم إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ ﴾[1]. وهكذا سماه الله في هذه الآية بالنور .

وفي قوله : « لتخرج من الحبس المأسورين » اشارة الى ماحققه رسول الله ﷺ من تحرير المأسورين بقيود الجاهلية وعاداتها واخراجهم من ظلمات الجهل الى نور الإيمان بالله الواحد القهار .

هذه صفات رسول الله ﷺ في التوراة مطابقة لصفاته في القرآن يقول الامام ابن القيم : « فمن وُجِدَ بهذا الوصف غير محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ فلو اجتمع أهل الأرض لم يقدروا أن يذكروا نبياً جمع هذه الأوصاف كلها ـ وهي باقية في أمته الى يوم القيامة ـ غيره ولم يجدوا الى ذلك سبيلاً »[2] .

البشارة الرابعة عشرة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح الثاني والأربعين :

« غنُّوا لِلرَّبِّ أُغْنِيَةً جَدِيْدَةً ، تَسْبِيْحُهُ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ ، أَيُّهَا الْمُنْحَدِرُوْنَ فِي البَحْرِ وَمِلْؤُهُ وَالجَزَائِرُ وَسُكَّانُهَا ، لِتَرْفَعَ البَرِّيَّة وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيْدَارُ ، لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالَعَ مِنْ رُؤُوسِ الجِبَالِ ، لِيَهْتِفُوا لِيُعْطُوا الرَّبَّ مَجْداً وَيُخْبِرُوا بِتَسْبِيحِهِ فِيْ الجَزَائِرِ » .

وفي نسخة قديمة : « سبحوا للرب تسبيحة جديدة حمده من أقصى الأرض »[3] .

وفي هذه البشارة اشارة الى مكان بعثته ﷺ ومهاجره والى ركن من أركان الاسلام ، وهو الحج ، ثم الى صفته وصفة أمته الذين يحمدون الله

---

(١) سورة المائدة ، الآيتان ١٥ ـ ١٦ .
(٢) هداية الحيارى ص ٧٥ .
(٣) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٦١ .

المتتالية حتى مكنهم من تحطيم أكبر دولتين في ذلك الوقت فارس والروم ، وبهذا اتسعت بقعة الدولة الاسلامية وترامت أطرافها شرقاً وغرباً .

يقول الامام ابن القيم : « ومعلوم أن هذا ينطبق على محمد حذو القذة بالقذة لا على المسيح ولا على نبي سواه ، فهو الذي بعث بشريعة قوية ، دق جميع ملوك الأرض وأممها حتى امتلأت الأرض من أمته ، وسلطانه دائم الى آخر الدهر »[١] .

ويقول الامام الماوردي : « ومعلوم أنه لم يرسل الله تعالى سلطاناً أزال به الممالك وملأ به الأرض وأدام له الأمر الا بنبوة محمد ﷺ »[٢] .

ويقول الشيخ رحمة الله الهندي : « وفي عهد أنو شيروان ولد محمد ابن عبد الله ﷺ وأعطاه الله السلطنة الظاهرة والباطنة وقد تسلط متبعوه في مدة قليلة شرقاً وغرباً وعلى جميع ديار فارس التي كانت الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها ، فهذه السلطنة الأبدية التي لا تنقض ، وملكها لا يعطى لشعب آخر . . . فهذا الحجر الذي انقطع لا بيدين من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب وصار جبلاً عظيماً وملأ الأرض بأسرها هو محمد ﷺ »[٣] .

البشارة الثامنة عشرة :

ورد في سفر حبقوق الاصحاح الثالث :

« اللَّهُ جَاءَ مِنْ تَيْمَانَ ، وَالقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانِ ، سِلَاهْ ، جَلَالُهُ غَطَّى السَّمٰوَاتِ، وَالأرْضَ امتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ ، وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ ، وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ ، قُدَّامَهُ ذَهَبَ الوَبَاءُ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ

(١) هداية الحيارى ص ٨٣ .
(٢) اعلام النبوة للماوردي ص ١٣٦ .
(٣) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٦٩ .

ولا يزال يشق أجواء الفضاء كل يوم خمس مرات ، وذلك التكبير والتحميد في أطراف النهار وآناء الليل »[1] .

فهل من شك بعد هذا في أنه ﷺ هو المقصود في هذه البشارة ؟

البشارة الخامسة عشرة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح الرابع والخمسين :

« تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا العَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ ، أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَمْخَضْ لِأَنَّ بَنِي المُسْتَوْحِشَةِ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي البَعْلِ ، قَالَ الرَّبُّ : أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ لَا تُمْسِكِي أَطِيلِي أَطْنَابَكِ وَشَدِّدِي أَوْتَادَكِ لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى اليَمِينِ وَإِلَى اليَسَارِ وَيَرِثُ نَسلُكِ أُمَماً وَيُعْمِرُ مُدُناً خَرِبَةً .... بِفَيَضَانِ الغَضَبِ حَجَبْتُ وَجْهِي عَنْكِ لَحْظَةً وَبِإِحسَانٍ أَبَدِيٍّ أَرْحَمُكِ ... فَإِنَّ الجِبَالَ تَزُولُ وَالآكَامُ تَتزعْزَعُ ، أَمَّا إِحْسَانِي فَلَا يَزُولُ عَنْكِ وَعَهْدُ سَلَامِي لَا يَتزعْزَعُ قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ .... وَكُلَّ بَنِيكِ تَلَامِيذُ الرَّبِّ وَسَلَامَ بَنِيكِ كَثِيراً ، بِالبِرِّ تُثَبَّتِينَ بَعِيْدَةً عَنِ الظُّلمِ فَلَا تَخَافِينَ ، وَعَنِ الارتعاب فَلَا يَدْنُو مِنْكِ ، هَا إِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ اجْتِمَاعاً لَيْسَ مِنْ عِنْدِي ، مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْكِ فَإِلَيكِ يَسْقُطُ .... وَكُلُّ لِسَانٍ يَقُومُ عَلَيْكِ فِي القَضَاءِ تَحْكُمِيْنَ عَلَيْهِ » .

يتحدث هذا النص عن مكة المكرمة وعن تعظيم الله لها الى أن يرث الأرض ومن عليها ، كما يتحدث عن الأمة الاسلامية حملة رسالة الاسلام الى العالم ، وعن امتداد نفوذهم في الأرض معمرين غير مفسدين، مرشدين

---

(١) الرسل والرسالات ص ١٧٠

الناس الى الحق والى صراط مستقيم .

ففي قوله : « أيتها العاقر » المراد بالعاقر هنا مكة المكرمة لأنه لم يظهر فيها بعد اسماعيل عليه السلام الى زمن بعثة محمد ﷺ أحد من الأنبياء ، وهي فترة زمنية طويلة ، وليس المقصود بالعاقر بيت المقدس لأنه ظهر فيها أنبياء كثيرون كان آخرهم عيسى عليه السلام وهذا ثابت ومعلوم .

يقول الشيخ رحمة الله الهندي : « المراد بالعاقر مكة المعظمة لأنها لم يظهر منها نبي بعد اسماعيل عليه السلام ولم ينزل فيها وحي بخلاف أورشليم لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون وكثر فيها نزول الوحي »[1] .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « ويعني بالعاقر مكة ـ شرفها الله ـ لأنها لم تلد قبل نبينا عليه الصلاة والسلام ، ولا يجوز أن يراد بالعاقر بيت المقدس لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي »[2] .

وقوله : « بني المستوحشة أكثر من بني ذات بعل » المراد بالمستوحشة السيدة هاجر ، وسميت بذلك لأنها سكنت الصحراء بعيدة عن أهلها وبيت زوجها فكانت بمنزلة المطلقة المبعدة عن بيتها ، وأن اليهود أطلقوا هذه العبارة على نسلها ، فقد جاء في التوراة عن اسماعيل عليه السلام قولهم : « وانه يكون انساناً وحشياً » .

والمقصود بذات بعل هي السيدة سارة زوجة ابراهيم عليه السلام ، أي أن أولاد السيدة هاجر سيكونون أكثر من أولاد السيدة سارة ، وهذا ما حققه الله بالاسلام .

وقوله : « أوسعي خيمتك . . . . لأنك تمتدين الى اليمين والى اليسار ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خربة » في هذا اشارة الى امتداد نفوذ الأمة الاسلامية وتمكين الله لهم في الأرض ، يعمرون المدن ويرثون الأمم ،

---

(١) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣٢٧ ، وانظر هداية الحيارى ص ٧٣ ـ ٧٤ .

وهـذا ما حققـه الله للمسلمين في الصدر الأول ، فقـد سيطروا على العـالم شرقاً وغرباً في فترة قصيرة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً .

وقوله : « فان الجبال تزول . . . أما احسـاني فلا يـزول عنك » أي أن تعظيم الله لبيته الحرام دائم ومستمر ، وستبقى مكة المكرمة أقدس بقعـة في الأرض حتى يأتي أمر الله ، وفي هـذه إشارة الى أن رسـالة الاسـلام رسالـة خالدة الى يوم القيامة ، لأن تعظيم بيت الله الحرام من شعائـر الاسلام كمـا هو معلوم .

وقوله : « واجعـل . . . . كل بنيـك تلاميـذ الرب » أي أن كـل فرد من المسلمين يتلقى الشريعة لأنها تخصه في حياته ، وليست الشريعة حكراً على طائفة من المسلمين دون الأخرى ، كما هـو الحال عنـد بني إسرائيـل ، فقد كانت الشريعة التي جاء بها موسى حكراً في بني لاوى[1] .

وقـولـه : « واجعـل . . . وسـلام بنيـك كثيـراً » هـذه سمـة بـارزة في المجتمـع المسلم لأن تحيـة المسلم لأخيـه المسلم هي قـولـه : السـلام عليكم .

وقوله : « بعيدة عن الظلم فلا تخافين » وهذا موافق لما جاء في القران الكـريم ، قـال تعـالى : ﴿ **وَمَنْ يُـرِدْ فِيـهِ بِـإِلْحَـادٍ بِـظُلْمٍ نُـذِقْـهُ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[2] . وقوله تعالى أيضاً: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمَاً آمِناً وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم** ﴾[3] . فلا ظلم ولا خوف في الحرم المكي الشريف ، بل الأمن والأمان .

وقوله: «من اجتمع عليك فإليك يسقط . . . وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه»، وفي هذا اشارة الى حماية الله لها من كل سوء

---

(١) نبوة محمد في الكتاب المقدس ص ٧٧ .

(٢) سورة الحج ، آية ٢٥ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٦٧ .

وشر وذلك من تعظيم الله لها ، فمن أرادها بسوء وشر ينقلب ذلك عليه ، وخير شاهد على ذلك هو ما فعله الله بأبرهة الأشرم وجيشه عندما أرادوا أن يهدموا بيت الله الحرام فأهلكهم رب البيت عن بكرة أبيهم .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « وهي التي أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخربها فلم تزل عزيزة محرمة لم يهنها أحد من البشر قط ، فأصحاب الفيل أهلكهم الله عندما أرادوها بشر ، فلم تزل محجوبة من لدن ابراهيم عليه السلام بخلاف بيت المقدس ، فانه قد خرب المرة بعد المرة وخلا من السكان واستولى العدو عليه وعلى أهله »[1] .

وبهذا العرض يتضح لنا أن البلد التي يتحدث عنها هذا النص هي مكة المكرمة وليس بيت المقدس ، فهذه بشارة واضحة بالمكان الذي بعث فيه ﷺ .

البشارة السادسة عشرة :

ورد في سفر أشعياء الاصحاح الستين :

« قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ ، لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ ، أَمَّا عَلَيْكِ فَيُشْرِقُ الرَّبُّ وَمَجْدُهُ عَلَيْكِ يُرَى فَتَسِيرُ الأُمَمُ فِي نُورِكِ وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكِ ، إِرْفَعِي عَيْنَيْكِ حَوَالَيْكِ وَانْظُرِي قَدِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُم ، جَاءُوا إِلَيْكِ ، يَأْتِي بَنُوكِ مِنْ بَعِيْدٍ وَتُحْمَلُ بَنَاتُكِ عَلَى الأَيْدِي ، حِيْنَئِذٍ تَنْظُرِيْنَ وَتُنْيرِيْنَ وَيَخْفُقُ قَلْبُكِ وَيَتَّسِعُ لأَنَّهُ تَتَحَوَّلُ إِلَيْكِ ثَرْوَةُ البَحْرِ وَيَأْتِي إِلَيْكِ غِنَى الأُمَمِ ، تُغَطِيْكِ كَثْرَةُ الجِمَالِ ، بُكْرَانُ مِدْيَانَ وَعِيْفَة كُلُّهَا تَأْتِي مِنْ شَبَا ، تَحْمِلُ ذَهَباً وَلُبَاناً وَتُبَشِّرُ بِتَسَابِيحِ الرَّبِّ كُلُّ غَنَمِ قِيْدَارَ تَجْتَمِعُ إِلَيْكِ ، كِبَاشُ نَبَايُوت تَخْدِمُكِ ، تَصْعَدُ

---

(١) الجواب الصحيح جـ٣ ص ٣٢٩ .

مَقْبُولَةً عَلَى مَذْبَحِي وَأُزَيِّنُ بَيْتَ جَمَالِي . . . وَتَنْفَتِحُ أَبْوَابُـكِ دَائِمَاً نَهَـارَاً وَلَيْلاً لَا تُغْلَقُ . . . وَشَعْبُكِ كُلُّهُم أَبْرَارٌ إِلَى الأَبَدِ يَرِثُـونَ الأَرْضَ . . الصَّغِيْرُ يَصِيرُ قَوِيَّةً » .

وفي نسخة قديمة : « ارفعي بصرك الى ما حولك . . . . ويحجونك لك ولدك من بعيد »[1] .

يتحدث هذا النص أيضاً عن مكة المكرمة وعن إكرام اللّه لها بإشراق نوره سبحانه وتعالى عليها بعد الظلام الشديد الذي خيم على الأرض كافة .

كما يتحدث أيضاً عن تعظيم اللّه لها بأن جعلها محجاً للأمة المختارة وهي الأمة الإسلامية التي فرض اللّه عليها الحج .

ففي قوله : « قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك » هذا الكلام المعني به مكة المكرمة وذلك لأن نور اللّه أشرق عليها بنزول الوحي على أحد أبنائها صلوات اللّه وسلامه عليه ، وبهذا فقد أصبحت أقدس بقعة في العالم ، حيث انبثق منها نور اللّه فأضاء العالم وعم نفعه خلقاً كثيراً .

وفي قوله : « لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم » وصف لحالة الأرض قبل إشراق نور اللّه عليهم ، فقد كانوا يعيشون في ظلمة حالكة في جميع نواحي المعمورة ، وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾[2] فساد في الفكر والعقيدة والأخلاق وفي كل شيء وفي كل مكان .

يقول الأستاذ ابراهيم خليل : « وهذه حقيقة تاريخية يثبتها التاريخ ،

---

(١) أعلام النبوة للماوردي ص ١٢٩ ، اثبات نبوة النبي ص ١٦٥ .

(٢) سورة الروم ، آية ٤١ .

فبينما العالم الشرقي والعالم الغربي بفلسفاتهما العقيمة يعيشان في دياجير ظلام الفكر وفساد العبادة بزغ من مكة المكرمة في شخص محمد ﷺ نور وضياء أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام »[1] .

وفي قوله : « قد اجتمعوا كلهم جاءوا اليك ، يأتي بنوك من بعيد » اشارة الى قدومهم لأداء فريضة الحج كما هو مصرح بذلك في النسخة القديمة ، وهذا ما يحدث كل عام منذ أن فرض الله الحج على هذه الأمة ، فانهم يجتمعون من أماكن مختلفة متباعدة ملبين نداء الله على لسان ابراهيم عليه السلام : ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ** »[2] .

وفي قوله : « تغطيك كثرة الجمال» إشارة إلى كثرة القادمين لأداء هذه الفريضة ، لأن الجمال كانت وسيلة النقل سابقاً ، ثم أن بعض هذه الجمال تكون هدايا وأضاحي .

. وأما قوله : « وتبشر بتسابيح الرب » فيشير الى التلبية والدعاء الذي ينطلق من أفواه الآلاف بل الملايين من حجاج بيت الله الحرام .

وقوله : « كل غنم قيدار تجتمع اليك كباش بنايوت تخدمك تصعد مقبولة على مذبحي » وقيدار وبنايوت أخوان من أولاد اسماعيل عليه السلام[3] ، وفي هذا اشارة الى يوم النحر ، ذلك اليوم الذي تذبح فيه الآلاف من الأضاحي والهدايا تقرباً الى الله واتباعاً لهدى المصطفى ﷺ .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « قالوا فهذه الصفات حصلت بمكة فحملت اليها ذخائر البحر ، وحج اليها عساكر الأمم وسيقت اليها أغنام قيدار هدايا وأضاحي »[4] .

---

(١) محمد في التوراة والانجيل والقرآن ص ٤٧ .

(٢) سورة الحج ، آية ٢٧ .

(٣) اثبات نبوة النبي ص ١٦٦ .

(٤) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣٢٩ .

وفي قوله : « وتتفتح أبوابك دائماً نهاراً وليلاً لا تغلق » وصف لبيت الله الحرام الذي لا تغلق أبوابه أبداً وذلك لأن الطواف حول الكعبة المشرفة مستمر لا ينقطع .

وقوله : « وشعبك كلهم أبرار الى الآبد يرثون الأرض » أي أن الأمة الاسلامية هي آخر الأمم وشريعتهم هي خاتمة الشرائع حتى تقوم الساعة .

وفي قوله : « والصغير يصير ألفاً والحقير أمة قوية » وصف لحال العرب قبل أن يبعث فيهم رسول الله ﷺ ، فقد كانوا أمة صغيرة ضعيفة يحتقرها اليهود ثم أصبحت أمة قوية بالاسلام .

البشارة السابعة عشرة :

ورد في سفر دانيال الاصحاح الثاني :

« وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ مُلْكِ نَبُوخَذْ نَصَّرَ ، حَلَمَ نَبُوخَذْ نَصَّرُ أَحْلاَماً فَانْزَعَجَتْ رُوحُهُ فَأَمَرَ المَلِكُ بِأَنْ يُسْتَدْعَى المَجُوسُ وَالسَّحَرَةُ والعَرَّافُونَ وَالكَلْدَانِيُّونَ لِيُخْبِرُوا الْمَلِكَ بِأَحْلاَمِهِ . . . أَجَابَ المَلِكُ وَقَالَ لِدَانِيالَ الَّذِي اسْمُهُ بِلْطْشَاصَّرُ ، هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْتَ عَلَى أَنْ تُعَرِّفَنِي بِالْحُلْمِ الَّذِي رَأَيْتُ وَبِتَعْبِيرِهِ ؟ أَجَابَ دَانِيالُ قُدَّامَ المَلِكِ وَقَالَ . . . لٰكِنْ يُوْجَدُ إلٰهٌ فِي السَّمٰوَاتِ كَاشِفُ الأَسْرَارِ ، وَقَدْ عَرَّفَ المَلِكَ نَبُوخَذْ نَصَّرَ مَا يَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيْرَةِ . . . أَنْتَ أَيُّهَا المَلِكُ كُنْتَ تَنْظُرُ وَ إِذَا بِتِمْثَالٍ عَظِيْمٍ ، هٰذَا التِّمْثَالُ العَظِيْمُ الْبَهِيُّ جِدّاً وَقَفَ قُبَالَتَكَ وَمَنْظَرُهُ هَائِلٌ ، رَأْسُ هٰذَا التِّمْثَالِ مِنْ ذَهَبٍ جَيِّدٍ ، صَدْرُهُ وَذِرَاعَاهُ مِنْ فِضَّةٍ ، بَطْنُهُ وَفَخِذَاهُ مِنْ نُحَاسٍ ، سَاقَاهُ مِنْ حَدِيدٍ ، قَدَمَاهُ بَعْضُهُمَا مِنْ حَدِيدٍ وَالبَعْضُ مِنْ خَزَفٍ ، كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَى أَنْ قُطِعَ حَجَرٌ بغيرِ يَدَيْنِ فَضَرَبَ التِّمْثَالَ عَلَى قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ مِنْ حَدِيْدٍ وَخَزَفٍ فَسَحَقَهُمَا ، فَانْسَحَقَ حِينَئِذٍ الحَدِيدُ والخَزَفُ والنُّحَاسُ وَالفِضَةُ وَالذَّهَبُ مَعاً

وَصَارَتْ كَعُصَافَةِ الْبَيْدَرِ فِي الصَّيْفِ فَحَمَلَتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ يُوجَدْ لَهَا مَكَانٌ ، أَمَّا الحَجَرُ الَّذِي ضَرَبَ التِّمْثَالَ فَصَارَ جَبَلاً كَبِيراً وَمَلأَ الأَرْضَ كُلَّهَا . هَذَا هُوَ الْحُلْمُ . . . . . فَأَنْتَ هٰذَا الرَّأْسُ مِنْ ذَهَبٍ وَبَعْدَكَ تَقُومُ مَمْلَكَةٌ أُخْرَى أَصْغَرُ مِنْكَ وَمَمْلَكَةٌ ثَالِثَةٌ أُخْرَى مِنْ نُحَاسٍ . . . وَفِي أَيَّامِ هؤلَاءِ المُلُوكِ يُقِيْمُ إِلٰهُ السَّمٰوَاتِ مَمْلَكَةً لَنْ تَنْقَرِضَ أَبَداً وَمُلْكُهَا لَا يُتْرَكُ لِشَعْبٍ آخَرَ وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كُلَّ هٰذِهِ المَمَالِكِ وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ لِأَنَّكَ رَأَيْتَ أَنَّهُ قَدْ قُطِعَ حَجَرُ مِنْ جَبَلٍ لَا بِيَدَيْنِ فَسَحَقَ الحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ وَالخَزَفَ والفِضَّةَ وَالذَّهَبَ . . . الحُلْمُ حَقٌّ وَتَعْبِيْرُهُ يَقِيْنٌ » .

وفي نسخة قديمة : « وأما الحجر الذي رأيت قد صَكَّ ذلك الصنم فَفَتَّتَهُ فهو نبي يقيمه الله اله السماء والأرض من قبيلة بشريعة قوية فيدق جميع ملوك الأرض »(١) .

تشير هذه الرؤيا والتي عبرها دانيال الى أن مملكة ربانية ستقام على الأرض تحطم جميع الممالك القائمة مهما بلغت قوتها وجبروتها في الأرض لأن الله سيؤيد هذه المملكة الناشئة على الحق ، وأن المؤسس لهذه المملكة نبي يبعثه الله بشريعة قوية كما جاء في النسخة القديمة ، ويحقق الله على يديه ما يريد .

ومعلوم أن النبي ﷺ هو الذي أرسله الله بشريعة قوية ، الجهاد فيها من أعظم فرائضها ، فقد استطاع بتأييد الله أن ينشىء الدولة الاسلامية العظيمة في فترة وجيزة ، وقام اتباعه رضوان الله عليهم من بعده بتوسيع رقعة هذه الدولة فانطلقوا الى العالم مبشرين برسالة الاسلام ، ومن حال دونهم ودون نشر الدعوة في أي بقعة حاربوه ، وأيدهم الله بالانتصارات

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٣ ـ ٤ .

المتتالية حتى مكنهم من تحطيم أكبر دولتين في ذلك الوقت فارس والروم ، وبهذا اتسعت بقعة الدولة الاسلامية وترامت أطرافها شرقاً وغرباً .

يقول الامام ابن القيم : « ومعلوم أن هذا ينطبق على محمد حذو القذة بالقذة لا على المسيح ولا على نبي سواه ، فهو الذي بعث بشريعة قوية ، دق جميع ملوك الأرض وأممها حتى امتلأت الأرض من أمته ، وسلطانه دائم الى آخر الدهر »(١) .

ويقول الامام الماوردي : « ومعلوم أنه لم يرسل الله تعالى سلطاناً أزال به الممالك وملأ به الأرض وأدام له الأمر الا بنبوة محمد ﷺ »(٢) .

ويقول الشيخ رحمة الله الهندي : « وفي عهد أنو شيروان ولد محمد ابن عبد الله ﷺ وأعطاه الله السلطنة الظاهرة والباطنة وقد تسلط متبعوه في مدة قليلة شرقاً وغرباً وعلى جميع ديار فارس التي كانت الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها ، فهذه السلطنة الأبدية التي لا تنقض ، وملكها لا يعطى لشعب آخر . . . فهذا الحجر الذي انقطع لا بيدين من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب وصار جبلاً عظيماً وملأ الأرض بأسرها هو محمد ﷺ »(٣) .

البشارة الثامنة عشرة :

ورد في سفر حبقوق الاصحاح الثالث :

« اللَّهُ جَاءَ مِنْ تَيْمَانَ ، وَالقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانِ ، سِلاَهْ ، جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمٰوَاتِ، وَالأَرْضَ امتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ ، وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ ، وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ ، قُدَّامَهُ ذَهَبَ الوَبَاءُ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ

---

(١) هداية الحيارى ص ٨٣ .

(٢) اعلام النبوة للماوردي ص ١٣٦ .

(٣) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٦٩ .

الحُمَّى ، وَقَفَ وَقَاسَ الأَرْضَ ، نَظَرَ فَرَجَفَ الأُمَمُ وَدُكَّتِ الجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ آكَامُ الْقِدَمِ » .

وفي نسخة قديمة : « ان الله جاء من التيمن ، والقدوس من جبال فاران لقد أضاءت السماء من بهاء أحمد وامتلأت الأرض من حمده ، شعاع منظره مثل النور »[١] .

يتضمن هذا النص عدة اشارات على نبوته ﷺ ، فهو يتحدث عن المكان الذي بعث منه وعن صفته وصفة أمته ، كما يتحدث عن انتشار دعوته وتمكين الله لها في الأرض .

ففي قوله : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » اشارة واضحة الى الجهة التي نزل فيها الوحي على خاتم الأنبياء والمرسلين لأن جبل فاران هو جبال مكة ، كما سبق ذكره ، ويؤكد الشهرستاني ذلك بقوله : « وفاران جبال مكة التي كانت مظهر المصطفى ﷺ »[٢] .

وتيمان هي بلاد اليمن ، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « مجيء نور الله التيمن وهي ناحية مكة والحجاز فإن أنبياء بني اسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام ومحمد جاء من ناحية اليمن »[٣] .

وفي قوله : « امتلأت الأرض من تسبيحه » اشارة الى انتشار دعوته ﷺ في الأرض ، فقد امتلأت الأرض من تسبيحه وتسبيح أمته وحمدهم لله فهم يسبحون الله ويحمدونه دائماً في صلاتهم وخطبهم وفي جميع أحوالهم في السراء والضراء وفي كل مكان وجدوا فيه .

وقوله : « وكان لمعان كالنور ، له من يده شعاع وهناك استتار قدرته » يقول الدكتور عمر الأشقر : « الذي يبدو لي أن هذا النص يتحدث عن

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣٣٠ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢١٣ .
(٣) الجواب الصحيح جـ ٣ ص ٣٣١ .

حادثة بعينها ، وهي ما وقع منه ﷺ في غزوة الخندق ، عندما أعجزت صخرة الصحابة أثناء حفر الخندق فجاء الرسول ﷺ فضربها ضربة قوية أسقطت ثلثها ، وخرج منها نور فكبر الرسول ﷺ وكبر أصحابه ، ثم الثانية فالثالثة ، وقد أخبر الرسول ﷺ أنه رأى بالنور الأول قصور الشام ، وبالنور الثاني قصور فارس ، وبالنور الثالث أبواب صنعاء »[1] .

وهذه الحادثة ثابتة في سيرته ﷺ .

وفي قوله : « قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى » اشارة الى ما أكرم الله به نبيه ﷺ باستجابة دعوته ، اذ دعا الله بذهاب الوباء وخروج الحمى من المدينة المنورة بعد أن كانت معروفة بالحمى حتى أصابت أصحابه رضوان الله عليهم عند هجرتهم إليها[2] .

وفي قوله : « فرجف الأمم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم » اشارة الى زوال سلطان الأمم القوية والضعيفة من الأرض على يدي رسول الله ﷺ وصحبه الكرام .

وبهذا يتضح لنا أن هذه البشارة خاصة برسول الله ﷺ ، فكل ما جاء فيها ينطبق عليه ويتعلق به وان لم تصرح باسمه كما صرحت النسخ القديمة التي نقل منها علماؤنا الأوائل والتي ذكرت اسمه ﷺ صراحة .

---

(١) الرسل والرسالات ص ١٧١ .
(٢) الرسل والرسالات ص ١٧٢ .



بشارات انجيل متى :

البشارة الأولى :

وردت عدة نصوص في اصحاحات مختلفة من هذا الانجيل تبشر بملكوت السموات منها :

في الاصحاح الثالث : « وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا المَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ اليَهُودِيَّةِ قَائِلاً تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمواتِ » .

وفي الاصحاح الرابع : « مِنْ ذٰلِكَ الزَّمَانُ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَكْرِزُ وَيَقُولُ تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمٰوَاتِ » .

وفي الاصحاح السادس : « فَصَلُّوا أَنْتُمْ هكَذَا ، أَبَانَا الَّذِي فِي السَّموَاتِ لِيَتَقَدَّسَ اسمُكَ لِيَأتِ مَلَكُوتُكَ » .

وفي الاصحاح العاشر : « وَفِيمَا أَنْتُم ذَاهِبُونَ اكرِزُوا قَائِلِينَ إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمٰوَاتِ » .

تبين لنا هذه النصوص أن كلاً من يحيى وعيسى عليهما السلام

والحواريين بشروا بملكوت السموات فما المقصود بذلك ؟

يرى الشيخ رحمة الله الهندي أن المقصود بملكوت السموات هي المملكة التي أخبر عنها دانيال والتي سبق الحديث عنها ، يقول : « ولفظ ملكوت السموات بحسب الظاهر يدل على أن هذا الملكوت يكون في صورة السلطنة لا في صورة المسكنة ، وأن المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لأجله وأن مبنى قوانينه لا بد أن يكون كتاباً سماوياً وكل من هذه الأمور يصدق على الشريعة المحمدية »[1] .

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أن المقصود بالملكوت هو دين جديد ينزله الله الى الخلق وهو الاسلام[2] .

فالظاهر أن المقصود بملكوت السموات مملكة ربانية قائمة على أساس شريعة جديدة يأتي بها نبي في آخر الزمان ، وهذا لم يصدق الا على نبي الاسلام وشريعة الاسلام التي اقترنت بالهيبة والقوة بحيث تَمَكَّنَ أتباعها من اقامة دولة تحميها وتنشرها في أرجاء الأرض ، ولا يصدق هذا على شريعة عيسى عليه السلام لأنه بَشَّرَ بمثل ما بَشَّرَ به يحيى من قبله من اقتراب ملكوت السموات ، فدل هذا على أن ملكوت السموات لم يظهر في زمن عيسى كما لم يظهر في زمن يحيى عليهما السلام . ثم انه لو كان المقصود بالملكوت شريعة عيسى عليه السلام لما بَشَّرَ به لأنه موجود وحاصل ، ولكن بشارة عيسى ويحيى عليهما السلام والحواريين تفيد أن ملكوت السموات سيأتي في المستقبل فجاءت شريعة الاسلام التي مكن الله لها في الأرض وأصبحت مرهوبة الجانب من قبل أعدائها في كل زمان ومكان .

ولكن النصارى يَدَّعُون أن المقصود بملكوت السموات هو الكنيسة لأنها لم تشكل في زمن عيسى عليه السلام ، صرح بذلك كتاب الانجيل والصليب فقال : « اذا سألتم راهباً مسيحياً ما هو الملكوت ؟ يجيبكم فوراً

---

(١) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٩٥ .

هو الكنيسة وإن لم يكن قد تشكل في زمن المسيح مثل هذه الكنيسة ومثل هذه الملة والجماعة فالمسيح وتلاميذه كانوا يدخلون (السيناغوغا) المسمى (كنشت كنيس) كسائر اليهود ويصلون ويتعبدون ولم يخطر على باله إحداث مذهب جديد أو جماعة جديدة ، وبناء على ذلك لم يتشكل ملكوت الله في زمن عيسى عليه السلام ، فالكنيسة المتخشعة الصارخة بضع مرات في كل يوم (ليأت ملكوتك) منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة لم تكن غير الجماعة العيسوية ، يا للتضاد ، يا للعناد والعصيان لقد مضى تسعة عشر عصراً الى الآن ننتظر قائلين (ليأت ملكوتك) فان كان ملكوت الله هو الكنيسة ، فما بال الكنيسة تكرر بفمها ولسانها كل يوم هذا الدعاء وتطلب من اللّه أن يبعث لهم ملكوته »[1] .

وبهذا يتضح لنا أن بشارة عيسى ويحيى عليهما السلام والحواريين بملكوت السموات انما المراد منها شريعة الاسلام التي أرسل بها خاتم الأنبياء وآخر المرسلين ﷺ .

البشارة الثانية :

ورد في الاصحاح الثالث :

« وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا المَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ اليَهُودِيَّةِ قَائِلاً تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمواتِ ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قِيْلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيّ القَائِلِ صَوْتُ صَارِخٍ فِي البَرِّيَّةِ أَعِدُّوا طَرِيْقَ الرَّبِّ اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيْمَةً . . . . . . فَلَمَّا رَأى كَثِيْرِيْنَ مِنَ الفَرِيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ يَأْتُونَ إلى مَعْمُودِيَّتِهِ قَالَ لَهُم يَا أَوْلَادَ الأَفَاعِي مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الغَضَبِ الآتِي ،

---

(١) الانجيل والصليب ص ٧٦ ـ ٧٧ ، نقلاً عن كتاب نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٩٥ .

فَاصْنَعُوا أَثْمَاراً تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ وَلَا تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ لَنا إِبْرَاهِيمُ أَبَاً ، لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هٰذِهِ الحِجَارَةِ أَولَاداً لِإِبْرَاهِيمَ ، وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ فَكُلُّ شَجَرَةٍ لا تَصْنَعُ ثَمَراً جَيِّداً تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ ، أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلْتَوْبَةِ وَلٰكِنِ الَّذي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ هُوَ سَيُعَمِّدُكُم بِالرُّوحِ القُدُسِ وَنَارٍ » .

يبين هذا النص أن يحيى عليه السلام أتى مبشراً وممهداً الطريق لنبي الاسلام ﷺ . بقوله : (توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات فان هذا الذي قيل عنه باشعياء) ، ثم انه عليه السلام هدد اليهود بغضب الله وأكد لهم أنه آت لا محالة وذلك بسبب معاصيهم الكثيرة والمتكررة فدعاهم الى التوبة وألا يخدعوا أنفسهم بقولهم نحن أولاد ابراهيم فان هذا لن ينفعهم فان الذي لا يفعل الطيبات سينتقم الله منه حتى ولو كان نبياً. يقول : « قد وضعت الفأس على أصل الشجر فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار » كما أن في هذا النص اشارة الى أن عذابهم وهلاكهم قد اقترب وبعد ذلك يصف النبي الآتي بعده بقوله :-« الذي يأتي بعدي هو أقوى مني » وهذا لا ينطبق الا على محمد ﷺ لأنه أتى بعده وأقوى منه فعلاً .

إلا أن النصارى يقولون أنه يشير الى عيسى عليه السلام ، وقولهم هذا غير صحيح لأن عيسى عليه السلام مُبَشِّرٌ بما بَشَّرَ به يحيى ودعا الناس الى التوبة بقوله : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت لسموات» ثم ان عيسى عليه السلام كان معاصراً ليحيى ولم يأت بعده ، ثم انه شبيه ليحيى في الضعف أمام أعدائهم ، فلم يملكا سيفاً ولا رمحاً للدفاع عن أنفسهما ودعوتهما[1] .

يقول الأستاذ محمد الطهطاوي : « يستبعد أن يكون المشار اليه

---

(١) نبوة محمد في الكتاب المقدس ، ص ٩٥ .

المسيح عليه السلام لأنه لم يأت بعده بل كان معاصراً له ، اذن هذه الاشارة من الوضوح بحيث لا تحتمل الا وجها واحداً هو أن نبياً سيأتي بعده أقوى منه وهو سيدنا محمد الذي تأيدت رسالته ونبوته بالروح القدس »[1] .

البشارة الثالثة :

ورد في الاصحاح الثامن :

« وَأَقُولُ لَكُمْ إنَّ كَثِيرِيْنَ سَيَأْتُونَ مِنَ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إبْرَاهِيْمَ وَإسْحٰقَ وَيَعقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ ، وَأَمَّا بَنُو المَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إلَىٰ الظُّلْمَةِ الخَارِجِيَّةِ هُنَاكَ يَكُونُ البُكَاءُ وَصَرِيرُ الأسْنَانِ » .

يخبر عيسى عليه السلام بأن أمة ستأتي من مشارق الأرض ومغاربها تحشر مع الأنبياء لصلاحهم وَرِضى الله عنهم ، وهذا ينطبق على الأمة الاسلامية لأنها الأمة التي ستأتي من مشارق الأرض ومغاربها نظراً لانتشار الاسلام في ربوع الأرض ، وهي الأمة التي نالت رِضى ربها بسبب طاعتها له ولرسوله . قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً** »[2] .

يقول الدكتور فاضل السامرائي : « هذه بشارة تشير إلى ظهور أمة الإسلام التي تأتي من المشارق والمغارب وتكون مرضية عند اللّه مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً »[3] .

ويقول الشيخ عبد الرحمن بك زاده في كتابه الفارق : « أيها المسيحي

---

(١) محمد نبي الاسلام ص ٣٤ .

(٢) سورة النساء ، آية ٦٩ .

(٣) نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٩٨ .

إذا أنصفت تحكم بأن هؤلاء الذين سيأتون من مشارق الأرض ومغاربها هم الأمة المحمدية لأنكم مخاطبون حاضرون إذ ذاك ، والمسيح سلام اللّه عليه يخبر عن قوم سيأتون في مستقبل الزمن ، وقد أخرجكم بقوله (وأما بنو الملكوت) »[1]

البشارة الرابعة :

ورد في الأصحاح العشرين :

« فَإِنَّ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلاً رَبَّ بَيْتٍ خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأجِرَ فَعَلَةً لِكَرْمِهِ فَاتَّفَقَ مَعَ الفَعَلَةِ عَلَىٰ دِيْنَارٍ فِي اليَوْمِ وَأَرْسَلَهُمْ إِلَىٰ كَرْمِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَالِثَةِ وَرَأى آخَرِينَ قِيَامَاً فِي السُّوقِ بَطَّالِينَ ، فَقَالَ لَهُمُ اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضَاً إِلَىٰ الكَرْمِ فَأُعْطِيَكُمْ مَا يَحِقُّ لَكُمْ فَمَضَوْا ، وَخَرَجَ أَيْضَاً نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ وَالتَّاسِعَةِ وَفَعَلَ كَذٰلِكَ . . . . . فَلَمَّا كَانَ المَسَاءُ قَالَ صَاحِبُ الكَرْمِ لِوَكِيلِهِ : ادْعُ الفَعَلَةَ وَأَعْطِهِمُ الأُجْرَةَ مُبْتَدِئَاً مِنَ الآخِرِينَ إِلَىٰ الأَوَّلِينَ ، فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَةِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِيْنَاراً دِيْنَاراً ، فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضاً دِيْنَاراً دِيْنَاراً ، فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضَاً دِيْنَاراً دِيْنَاراً وَفِيْمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَىٰ رَبِّ البَيْتِ . . . . . فَأَجَابَ وَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ : يَا صَاحِبُ مَا ظَلَمْتُكَ أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَىٰ دِينارٍ ، فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ فَإِنِّي أُرِيْدُ أَن أُعْطِي هٰذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ أَوْ مَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيْدَ بِمَالِي أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيْرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ ، هٰكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ ، وَالأَوَّلُونَ آخِرِيْنَ» .

---

(١) الفارق ص ٥٤ ، نقلاً عن نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٩٨ .

(٢) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٧٤ .

يخبر عيسى عليه السلام بأن الآخرين أصبحوا أولين ، وأنهم سيقدمون في الأجر عليهم . فمن هم الآخرون الذين أصبحوا أولين ؟ أليسوا هم أمة محمد ﷺ التي هي آخر الأمم لأن شريعتها هي خاتمة الشرائع ؟ بلى .

يقول الشيخ رحمة اللّه الهندي : « فالآخرون أمة محمد فهم المقدمون في الأجر وهم الآخرون الأولون »[1] . واستشهد على ذلك بقول النبي ﷺ : « نحن الآخرون السابقون »[2] .

وهذا المثل الذي ضربه عيسى عليه السلام مطابق لما ورد عن رسول اللّه ﷺ ، حيث قال : « وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألَا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ألَا لكم الأجر مرتين . فغضبت اليهود والنصارى فقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال اللّه : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ فقالوا : لا . قال : فإنه فضلي أعطيه من شئت »[3] .

البشارة الخامسة :

ورد في الأصحاح الحادي والعشرين :

« كَانَ إِنْسَان رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْمَاً وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ وَحَفَرَ فِيْهِ مَعْصَرَةً

---

(١) محمد نبي الاسلام ص ٣٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، باب الماء الدائم جـ ١ ص ٦٥ ، صحيح مسلم كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة جـ ٢ ص ٥٨٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني اسرائيل جـ ٤ ص ١٤٥ .

وَبَنَىٰ بُرْجاً وَسَلَّمَهُ إِلَىٰ كَرَّامِينَ وَسَافَرَ ، وَلَمَّـا قَرُبَ وَقْتَ الأَثْمَـارِ أَرْسَلَ عَبِيـدَهُ إِلَىٰ الكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ ، فَأَخَذَ الكَرَّامُونَ عَبِيْدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضاً وَقَتَلُوا بَعْضاً وَرَجَمُـوا بَعْضاً ، ثُمَّ أَرْسَـلَ أَيْضاً عَبِيْـداً آخَـرِينَ أَكْثَـرَ مِنَ الأَوَّلِينَ فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذٰلِكَ ، فَأَخِيراً أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابنَهُ قَائِلاً يَهَابُونَ ابْنِي ، وَأَمَّا الكَرَّامُـونَ فَلَمَّا رَأَوا الابْنَ قَـالُوا فِيمَـا بَيْنَهُمْ هٰذَا هُـوَ الوَارِثُ هَلُمُّـوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُـذْ مِيْرَاثَـهُ فَـأَخَـذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الكَرْمِ وَقَتَلُوهُ ، فَمَتَىٰ جَاءَ صَاحِبُ الكَرْمِ مَاذَا يَفْعَـلُ بِأُوْلَئِـكَ الكَـرَّامِيْنَ . قَالُـوا لَهُ أُولَئِـكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَـلاَكاً رَدِيَّـاً وَيُسَلِّمُ الكَـرْمَ إِلَىٰ كَرّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ : أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الكُتُبِ الحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ البَنَّاءُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ ، مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هٰذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا ، لِذٰلِكَ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَىٰ لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ وَمَنْ سَقَطَ عَلَىٰ هٰـذَا الحَجَرِ يَتَـرَضَّضُ ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ » .

وهـذا الكـلام من يسـوع عليـه السـلام : « أمـا قـرأتم قط فـي الكتب . . . . » إشارة إلى ما ورد في الزبور ، المزمور الثامن عشر بعد المائة « الحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ البَنَّاءُونَ قَدْ صَارَ رَأْساً لِلزَّاوِيَةِ ، مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هٰذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِيْ أَعْيُنِنَا » .

يتضمن هذا النص البشارة بالنبي محمد ﷺ واستخـلاف اللّه لأمته في الأرض .

فقوله : « الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأساً للزاوية » كنايـة عن محمد ﷺ ، وهذا مطابق لما ورد في سفر دانيال عن الحجر الذي سحق التمثـال وصار جبـلاً عظيمـاً[1] ، وهـو مـطابق أيضـاً لمـا جـاء في الحـديث

---

(١) سبق الحديث عن هذه البشارة ص ٦٤ .

الصحيح الذي رواه أبو هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلَّا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1] .

وقوله : « وهو عجيب في أعيننا » أي أن بعثة نبي من ولد إسماعيل عليه السلام الذي هو من نسل الجارية وليس من بني اسرائيل شيء عجيب في أعين اليهود لأنهم كانوا يحتقرونهم غاية الاحتقار .

وقوله : « إن ملكوت اللَّه ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » أي أن اللَّه سينزع ملكوته من بني إسرائيل ويعطيه لأمة تعمل أثماره لأن اللَّه قد غضب عليهم بسبب معاصيهم وموقفهم الشائن من أنبيائهم .

وقد تحقق ذلك فعلاً فقد نزع اللَّه ملكوته منهم وأعطاه للأمة الإسلامية وذلك ببعثه المصطفى ﷺ ، وأصبحوا هم الوارثين لبركة إبراهيم عليه السلام حيث وعده ربه أن يبارك أمم الأرض بنسله .

وقوله : « من سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه» إشارة إلى قوته ﷺ وقوة ما جاء به من إحقاق للحق وإزهاق للباطل .

ويزعم النصارى أن المقصود بالحجر هو عيسى عليه السلام ، وهذا غير صحيح لأن سياق الكلام يدل على أن المقصود بالحجر ليس هو عيسى وإنما محمد ﷺ لأنه عَبَّرَ عن عيسى عليه السلام بالابن وهو غير الحجر ، ثم ان هذا الحجر الذي صار رأساً للزاوية كان عجيباً في عين داود عليه السلام الذي أخبر بذلك في الزبور ، وكان ذلك عجيباً أيضاً في أعين اليهود فلو كان المقصود به عيسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل ومن نسل داود عليه السلام فأي داع للعجب في ذلك من قِبَل داود عليه السلام خاصة واليهود عامة .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين جـ ٤ ص ١٦٢ .

ثم إن عيسى عليه السلام أخبر أتباعه بأن ملكوت الله سينزع منهم ويعطى لأمة تعمل أثماره لأنهم من بني إسرائيل والخطاب موجه إليهم

وقوله عن الحجر « من سقط عليه يسحقه » لا ينطبق على عيسى عليه السلام لأنه كان مستضعفاً أمام قومه ، وصدقه على محمد ﷺ أوضح (١) .

البشارة السادسة :

ورد في الأصحاح الثاني والعشرين :

« وَفِيمَا كَانَ الفَرِّيسِيُّونَ مُجْتَمِعِينَ سَأَلَهُمْ يَسُوعُ قَائِلاً مَاذَا تَظُنُّونَ فِي المَسِيحِ ، ابْنُ مَنْ هُوَ؟ قَالُوا لَهُ : ابْنُ دَاوُدَ . قَالَ لَهُمْ : فَكَيْفَ يَدْعُوهُ دَاوُدُ بِالرُّوحِ رَبّاً قَائِلاً قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّىٰ أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ ، فَإِنْ كَانَ دَاوُدُ يَدْعُوهُ رَبّاً فكيف يَكُونُ ابنَهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُجِيْبَهُ بِكَلِمَةٍ » .

يشير عليه السلام لما ورد في الزبور المزمور العاشر بعد المائة : « قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي اجْلِسْ عَنْ يَمِيْنِي حَتَّىٰ أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ يُرْسِلُ الرَّبُّ قَضِيْبَ عِزِّكَ مِنْ صِهْيَوْنَ ، تَسَلَّطْ فِي وَسْطِ أَعْدَائِكَ ، شَعْبُكَ مُنْتَدَبٌ فِي يَوْمِ قُوَّتِكَ فِي زِيْنَةٍ مُقَدَّسَةٍ » .

يتحدث هذا النص عن سؤال عيسى عليه السلام للفريسيين عن المسيح المنتظر من نسل من سيأتي ؟ فقالوا له : إنه من نسل داود عليه السلام ، فقال لهم : كيف يكون من نسله وهو يدعوه في الزبور (ربه) أي

---

(١) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٧٦ .

سيده ، ومعلوم أن الابن مهما علت منزلته لا يمكن أن يكون سيداً لأبيه ، وإذا كان النبي المنتظر ليس من نسل داود عليه السلام فمن نسل من سيكون ؟

علمنا أن لإسماعيل عليه السلام بركة كأخيه إسحاق عليه السلام فلا بد إذن أن يأتي من نسله عليه السلام ، ويؤيد هذا ما جاء في إنجيل برنابا الاصحاح الثالث والأربعين قوله : « فإذا كان رسول اللّٰه الذي تسمونه مسيا ابن داود فكيف يسميه داود رباً ، صدقوني لأني أقول لكم الحق أن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق »[1] .

يقول الدكتور السقا : « لقد سأل عيسى العلماء المدعين الغيرة على شريعة موسى عن المسيا المنتظر سيأتي من أسرة من ؟ فقالوا له : سيأتي من أسرة داود ، فقال لهم : لو كان في أسرة داود ما كان داود يقول إن المسيا سيده لأن الأب لا يقول عن ابنه انه سيده ، وحيث أن داود عليه السلام عبر عنه بسيده ، إذن يكون المسيا من غير داود »[2] .

بشارات انجيل يوحنا :

البشارة الأولى .

ورد في الأصحاح الأول من هذا الانجيل :

« وَهٰذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِيْنَ أَرْسَلَ اليَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلَاوِيِّين لِيَسْأَلُوهُ مَنْ أَنْتَ ، فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا المَسِيحَ ، فَسَأَلُوهُ إِذاً مَاذَا إِيْلِيَّا أَنْتَ . فَقَالَ لَسْتُ أَنَا . أَلنَّبِيُّ أَنْتَ فَأَجَابَ لَا ، فَقَالُوا لَهُ مَنْ أَنْتَ لِنُعْطِيَ جَوَابَاً لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ أَنَا صَوتُ صَارِخٍ فِي البَرِّيَّةِ قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ » .

---

(١) انجيل برنابا ص ١٩٤ .

(٢) نبوة محمد في الكتاب المقدس ص ١٠٨ .

تفيد هذه الشهادة أن اليهود كانوا ينتظرون المسيح ونبياً آخر غيره ، وهو النبي الذي أخبرهم به موسى عليه السلام بقوله : « أقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم » ، وهذا النبي ما هو إلَّا محمد ﷺ الذي ثبت بالأدلة الواضحة أنه هو المقصود وأن يحيى عليه السلام جاء ليمهد له الطريق .

البشارة الثانية :

ورد في الأصحاح الرابع من هذا الانجيل :

« قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ يَا سَيِّدُ أَرَىٰ أَنَّكَ نَبِيٌّ ، آبَاؤُنا سَجَدُوا فِي هٰذَا الجَبَلِ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ المَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيْهِ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَا امْرَأَةُ صَدِّقِيْنِي إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لَا فِي هٰذَا الجَبَلِ وَلَا فِي أُورُشَلِيمَ نَسْجُدُونَ لِلآبِ» . . . . . . « وَلٰكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ حِيْنَ السَّاجِدُونَ الحَقِيْقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ لِأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هٰؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ » .

نلمس من قول المسيح عليه السلام أن ديناً جديداً سيظهر وأن أصحاب هذا الدين سيسجدون للّه نحو قبلة جديدة ليست القبلة التي عليها اليهود السامريون والعبرانيون ، ومعلوم أن القبلة لم تُحَوَّلْ عن بيت المقدس ـ قبلة أهل الكتاب ـ إلى الكعبة المشرفة إلَّا بالإسلام حيث أن المسلمين يتجهون في صلاتهم نحو هذا المكان الطاهر المقدّس مهما باعدت بينهم المسافات .

وقد تحولت القبلة نحو المسجد الحرام بقوله تعالى : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٤٤ .

يقول الدكتور فاضل السامرائي : « وفي هذا النص إشارة إلى ظهور دين جديد وإنه سيتحول مركزه عن أورشليم ، ويشير أيضاً إلى تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة قبلة أصحاب هذا الدين الجديد »[1] .

إلَّا أن النصارى يقولون أن المسيح عليه السلام أخبر بتحول القبلة من المكانين بيت المقدس ونابلس إلى قبلة النصارى ، وهذا زعم خاطىء لأن قبلتهم ليست مخالفة لقبلة اليهود ، بل هم تابعون لهم .

يقول الدكتور أحمد السقا : « يقول الارثوذكس والكاثوليك بأن القبلة هي جهة هيكل سليمان ، ويقول البروتستانت كل مكان هو قبلة ، انظر لقد رجع البروتستانت إلى المفهوم من توراة موسى ، ورجع الأرثوذكس إلى قبلة العبرانيين التي لم ينص عليها موسى عليه السلام »[2] .

البشارة الثالثة :

ورد في اصحاحات مختلفة من هذا الإنجيل ما يثبت نبوته ﷺ ، منها في الأصحاح الرابع عشر :

« إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيَاً آخَرَ ، لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَىٰ الأَبَدِ . . . . . الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ . . . . . وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّىٰ مَتَىٰ كَانَ تُؤْمِنُونَ لَا أَتَكَلَّمُ أَيْضاً مَعَكُمْ كَثِيراً لِأَنَّ رَئِيسَ هٰذَا العَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ » .

وفي الاصحاح الخامس عشر : « وَمَتَىٰ جَاءَ المُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا

---

(١) نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٩٨ .

(٢) نبوة محمد في الكتاب المقدس ص ٧١ .

إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ رُوحِ الحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآب يَنْبَثِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِي » .

وفي الأصحاح السادس عشر : « لٰكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَا يَأْتِيكُمُ المُعَزِّي ، وَلٰكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَتَىٰ جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ العَالَمَ عَلَىٰ خَطِيَّةٍ وَعَلَىٰ بِرٍّ وَعَلَىٰ دَيْنُونَةٍ . . . . . إِنَّ لِي أُمُوراً كَثِيرَةً أَيْضاً لِأَقُولَ لَكُمْ وَلٰكِنْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ ، وَأَمَّا مَتىٰ جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَىٰ جَمِيعِ الحَقِّ لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ ، ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ » .

وفي طبعة قديمة : « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد » هكذا جاء النص الأول .

وأما النص الثاني : « فأما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق وهو يشهد لأجلي » .

وأما النص الثالث فجاء كما يلي : « لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم »[1] .

تتضمن هذه النصوص البشارة برسول اللّه ﷺ ، إذ أن كل ما فيها من صفات تصدق عليه ﷺ وإن لم تصرح بالاسم كما في الطبعات القديمة التي أشارت إلى الاسم بلفظ الفارقليط والتي معناها أحمد ، إن عيسى عليه السلام ذكر اسم النبي ﷺ باللغة العبرية ، وترجمه يوحنا كاتب الإنجيل إلى

---

(١) انظر النصوص الثلاثة من كتاب « الجواب الصحيح» جـ ٤ ص ٧ وكتاب اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٧٨ .

اليونانية بلفظ بيركليتوس لأن من عادة أهل الكتاب ترجمة الأسماء ، ثم إن هذا اللفظ اليوناني عرب بلفظ الفارقليط .

يقول الشيخ رحمة اللّه الهندي رحمه اللّه : « أن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني ، فإذاً لا يبقى شك في أن كاتب الانجيل الرابع ترجم الاسم المبشر به باليوناني بحسب عاداتهم ، ثم مترجمو العربية عربوا اللفظ اليوناني بفارقليط »[1] .

ومعنى كلمة (بيركليتوس) اليونانية أحمد ، صرح بذلك عدد من علمائهم ، يقول الأنبا اثناسيوس : « ان لفظ (فارقليط إذا حُرِّفَ نُطقُهُ قليلاً يصير بيركليت) ومعناه الحمد أو الشكر وهو قريب من لفظ أحمد »[2] .

ويذكر الاستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء أنه سأل الدكتور (كارلونلينو) المستشرق الايطالي ـ وقد حصل على شهادة الدكتوراه في آداب اليهود اليونانية القديمة وكان آنذاك بمصر ـ ما معنى بيركليتوس ؟ فأجابني بقوله : إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها المعزى . فقلت : إني أسأل الدكتور (كارلونلينو) الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً . فقال : إن معناها الذي له حمد كثير . فقلت : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد ؟ فقال : نعم . فقلت : أن رسول اللّه ﷺ من أسمائه أحمد . فقال : يا أخي أنت تحفظ كثيراً ، ثم افترقنا وقد ازددت تثبتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح : ﴿ **ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾[3] .

إلَّا أن النصارى غيّروا لفظ (بِيركليتوس) بكسر الباء إلى (بَاركليتوس) بفتح الباء لتغيير معنى الكلمة وليصبح معناها المعزي أو

---

(١) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) نقلاً عن كتاب نبوة محمد في الكتاب المقدس ص ١٠١ .

(٣) سورة الصف ، آية (٦) . وانظر النص في كتاب نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

الوكيل بدل أحمد لصرف المسلمين عن الاستدلال بهـذه البشارة ، وأنى لهم ذلك ، فالنصوص لا تنطبق إلاَّ عليه مهما غيروا وبدّلوا .

ولقـد وصلت الشيخ رحمـة اللَّه الهندي رسـالة من رسـائـل القسيسين ادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبـه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط في لفظ الفارقليط .

يقول : « هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني ، فإن قلنا أَن هذا اللفظ اليوناني الأصل (باراكلي طوس) فيكون بمعنى المعزي والمعين والوكيـل ، وإن قلنـا أَن اللفظ الأصـل (بيـركلوطـوس) يكـون قـريبـاً من معنى محمـد وأحمـد ، فمن استـدل من علمـاء المسلمين بهـذه البشـارة فهم أن اللفظ الأصلي (بيـركلوطوس) ومعنـاه قـريب من معنى محمـد وأحمـد فـادعى أن عيسى عليـه السلام أخبـر بمحمـد أو أحمـد ولكن الصحيـح أنـه (بـاراكلي طوس) »[1]، وهذا تغيير شكل لا يؤثر في الحقيقة الواضحة .

وقـد اختلف في معنى الفـارقليط على أقـوال عـدة ، فقيـل أَن معنـاه الحَمّاد ، وقيل انه الحامد ، وقيل أَنـه الحمد ، واستـدلوا بقـول يوشـع « من عمـل حسنة تكـون لـه فـارقليط جيـد » أي حمـد جيـد ، وبعضهم قـال انـه المخلص ، وآخرون قالوا انه المعزي[2] ، وهو ما عليه جمهور النصارى . ويزعم النصارى أن المراد بالمعزي هو الروح النازل على التـلاميذ يـوم الدار في اليوم الخمسين من رفع المسيح عليه السلام ، فقد جـاء في سفر أعمـال الرسل الأصحاح الثاني : « وَلَمّا حَضَرَ يَوْمُ الخَمْسِيْنَ كَانَ الجَمِيْـعُ مَعَاً بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيْحٍ عَـاصِفَةٍ وَمَـلأَ كُلَّ البَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِيْنَ وَظَهَرَتْ لَهُمْ أَلْسِنَةٌ مُنْقَسِمَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَـارٍ وَاسْتَقَرَّتْ

---

(١) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

(٢) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٨ .

عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَامْتَلأَ الجَمِيْعُ مِنَ الرُّوحِ القُدُسِ وَابْتَدَأُوْا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَىٰ كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا » .

وهذا قول باطل ظاهر البطلان لأن الصفات الواردة في هذه النصوص لا تصدق على الروح ، وإنما تصدق على نبي يبعثه اللّه من البشر لأن هذه الروح نزلت على الأنبياء قبل المسيح عليه السلام وبعده ، ولم تكن موصوفة بهذه الصفات ولم يسمّ أحد هذه الروح فارقليطَ أو معزياً .

ثم ادعاء بعض النصارى في القرون الأولى أنهم مصاديق لفظ الفارقليط يدل على أنه ليس هو الروح النازل على التلاميذ في اليوم الخمسين مثل (منتنس) المسيحي الذي ادعى أنه الفارقليط الموعود الذي وعد بمجيئه عيسى عليه السلام وتبعه أناس كثيرون ، ذكر ذلك (وليم ميور) في تاريخه ، وهذا يؤكد أن المسيحيين كانوا في انتظاره .

يقول صاحب لب التواريخ : « إنَّ اليهود والمسيحيين من معاصري محمد ﷺ ، كانوا منتظرين لنبي فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى أنه هو ذاك المنتظر »[١] .

ونذكر الآن تحليلاً لنصوص تلك البشارات ليتضح لنا أنها لا تنطبق إلاَّ على النبي محمد ﷺ .

ففي قوله : « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي » لفت لأنظارهم إلى أن ما سيخبرهم به من الأهمية بمكان حتى يحفظوا ما يقول ، فقال : « وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر » أو « فارقليط آخر » ، ففي قوله هذا إشارة إلى أن الآتي مثل المسيح عليه السلام لأن قوله آخر يدل على أنه ثانٍ لأول كان قبله ، وهذا القول ينفي أن يكون الروح النازل على التلاميذ هو المقصود لأنه بحسب عقيدتهم متحد بالآب مطلقاً وبالابن .

---

(١) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

ثم قال : « ليمكث معكم إلىٰ الأبد » ليس المراد بقاءه معهم بذاته وإنما بقاء شرعه ، وهذا يدل على أن النبي الآتي صاحب شريعة خالدة مستمرة لا تنسخ وهذا لا يصدق إلَّا علىٰ نبي الإسلام وشريعة الإسلام .

وقوله : « وهو يعلمكم كل شيء » هذا لا ينطبق إلَّا على محمد ﷺ ، لأنه كان يعلم أصحابه كل شيء فلم يترك صغيرة ولا كبيرة فيما يحقق لهم السعادة الدنيوية والأخروية إلَّا ذكرها لهم ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِيْنَ ﴾[1] .

وقوله : « ويذكركم كل ما قلته لكم » ، وهذا يؤكد بطلان ما ادعاه النصارى من أن المراد بالمعزي الروح القدس ، لأنه لم يثبت في رسالة من رسائل العهد الجديد أن التلاميذ كانوا قد نسوا شيئاً مما قاله المسيح لهم ، وأن الروح القدس قد ذكرهم به .

وقوله : « وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون » وهذا يؤكد أيضاً أن الذي سيأتي بعد عيسى عليه السلام هو رسول من البشر وليس الروح القدس لأن التلاميذ مؤمنون به وقد نزل عليهم في حياة المسيح فلا حاجة إلى هذا النص إذاً بحسب ادعائهم ، ولكن عيسى عليه السلام يعلم بالتجربة أن الكثيرين من أمته سينكرون النبي المبشر به عند بعثته ، لذلك أكد عليهم بقوله هذا حتى يؤمنوا به ويصدقوه . ومعلوم أنه لم يظهر نبي بعد عيسى عليه السلام إلَّا محمد ﷺ ، فيكون هو المقصود في قوله عليه السلام .

وقوله : « أن رئيس العالم يأتي وليس له فِيَّ شيء » ، وفي نسخة قديمة « وليس لي شيء » ، المقصود برئيس العالم هو سيد العالم وعظيمه وهذا لا ينطبق إلَّا على محمد ﷺ وهو مطابق لما ورد عنه ﷺ « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[2] .

---

(١) سورة النحل ، آية ٨٩ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء جـ ٤ ص ٢١٨ ، سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة جـ ٢ ص ١٤٤٠ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « فمعلوم باتفاق أهل الأرض أنه لم يأت بعد المسيح عليه السلام من ساد العالم باطناً وظاهراً ، وانقادت له القلوب والأجساد ، وأطيع في السر والعلانية في محياه وبعد مماته في جميع الأمصار والأقاليم شرقاً وغرباً ، أحد غير محمد ﷺ »[1] .

والمقصود من قوله : « ليس لي شيء » أي أن الأمر كله للّه ولا يستطيع أحد أن يغيّر ما يريد سبحانه وتعالى .

يقول الإمام ابن القيم : « وفي قول المسيح عليه السلام في هذه البشارة « وليس لي شيء » إشارة إلى التوحيد وأن الأمر كله للّه ، فتضمنت هذه البشارة أصلي الدين إثبات التوحيد وإثبات النبوة »[2] .

وفي قوله : « روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي » ، فوصفه عليه السلام بأنه روح الحق ، أي النبي الحق الذي شهد له شهادة سمع بها الناس عامة ، شهد بصدقه وأنه رسول من عند اللّه ونزّهه عما افتراه عليه اليهود وما غلت فيه النصارى وأنه بريء من كفرهم وضلالاتهم وبرأ أمه من تهمة الزنا التي كان يلصقها بها اليهود في مواضع متعددة في القرآن الكريم ، وهذا القول يؤكد بطلان ادعاء النصارى بأن المعزي هو الروح لأنها لم تشهد له بين يدي أحد من المنكرين ، ثم أن التلاميذ ليسوا بحاجة إلى شهادة في المسيح لأنهم كانوا يعرفونه ويؤمنون به .

وقوله : « يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة » أي يوبّخ العالم على الخطيئة ، ولم يوجد أحد بعد عيسى عليه السلام وبّخ العالم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان وأمرهم بالبر والتقوى إلّا محمد ﷺ .

يقول الشيخ رحمة اللّه الهندي : « فهذا القول بمنزلة النص الجلي

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ١٨ .

(٢) هداية الحيارى ص ٦٥ .

لمحمد ﷺ لأنه وبّخ العالم سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام ربيخاً لا يشك فيه إلّا معاند »[1] .

إلّا أن القسيس رانكين يحاول بغباء منه أن ينكر وجود لفظ التوبيخ في الأناجيل لتيقنه بانطباق هذه الصفة على محمد ﷺ ، فيقول : « أن لفظ التوبيخ لا يوجد في الانجيل ولا في ترجمة من تراجم الانجيل ، وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقاً بيناً لأجل أن محمد ﷺ وبّخ وهدد كثيراً ، إلّا أن مثل هذا التغليظ ليس من شأن المؤمنين »[2] .

وهذا يدل على جهله لأن هذا اللفظ يوجد في الترجمات العربية القديمة والحديثة ، فأين هو منها !

وهذا القول أيضاً يؤكد أن الروح ليست هي المقصودة ، لأنه لم يثبت أنها وبخت أحداً من الناس .

وفي قوله : « إنَّ لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن » في هذا إشارة إلى المستوى الذي كان عليه أتباعه عليه السلام ، حيث أنهم لم يصلوا إلى الدرجة التي يستطيعون أن يفهموا كل شيء نظراً لهبوط المستوى الفكري عندهم ، ولهذا كانت شريعته مجملة ، وخاصة فيما يتعلق بصفات اللّه واليوم الآخر . وهذا من رحمة اللّه بالبشرية ، ولكن عندما وصلت البشرية إلى مرحلة القدرة على الاستيعاب للشرع الجديد أرسل اللّه رسوله محمداً ﷺ الذي أتى بشريعة كاملة مفصلة مبينة لكل شيء .

ثم قال : « وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق » وهذا أظهر في صدقه على محمد ﷺ فهو الذي أرشد الناس إلى جميع الحق ، فقد أكمل اللّه به الدين لأنه خاتم النبيين» .

---

(١) اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) نقلاً عن اظهار الحق جـ ٢ ص ٢٨٥ .

وقال أيضاً : لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به هـذا واضح في انـطبـاقـه عليـه ﷺ ، لأنـه لم يتكلم من نفسـه ، بـل تكلم بمـا يسمـع به . وهذا إشارة إلى أن كل ما يتكلم به وحي ، من اللّه يسمعه ، ولم يتعلمه من أحد من الناس ، وهـذا يطابق مـا ورد في القرآن من وصف لـرسول اللّه ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوْحَىٰ ﴾[1] .

وقال أيضاً : « ويخبركم بأمور آتية » وهذا لا ينطبق إلَّا على رسول اللّه ﷺ لأنه أخبر بالكثير من أمور الغيب وجاءت الحوادث طبقاً لما أخبر به .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ولا يوجد مثـل هذا قط عن أحـد من الأنبياء قبل محمد ﷺ »[2] .

بشارة انجيل لوقا:

ورد في انجيل لوقا الأصحاح الثاني :

« المَجْد لِلَّهِ فِي الأَعَالِي وَعَلَىٰ الأَرْضِ السَّلاَمُ وَبِالنَّاسِ المَسَرَّةُ » .

ذكر صاحب كتاب « الانجيل والصليب » ان هذه الترجمة الموجودة في الانجيل حالياً غير صحيحة ، ولكن الترجمـة الصحيحة هي « الحمـد للّه في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد » .

ويستدل على ذلك بقوله : « أن ثمة كلمتين وردتا في اللغة الأصلية لم يدرك أحد ما تحتويان عليه من المعـاني تمامـاً، فلم تترجم هـاتان الكلمتـان كما يجب في الترجمة القديمة من السريانية ، هاتان الكلمتان هما (ايريني) التي ترجموها (السلامة) و (أيودكيا) التي ترجموها (حسن الرضا) » .

ولكن مؤلف كتاب الانجيل والصليب الأب عبـد الأحد الأشـوري يرى

---

(١) سورة النجم ، الآيتان ٣ ـ ٤ .

(٢) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ١٢ ـ ١٣

أن ترجمة الكلمة الأولى الصحيحة هي (إسلام) فيقول : « ومن المعلوم أن لفظ (إسلام) يفيد معاني واسعة جداً ويشتمل على ما تشتمل عليه ألفاظ (السلم ، السلام ، الصلح ، المسالمة ، الأمن ، الراحة) » .

ويقول أيضاً : « إن قول الملائكة على الأرض سلام لا يصح أن يكون بمعنى الصلح العام والمسالمة ، لأن جميع الكائنات وعلى الأخص منها ولا سيما النوع البشري هي بمقتضى السنن الطبيعية والنواميس الاجتماعية خاضعة للوقائع والفجائع الوخيمة كالاختلاف والمنازعات فمن المحال أن يعيش الناس على وجه الأرض بالصلح والمسالمة ، ثم يستشهد بقول المسيح : « مَا جِئْتُ لِأُلْقِي سَلَامَاً عَلَىٰ الأَرْضِ ، مَا جِئْتُ لِأُلْقِي سَلَامَاً بَلْ سَيْفَاً »(١) .

وعلى هذا فالترجمة لا تنطبق على رسالة المسيح ، كما يرى الأب عبد الأحد الآشوري أن كلمة (أيودكيا) بمعنى (أحمد) لا كما يترجمها القسس ، لأنه لا يقال في اليونانية (لحسن الرضا) (أيودكيا) بل يقال (ثليما) ، ويقول إن كلمة (دكوئه) هي بمعنى (الحمد ، الاشتهاء ، الرغبة ، الشوق ، بيان الفكر) ، ويقول انهم يترجمون (محمديتو) في أشعياء بأندوكساهيمون ، ويترجمون الصفات منها (محمد ، أحمد ، أمجد) لـ المسرة .

وبهذا التحقيق القيم يتوصل إلى أن الترجمة الصحيحة هي ما ذكره(٢) .

بشارات انجيل برنابا :

برنابا قديس من قديسي النصارى ورسول من رسلهم الممتلئين بروح القدس ـ حسب زعمهم ـ المبشرين بالدين المسيحي في البلاد ، صرح

---

(١) انجيل متى ، الاصحاح العاشر .

(٢) نقلاً عن نبوة محمد من الشك الى اليقين ص ٣٠٠ ـ ٣٠١

بذلك سفر أعمال الرسل . فقد جاء في الأصحاح الحادي عشر : « فَسُمِعَ الخَبَرُ عَنْهُمْ فِي آذَانِ الكَنِيْسَةِ الَّتِي فِيْ أُوْرُشَلِيمَ فَأَرْسَلُوا بَرْنَابَا لِكَيْ يَجْتَازَ إِلَىٰ أَنْطَاكِيَةَ الَّذِي لَمَّا أَتَىٰ وَرَأَىٰ نِعْمَةَ اللَّهِ فَرِحَ وَوَعَظَ الجَمِيعَ أَنْ يَثْبُتُوا فِي الرَّبِّ بِعَزْمِ القَلْبِ لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلاً صَالِحاً وَمُمْتَلِئاً مِنَ الرُّوحِ القُدُسِ وَالإِيمَانِ » .

وقد شهد التاريخ أن لهذا القديس انجيلا عرف باسمه كان مشهوراً ومنتشراً بين المسيحيين في العهد الأول قبل ظهور الإسلام بمئات السنين إلَّا أن الكنيسة أصدرت قراراً بتحريم قراءته وتداوله لمخالفته الصريحة للعقائد الفاسدة التي نبنتها .

يقول الأستاذ إبراهيم خليل أحمد : « إلا أن الأمر البابوي الذي أصدره البابا جلاسيوس الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢م يبين أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى انجيل برنابا وفي هذا دليل قاطع على أن هذا الانجيل كان موجوداً قبل ظهور الإسلام »[١] .

ثم إن الاكتشافات الحديثة تؤيد هذا الانجيل ، يقول الدكتور تشارلس فرنسيس بوتر في كتابه « السنون المفقودة من عيسى تكشف » : « أن انجيلاً يدعى انجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول والمخطوطات التي اكتشفت حديثاً في منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الانجيل »[٢] .

وقد عثر على نسخة من هذا الانجيل في مطلع القرن الثامن عشر مكتوبة باللغة الايطالية على يد مستشار ملك بروسيا كريمر الذي أهداها إلى البرنس يوجين سافوي لما لها من أهمية تاريخية .

ثم إن الراهب فرامينو تمكن من اختلاسها من مكتبة البابا ستكس

(١) محمد في التوراة والانجيل والقرآن ص ١٤١ .

(٢) نقلاً عن كتاب محمد في التوراة والانجيل والقرآن ص ٩١ .

الخامس ، ومن ثم شاع خبر هذه النسخة في الأوساط الأوروبية مما أحدث هزة عنيفة في أندية الدين والعلم ، وبدلاً من أن تحاسب الكنيسة نفسها وتثوب إلى رشدها تنكرت لهذه النسخة من الانجيل وألصقتها بالمسلمين ، وهذا أمر مردود عليها لأن النسخة المكتشفة وجدت في جو مسيحي خالص ، فلا يمكن أن تكون مدخولة عليهم .

يقول الشيخ أبو زهرة رحمه اللَّه : « وإن من ينحله للمسلمين كمن يحمل في يده شيئاً يظن في حمله اتهاماً له ، فيسند ملكيته إلى غيره نفياً للتهمة عن نفسه ، فهل يقبل ذلك النفي من غير حجة ولا دليل »[1] .

هذا الانجيل الذي تنكرت له الكنيسة وقامت بإحراقه تضمن الكثير من النصوص التي تبشر ببعثة سيد الأنام محمد ﷺ ومن هذه النصوص :

أولاً : جاء في الفصل الثاني والأربعين : « لذلك أرسلوا اللاويين وبعض الكتبة يسألونه قائلين : من أنت ؟ فاعترف يسوع وقال : الحق أني لست مسيا ، فقالوا : أأنت ايليا أو أرميا أو أحد الأنبياء القدماء ؟ أجاب يسوع : كلا . حينئذ قالوا : من أنت ؟ قل لنشهد للذين أرسلونا ، فقال حينئذ يسوع : أنا صوت صارخ في اليهودية كلها يصرخ : أعدوا طريق رسول الرب كما هو مكتوب في أشعيا . قالوا : إذا لم تكن المسيح ولا ايليا أو نبياً ما فلماذا تبشر بتعليم جديد وتجعل نفسك أعظم شأناً من مسيا . أجاب يسوع إن الآيات التي يفعلها اللَّه على يدي تظهر أني أتكلم بما يريد اللَّه ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه ، لأني لست أهلاً أن أحل رباطات جرموق[2] أو سيور حذاء رسول اللَّه الذي تسمونه مسيا الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية »[3] .

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ٧٤ .

(٢) الجرموق : كعصفور وهو الذي يلبس فوق الخف . القاموس المحيط ٣/٢٢٤

(٣) انجيل برنابا ص ٩١ - ٩٢ .

ثانياً : وجاء في الفصل الرابع والأربعين : « ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالَم ، صدقوني اني رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي لأن اللّه يعطيهم روحه ، ولما رأيته امتلأت عزاءاً قائلاً : يا محمد ليكن اللّه معك وليجعلني أهلاً أن أحل سير حذائك لأني إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقدوس اللّه »[1] .

ثالثاً : وجاء في الفصل السابع والتسعين قوله : « إنَّ كلامكم لا يعزيني لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور ، ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب فِيَّ وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد اللّه أبانا إبراهيم ، وإن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه لأن اللّه سيحفظه صحيحاً . . . . . فقال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع : ان اسم مسيا عجيب لأن اللّه نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي قال اللّه : اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ، ولكن إيمانك لا يهن أبداً . ان اسمه المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين يا اللّه أرسل لنا رسولك ، يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم »[2] .

رابعاً : وجاء في الفصل الثاني والسبعين قوله : « أما من خصوصي فإني قد أتيت لِأهيِّيء الطريق لرسول اللّه الذي سيأتي بخلاص العالم ، ولكن احذروا أن تَغَشُّوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون انجيلي . حينئذ قال اندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة

---

(١) انجيل برنابا ص ٩٦ .

(٢) انجيل برنابا ص ١٦١

لنعرفه . أجاب يسوع : إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل انجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ، في ذلك الوقت يرحم اللّه العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختاري اللّه وهو سيظهره للعالم وسيأتي بقوة عظيمة على الفجّار ويبيد عبادة الأصنام من العالم ، وإني أُسَرُّ بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد اللّه ويظهر صدقي وسينتقم من الذين يقولون إني أكبر من إنسان »[1] .

خامساً : وجاء في الفصل الثاني عشر بعد المائة : « فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب عَلَيَّ التحفظ وسيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود ، وعليه فإني على يقين من أن من يبيعني يقتل باسمي لأن اللّه سيصعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي ، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة أمكث في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم ، ولكن متى جاء محمد رسول اللّه المقدس تزال عني هذه الوصمة وسيفعل اللّه هذا لأني اعترفت بحقيقة مسيا الذي سيعطيني هذا الجزاء »[2] .

سادساً : وجاء في الفصل الثالث والستين بعد المائة : « أجاب التلاميذ يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلت انه محمد رسول اللّه ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة إلى الأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة العزيزة التي يأتي بها »[3] .

سابعاً : وجاء في الفصل العشرين بعد المائتين : « أجاب يسوع سل ما شئت يا برنابا أجبك ، فقال حينئذ الذي يكتب : يا معلم إذا كان اللّه

---

(١) انجيل برنابا ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٢) انجيل برنابا ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

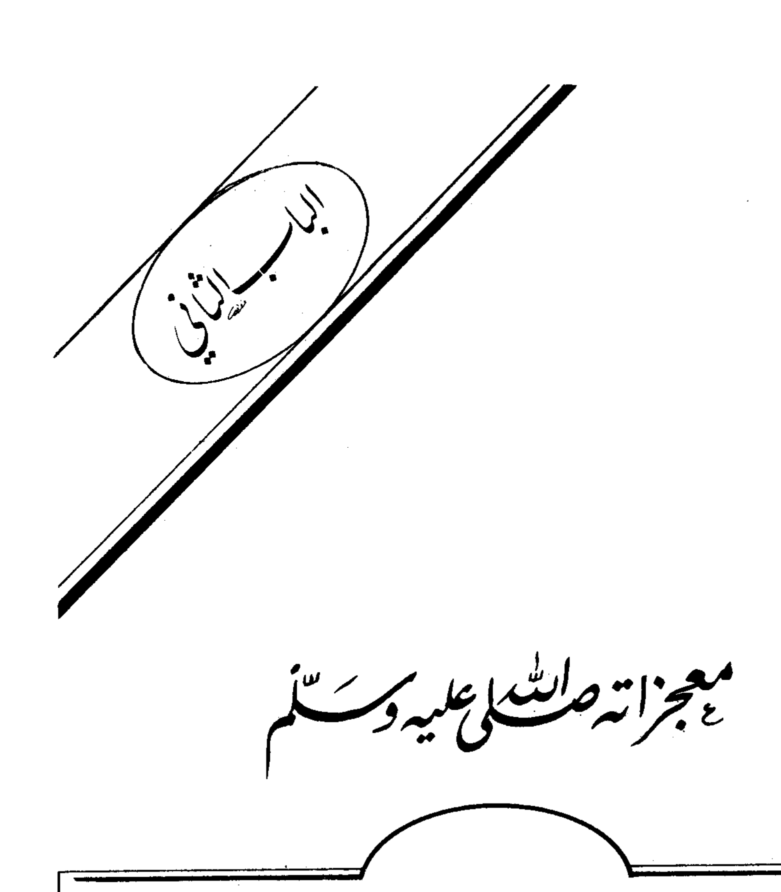
(٣) انجيل برنابا ص ٢٤١ .

رحيماً فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد انك كنت ميتاً ، ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت وسمح اللَّه أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت قدوس اللَّه .
أجاب يسوع : صدقني يا برنابا أن اللَّه يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً لأن اللَّه يغضب من الخطيئة فلذلك لما كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلاً حباً عالمياً أراد اللَّه البر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم فلما كان الناس قد دعوني اللَّه وابن اللَّه على أني كنت بريئاً في العالم أراد اللَّه أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول اللَّه الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة اللَّه »[1] .

نكتفي بهذا القدر من نصوص انجيل برنابا التي تبشر برسول اللَّه محمد ﷺ ، وهي كثيرة جداً ، وهي بشارات صريحة ليس فيها لبس ولا غموض ، تعلن على لسان عيسى نبوة أخيه محمد وعظمته وقوة دينه وهيمنته على سائر الأديان ، ونطقه بالحق ، وتصحيحه للعقائد الفاسدة .

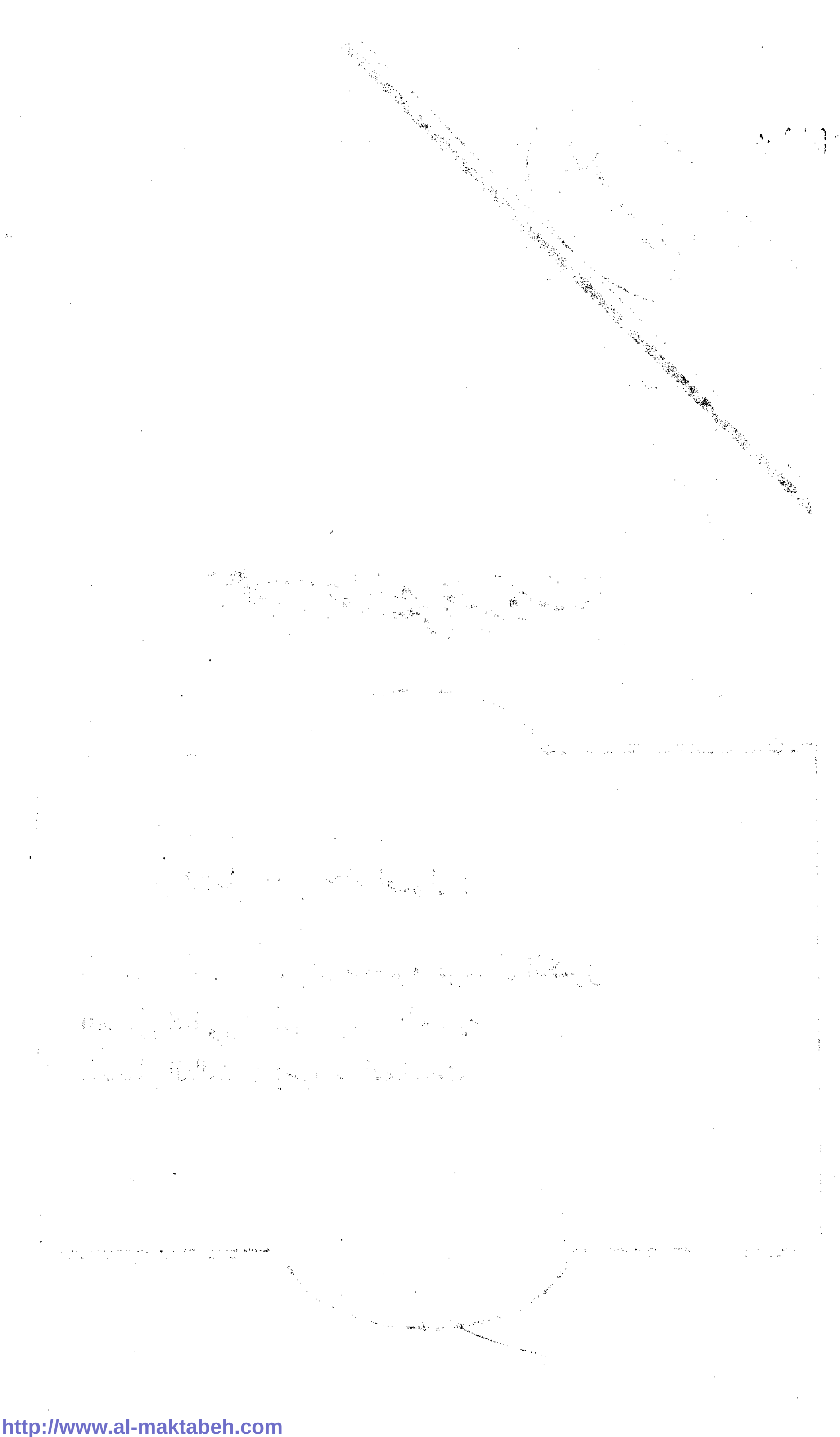
---

(١) انجيل برنابا ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .



معجزاته صلى الله عليه وسلم

ويشتمل على ثلاثة فصول :



الفصل الأول

القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى

جرت سنة اللّٰه في عباده المرسلين أن يؤيدهم بالمعجزات الباهرة والدلائل الساطعة ، التي لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثلها في وقتها ولا بعد وقتها ، وذلك للدلالة على صدقهم ، وإثبات أنهم مبعوثون من اللّٰه سبحانه وتعالى لإقامة الحجة على أقوامهم بهذه المعجزات .

وقد كانت معجزة كل نبي مناسبة للعصر الذي كان يعيش فيه ذلك النبي ، ومن جنس ما اشتهر به القوم الذين بعث فيهم وما برعوا فيه حتى يكون خرقها للعادة الجارية أوضح لإقامة الحجة عليهم . .

فكانت معجزة موسى عليه السلام قلب العصا إلى حية وتغيير لون يده ، قال تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ، وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ، قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ، قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ، وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾[1] وكان أهل مصر قد اشتهروا بالسحر وتفننوا فيه .

أما معجزة عيسى عليه السلام فكانت خلق الطير من الطين بإذن اللّٰه

---

(١) سورة طه ، الآيات ١٨ ـ ٢٢

وإبراء ذوي العاهات المزمنة كالعميان والبرصان ، وإحياء الموتى بإذن اللّه ، وإخبارهم عن بعض المغيبات عنه ، قال تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِيءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] . وذلك لاشتهار قومه بالطب وبالمادية المفرطة .

أما معجزة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فكانت لغوية بيانية ، غاية في الفصاحة والبلاغة وهي القرآن الكريم . ومناسبة لحال العرب الذين اشتهروا بفصاحة القول وبلاغة الكلمة وتذوق الكلام .

يقول الإمام الماوردي : «إن معجزة كل رسول موافقة للأغلب من أحوال عصره ، والشائع المنتشر في ناس دهره ، لأن موسى عليه السلام حين بعث في عصر السحرة خص من فلق البحر يبساً وقلب العصا حية بما بهر كل ساحر وأذل كل كافر ، وبعث عيسى عليه السلام في عصر الطب فخص من إبراء الزمنى وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب وأذل كل لبيب ، ولما بعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه العظماء ، وأذعن له البلغاء ، وتبلد فيه الشعراء »[2] .

إن معجزة رسل اللّه السابقين كانت مادية حسية موقوتة ترتبط بزمان معين ، ومكان معين ، ثم بالرسول الذي جرت على يديه ، فلما ذهب ذهبت معه ولم يبق إلاّ ذكرها ، قصة تروى وخبراً ينقل بخلاف معجزة المصطفى عليه الصلاة والسلام فهي معجزة معنوية عقلية خالدة لا تدرك بالحس ، بل بالدراسة والفحص ، فلم تكن حدثاً يقع ويزول ولا يبقى منه إلاّ الأثر والخبر ، بل كانت معجزة خالدة إلى أن يرث اللّه الأرض ومن

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٤٩ .

(٢) اعلام النبوة للماوردي ص ٥٧ .

عليها ، تخاطب الأجيال جيلاً بعد جيل ، يقرؤها الناس في كل زمان ومكان ويستنير بها ذوو العقول والبصائر ، وينتفعون بهديها في الحاضر والمستقبل وذلك لتناسب عموم الرسالة وخلودها التي بعث بها عليه الصلاة والسلام .

يقول العلامة الزرقاني : « وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام ولم يمت بموت الرسول ﷺ ، بل هو قائم على فم الدنيا يحاج كل مكذب ويتحدى كل منكر ، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان » وفي هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات نبي الإسلام ﷺ ، ومعجزات اخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام ، فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة ، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها / أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد ، قصيرة الأمد ، ذهبت بذهاب زمانهم وماتت بموتهم ، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلَّا في خبر كان ولا يسلم شاهد له بها إلَّا هذا القرآن ، وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل ، لهذا لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حسية تقرع الحس وتستولي على النفوس . . . . . وإنما كانت معجزة خالدة لأنها خاتمة الرسالات »[1] .

والمتأمل في المعجزة بوجه عام يجد أنها كانت تتمشى مع مستوى العقل البشري في الفهم . لذا كانت معجزة الأنبياء السابقين مادية حسية تمشياً مع مستوى عقول الناس وتفكيرهم في ذلك الوقت ، فإذا ما وصلت البشرية إلى طور العلم والمعرفة جاءتهم المعجزة العقلية الخالدة التي كانت لنبينا محمد ﷺ .

فالقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي أوتيها رسولنا عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء في الحديث الشريف قوله : « ما من الأنبياء نبي إلَّا

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣٣٦ .

أعطي من الآيات ما مثله أُوْمِنَ أو آمَنَ عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه اللّه إلي فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] .

ولقد تحدى القرآن الكريم العرب أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ، تحداهم أن يأتوا بمثله في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِيْنَ ﴾[2] ، ثم تنازل لهم في تحديه إلى عشر سور من مثله وليستعينوا بمن شاءوا في سبيل تحقيق ذلك ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3] . ثم تنازل لهم أكثر فأكثر حيث تحداهم أن يأتوا بسورة منَ مثله دون تحديد بسورة طويلة ، وهذا في غاية التخجيل ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِيْ ريـ ـمَّا نَـزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ ـه ِ ْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِـ ـةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[4] .

هكذا تدرج معهم في تحديه وبهذا الأسلوب المثير الساخر حتى يستجيبوا لهذا التحدي علماً بأنهم أهل الفصاحة والبلاغة في القول ، شهد بذلك المؤرخون قديماً وحديثاً ، والقرآن نزل بلغتهم حروفه عربية وكلماته عربية مـ ـروفة لديهم ، لكنهم عجزوا وضعفوا أمام هذا التحدي ، فلم يستطيعوا الإتيان ولو بمثل أقصر سورة فيه ، ولو أنهم آنسوا في أنفسهم القدرة على معارضته لما توانوا لحظة واحدة لعداوتهم الشديدة له ﷺ ولدعوته ولتفانيهم المستميت في سبيل القضاء عليها ، فلما لم يستطيعوا

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة جـ ٨ ص ١٣٨

(٢) سورة الطور ، الآيتان ٣٣ ـ ٣٤

(٣) سورة هود ، آية ١٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ .

معارضته لجأوا إلى حربه وبذلوا الأموال الكثيرة والنفوس العزيزة في سبيل ذلك ، وليس معنى هذا أن اللّه تعالى هو الذي صرفهم عن الاتيان بمثله كما قال بعض العلماء ، فهذا القول باطل من أساسه لا يحتاج إلى مناقشة لما فيه من الإشارة إلى أن القرآن الكريم ليس معجزاً بذاته لكونه عبارة أو حكاية عن المعنى القائم بنفس الله ، والمعبر والحاكي هو إما بشر أو ملك وهذه فلسفة عقيمة وخطأ عظيم وقع فيه اصحاب هذا الرأي من علماء الكلام المسلمين لأن القرآن هو كلام الله بعباراته وحروفه ومعانيه .

يقول القاضي عياض في وصف حال العرب وما كانوا عليه من الفصاحة والبلاغة زمن نزول القرآن الكريم : « خصوا من البلاغة والحِكَم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب ما يفيد الألباب وجعل اللّه لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . . . . . منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي ، ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول ، القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية »[١]

وبهذا الوصف يتبين لنا مدى ما كانوا عليه من الفصاحة في القول والبلاغة في التعبير ، لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، حيث كان فصاحة المنطق وبلاغة الكلمة أكبر أمرهم وسيد عملهم ، يقيمون الأسواق للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور ومعلقاتهم خير شاهد على ذلك، إلاَّ أنهم لما سمعوا القرآن يتلى عليهم دهشوا وانبهروا وأصيبوا بالشلل فخرست ألسنتهم

---

(١) الشفا في أحوال المصطفى جـ ١ ص ٥٠٠ ـ ٥٠٢ .

واضطربت مشاعرهم وتبلد حسهم وأيقنوا في أنفسهم أنه ليس في مقدورهم معارضته فثبت بذلك عجزهم لأنهم ادركوا منذ اللحظة الأولى أنه ليس كلام بشر حتى يقدموا على معارضته ، فكان كل امرىء منهم يحمل في قرارة نفسه برهان عجزه وإن كان يحمل على طرف لسانه كل زور وبهتان مكابرة وعناداً . فإذا ثبت عجزهم ـ وهو أمر معروف ـ فمن بعدهم أعجز ، وما جاء على لسان بعض المتنبئين من أسجاع محاكاة للقرآن أمثال مسيلمة وغيره ما هو إلّا هراء لا قيمة له ، ولا يصدر عن إنسان فيه مسكة عقل .

يقول الإمام الماوردي مصوراً موقف العرب من تحدي القرآن الكريم لهم : « وقد تحداهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلم تخرجهم أنفة التحدي وصبروا على نغص العجز ، مع شدة حميتهم وقوة أنفتهم ، وقد سفه أحلامهم وسب أصنامهم ، ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلاً وكان في مقدورهم داخلاً ، وقد جعله حجة لهم في رد رسالته لعارضوه ولما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم في قتاله وسفك دمائهم في محاربته »[1]

وكما تحدى القرآن العرب خاصة ، فثبت عجزهم عن الاتيان ولو بمثل أقصر سورة في القرآن الكريم فقد تحدى الناس عامة ، بل وتحدى الأنس والجن مجتمعين ، يقول تعالى : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾[2] .

وهكذا يقرر القرآن الكريم عجز الانس والجن معاً عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، مهما بلغوا من العلم والمعرفة ، وسوف يظل هذا التحدي قائماً الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وذلك لاقامة الحجة على الناس كافة في كل زمان .

وبهذا يتبين لنا أن القرآن الكريم معجزة الله الخالدة التي أوتيها عليه

---

(١) اعلام النبوة للماوردي ص ٧١ .

(٢) سورة الاسراء ، آية ٨٨ .

الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ورسالته خاتمة الرسائل والشرائع الالهية .

وجوه اعجاز القرآن الكريم :

تعددت وجوه الاعجاز في القران الكريم وتنوعت بحيث يجد كل ناظر فيه في كل زمان ما يناسبه من هذه الوجوه الكثيرة حسب عقله وفهمه وعلمه ، ومن هذه الوجوه :

أولاً : الاعجاز اللغوي ، وهو من أظهر الوجوه وأهمها حيث حصل به التحدي ، فهذا النظم البديع المخالف لكل نظم معهود عند العرب ، والأسلوب الفريد المخالف لجميع أساليب العرب ، والبلاغة والفصاحة المهيمنة عليه كله ، كلماته وعباراته ومعانيه ، له أعمق الأثر في نفوس سامعيه .

ثانياً : الاعحاز التشريعي ، تلك الشريعة الغراء العظيمة التي تضمنها هذا الكتاب العزيز ، حيث فاقت جميع الشرائع السماوية والقوانين الوضعية قديماً وحديثاً .

ثالثاً : اخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلية ، وهذه لا تصدر الا عن الله علام الغيوب ولا تأتي الا عن طريق الوحي .

رابعاً : الاعجاز العلمي ، حيث تضمن القرآن الكريم الكثير من الاشارات الدقيقة الى بعض العلوم الكونية ، سبق بها العلم الحديث ، وما توصل اليه العلم في الوقت الحاضر طابق تماماً ما ذكر في القرآن الذي أنزله الله تعالى على النبي الأمي قبل أربعة عشر قرناً .

وسأفرد لكل وجه من هذه الوجوه مبحثاً أتحدث فيه بشيء من التفصيل .

المبحث الأول
الاعجاز اللغوي في القرآن الكريم

نـزل القرآن الكـريم بلسان عـربي مبين في غايـة الفصاحـة والبـلاغـة والـروعة ، وقـد كان لـه أبلغ الأثر على نفـوس سامعيـه ، حتى أن جهـابـذة الفصاحة وأعلام البلاغة بُهروا لفصاحته وبلاغته حين قرع أسماعهم وأحسـوا بعجزهم عن الاتيان بمثله رغم التحدى المثير للاتيان ولو بمثل سورة منه .

لقد امتاز هـذا الكتاب السمـاوي بشدة تـأثيره في نفـوس سامعيـه وقوة جـذبه لهم ، فـلا يكاد أحـد يسمع شيئـاً منه حتى تبـدو أمارات التـأثـر على قسمات وجهه وفلتات لسانه سواء دفعـه السماع الى الايمـان ، أم بقي مصراً على الكفر والعناد ، وذلك لأن القرآن الكـريم اضافة الى المستوى السـامي في الفصاحة والبـلاغة يخـاطب القلوبَ ويلمس المشاعـر ويناجي العقـول ، وهذا سر من أسرار اعجازه الخالد .

يقول الامام الخطابي : « فانك لا تسمع كلاماً غيـر القرآن منـظوماً ولا منثــوراً إذا قـرع السمــع خلص إلى القلب من اللذة والحـلاوة في حـــال ، ومن الـروعة والمهـابة في أخـرى ما يخلص منـه اليه ، تستبشـر بـه النفـوس وتنشـرح له الصـدور حتى إذا أخذت حـظها منـه عادت مـرتاعـة قـد عـراهـا الوجيب والقلق وتغشاهـا الخوف والفـرق ، تقشعر منـه الجلود ، وتنزعـج له القلوب . يحول بين النفس ومضمراتهـا وعقائـدها الـراسخة فيهـا ، فكم من عـدو للرسول ﷺ من رجـال العرب وفتـاكها أقبلوا يـريـدون اغتيـالـه وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسـامعهم أن يتحولـوا عن رأيهم الأول وأن يـركنوا الى مسـالمتـه ويـدخلوا في دينـه وصـارت عـداوتهم موالاة وكفرهم ايماناً »[1] .

---

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز ص ٧٠

وحين سمع العرب القرآن يتلى عليهم بهرهم وملك عليهم مشاعرهم وأحسوا منذ اللحظة الأولى أن لهذا الكتاب قوة تأثير وجاذبية غريبين لم تعرف لغيره من الكتب ، خاصة الفصحاء والبلغاء منهم ، لذا تواصوا فيما بينهم على عدم السماع ، ومنع سائر العرب القادمين الى مكة من السماع أيضاً حتى لا يتأثر أحد به وينجذب اليه فيدفعه التأثر الى الايمان . وتآمروا فيما بينهم على اللغو بالكلام حين يتلوه الرسول ﷺ ، يقول سبحانه وتعالى في كشف مؤامرتهم الخبيثة : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »[1] . وما لجأوا الى هذا التحذير الا لاحساسهم العميق بهزة عنيفة رَوَّعَتْهُم من شدة تأثيره وقوة جذبه لمن سمع منه شيئاً ، فهم يرون تزايد أتباع محمد عليه الصلاة والسلام يوماً بعد يوم لتأثرهم العميق ببعض ما سمعوا من هذا الكتاب الكريم . فها هو ذا عمر بن الخطاب العدو اللدود للرسول عليه الصلاة والسلام يلين قلبه ويخشع فؤاده عندما يسمع بعض آيات من القرآن الكريم فيعلن دخوله في هذا الدين العظيم ، وتنقلب العداوة الى محبة وموالاة لله ولرسوله ويصبح من أشد الناس تمسكاً بهذا الدين وأكثرهم تفانياً في نشره وتبليغه للعالمين .

روى البيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : «خرج عمر متقلداً السيف فلقيه رجل من بني زهرة، فقال له: أين تعمد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمداً ، قال : وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال عمر : ما أراك الا وقد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه . قال : لا أفلا أدلك على العجب ، ان ختنك وأختك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه ، قال : فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، قال : فلما سمع خباب بحس عمر توارى في البيت ودخل عليهما ، فقال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم ؟ قال : وكانوا يقرأون طه . فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما صبوتما ؟ فقال له ختنه : يا عمر ان كان الحق في غير

---

(١) سورة فصلت ، آية ٢٦ .

دينك ؟ قال : فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً ، قال : فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فَدَمَّى وجهها ، فقالت وهي غضبى : وإن كان الحق في غير دينك اني أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقال عمر : أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه ، قال وكان عمر يقرأ الكتب ، فقالت أخته : انك رجس وانه لا يمسه الا المطهرون ، فقم فاغتسل او توضأ ، قال : فقام عمر فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى إلى ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[١].

قال : فقال عمر : دلوني على محمد ، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول اللّه ﷺ لك ليلة الخميس « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » وكان رسول اللّه ﷺ في الدار التي في أصل الصفا . قال : فانطلق عمر حتى أتى الدار وعلى باب الدار حمزة وطلحة وناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ ، فلما رأى حمزة ـ رجُلُ القومِ ـ عمرَ قال : هذا عمر ، فإن يرد اللّه به خيراً يسلم فيتبع النبي ﷺ ، وأن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً ، قال : والنبي ﷺ داخل يوحى إليه ، قال : فخرج رسول اللّه ﷺ حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمايل السيف ، فقال : ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل اللّه بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ، فهذا عمر بن الخطاب اللهم أعز الإسلام أو الدين بعمر بن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إلّه إلّا اللّه وأنك عبده ورسوله وأسلم »[٢] .

وكذلك الطفيل بن عمرو الدوسي سيد قومه أسلم متأثراً بما سمع من القرآن الكريم لَمّا قدم مكة رغم عزمه على عدم السماع من رسول اللّه ﷺ بعد تحذير رؤوس قريش له من ذلك .

روى أبو نعيم في الدلائل عن ابن إسحاق قال : « وكان طفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول اللّه ﷺ بها ومشى إليه رجال من

---

(١) سورة طه ، آية ١٤ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ٦ ـ ٨ .

قريش ، وكان الطفيل رجلا شريفاً شاعراً لبيباً ، فقالوا له : يا طفيل انك قدمت بلادنا فهذا الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، فرق جماعتنا وإنما قوله كالسحرة يفرق بين المرء وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وزوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمه ولا تسمع منه ، قال : فواللّه ما زالوا بي حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغني من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول اللّه ﷺ قائم يصلي عند الكعبة ، قال : فقمت قريباً منه فأبى اللّه إلاَّ أن يسمعني بعض قوله ، قال : فسمعت كلاماً حسناً ، قال : فقلت في نفسي : واثكل أمي ، اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته فمكثت حتى انصرف رسول اللّه ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ان قومك قالوا لي كذا وكذا ، الذي قالوا لي فواللّه ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت اذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى اللّه إلاَّ أن يسمعنيه ، فسمعت قولاً حسناً فاعرض علي أمرك ، فعرض عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي اللّه اني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع اللّه لي أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه ، قال : فقال اللهم اجعل له آية ، قال : فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع نور بين عيني مثل المصباح ، قال : فقلت : اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم ، قال : فتحول فوقع في رأس سوطي »[1] .

وها هو جبير بن مطعم يسارع الى الدخول في الإسلام بعد تأثره العميق بما سمع من القرآن .

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٩١ ـ ١٩٢

روى البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلم بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُونَ ﴾[1]، كاد قلبي أن يطير[2]، وفي رواية أخرى وذلك أول ما وقر الاسلام في قلبي»[3].

ولم يقتصر تأثير القرآن على نفوس سامعيه من بني آدم، بل جاوزهم الى عالم الجن حينما سمع نفر منهم لرسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فآمنوا برسول الله وذهبوا الى قومهم مبشرين ومنذرين. قال تعالى مخبراً عنهم في سورة الجن: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا به وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾[4].

وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على عمق تأثير القرآن الكريم في نفوس سامعيه من الأنس والجن، وقد أكد القرآن الكريم هذا التأثير العميق وخاصة على النفوس المؤمنة، فإن المؤمن من أشد الناس تأثراً وتفاعلاً مع ما يسمع من كتاب الله، فالقلوب تلين، والجلود تقشعر لسماع شيء من كتاب الله، يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيْثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللّهِ ﴾[5].

ولم يسلَم الكفار المعاندون من تأثير القرآن عليهم عند سماعهم له، فها هو الوليد بن المغيرة يبهر عند سماعه للقرآن الكريم ويشهد بعلو منزلته وعظمته، ولكن اصراره على الكفر حال بينه وبين الانتفاع بما سمع.

---

(١) سورة الطور، الآيات ٣٥ ـ ٣٧.
(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الطور جـ ٦ ص ٤٩ ـ ٥٠.
(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ١٢ جـ ٥، ص ٢٠.
(٤) سورة الجن، الايتان ١ ـ ٢.
(٥) سورة الزمر، آية ٢٣.

روى البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد ابن المغيرة جاء الى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رَقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له يا عم : ان قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً قال : ولم ؟ قال ليعطوكه . . . . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له ، قال : وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله ان لقوله الذي يقول حلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وانه ليعلو وما يعلى وأنه ليحطم ما تحته ، قال : لا يرضى منك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر فيه فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره ، فنزلت ذرني ومن خلقت وحيداً »(١) .

وكذلك عتبة بن ربيعة تأثر بما سمع من القرآن تأثراً بليغاً زلزل كيانه حتى بدا على قسمات وجهه وفلتات لسانه ، عرف ذلك كل من رآه بعد رجوعه من عند رسول الله ﷺ وذلك عندما ذهب اليه ليعرض عليه بعض العروض لعله يتراجع عن دعوته فباءت محاولته بالفشل .

روى أبو نعيم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن قريشاً اجتمعت لرسول الله ﷺ ورسول الله جالس في المسجد ، فقال عتبة بن ربيعة لهم دعوني حتى أقوم اليه أكلمه ، فإني عسى أن أكون أرفق به منكم ، فقام عتبة حتى جلس اليه ، فقال : يا ابن أخي أراك أوسطنا بيتاً وأفضلنا مكاناً ، وقد أدخلت على قومك ما لم يدخل رجل على قومه مثله ، فإن كنت تطلب بهذا الحديث مالاً فذلك على قومك أن يجمع لك حتى تكون أكثرها مالاً ، وان كنت تطلب شرفاً فنحن نشرفك حتى لا يكون أحد من قومك أشرف منك ولا نقطع أمراً دونك، وان كان هذا عن علم يضيبك فلا نقدر على النزوع منه بذلنا لك خزائننا حتى نعذر في طلب الطب لذلك منك وان كنت تريد ملكاً ملكناك . فقال رسول الله ﷺ : « أفرغت يا أبا الوليد ؟

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ .

قال : نعم . فقرأ رسول الله ﷺ : « حم السجدة » حتى مر بالسجدة ، فسجد رسول الله ﷺ ، وعتبة ملق يديه خلف ظهره حتى فرغ من قراءتها ، ثم قام عتبة ما يدري ما يرجع به الى نادي قومه ، فلما رأوه مقبلاً قالوا : لقد رجع إليكم بوجه غير ما قام من عندكم فجلس إليهم ، فقال : يا معشر قريش قد كلمته بالذي أمرتموني به حتى إذا فرغت كلمني بكلام لا والله ما سمعت أذناي مثله قط ، وما دريت ما أقول له يا معشر قريش فأطيعوني اليوم واعصوني فيما بعده واتركوا الرجل واعتزلوه ، فوالله ما هو بتارك ما هو عليه ، وخلوا بينه وبين سائر العرب ، فإن يظهر عليهم يكن شرفه شرفكم وعزه عزكم وان يظهروا عليه تكونوا قد كفيتموه بغيركم . قالوا : صبأت يا أبا الوليد»(١) .

ولم يفلت رؤوس الكفار المعاندين من جاذبية القرآن ، فقد أثر أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق كانوا يذهبون ليلاً خفية عن الأنظار ليستمعوا لرسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم في بيته ، فعلوا ذلك مراراً ، حتى إذا ما جمعتهم الطريق في الصباح تلاوموا وتواصوا فيما بينهم على عدم العودة لذلك ، لكنهم ينقضون الوصية ويعودون للاستماع ، وهذا يدل على عمق تأثير القرآن الكريم وقوة جذبه لمن سمعه .

روى البيهقي عن ابن إسحاق عن الزهري ، قال : «حدثنا أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته وأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى اذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ،

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، فقال الأخنس وأنا والذي حلفت به ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت تنازعنا نحو وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس بن شريق »[1] .

وهكذا حال التعصب الأعمى وحب الرئاسة بينهم وبين الأيمان واتباع الحق رغم اقتناعهم التام بأن ما جاء به عليه السلام هو الحق الواضح الذي لا شك فيه وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً** ﴾[2] .

لقد امتاز القرآن الكريم بهذه الظاهرة دون غيره من الكتب لمس ذلك كل من سمعه حتى الذين لا يعرفون العربية فما السر في ذلك ؟

ان بلاغة القرآن المشرقة ونظامه الصوتي البديع من أهم الأسباب لتأثيره العميق على نفوس سامعيه ، فالمتأمل في هذا الكتاب الرباني تبهره تلك الأجراس الرائعة النابعة من التناسق والائتلاف في حروفه في حركاتها وسكناتها مداتها وغناتها ، وكذلك في خروجها من مخارجها الصحيحة، فهي ذات أجراس وأنغام (موسيقية) رائعة تشد السامعين وتملك عليهم مشاعرهم فهناك حرف يصفر وآخر يهمس وثالث يجهر في غاية الجمال والروعة .

ان حروف الكلمات القرآنية مؤتلفة متآخية بعضها مع بعض بأصواتها

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ .

(٢) سورة النمل ، آية ١٤ .

ومخارجها وحركاتها ، اذ لو سقط حرف من هذه الحروف أو بدل بغيره لظهر خلل واضح في نسق الوزن وجرس النغمة ولأدى الى ضياع المعنى وهذا من احكام الله تعالى لكتابه العزيز . ثم ان الايقاع الموسيقي في القرآن الكريم ناشئ أيضاً من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص في غاية الجمال والكمال .

فالكلمة القرآنية لها لحن قائم بذاته فهي ذات بلاغة خاصة بأدائها بمدّها وغنّها وأنغامها العذبة ، وكذلك في انسجامها مع أخواتها في الجملة ، في النغم والموسيقى حيث تتآلف الألفاظ في الآية القرآنية في نغم هادىء اذا كانت الآية تحمل البشارة السارة لأهل الايمان ، أو في نغم قوي شديد اذا كانت تتضمن الانذار والوعيد ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ ، كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ ، فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرىٰ القَوْمَ فِيْهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ** ﴾[1] . فمن هذه الآيات تظهر النغمة القوية الشديدة التي تفزع مسامع المشركين وتتوعد بمصير الكافرين من قبلهم .

ومثال القرآن على النغم الهادىء قوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيْهَا لَاغِيَةً فِيْهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيْهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ** ﴾[2] .

ثم ان ألفاظ القرآن الكريم ذات فصاحة وبلاغة عالية لجزالتها وعذوبتها الناجمة من تناسق حروفها وتلاقي مخارجها وتآلف حركاتها الصرفية واللغوية وانسجامها التام مع المعاني التي وضعت لها .

يقول الاستاذ الرافعي رحمه الله : « لما قرئ عليهم القرآن رأوا

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات ١ ـ ٨ .

(٢) سورة الغاشية ، الآيات ٨ ـ ١٦

حروفه في كلماته ، وكلماته في جملة ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى وانه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين في عجزهم حتى ان من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته الى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التراكيب البياني كأنه فطن الى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها »[1] .

ويقول أيضاً : « لو تدبرت ألفاظ القرآن الكريم في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيىء بعضها لبعض ويساند بعضها بعضاً ولن تجدها الا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي حتى ان الحركات الثقيلة في نفسها اذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى اذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه[2] ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ** ﴾[3] . فإن الضمة ثقيلة في لفظة النذر لوضعها فوق النون والذال ولكنها جاءت هنا خفيفة على السمع منسجمة مع العبارة حيث جاءت بعد عدة فتحات متتالية وبعد حرفي قلقلة وغن ، فناسب التثقيل في هذه الكلمة الآتي من الضمتين المتتاليتين . ومن الأمثلة على جزالة اللفظ وعذوبته في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيْضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[5] . الى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢١١ .
(٢) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(٣) سورة القمر ، آية ٣٦ .
(٤) سورة الزمر ، آية ٦٧ .
(٥) سورة هود ، آية ٤٤ .

ومن بلاغة اللفظة القرآنية أنها تصور بجرسها وظلها المعنى الذي وضعت له بصورة رائعة خلابة ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِيْ سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾[1] فكلمة ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ ترسم بجرسها صورة معبرة للتثاقل عن الجهاد وكأنه جسم ثقيل لا يمكن رفعه ولا زحزحته عن مكانه .

ومثاله أيضاً قوله تعالى : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾[2] فكلمة ﴿ عُتُلٍّ ﴾ ترسم صورة لذلك الانسان الغليظ الجافي .

ومثاله قوله تعالى : ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّن عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيْهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[3] . فكلمة يصطرخون تصور بجرسها الغليظ غلظ الصراخ المنبعث من حناجر الكفار في نار جهنم فهي تصور العذاب الغليظ الواقع عليهم .

ان ألفاظ القرآن الكريم متآخية متآلفة في النغم والموسيقى ، وهي أيضاً متآخية متآلفة في المعاني التي وضعت لها ، فلا تجد لفظة نابية عن أختها لا في النغم ولا في المعنى ولا يكون معنى لفظة نافراً من معنى اللفظة المجاورة لها ، بل الانسجام والتآلف في المعاني والانغام مهيمن على ألفاظ القرآن الكريم .

ومن الشواهد على التآخي في معاني الألفاظ قصة الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللّهِ ﴾[4] والله غفور رحيم فقال الأعرابي انه يقطع الأيدي نكالاً فلا يتفق

---

(١) سورة التوبة ، آية ٣٨ .

(٢) سورة القلم ، آية ١٣ .

(٣) سورة فاطر ، الآيتان ٣٦ ـ ٣٧ .

(٤) سورة المائدة ، آية ٣٨ . ونهاية الآية والله عزيز حكيم وليس والله غفور رحيم .

القول فراجع القارىء نفسه فأدرك خطأه وصححه بقوله ﴿ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ ، وبهذا يتبين لنا احكام الله تعالى لكتابه المعجز .

يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله : « وان التآخي في المعاني والألفاظ ونسقها ونظمها ومعانيها واضح في كل آيات القرآن لا في آية دون أخرى ولا في سورة دون سورة ، فلا تجد في لفظ معنى يوجه الخاطر الى ناحية ويليه آخر يوجهه الى ناحية أخرى ، بل تجد النواحي متحدة اما بالتقابل واما بالتلاحق والمجاورة ، وفي كلتا الحالتين تجد معنى كل لفظ يمهد لمعنى الآخر ، فلا تنافر في المعاني كما لا تنافر في الألفاظ وهما في مجموعهما يناسبان في النفس غذاء رطيباً مريئاً ونميراً عذباً سلسبيلاً »(١) .

ان هذا التناسق العجيب الذي يهيمن على ألفاظ القرآن الكريم في المعاني والنغم جعله محكم البناء مترابط الأجزاء من أوله الى آخره ، فكل كلمة لها مكانها الخاص التي وضعت فيه لا تتزحزح عنه ولا تنفر منه ولا تفارقه ، ولو فارقته لبقي فارغاً ولا يملؤه غيرها ولظهر خلل في النظم . ثم ان كل كلمة فيه أيضاً مقصودة بذاتها لا يجزىء عنها غيرها ولو كانت مقاربة لها في المعنى كما يتوهم البعض ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **والصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ** ﴾(٢) لا يمكن تغيير كلمة الصبح بالفجر لأن ذلك يؤدي إلى تغيير الصورة البيانية في النص واختلال المعنى ، وان كان يعتبرها بعض العلماء من المترادفات لأن معنى الفجر شق الظلمة وفيه اشارة الى نهاية الليل ، أما الصبح ففيه اشار الى ابتداء النهار .

ومثال آخر قوله تعالى : ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى** ﴾(٣) فلا يمكن تبديل كلمة ﴿ **هوى** ﴾ بكلمة ﴿ **سقط** ﴾ ، إذ لا تغني عنها في هذا المكان أي كلمة مهما كانت بليغة .

---

(١) المعجزة الكبرى (القرآن) ص ١١١ .
(٢) سورة التكوير ، آية ١٨ .
(٣) سورة النجم ، آية ١ .

ومثال ثالث قوله تعالى : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾[1] فلا تجد كلمة تقوم مقام كلمة ﴿ أهش ﴾ . الى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة .

يقول الامام الخطابي : « اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي اذا بُدِّلَ مَكَانُهُ غيرَه جاء منه اما تبديل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في افادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح . . . . والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك »[2]

ويقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : « ومن عجيب نظم القرآن وضع الكلمة بموضعها الذي هي له بحيث لو قدمت أو أخرت لذهب شيء كثير مما كان لها في اقامة المعنى على الوجه الذي أخرجه القرآن من الكمال والدقة والروعة . . . . . فإذا بدل وضعها أو زايلت مكانها أحس النظم كله بفقدها وشعر بحاجته اليها هي دون غيرها حتى ينتظم أمره وتعود اليه سلامته التي كان عليها»[3] .

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن ألفاظ القرآن الكريم في القمة السامقة من البلاغة والفصاحة لكونها كلام رب البشر ، ولكن بلاغتها لا تبدو واضحة جلية الا في سياق النظم المتآلف المنسجم في مفرداته ومعانيه وموسيقاه ، وهذا ما تبناه الامام عبد القاهر الجرجاني حيث أكد أن بلاغة الكلمة لا تعتبر الا اذا وجدت في مكانها المناسب من النظم ، متآلفة مع أخواتها في المعنى والاعراب ، يقول رحمه الله : « وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة

---

(١) سورة طه ، اية ١٨ .
(٢) ثلاث رسائل في الاعجاز ص ٢٩
(٣) عجاز القرآن للخطيب ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

الا هو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ، أو هل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة ، وفي خلافه قلقة ونابية ومستنكرة ، الا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفقا للتالية في مُؤدَّاها ؟

وهل تشك اذا فكرت في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1] . فتجلى لك منها الاعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة الا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف الا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا الى أن تستقر بها الى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها . وان شككت فتأمل هل ترى اللفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وافردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها في الآية»[2] . الا أن هناك نفراً من العلماء خالفوا الجرجاني الرأي وأكدوا أن بلاغة ألفاظ القرآن الكريم ذاتية تنبع من ذات الكلمات ، يبدو ذلك حين يستعمل الأديب والشاعر بعض ألفاظ القرآن في تأليفه فيكتسب جمالاً ورونقاً ، من هؤلاء الجاحظ وابن الأثير والباقلاني وأبو الحسن الزيدي .

يقول الباقلاني : « وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جميعه وواسطة عقده المنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه في حسنه ومائه »[3]

ثم إن من سمات النظم القرآني البديع قلة الألفاظ الغريبة المستنكرة

---

(١) سورة هود ، آية ٤٤ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٢ ـ ٤٣

عند العرب حتى يكون قريباً من الأفهام لا غموض فيه ، وان أغرب كلمة في القرآن الكريم لفظ « ضيزىٰ » ففي قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ حسنت هذه الكلمة في موقعها من الآية لأنها جاءت فاصلة من الفواصل ، ثم ذكر الحق سبحانه وتعالى في موطن الإنكار على العرب في قسمتهم بأن جعلوا الأصنام والملائكة بنات اللّٰه فقال : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَىٰ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيْزَىٰ ﴾[٢] ، فوافقت غرابة اللفظ غرابة تلك القسمة الآثمة[٣] .

ومن أبرز سمات النظم القرآني التزام الفاصلة في جميع آياته ، وهو ما لم يعهده العرب من قبل في شعرهم ونثرهم ، وقد أكسبت الفاصلة النظم جمالاً بألحانها العذبة وأنغامها الحلوة التي تريح النفوس .

والفاصلة هي المقطع الأخير من الآية ، قد تكون كلمة تشكل جزءاً من الآية أو آية قائمة بذاتها كقوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[٤] ، وكقوله : ﴿ وَالعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[٥] .

وقد تكون جملة مستقلة في آخر الآية مثل : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

والفواصل نوعان متماثلة ومتقاربة ، والمتماثلة هي ما اتفقت في الحروف الأخيرة من الكلمة سواء في حرف أو أكثر مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾[٦] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ

---

(١) اثبات نبوة النبي ٩ ، ٤٢ ـ ٤٣

(٢) سورة النجم ، آية ٢٢ .

(٣) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٣

(٤) سورة الضحى ، الآيات ١ ـ ٣

(٥) سورة العصر ، الآيات ١ ـ ٣ .

(٦) سورة الطور ، الآيات ١ ـ ٣ .

ذِكْرَكَ ﴾[1] ، وكقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[2] .

أما المتقاربة فهي ما تقاربت حروفها ولم تتماثل ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قٓ وَالقُرْآنِ المَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾[3] وكقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[4] ، حيث تتقارب الحروف في المخارج مع اتحاد في النغم .

وللفاصلة دور كبير في إحكام النظم القرآني في المبنى والمعنى ، فالآية القرآنية بناء أحكمت لبناته بحيث لا تحسّ بكلمة تضيق بمكانها أو تنفر منه ، وكذلك الفاصلة التي ختمت بها تأتي متمكنة في مكانها غير نافرة ولا قلقة ، منسجمة مع المعنى العام والنغم الموسيقي ، وصدق اللّه العظيم بقوله : ﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[5] .

يقول الاستاذ الرافعي : « وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلّا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما حرفان طبيعيان في الموسيقى »[6] .

---

(١) سورة الشرح ، الآيات ١ ـ ٤ .

(٢) سورة الأعراف ، الآيتان ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٣) سورة ق ، الآيتان ١ ـ ٢ .

(٤) سورة الفاتحة ، الآيتان ٣ ـ ٤ .

(٥) سورة هود ، آية ١ .

(٦) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢١٦ .

فهي تساهم مساهمة كبيرة في إحكام النظم بألحانها العذبة بحيث لو بدلت أو غيرت لحصل خلل ظاهر في النغم وهذا واضح ملموس في جميع آيات الكتاب العزيز ، وكذلك تعمل على إحكام المعنى أيضاً حيث يتعلق معناها بالمعنى العام للآية التي ختمت بها بحيث لو طرحت اختل المعنى واضطرب ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1] . فالفاصلة في الآية الأولى تتعلق بها تعلقاً شديداً وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً لأن حاسة السمع هي التي تعمل في هذه الظلمة الحالكة المطبقة على الوجود فناسب الاستفهام بها بقوله : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ وكذلك فاصلة الآية الثانية ترتبط بآيتها ارتباطاً وثيقاً لأن حاسة البصر في يقظة تامة بسبب النور المنتشر في الكون فناسب الاستفهام بها بقوله: ﴿ أفلا تبصرون ﴾ وهكذا استخدم كل حاسة في الحال التي تصلح لها وتناسبها .

ومثال آخر قوله تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدْتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾[2] . فالفاصلة « عَضُداً » مرتبطة بالآية من حيث المعنى لأن اللّٰه سبحانه وتعالى مستغن عن المضلين جميعهم ، فهم من الهوان على اللّٰه حتى سوى بين جميعهم وواحدهم .

وقد تأتي الفاصلة تعقيباً على الآية أو تلخيصاً لها أو توكيداً لمعناها ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾[3] . وقال أيضاً : ﴿ وَلَقَدِ

---

(١) سورة القصص ، الايتان ٧١ ـ ٧٢ .
(٢) سورة الكهف ، آية ٥١ .
(٣) سورة طه ، آية ٦١ .

اسْتُهْـزِئَ بِـرُسُـلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَـاقَ بِـالَّـذِينَ سَخِـرُوا مِنْهُمْ مَـا كَـانُـوا بِـهِ يَسْتَهْـزِئُونَ ﴾[1] . وقـال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُـوحَـاً وَآلَ إِبْـرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ العَالَمِينَ ﴾[2] . وقال : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْـلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَـارَ فَإِذَا هُمْ مُّظْلِمُونَ ﴾[3] .

وقد تتماثل الآية وتختلف الفـواصل لحكمـة يريـدها البـاري عزّ وجـلّ مثـال ذلـك ، قـال تعـالى في سـورة إبـراهيم : ﴿ وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَـةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[4] وقوله في سورة النحل : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5] .

يجيب ابن منير المالكي فيقول : « كأنه يقول إذا حصلت النعم الكثيـرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان كونك ظلوماً وكونـك كفاراً ، ولي عند اعطائها وصفان وهما أني غفور رحيم أقابل ظلمك بغفراني وكفـرك برحمتي ، فـلا أقابـل تقصيرك إلّا بـالتـوفيـر ولا أجـازي جفـاءك إلّا بالوفاء » .

أمـا الـزركشي فيقـول : « ولكن بقي سؤال آخـر هـو مـا الحكمــة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه ؟» .

والجـواب : أن سياق الآيـة في سورة إبـراهيم في وصف الإنسان ومـا جبل عليه فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه « ان الإنسان لـظلوم كفار » ، وأمـا آية النحل فسيقت في وصف اللّه تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته فناسب ذكر وصفه سبحانه « إن اللّه لغفور رحيم »[6] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١٠ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٣ .
(٣) سورة يس ، آية ٣٧ .
(٤) سورة ابراهيم ، آية ٣٤ .
(٥) سورة النحل ، آية ١٨ .
(٦) انظر النصين فى اعجاز القرآن للخطيب ص ٢٢٤ .

وهكذا تتجلى روعة القرآن وأحكام نسجه وتلاحم بنائه بصورة تبهر العقول وتملك القلوب والمشاعر .

وبهذا يباين أسلوب القرآن الكريم كل ما عرف من أساليب العرب من شعر ونثر وسجع بل ويفوقها في الحسن والجمال ، لذا حارت فيه عقولهم فكان معجزاً لهم رغم فصاحتهم وبلاغتهم .

يقول القاضي عياض : « الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ولم يوجد قبله ولا بعده له نظير ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم وتدلهت دونه أحلامهم ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر »[1] .

ويبين الرماني سر الإعجاز في القرآن الكريم بقوله : « فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة . . . . . ولولا أن الوزن يحسن الشعر لنقصت منزلته في الحسن نقصاناً عظيماً ولذلك من جاء بغير الوزن المعروف في الطباع الذي من شأنه أن يحسن الكلام بما يفوق الموزون فهو معجزة »[2] .

إن المتأمل في القرآن الكريم لتبهره بلاغته المشرقة المهيمنة على جميع آياته ، وفي مستوى واحد دون تفاوت فليس فيه جزء أبلغ من جزء ولا أبين ، بل كله في مستوى واحد من البلاغة على الرغم من اختلاف ما يتعرض له من الموضوعات من وعد ووعيد وقصص وأحكام وغير ذلك كأنه قطعة واحدة ، خالية من التعارض أو التناقض أو الاختلاف على عكس ما

---

(١) الشفا جـ ١ ص ١٧٦ .

(٢) ثلاث رسائل في الاعجاز ص ١٠٢ .

يصدر عن البشر ، إذ الاختلاف والتفاوت واضح في أساليبهم مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾(١) .

يقول الإمام الباقلاني : « إن بديع نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور » . . . . . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في المعنى ، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره »(٢) .

فاطّراد بلاغته على امتداده الطويل ، وعلى تنوع ما يتعرض له من الموضوعات آية من آيات إعجازه ، فمهما كان الموضوع الذي يتناوله ، والقضية التي يعالجها يبقى أسلوبه بليغاً ومنهجه فريداً ، فكلامه في موضوع الألوهية أو التشريع أو القصص أو غيرها كله في الذروة من الفصاحة والبلاغة ، ونضرب مثالاً على تناوله لموضوع الألوهية بقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾(٣) .

---

(١) سورة النساء ، آية ٨٢ .

(٢) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .

ومثال آخر في وصف الجنة التي وعد بها المتقون بقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[1] .

وفي وصف النار يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾[2] .

ومثال من القرآن على بيان الأحكام الشرعية قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[3] .

هذه الآيات على اختلاف موضوعاتها بلغت أقصى درجات البلاغة في تآخي ألفاظها وتلاقي معانيها وعذوبة فواصلها ، ورقة ألفاظها الناجمة عن تآلف مخارج الحروف فيها ، فكل حرف في مكانه الذي وضع فيه لا ينفر منه ، وكل لفظ في حيزه لا يشذ عنه ، وكل معنى يرتبط بالذي يليه ولا ينفك عنه كأنه بناء أحكمت لبناته أتم الإحكام ، وهذه قمة البلاغة .

---

(١) سورة الغاشية ، الآيات ١٠ ـ ١٦

(٢) سورة الملك ، الآيات ٦ ـ ٨ .

(٣) سورة النساء ، الآيات ٢٢ ـ ٢٣ .

ومن أسباب بلاغة القرآن الكريم تضمنه الكثير من مختلف فنو البلاغة كالتشبيه والاستعار وغير ذلك من المحسنات البديعية التي تبدو فيه في أماكن كثيرة منه ، إلّا أن هناك بعض المواضع لم يوجد فيها المحسنات وهذا لا يخل في بلاغتها ولا ينقصها عن مستوى بلاغة تلك الأماكن التي وجدت فيها تلك المحسنات لأن بلاغة القرآن لا تتفاوت ما سبق أن أشرت ، بل هو على درجة واحدة من البيان والفصاحة .

ومن الأمثلة على المحسنات البديعية ، قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** ﴾(١) . فقد شبه اللّه سبحانه وتعالى أعمال الكفار المحبطة بالسراب الخادع الذي لا فائدة فيه ولا وجود له في الواقع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ** ﴾(٢) . فشبّه ما ينفقه المسلم في سبيل اللّه ابتغاء مرضاته وعظم أجره وثوابه بمثل حبة أنبتت سبع سنابل حتى تصبح أضعاف ذلك مرات عدة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ** ﴾(٣) .

فشبه حال المعرضين عن الهداية والتذكير بالحمير الهاربة من الأسد القوي الذي يطاردها وهي فزعة ، خائفة منه ، لا تدري أين تذهب وكذلك حال المعرضين عن الذكر .

ومنه أيضاً : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ**

---

(١) سورة النور ، آية ٣٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦١ .

(٣) سورة المدثر ، الآيات ٤٩ ـ ٥١ .

نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيْداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

فشبّه الباري عز وجل الحياة الدنيا وما فيها من متع ومسرات وزينة في عدم دوامها لأحد من البشر بالماء الذي ينزل من السماء فينبت النبات الغض النضر الذي تزدان به الأرض ، فإذا بلغ أقصى زخرفه وزينته جاءت نهايته بأن أصبح هشيماً ، وهكذا حال الدنيا فإنها لن تدوم لبشر مهما أوتي من أسبابها فمصيرها إلى الزوال والفناء ، وكأن شيئاً لم يكن .

ومن أمثلة الكناية قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيْهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوْشِهَا ﴾[2] فقوله : « يقلب كفيه » كناية عن الندم والحسرة لما أصابه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾[3] . كناية عن تقواهم وخوفهم من اللّٰه تعالى وتواضعهم المنبثق من التقوى .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾[4] .

فقد عبر الله عز وجل عن النفاق بالمرض وذلك للمشابهة بين مرض الجسد والنفاق الذي يفسد القلب والعقل ، كما يفسد المرض الجسد ويضعفه .

---

(١) سورة يونس ، آية ٢٤ .

(٢) سورة الكهف ، آية ٤٢ .

(٣) سورة الفرقان ، آية ٦٣ .

(٤) سورة البقرة ، آية ١٠ .

ومن أمثلة الاستعارة قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾[١] ، فقد استعار لفظ اشتعل الذي هو للنار بدل انتشر للدلالة على سرعة انتشار الشيب في الرأس كسرعة اشتعال النار وهذا غاية الجمال

يقول الامام عبد القاهر الجرجاني في هذا المثال : « فتقول اشتعل شيب الرأس والشيب في الرأس ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب في أنه كان اشتعل اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، وَلِمَ بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه وأنه قد استقر به وعم جملته حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا ما لا يعتد به وهذا ما لا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة»[٢] .

ومن أبرز سمات الأسلوب القرآني التصوير الفني الرائع الذي يشد السامعين ويملك عليهم مشاعرهم ، فهو يعبر عن المعاني المجردة بالصور المحسوسة الملموسة التي تنبض بكل معاني الحركة والحياة ، يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله : « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، واذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، واذا النموذج الانساني شاخص حي واذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصا حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة فإذا أضاف اليها الحوار فقد استوت لها كل

---

(١) سوره مريم ، اية ٤ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٩ .

عناصر التخييل ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلاً الى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع ، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، انها الحياة وليست حكاية الحياة»[١] .

وبهذا يكون للقرآن أثره السحري على النفوس ، وتنساب المعاني الى القلوب ، ويعيش فيها حيّاً نضراً ، يتذوقه القارىء والمستمع ويجد فيه المتعة الغامرة والبهجة الطيبة لأن المعنى لم يبق مجرداً ، بل غدا صوراً تتحرك ومشاهد تتقلب ، وهذا من احكام الله لكتابه ، وسر من أسرار اعجازه لا يقدر عليه بشر ، ولا عرف في كلام أحد من الناس مثله ، يقول رحمه الله مرة ثانية : « فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص النموذج الانساني والحادث المروي إنما هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر أدركنا بعض أسرار الاعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن »[٢] .

ان التصوير القرآني تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، تصوير باللون والحركة والتخييل ، كما أنه تصوير بالنغمة التي تقوم مقام الحركة في التمثيل حيث يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في ابراز صورة من الصور .

ومن الأمثلة البارزة على طريقة القرآن في التصوير :

١ ـ من المعاني الذهنية التي أخرجت في صورة حسية ، قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ

---

(١) التصوير الفني في القرآن الكريم ص ٣٢ .
(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم ص ٣٢ ـ ٣٣ .

النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾(١) . والمعنى الذهني الذي تقرره هذه الآية أن الصدقة التي تبذل رياء والتي يتبعها المن والأذى لا تثمر شيئاً ولا تبقى ، ولكن هذا المعنى المجرد يعرض بهذه الصورة المحسوسة المتخيلة فيدعهم يتأملون هيئة الحجر الصلب المستوي وقد غطته طبقة خفيفة من التراب فيظنون فيه الخصوبة فإذا نزل عليه المطر من السماء انكشفت الحقيقة بأن زالت تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره وتركته صلداً لا خير فيه ولا خصوبة »(٢) .

٢ ـ وأما تصويره للحالة النفسية والمعنوية فمثاله قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾(٣) .

هذه الآية الكريمة تبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ومن يتوزع قلبه بين الإلّه الواحد والآلهة المتعددة ويتفرق احساسه بين الهدى والضلال ، فهو انسان يعيش حيران قلقاً لا يستطيع أن يستقر على أمر ما ، استهوته الشياطين في الأرض الى الضلال والانحراف وبالمقابل اخوان له يدعونه الى الهدى وهو متردد بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء فهو موزع القلب لا يدري أي الفريقين يجيب ولا أي الطريقين يسلك ، وهذا قمة التمزق والشتات(٤)

٣ ـ أما تصويره للنموذج الانساني فمثاله قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي

(١) سورة البقرة ، آية ٢٦٤ .
(٢) التصوير الفني ص ٣٥ .
(٣) سورة الأنعام ، آية ٧١ .
(٤) التصوير الفني ص ٣٩ .

يُسَيِّـرُكُمْ فِي البَرِّ والبَحْـرِ حَتَى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِـرِيحٍ طَيِّبَـةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَـاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَـوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيْطَ بِهِمْ دَعُـوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَـا مِنْ هَـٰـذِهِ لَنَكُـونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُم إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾[١] .

تبين هذه الآية الكريمة أن الإنسان الكافـر لا يعرف ربـه الا في ساعـة الضيق فيسـأله الفـرج . . فإذا فـرج عنه وخـرج من محنته تنكـر لربـه الـذي نجاه ، وهكذا ترسم الآية نمـوذجاً انسـانياً كثيـر التكرار في بني آدم وتصـوره التصوير الحي المتحرك وبهذا تؤدي المعنى المراد أبلغ أداء وأوفاه[٢] .

٤ ـ أما تصويره للحوادث الواقعة فمثاله قوله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَـا عَلَيْهِمْ رِيْحاً وَجُنُـوداً لَمْ تَـرَوْهَا وَكَـانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيـراً إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّنْ فَـوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَـلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَـارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِـرَ وَتَظُنُّـونَ بِـاللَّهِ الـظُّنُـونَـا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً ، وَإِذْ يَقُـولُ المُنَافِقُـونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾[٣] .

وهكذا ترسم الآيات المشهد كاملاً بحيث تبـرز فيه الحـركات الـظاهرة والانفعالات المضمرة وتلتقي فيه الصورة الحسيـة بالصـورَة المعنويـة وكأنمـا الحادث معروض من جديد دون أن يغفل منه قليل أو كثير[٤] .

٥ ـ وأما تصويره لمشاهد يوم القيامة فمثاله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ

---

(١) سورة يونس ، الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) التصوير الفني ص ٤٢ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيات ٩ ـ ١٢ .

(٤) التصوير الفني ص ٤٤ .

اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِرُهُم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[1] .

فهذه صورة شاخصة لمشهد من مشاهد يوم القيامة ، صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام يجللها ظل كئيب يكمد الأنفاس[2] .

ان القاعدة الأساسية التي يقوم عليها التصوير الفني في القرآن الكريم هي قاعدة التخييل الحسي والتجسيم وهي اضفاء الحركة والحياة على الصورة التي يعرضها ، وتجسيم المعنويات المجردة وابرازها أجساماً أو محسوسات ولا يقتصر التجسيم على التشبيه بمحسوس ، بل يشمل تجسيم المعنويت لا على وجه التشبيه والتمثيل بل على وجه التغيير والتحويل[3] ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾[4] . فيجعل كأن العمل المعنوي مادة محسوسة تحضر على وجه التجسيم أو تحضر على وجه التشخيص أو توجد عند الله كأنها وديعة تسلم هنا فتتسلم هناك »[5] .

ومثال آخر على التخييل قوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[6] ، فها هو الصبح يتنفس فيخيل اليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياه وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة[7] .

ومثال اجتمع فيه التخييل والتجسيم ، قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[8] ، وقال : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) سورة ابراهيم ، الآيتان ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) التصوير الفني ص ٥١ .
(٣) التصوير الفني ص ٦٦ .
(٤) سورة آل عمران ، آية ٣٠ .
(٥) التصوير الفني ص ٦٧ .
(٦) سورة التكوير ، آية ١٨ .
(٧) التصوير الفني ص ٦٢ .
(٨) سورة الأنبياء ، آية ١٨ .

الرُّعْبَ ﴾[1] ، فكأنما الحق قذيفة خاطفة تصيب الباطل فتزهقه ، وكأنما الرعب قذيفة سريعة تنفذ في القلوب لفورها[2] .

ومن أبرز خصائص التصوير القرآني التناسق الفني بين أجزاء الصورة المعروضة من حيث ما يسمى بوحدة الرسم ، أي عدم التنافر بين أجزاء الصورة ثم توزيع تلك الأجزاء على الرقعة بنسب معينة لا يزحم بعضها بعضاً ولا تفقد تناسقها في مجموعها ، وكذلك اللون الذي ترسم به والتدرج في الظلال ما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع[3] ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[4] . انه جو التعويذة بما فيه من خفاء وغموض وابهام ، والفلق : الفجر ، فإنه يعوذ برب الفجر « من شر ما خلق » ، هكذا بالتنكير وبهذا يتحقق الغموض والظلام المعنوي في العموم ، « ومن شر غاسق إذا وقب » فهو الليل حين يلف ظلامه كل شيء فيصبح مرهوباً مخيفاً ، ومن « شر النفاثات في العقد » وهي الساحرات اللواتي ينفثن في العقد وغالباً ما يكون في الظلام ، وهو جو كله رهبة وخفاء وظلام ، « ومن شر حاسد اذا حسد » والحسد انفعال باطني مطمور في ظلام النفس وهو غامض أيضاً ومرهوب ، فالجو كله ظلام ورهبة وخفاء وغموض وهو يستعيذ من هذا الظلام بالله ، والله رب كل شيء ، فَلِمَ خصصه هنا برب الفلق ؟ لينسجم مع جو الصورة كلها ويشترك فيها ، أما أجزاء الصورة فهي « الفلق والغاسق » وهما مشهدان من مشاهد الطبيعة ، « والنفاثات في العقد » « وحاسد إذا حسد » وهما مخلوقان آدميان ، فالفلق والغاسق مشهدان متقابلان في الزمان وكذلك النفاثات والحاسد جنسان

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٢٦ .

(٢) التصوير الفني ص ٧٠ .

(٣) التصوير الفني ص ٩٤ ـ ٩٥

(٤) سورة الفلق

متقابلان في الانسان ، وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعاً متناسقاً ، متقابلة في اللوحة ، وكلها ذات لون واحد فهي أشياء غامضة مرهوبة يلفها الغموض والظلام والجو العام قائم على أساس هذه الوحدة في الأجزاء والألوان [١] .

ان التناسق سمة بارزة في القرآن الكريم على امتداده الطويل فهناك التناسق في تأليف عباراته واختيار ألفاظه ثم نظمها في نسق خاص يبلغ أرقى درجات البلاغة ، وهناك التناسق في الفواصل التي تقوم بإحكام المبنى والمعنى وهناك التناسق الموسيقى والتناسق في التصوير .

يقول الاستاذ سيد رحمه الله : « وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والاتساق ، فمن نظم فصيح الى سرد عذب الى معنى مترابط الى نسق متسلسل الى لفظ معبر الى تعبير مصور الى تصوير مشخص الى تخييل مجسم الى موسيقى منغمة الى اتساق في الأجزاء الى تناسق في الاطار الى توافق في الموسيقى الى افتنان في الإخراج ...... وبهذا كه يتم الأبداع ويتحقق الإعجاز »[٢] .

ومن خصائص الاسلوب القرآني القصد في اللفظ والوفاء في المعنى وهو ما لم يستطع أحد من البشر أن يجمع بينهما في أسلوبه والقرآن كله خير شاهد على ذلك .

يقول الاستاذ محمد دراز : « ضع يدك حيث شئت في المصحف وعد ما أحصته كفك من الكلمات عداً ثم احص عدتها من ابلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني الى ذاك ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون اخلال بغرض قائله وأي كلمة تستطيع ان تسقطها أو تبدلها هناك ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة

---

(١) التصوير الفني ص ٩٤ ـ ٩٥ .
(٢) التصوير الفني ص ١١٦ .

أحسن منها لم توجد ، بل هو كما وصفه الله : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1] .

ثم انه يخاطب العامة والخاصة[2] على حد سواء بحيث يجد العقلاء والبلغاء ما يناسبهم ، ويجد العوام ما يطيقون فهمه ومعرفته دون ترجمان فهو متعة العامة والخاصة وصدق الله العظيم اذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلْذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ﴾[3] .

ثم انه يقنع العقل ويمتع العاطفة[4] في آن واحد دون ان يطغى أحدهما على الآخر على عكس ما يصدر عن البشر ، فالله سبحانه وحده القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً لأنه لا يشغله شأن عن شأن مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[5] فهو من خلال عرضه لهذا الدليل العقلي أقنع العقل وأمتع العاطفة في آن واحد .

وبعد هذا العرض الموجز لاسلوب القرآن الفريد ونظمه البديع تبين لنا أن القرآن معجز في موسيقاه الناشئة من تآلف حروفه واختيار ألفاظه وجمال فواصله ، وهو معجز في تصويره الملموس لجميع ما يتناول من المعاني ، كما أنه معجز في أسلوبه الفريد الذي هو في الذروة من الفصاحة والبلاغة في ألفاظه ومعانيه وعباراته المتناسقة المؤتلفة .

لذا أعجز جهابذة الفصاحة والبلاغة عن الاتيان ولو بسورة مثله ولا يزال معجزاً للناس جميعاً على مر العصور وتوالي الأجيال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) النبأ العظيم ص ١١٢ . والآية - ١ - من سورة هود .
(٢) النبأ العظيم ص ١١٣ .
(٣) سورة القمر ، آية ١٧ .
(٤) النبأ العظيم ص ١١٣ .
(٥) سورة فصلت ، آية ٣٩ .

المبحث الثاني
الاعجاز التشريعي في القرآن الكريم

من وجوه اعجاز القرآن الكريم تلك الشريعة الربانية السامية التي تضمنها وأرسى قواعدها في كثير من آياته ، لقد كان اهتمام القرآن في مرحلته المدنية بالجانب التشريعي ملحوظاً ، فكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ لمعالجة أوضاع الجماعة المسلمة وتنظيم أمورها .

وقد اشتمل القرآن على مجموعة من التشريعات تعد بحق من أعظم الأدلة وأوضحها على نبوته ﷺ . اذ لا يمكن يأي حال من الأحوال أن تكون من صنعه أو من تأثير البيئة عليه ، لأنه ﷺ نشأ أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة بين قوم أميين لا يعرفون علماً من العلوم ، وطبيعة الشريعة نفسها تشهد أنها ليست من صنع بشر ، لأنها تخالف كل ما عرفته البشرية من الشرائع والقوانين ، وهي ليست ترديداً لما سبقها من الشرائع السماوية السابقة ونسخة مكررة منها ، بل فيها الاستقلال والمخالفة لكثير من الأمور في تلك الشرائع ، وهي ليست صدى وأثراً لتفكير البشرية في ذلك الوقت بل لها سماتها المتميزة التي لم تصل اليها عقول البشر وأعرافهم وقوانينهم

وشريعة القرآن تقوم على تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة ، فهي تحفظ على الناس دينهم وعقولهم ونفوسهم وأموالهم ونسلهم [1] ، وهذا ما يسمى بالضروريات الخمس ، وكل ما شرعه الله في كتابه يقوم على حفظ هذه الضروريات ويدفع أي خلل أو نقص يمكن أن يلحق بها .

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص ١٠ .

فقد شرع الله الايمان والعبادات كالنطق بالشهادتين والصلاة والصوم والحج والزكاة تحقيقاً لمصلحة العباد في حفظ دينهم ، وأوجب قتل المرتد عن دينه والزنديق لمنع الاخلال بهذه المصلحة ، وشرع الجهاد في سبيل الله لنشر الدين والتمكين له في الأرض .

وشرع الاسلام المحافظة على العقول بتقويتها وتهذيبها وحرم كل ما يلحق الضرر بها كشرب الخمر والمخدرات ، يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهِ** ﴾[1] .

وشرع أيضاً ما يحافظ على النفس ويصونها من الأذى ، فحرم الاعتداء وسفك الدماء وشرع القصاص لدفع العدوان ، يقول تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ** ﴾[2] ، ويقول : ﴿ **وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾[3] .

كما شرع المحافظة على الأموال ، فحرم السرقة والربا وأكل أموال الناس بالباطل ، وأمر بقطع يد السارق عقوبة له وزجراً لغيره ليطمئن الناس على ممتلكاتهم ، يقول تعالى : ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[4] .

كما شرع المحافظة على النوع البشري فشرع الزواج وحرم الزنا وأمر بالاكثار من النسل وتربيته والقيام عليه حتى يكون أفراداً صالحين في المجتمع الاسلامي .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٩٠ .

(٢) سورة الاسراء ، آية ٣٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٧٩ .

(٤) سورة المائدة ، آية ٣٨ .

وهذه الشريعة شاملة كاملة ، لم تترك جانباً من جوانب الحياة البشرية الا ووضعت له النظام الأكمل والدستور الأمثل ، بخلاف النصرانية مثلاً ، حيث اقتصر اهتمامها على الجانب الروحي من خياة البشر ولم تلتفت إلى جوانب الحياة الأخرى ، ولقد امتن الله على هذه الأمة بإكمال هذا الدين وإتمام النعمة بقوله : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً** ﴾(١) .

فشريعة القرآن نظمت صلة المخلوقين بالخالق وأقامتها على أسس فكرية سليمة بعيدة عن الخرافات والأباطيل ، فبينت أصول العقيدة السماوية وأنواع العبادات المختلفة وذلك لتربية الفرد واصلاحه واستقامة سلوكه ، ومن ثم اقامة المجتمع المسلم الصالح المتمسك بأهداب الفضيلة والأخلاق ، والبعيد عن الانحراف والضلال .

كما نظمت صلة الحاكم بالرعية وجعلت لكل حقاً وعليه واجباً ، فأوجبت العدل والمساواة والشورى على الحاكم وأوجبت الطاعة والنصح على الرعية قال تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾(٢) ، وقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي** ﴾(٣) ، ويقول تعالى في حق الحاكم على الرعية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾(٤) .

ونظمت أيضاً صلة الدولة المسلمة بغيرها من الدول في حالة السلم والحرب وأقامت علاقاتها معها على أساس من الاستعلاء والقوة والسيادة وعدم السماح لأحد بالتدخل في شؤون الدولة الخاصة بها وشرعت الجهاد

---

(١) سورة المائدة ، آية ٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

(٣) سورة النحل ، آية ٩٠ .

(٤) سورة النساء ، آية ٥٩ .

صيانة للأمة ولعقيدتها وأوجبت على الدولة المسلمة الأخذ بأسباب القوة والمنعة لحماية الدعوة الاسلامية وتبليغها ودفع الأذى اذا وقع عدوان على أرض المسلمين ، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1] .

ثم عنيت شريعة القرآن عناية تامة بالجانب الاجتماعي من حياة الأمة ، فشرعت ما يوفر ويحقق علاقات الأخوة والمحبة بين الناس كالمساواة بين الناس ، فلا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى ، وبهذا تكون قد حطمت قيم الجاهلية وموازينها المعوجة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2] .

وأوجبت العدل بين الناس في خصوماتهم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[4] .

كما نظمت شؤون الأسرة وبينت حقوق الزوجين والآباء والأبناء حتى تسود المودة والمحبة والوئام بين أفرادها ، ومن ثم بناء المجتمع المتحاب المتماسك .

كما أنها عالجت الجوانب الاقتصادية فبينت سبل الكسب المباح من أنواع التجارة والبيوع والصناعة وغير ذلك وحرمت الربا وطرق الكسب الحرام ، ثم جعلت قيوداً على التصرف بالأموال وبينت أن فيها حقاً واجباً

---

(١) سورة الانفال ، آية ٦٠ .

(٢) سورة الحجرات ، آية ١٣

(٣) سورة المائدة ، آية ٨ .

(٤) سورة الحجرات ، آية ١٠ .

للفقراء والمحتاجين ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[1] ، وقال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾[2] ، ويقول سبحانه وتعالى في حل البيع وحرمة الربا : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[3] . ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾[4] .

وهذه الشريعة الربانية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان ، لأنها تحتوي على قواعد وأسس كلية ثابتة تتسم بالمرونة والملاءمة لمختلف الأجواء والبيئات في مختلف العصور ، يقول تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾[5] .

وهي شريعة عالمية جاء بها رسول الله ﷺ للبشر كافة ، تصلح لأبيضهم وأسودهم ، وتلائم جميع المجتمعات وتحقق الخير والنفع لكل بني آدم على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم وحضاراتهم ، فهي رحمة مهداة من الله سبحانه وتعالى للناس كافة ، وليست حِكراً على قوم دون آخرين أو لجماعة دون أخرى ، وإنما هي للناس كافة عربهم وعجمهم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[6] .

وبهذه السمات الواضحة في هذه الشريعة الغراء يظهر تميزها على جميع النظم والقوانين الوضعية لأن هذه القوانين صادرة عن البشر الضعفاء القاصرين وهي عاجزة عن توفير السعادة وتحقيق الخير للبشرية ، وما أصاب

---

(١) سورة المعارج ، الآيتان ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٧٥ .

(٤) سورة النساء ، آية ٢٩ .

(٥) سورة يونس ، آية ٦٤ .

(٦) سورة الانبياء ، آية ١٠٧ .

البشرية من الويلات والدمار والشقاء سببه اقصاء شرع الله والاحتكام لهذه القوانين .

وهذه الشريعة هي الشفاء المرتجى والدواء الناجع والأمل الكبير لما حل بالبشرية من علل وأسقام . لقد طبقت هذه الشريعة في حياة الأمة الإسلامية في عهدها الأول فأنتجت جيلاً فريداً لم يشهد له التاريخ مثيلاً، فقد جعلت من الأعراب رعاة الشاة والابل قادة وزعماء قادو' البشرية الى الخير والصلاح ، وعاشت الأمة بفضلها حياة السعادة والرخاء والكرامة ، وعندما تخلت عنها عاشت حياة الشقاء والعبودية ورحم الله عمر الفاروق القائل : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله» .

المبحث الثالث
الإخبار بالغيب

ومن وجوه اعجاز القرآن الكريم اخباره عن الغيوب في كثير من آياته ، سواء الغيوب الماضية منها أو المستقبلية وما تخفي الصدور وتكن القلوب ، وهذا من أعظم الأدلة على أن القرآن الكريم كلام رب العالمين وليس من كلام البشر ، لأن هذه الأخبار جاءت الأحداث تصدقها ، وليس هذا لأحد الا لعلام الغيوب الذي يعلم السر وأخفى وما كان وما سيكون الى يوم القيامة .

والغيب علم استأثر به الله عز وجل دون سائر الخلق لا يطلع أحد منهم على شيء من ذلك الا إذا أطلعه الله سبحانه وتعالى حتى الأنبياء والرسل والملائكة .

فهذا رسول الله ﷺ خير الخلق ، الذي اصطفاه الله لحمل رسالة السماء الى الناس كافة يصرح أنه لا يحيط بشيء من علم الغيب الا اذا كشف الله له من ذلك شيئاً لأنه مثل سائر البشر ، قال تعالى على لسان نبيه : ﴿ **قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1] . ويقول : ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا**

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٠ .

نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

فهـذه الآيات تؤكـد أن رسـول الله ﷺ لا يعلم من الغيب شيئـاً إلا مـا أوحى الله به اليه وفي هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على نبوته ﷺ .

ومن الغيوب التي تضمنها القرآن الكريم وأخبر بها رسول الله ﷺ :

أولاً : إخباره عن الغيوب الماضية :

ورد في القـرآن الكـريم كثيـر من الآيـات تتضمن أخبـاراً عن القـرون المـاضية والأمم السـابقة وقصص بعض أنبيـاء اللّه مع أقـوامهم ومصير هؤلاء الأقوام المكذبين المعاندين كقصة هود وصالح ونوح وشعيب عليهم السلام ، وأخبار قوم عاد وثمود وفـرعون وغيـر ذلك من الأخبـار الماضيـة التي لم يكن رسول اللّه ﷺ ولا قومه يعلمونها من قبل أن ينزل القرآن ، شهد بذلـك الحق سبحـانـه وتعـالى في كتـابـه العـزيـز حيث قـال عقب ذكــره لهـذه القصص المـاضية : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الغَيْبِ نُوحِيْهَـا إِلَيْـكَ مَـا كُنْتَ تَعْلَمُهَـا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

ويقول أيضاً : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوْحِيهِ إِلَيْـكَ وَمَا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[3] . وقال أيضـاً : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الغَيْبِ نُـوحِيهِ إِلَيْـكَ وَمَا كُنْتَ لَـدَيْهِم إِذْ يُلْقُونَ أَقْـلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَـرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[4] .

هذه النصوص تؤكد أن أخبار الأمم السابقة وقصص الأنبياء السابقـة لم

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٨٨ .

(٢) سورة هود ، آية ٤٩ .

(٣) سورة يوسف ، آية ١٠٢ .

(٤) سورة آل عمران ، آية ٤٤ .

يكن رسول اللّه ﷺ يعلمها من قبل أن يوحى إليه بها ، وانىٰ له ذلك وهو العربي الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يؤت نصيباً من العلم قبل مبعثه ، فلم يؤثر عنه أنه تلقى علماً من أحد من الناس ولا ارتحل عن قومه لتحصيل ذلك، ثم إن قومه كانوا أميين ليس لديهم علم من العلوم إلاَّ فصاحة اللغة والبيان الفطري ، فلم يكن فيهم علماء يتلقون عنهم ، وكانت صلتهم بأهل الكتاب محدودة ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أين لمحمد ﷺ بهذه الأخبار إن لم يكن وحياً من اللّه سبحانه وتعالى، فهذا دليل قاطع وآية بيّنة على أنه ﷺ رسول مبعوث من رب العالمين ، يقول الإمام الباقلاني : « إنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أميّاً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق اللّه آدم عليه السلام إلى حين مبعثه . . . . . ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلاَّ عن تعلم ، وإذا كان معروفاً إنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا متردداً إلى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلاَّ بتأييد من جهة الوحي »(١) .

ويقول الإمام ابن تيمية في ذلك أيضاً : « ذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه اللّه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا ، فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم وهو لم يعاشر إلاَّ قومه ، وقومه يعلمون ذلك عنه ، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ، ويعلمون أيضاً أنه هو لم يكن تعلم ذلك وأنه لم يكن يعاشر غيرهم وهم يعلمون ذلك صار هذا حجة على قومه وعلى من بلغه خبر قومه »(٢) .

قد أخبر اللّه سبحانه وتعالى بأمية محمد ﷺ في آيات عدة منها قوله

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٤ .

(٢) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٢٣ .

تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[1] . ويقول أيضاً : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2] . ولم يكن ﷺ يخبر عن هذه الغيوب إلَّا بما يوحى إليه ، فقد كان أهل الكتاب كثيراً ما يسألونه عن بعض القصص والحوادث الماضية الواردة في كتبهم والتي لا يعرفها إلَّا كبار أحبارهم ليختبروا بذلك صدقه فكان الوحي يأتيه بها كاملة مفصلة كقصة أهل الكهف وشأن ذي القرنين وخبر موسى والعبد الصالح وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة ، ولم يؤثر عن أحد من هؤلاء أن كَذَّبَ رسول اللَّه ﷺ فيما أخبر به وهم أشد الناس عداوة له ، وأحرصهم على تكذيبه وإبطال دعوته .

ثانياً : الإخبار عن الغيوب المستقبلية :

أخبر القرآن الكريم بعدة أخبار لم تكن قد حصلت عندما أخبر بها ، ووقعت في المستقبل طبقاً لما أخبر ، وكشف كذلك الكثير من الأسرار والخفايا التي تختلج في النفوس ولا يعلم بها أحد من الناس ، وهذا لا يصدر إلَّا عن علام الغيوب الذي يعلم السرائر وما سيكون في المستقبل ، ولا يمكن أن يأتي من أحد من البشر إلَّا أن يكون نبياً مرسلاً فيطلعه اللَّه على ذلك عن طريق الوحي ، وفي هذا إبطال لزعم القائلين أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ .

ومن الغيوب التي أخبر عنها ووقعت وفقاً لما أخبر :

١ ـ إخباره بغلبة الروم على الفرس :

قال تعالى : ﴿ آلَمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٤٨ .

(٢) سورة يونس ، آية ١٦ .

سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِيْنَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُـونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[١] .

يخبر اللّه سبحانه وتعالى في هذه الآيات أن الـروم ستغلب الفرس في بضـع سنين بعد تلك الهـزيمة البشعـة التي حلت بهم إذ غزاهم الفـرس في عقـر دارهم وهزمـوهم وانتصروا عليهم ، وقـد فـرح لـذلـك مشـركـو قـريش واستبشـروا خيراً لأنهم على الـوثنية مثلهم ، وأخـذوا يهـزأون ويسخـرون من المسلمين قائلين غلب اخواننـا الفرس اخـوانكم الروم وسنغلبكم إذا مـا وقع بيننـا وبينكم حرب ، فسـاء ذلك المسلمين ورغبـوا لو أن النصـر كان حليف الروم لأنهم أهل كتاب مثلهم ، فأخبر رسول اللّه ﷺ بما نزل عليه من القرآن أن الروم ستغلب الفرس وتهزمهم خلال سنوات قليلة ، فلما سمع المشركون بهذا النبأ كذبوه حتى أن أُبَيَّ بن خلف تراهن مع أبي بكر رضي اللّه عنه على تكذيب ذلك ، ولكن قدر اللّه النافذ ووعده الصادق تحقق فقد تمكن الـروم من هزيمة الفرس بأقل من عشر سنين وفرح بذلك المؤمنون .

يقول القرطبي : « وكان في هذا الاخبار دليل على نبوة محمد ﷺ لأن الـروم غلبتها فـارس فأخبـر اللّه عزّ وجـلّ نبيه محمـداً ﷺ أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين وأن المؤمنين يفـرحون بـذلك لأن الـروم أهل كتـاب ، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر اللّه عـزّ وجلّ بـه مما لم يكن علمـوه ، وأمر أبو بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ في الرهـان ثم حرم الـرهان من بعد ونسخ بتحريم القمار »[٢] .

روى الإمام أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي اللّه عنه في قـولـه تعـالى : ﴿ غُلِبَتِ الـرُّومُ ﴾ قـال : غُلِبَتْ وَغَلَبَتْ ، قـال : كـان المشـركون يحبـون أن تظهـر فارس على الـروم لأنهم أصحاب أوثـان وكـان

---

(١) سورة الروم ، الآيات ١ ـ ٥ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٥ .

المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « أما أنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال : ألا جعلته، أراه قال، دون العشر، قال أبو سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿**الم غلبت الروم**﴾ إلى قوله : ﴿ **يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء** ﴾ . قال سفيان الثوري : « سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر»[1] .

٢ ـ اخباره بهزيمة قريش قبل حدوثها :

قال تعالى : ﴿ **سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾[2] وقال : ﴿ **جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ** ﴾[3] .

يخبر سبحانه وتعالى بهذه الآيات أن جمع المشركين سيهزم ويولي الدبر ، وأن الله سينتقم منهم بأيدي عباده المؤمنين ، وقد تحقق ذلك في وقعة بدر حيث هزم جمع المشركين شر هزيمة ورجعوا يجرون ذيول الخزي والعار من هذه المعركة ، يقول الشوكاني في تفسيره : « وقد هزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار وقتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر فلله الحمد »[4] .

روى عكرمة قال : نزلت ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ قال : قال عمر : أي جمع يهزم أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت

---

(١) مسند أحمد ٣٠٤/١ ، سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الروم جـ ٥ ص ٣٤٣ .

(٢) سورة القمر ، آية ٤٥ .

(٣) سورة ص ، آية ١١ .

(٤) فتح القدير جـ ٤ ص ١٢٩ .

رسول اللّه ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ »[1] .

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي اللّه عنهم ، قال : قال النبي ﷺ وهو في قبة : اللهم اني أنشدك عهدك ، اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم ، فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبك يا رسول اللّه قد ألححت على ربك ، وهو في الدرع فخرج وهو يقول : ﴿ **سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أدْهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴾[2] . وكان ذلك يوم بدر .

ويقول القرطبي : « هذا تأنيس للنبي ﷺ ، وقد فعل بهم هذا في يوم بدر ، قال قتادة : وعد اللّه أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر »[3] .

ويقول أبو الحسن الزيدي : « فأخبر عز وجل في حال ضعف النبي ﷺ وقلة أنصاره وقوة مشركي قريش أنهم جند مهزوم فكان الأمر على ما أخبر به عز وجل هزموا يوم بدر »[4] .

٣ - إخباره بدخول رسول اللّه وصحابته المسجد الحرام :

قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾[5] .

تدل هذه الآية على أن رسول اللّه ﷺ وصحابته سيدخلون مكة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٦٦ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب ما قيل في درع النبي جـ ٣ ص ٢٣٠ .

(٣) تفسير القرطبي جـ ١٥ ص ١٥٣ .

(٤) اثبات نبوة النبي ص ١٣٠ .

(٥) سورة الفتح ، آية ٢٧ .

معتمرين ، يطوفون بالبيت آمنين مطمئنين بعد أن رأى رسول اللّه ﷺ ذلك في نومه ورؤيا الأنبياء حق وصدق ، وقد تحقق ذلك ليس في نفس السنة التي خرجوا بها لأداء العمرة ، وإنما في العام الذي بعده وذلك لأن المشركين منعوهم من الدخول إلى مكة وحصل بينهم الصلح على أن يأتوا في السنة القادمة للعمرة ، فسميت عمرة القضاء .

يقول ابن كثير : « كان رسول اللّه ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي اللّه عنهم من ذلك شيء حتى سأل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه النبي في ذلك ، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ؛ أفأخبرتك أنك آتيه عامك هذا ؟ قال : لا . قال النبي ﷺ : فإنك آتيه ومطوف فيه »[1] .

٤ ـ إخباره بحفظ القرآن من التحريف :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2] .

تخبر هذه الآية أن اللّه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ كتابه من التحريف والتغيير ، فلن يستطيع أحد من الناس أن يعبث فيه بتغيير أو تبديل ولو بكلمة واحدة منه ، على خلاف الكتب السابقة التي حرفها أحبار اليهود والنصارى بأيديهم ، وقد وقعت محاولات كثيرة لتحريف كتاب اللّه والزيادة فيه أو النقص منه ، ولكنها باءت بالفشل ورد اللّه كيد الحاقدين في نحورهم .

لقد هيأ اللّه سبحانه وتعالى الأسباب الكثيرة لحفظ كتابه من التحريف

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٠١ .

(٢) سورة الحجر ، آية ٩ .

منذ اللحظة الأولى لنزوله حيث مكن من حفظه في الصدور في زمن رسول الله ﷺ وإنه لم ينزل شيء من القرآن على الرسول ﷺ إلاّ ودون فوراً في الرقاع واللخاف ، وعندما قُبض رسول اللّه ﷺ قام الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه بجمعه وتدوينه في نسخة واحدة لحفظه نظراً لاستشهاد أعداد كبيرة من حفظته ، ثم قام الخليفة الثالث عثمان بن عفان بنسخه عدة نسخ ووزعها على الأمصار الإسلامية .

وهكذا فقد حفظه المسلمون جيلاً بعد جيل في الصدور والسطور ، يتلقاه كل جيل عن سابقه ويعلمه لمن بعده . وسيبقى محفوظاً كما وعد اللّه حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها ، ولن يخلف اللّه وعده وهذا يؤكد بطلان دعوى من يدعي ان القرآن الكريم ناقص أو محرف لمصادمة ذلك للنص القرآني الصريح .

يقول القرطبي في قوله تعالى : ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه ، قال قتادة : حفظه اللّه من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص منه حقاً فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً »[1] .

٥ ـ إخباره بعودة الرسول ﷺ إلى مكة :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾[2] .

تخبر هذه الآية الكريمة أن الرسول ﷺ سيعود إلى مكة المكرمة في المستقبل بعد أن أخرجه أهلها منها وقد تحقق ذلك عندما فتح اللّه عليه مكة .

يقول الشوكاني : « لرادك إلى معاد » أي إلى مكة ، قال بذلك جمهور المفسرين »[3] .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ٥ .

(٢) سورة القصص ، آية ٨٥ .

(٣) فتح القدير جـ ٤ ص ١٨٨ .

ويقول القاضي عبد الجبار الهمذاني : ومعاد الرجل بلده ، وسمي معاداً لأنه ينصرف في البلاد ويضرب في الأرض ثم يعود إليه ..... وهذه الآية نزلت على رسول اللّه ﷺ حين خرج من مكة يريد المدينة فكان خروجه منها محزوناً لمفارقة وطنه فبشره اللّه بالظهور والغلبة ،أعلمه أنه يعود إلى مكة فكان كما قال وكما أخبر »[1] .

ويقول القرطبي : « ختم اللّه السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة قاهراً لأعدائه وهو قول جابر بن عبد اللّه وابن عباس ومجاهد وغيرهم ، ويقول ابن عباس أن هذه الآية نزلت بالجحفة »[2] .

٦ ـ إخباره بظهور الإسلام على سائر الأديان :

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِم وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾[3] .

يخبر اللّه تعالى في هذه الآيات أن أمر هذا الدين سيتم ويظهر على سائر الأديان في الأرض رغم كيد الأعداء له ، فهم لا يألون جهداً في محاربته والطعن فيه لاطفاء نوره ولكن اللّه حافِظٌ لدينه مُعْلٍ لكلمته منجزٌ لوعده رغم أنف الكافرين ، فقد ظهر نور الإسلام وعمّ أرجاء الأرض شرقاً وغرباً .

يقول أبو الحسن الزيدي : « ثم أنجز الله عز وجل وعده لنبيه ﷺ باظهار دين الاسلام ونشر دعوته في الآفاق فطبقت الشرق والغرب وعمت العرب والعجم وخلصت الى الروم والهند والترك .... فأما بلاد العرب والعجم فقد صارت بلاد الاسلام ، ولم يبق أهل ملة في الملل

---

(١) تثبيت دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣٧٢ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٦ ص ١٣٤ .

(٣) سورة التوبة ، الآيتان ٣٢ ـ ٣٣ .

ولا أمة من الأمم الا نفذ فيهم الاسلام حتى صار هذا الدين أعلى الأديان كلمة وأرفعها حكمة ولو كره المشركون ، كما قال الله عز وجل»[1] .

جاء في تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي على سائر الأديان كما في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ان الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها »[2] .

وروى الامام أحمد عن سليم بن عامر قال : سمعت تميم الداري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك بيت مدر ولا وبر الا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزا يعز الله به الاسلام ، وذلا يذل الله به الكفر»[3] .

ويقول عبد الجبار المعتزلي : « ان رسول الله ﷺ قال حين دعا الى الله وفي حال وحدته وضعفه أن الله أرسلني ووعدني أن يظهر ديني على الأديان كلها فيكون سلطاني أقهر من سلطان كسرى وقيصر فأغلب الملوك ويعلو ملكي وملك أنصاري وأتباعي كل ملك في الأرض ، ثم ما رضي بهذا القول حتى جعله كتاباً يقرأ وقرآناً مخلداً يعرفه العدو والولي فقال : هو الذي أرسل رسوله بالهدى . . . . فكان كما كان وكما أخبر »[4] .

٧ ـ اخباره باستخلاف الأمة المسلمة والتمكين لها في الأرض :

قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

---

(١) اثبات نبوة النبي ص ١٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٩ ، والحديث رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض جـ ٤ ص ٢٢١٥ .

(٣) مسند احمد جـ ٦ ص ٤ .

(٤) تثبيت دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣١٤ .

الَّـذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْـدِ خَوْفِهِمْ أَمْنـاً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْـرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1] .

يخبـر سبحانـه وتعالى بـأنه سيجعـل أتبـاع محمـد ﷺ خلفـاء الأرض وسيبدلهم الحالة البائسـة التي كانـوا عليها من الخـوف وعدم الاستقـرار نظراً لتكـالب الأعداء عليهم من كـل جـانب الى الأمن والـطمـأنينـة والتمكين في الأرض .

ولم تمض فترة طويلة على نزول هذه الآية حتى تحقق وعد الله فمكن للمسلمين في الأرض ورسـول الله لا زال بينهم قبـل أن يقبض اذ دانت لـه جـزيرة العـرب وبعده بقليـل دانت غيرهـا من الأمصار بـالـطاعـة والخضـوع للمسلمين وأقر الله أعينهم بالأمن والطمأنينة وانطلقـوا ينشرون النـور الربـاني الذي ورثوه عن رسول الله ﷺ .

وهكذا امتد سلطانهم وقويت شوكتهم وعلت كلمتهم دانت لهم العرب والعجم بالطاعة .

يقول ابن كثير : « هذا وعد من الله تعـالى لرسـوله صلوات الله عليـه وسلامه عليه بأنـه سيجعل أمتـه خلفاء الأرض أي أئمـة الناس والـولاة عليهم وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلنهم من بعـد خوفهم أمنـاً وحكماً فيهم وقد فعله تبارك وتعـالى وله الحمـد والمنة . روى أبـو العاليـة في قولـه تعـالى : **﴿ وعـد الـله الـذين آمـنـوا منكـم وعـمـلوا الـصـالـحـات ليستخلفنهم . . . . . . ﴾** قـال : كـان النبي ﷺ وأصحـابـه بمكـة نحـواً من عشر سنين يدعون الى الله وحده والى عبـادته وحـده لا شريـك له سـراً وهم خـائفون لا يؤمـرون بالقتـال حـتى أمروا بعـد الهجرة الى المـدينة فقـدموهـا فـأمرهم الله بـالقتال فكـانوا بهـا خائفين يمسـون في السلاح ويصبحـون في السلاح ، فصبروا على ذلك ما شـاء الله ثم ان رجلاً من الصحـابة قـال : يا

---

(١) سورة النور آية ٥٥ .

رسول الله أبد الدهر نحن خائفون أما يأتي يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح فقال رسول الله ﷺ : « لن تصبروا الا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة : « وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح ، ثم أن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في امارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيه »[1] .

٨ ـ اخباره بفتح خيبر والحصول على الغنائم :

قال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾[2] .

أخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية أن المسلمين سيحصلون على غنائم كثيرة ، ومن بينها غنائم خيبر وقد تحقق ذلك فقد توالت الغنائم على المسلمين من فتوحاتهم الكثيرة حيث أيدهم الله تعالى بالنصر على أعدائهم كما تحقق وعد الله للمسلمين بفتح خيبر والحصول على الغنائم الكثيرة منها .

يقول الشوكاني تعليقاً على هذه الآية : « في هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم الى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها التي قدر وقوعها فيها » ، فعجل لكم هذه « أي غنائم خيبر »[3] .

ويقول القرطبي : « قال ابن عباس ومجاهد انها المغانم التي تكون الى يوم القيامة ، وقوله : « فعجل لكم هذه » أي خيبر قاله مجاهد ، وقال ابن عباس عجل لكم صلح الحديبية »[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .
(٢) سورة الفتح ، آية ٢٠ .
(٣) فتح القدير جـ ٥ ص ٥١ .
(٤) نفسير القرطبي جـ ٦ ص ٢٧٨ .

ويقـول الطبـري : « وأولى الأقوال في تـأويل ذلـك بالصـواب ما قـاله مجاهد وهو أن الذي أثابهـم الله من مسيرهم.ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ولم يفتحـوا فتحاً أقـرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بـالحديبيـة اليها من فتـح خيبر وغنائمها ، أمـا قولـه : « وعدكم الله مغـانم كثيرة » فهي سـائر المغـانم التي غنموها بعد خيبر كغنائم هوازن وغطفان وفارس والروم »[1] .

٩ ـ اخباره بموت أبي لهب والوليد بن المغيرة على الكفر :

قال تعالى في شأن الوليد : «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدَاً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدَاً سَأُرْهِقُـهُ صَعُوداً إِنَّـهُ فَكَّرَ وَقَـدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَـدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَـدَّرَ ثُمَّ نَـظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَـرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَـالَ إِنْ هٰذَا سِحْـرٌ يُؤْثَـرُ إِنْ هٰـذَا إِلَّا قَوْلُ البَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾[2] .

في هـذه الآيـات اخبـار من الله تعـالى أن الـوليـد بن المغيـرة ـ أحـد صنـاديد الكفـر وزعمائهم ـ سيهلك على الكفـر وسيدخـل العذاب الأليم في سقر جزاء اعـراضه عن الحق بعـدما تبين لـه ، وقد تحقق ذلـك حيث أهلكه الله مع من هلك من الكفار يوم بدر .

وقال في شأن أبي لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُـهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ فِي جِيدِهَـا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴾[3] .

---

(١) تفسير الطبري جـ ٢٦ ص ٩٠ .
(٢) سورة المدثر ، الآيات ١١ ـ ٢٧ .
(٣) سورة المسد .

أخبر سبحانه وتعالى أن أبا لهب سيموت كافراً وسيصلى ناراً ذات لهب جزاء كفره وايذائه المستمر للرسول ﷺ وصحابته ، وقد حصل ذلك ، فلم يشرح الله صدره للاسلام وأصر على الكفر حتى توفاه الله وهو كافر وكذلك امر أ ، جميل .

يقول القرطبي : « والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر الى الموافاة فلما ماتا على الكفر صدق الاخبار عنهما ، ففيه معجزة للنبي ﷺ فامرأته خنقها الله بحبلها ، وأبو لهب أماته الله بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال بعد أن شجته أم الفضل»(١) .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية تعليقاً على الاخبار عن أبي لهب والمغيرة : فكان كما أخبر به مات الوليد كافراً ومات أبو لهب كافراً »(٢) .

١٠ ـ اخباره بعصمة الرسول من الأعداء :

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾(٣) .

تخبر هذه الآية الكريمة بأن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ نبيه وكف الأعداء عنه فلن يتمكنوا منه ولن يصلوا إليه . فكان كذلك إذ لم يتمكن أحد من قتله رغم كثرة المحاولات .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يُحرَس قبل نزول هذه الآية ، فلما نزلت ترك الحراسة ، قال بذلك جمهور المفسرين .

روى الطبري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ قالت : « فأخرج

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢٠ ص ٢٤٣ .
(٢) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ١٣١ .
(٣) سورة المائدة ، آية ٦٧ .

النبي ﷺ رأسه من القبة فقال أيها الناس انصرفوا فإن الله عصمني ﴾[1] .

ويقول ابن كثير : « ومن عصمة الله لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة ، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب وبعد موته قيض الله له الأنصار فبايعوه على الاسلام وكلما هَمَّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ، مثل ما فعله اليهود من السحر فحماه الله منهم وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء»[2] .

وقد تجلت عصمة الله لرسوله في مواطن عدة منها :

أ ـ ما جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : « غزونا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نجد فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، قال : وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « ان رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر الا والسيف صلتا في يده ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قال : قلت الله ، ثم قال في الثانية من يمنعك مني ؟ قال : قلت الله ، قال : فشام السيف فها هو ذا جالس ، ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ »[3] .

ب ـ ومن ذلك عن أنس أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها ، فجيء بها الى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت : أردت لأقتلك ، قال : ما كان الله ليسلطك على ذاك ، قال أو قال علي ،

---

(١) تفسير الطبري جـ ٦ ص ٣٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب توكله على الله وعصمة الله تعالى له من الناس جـ ٤ ص ١٧٨٦ .

والعضاء : كل شجرة ذات شوك ، صلتا : مسلولا ، فشام السيف : غمده .

قال : قالوا : ألا نقتلها ؟ قال : لا ، قال : فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ »[1] .

جـ - ومنه أيضاً عن سلمة بن الأكوع قال : غزونا مع رسول الله ﷺ حنينا .... فَوَلَّى صحابة النبي ﷺ .... فلما غَشُوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم ، فقال : شاهت الوجوه ، فما خلق الله منهم انساناً الا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين »[2] .

د - ومنه عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يُعَفِّرُ مُحمدٌ وجهه بين أظهركم ، قال : فقيل نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته او لأعفرنَّ وجهه في التراب ، قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زَعَمَ لِيَطَأَ على رقبته ، فقيل له : مالك ؟ فقال : ان بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة . فقال رسول الله ﷺ لو دنا مني لأختطفته الملائكة عضواً عضواً »[3] .

والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومن حفظ الله لرسوله ﷺ قطع دابر المستهزئين الذي كانوا ينالون منه ﷺ كلما مر بهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[4]

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب السلام ، باب السم جـ ٤ ص ١٧٢١ ، واللهوات : اللحمات اللواتي في سقف أقصى الفم ، فما زلت أعرفها : أي العلامة كأنه بقي للسم علامة وأثر من سواد أو غيره .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب في غزوة حنين جـ ٣ ص ١٤٠٢ ، وقوله غشوا رسول الله : أتوه من كل جانب ، شاهت الوجوه : قبحت .

(٣) صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين واحكامهم ، باب قوله ان الانسان ليطغى جـ ٤ ص ٢١٥٤ ، يعفر : يلصق وجهه بالتراب أي يسجد .

(٤) سورة الحجر ، آية ٩٥ .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ انا كفيناك المستهزئين ﴾ ، قال : المستهزئون الوليد بن المغيرة والأسود ابن عبد يغوث الزهري والأسود بن عبد المطلب أبو زمعة من بني أسد بن عبد العزى والحارث بن عيطل السهمي والعاص بن وائل فأومأ جبريل الى أكحل الوليد بن المغيرة ، فقال له النبي ﷺ ما صنعت ؟ قال : كفيته ، وأومأ الى الأسود بن عبد المطلب الى عينيه ، فقال : ما صنعت ؟ فقال : كفيته ، وأومأ الى رأس الأسود بن عبد يغوث ، فقال : ما صنعت ؟ فقال : كفيته ، وأومأ الى الحارث السهمي الى بطنه ، فقال : ما صنعت ؟ قال : كفيته ، وأومأ الى أخمص العاص بن وائل، فقال : ما صنعت ؟ قال : كفيته .

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة وهو يُريش نبله فأصاب أكحله فقطعها ، وأما الأسود بن عبد المطلب فعمي ، فمنهم من يقول عمي هكذا ، ومنهم من يقوَل نزل تحت سمرة فجعل يقول يا بني الا تدفعون عني ؟ يقولون ما نرى شيئاً ، فجعل يقول هلكت ، ها هو ذا طعن في عينَيَّ بالشوك فجعلوا يقولون ما نرى شيئاً ، فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه ، وأما الأسود فخرج في رأسه قروح فمات منها ، وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خروءه من فيه فمات ، أما العاص بن وائل فركب الى الطائف على حمار فربض به في شبرقة يعني شوكة فدخلت في أخمص قدمه فمات »[١] .

ثالثاً : كشف خفايا النفوس :

ما يخالج النفوس ويخطر في القلوب أمر ليس بمقدور أحد من البشر معرفته الا اذا حَدَّثَ به صاحبه ، فإذا تحدث القرآن الكريم في العديد من آياته في هذا الجانب ، فهو الكلام الصدق والقول الحق الصادر عن العليم الخبير ، وهو آية على صدق رسول الله ﷺ ، فلو لم يكن القرآن وحي الله

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

المعجز اليه لما كان له سبيل الى معرفة ما يدور في نفوس الناس ويمر بقلوبهم من خواطر وأفكار .

ومن الأمثلة التي وردت في القرآن تكشف عن خفايا النفوس :

١ ـ كشفه عن حقيقة المنافقين وموالاتهم لليهود :

قال تعالى : **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾**[١] .

تكشف هذه الآية الكريمة عن حقيقة المنافقين الموالين لليهود ، ووعودهم الكاذبة لهم بالخروج معهم اذا ما أخرجوا ، وبالنصرة اذا ما قوتلوا ، ولكن الله علام الغيوب يُعلم نبيه بحال المنافقين واتصالاتهم السرية باليهود ، ويؤكد أن وعودهم بالخروج او النصرة كاذبة ، ولن يفوا لهم بشيء منها ولقد أثبت الواقع صدق ذلك فلم يخرجوا مع بني النضير عندما أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة نتيجة غدرهم ولم يقاتلوا مع يهود خيبر وبني قريظة عندما حاربهم رسول الله ﷺ .

يقول ابن كثير : « يخبر الله تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أُبَيّ وأضرابه حين بعثوا الى يهود بن النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : **﴿ ألم تر الى الذين نافقوا ..... حتى قال والله يشهد انهم لكاذبون ﴾** ، أي لكاذبون فيما وعدوهم ، إمّا لأنهم قالوا لهم قولاً وفي نيتهم أن لا يفوا لهم به وإمّا لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه »[٢] .

---

(١) سورة الحشر ، الآيتان ١١ ـ ١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٠ .

ويقول الشوكاني في شرح الآية : « كذبهم سبحانه فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم ، ثم لمّا أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصل ما كذبوا فيه ، فقال : « لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم » وقد كان الأمر كذلك فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود وهم بنو النضير ومن معهم ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة وأهل خيبر»[1] .

ويقول القاضي عبد الجبار الهمذاني : «فتلا رسول الله ﷺ هذه على الناس وأخبرهم بما كان من المنافقين وبما أسروه الى اليهود ونادى بفضحهم ثم أخرج بني النضير من ديارهم وأجلاهم فلم يخرج معهم عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه كما ضمن لهم وقد قاتلهم النبي ﷺ فما نصروهم»[2] .

٢ ـ كشفه عما أراده المنافقون يوم الأحزاب :

قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾[3] .

تكشف هذه الآية الكريمة عما يخفيه المنافقون في صدورهم من ارادة الفرار من مواجهة العدو في غزوة الأحزاب ، وتسترهم بحجة واهية كاذبة أن بيوتهم مكشوفة للعدو تحتاج الى حماية ، ولكن الله بعلمه المحيط الذي يعلم السر وأخفى يعري نواياهم الخبيثة ويفضحها للملأ حتى يكون الرسول والمؤمنون على بينة من أمرهم .

يقول أبو الحسن الزيدي : « فأخبر عما في ضمائرهم من ارادة الفرار تعللاً بأن بيوتهم عورة وهذا لو لم يكن كذلك لظهر منهم انكاره »[4] .

---

(١) فتح القدير جـ ٥ ص ٢٠٤ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة جـ ٢ ص ٤٩٠ .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ١٣ .

(٤) اثبات نبوة النبي ص ١٣٠ .

ويقول الشوكاني في قوله تعالى : « ان بيوتنا عورة » أي ضائعة سائبة ليست بحصينة ولا ممتنعة من العدو ، وقال : « وما هي بعورة » فكذبهم اللّٰه سبحانه فيما ذكروه ، ثم بيّن سبب استئذانهم وما يريدون به فقال : « ان يريدون إلّا فراراً » أي ما يريدون إلّا الهرب من القتال »[1] .

٣ ـ كشفه عن موالاة بعض المسلمين لكفار قريش :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[2] .

يطلع اللّٰه سبخانه وتعالى رسوله ﷺ على موقف بعض الصحابة من مشركي قريش ومودتهم لهم ذلك هو حاطب بن أبي بلتعة الذي كتب كتاباً وأرسله مع امرأة من قريش يخبرهم فيه بمسير النبي ﷺ إليهم .

يقول ابن كثير : « كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفاً لعثمان ، فلما عزم رسول اللّٰه ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال : « اللهم عم علينا خبرنا » فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول اللّٰه ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً فأطلع اللّٰه تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه »[3] .

---

(١) فتح القدير جـ ٤ ص ٢٦٦ .

(٢) سورة الممتحنة ، آية ١ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

روى الشيخان عن علي رضي اللّه عنه قال : بعثني رسول اللّه ﷺ والزبير بن العوام وأبا مرثد الغنوي وكلنا فارس فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين ، قال : فأدركناها تسير على جمل لها حيث قال لنا رسول اللّه ﷺ قال : قلنا : أين الكتاب الذي معك ؟ قالت : ما معي كتاب فأنخنا بها فابتغينا في رحلها فما وجدنا شيئاً ، قال صاحباي : ما نرى كتاباً ، قال : قلت : لقد علمت ما كذب رسول اللّه ﷺ ، والذي يحلف به لَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لأجَرِدَنَّكِ ، قال : فلما رأت الجِدَّ مني أهوت بيدها إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجت الكتاب ، قال : فانطلقنا به إلى رسول اللّه ﷺ فقال: ما حملك يا حاطب على ما صنعت ؟ قال : ما بي إلاّ أن أكون مؤمناً باللّه ورسوله وما غيرت ولا بدلت أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع اللّه بها عن أهلي ومالي ، وليس من أصحابك هناك إلاّ وله من يدفع اللّه به عن أهله وماله ، قال : صدق ، فلا تقولوا له إلاّ خيراً . فقال عمر بن الخطاب : انه قد خان اللّه ورسوله والمؤمنين فدعني فأضرب عنقه ، فقال : يا عمر وما يدريك لعل اللّه قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، قال : فدمعت عينا عمر وقال : اللّه ورسوله أعلم »(١) .

٤ ـ إخبار اللّه رسوله أن زوجته أفشت سره :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ، قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴾(٢) .

أفادت هذه الآية أن رسول اللّه ﷺ قد أسرَّ بحديث إلى إحدى زوجاته

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره ، جـ ٧ ص ١٣٤ .

(٢) سورة التحريم ، آية ٣

وأمرها بكتمانه ، لكنها لم تحفظ السر وأخبرت به غيرها فأطلعه اللّه على ذلك .

يقول الشوكاني : « قال أكثر المفسرين هي حفصة ، وقوله : « فلما نبأت به » أي أخبرت به غيرها ، وقوله : « وأظهره اللّه عليه » أي اطلع اللّه نبيه على ذلك الواقع منها من الاخبار لغيرها ، وقوله : « فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير أي أخبرها بما أفشت من الحديث ، قالت من أخبرك به ، قال أخبرني الذي لا تخفى عليه خافية »(١) .

٥ ـ كشف نوايا المنافقين في بنائهم مسجد الضرار :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّه يَشْهَدُ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ ﴾(٢) .

يطلع اللّه سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على نوايا المنافقين الخبيثة وأهدافهم الدنيئة في بناء مسجد لهم متعللين بإرادة الخير للمسلمين الضعفاء وأصحاب الأعذار ، لكن اللّه علّام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية يؤكد كذبهم فيما يتعللون به ويكشف عن نواياهم السيئة الماكرة من إرادة الشر للمسلمين وحربهم وتفريق كلمتهم مما جعل المسلمين يسارعون إلى هدمه وإحراقه وتفريق أهله .

يقول الشوكاني : « فقد أخبر اللّه سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة : الأول : الضرار لغيرهم ، والثاني : الكفر باللّه والمباهاة لأهل الإسلام لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق ، والثالث : التفريق بين المؤمنين لأنهم أرادوا أن يحضروا مسجد قباء فَتَقُلُّ جماعة

(١) فتح القدير جـ ٥ ص ٢٥٠ .
(٢) سورة التوبة ، آية ١٠٧ .

المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى ، والرابع : الإرصاد لمن حارب اللّٰه ورسوله أي الاعداد لأجل من حارب اللّٰه ورسوله ، والمراد بمن حارب اللّٰه ورسوله المنافقون ومنهم أبو عامر الراهب ، وقوله : « ليحلفن ان أردنا إلّا الحسنى » أي ما أردنا إلّا الخصلة الحسنة وهي الرفقة بالمسلمين ، فرد اللّٰه عليهم بقوله : ﴿ **واللّٰه يشهد انهم لكاذبون** ﴾ فيما حلفوا عليه »[1] .

هذا قليل من كثير من الأمثلة الواردة في القرآن ، والتي تتضمن الاخبار عن الغيوب المستقبلية وخفايا النفوس مما يؤكد أن هذا الكتاب الإلٰهي معجزة حية ناطقة أبد الدهر .

---

(١) فتح القدير جـ ٢ ص ٤٠٣

المبحث الرابع
الاعجاز العلمي

القرآن الكريم المعجزة الربانية الخالدة أبد الدهر ، تعددت وجوه إعجازه ، تكلم فيها العلماء قديماً وحديثاً ، وقد قدمت الكلام في الإعجاز اللغوي والتشريعي والاخبار عن الغيب .

إلَّا أن إعجاز القرآن الكريم قضية متجددة لا تقف عند حد ، وفي كل عصر يجد الناس فيه إعجازاً لهم .

ففي عصرنا هذا ، عصر العلم والاكتشافات والاختراعات ، حيث تمكن الانسان من الكشف عن كثير من سنن اللّٰه في الكون ، والوصول إلى درجة كبيرة من المعرفة كان كثير منها يعد من المستحيلات أو ضرباً من الخيال ، ظهر في هذا العصر وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن وهو الإعجاز العلمي .

لقد بهر العلماء بتلك الحقائق العلمية الثابتة التي أشار إليها هذا الكتاب السماوي قبل أن يتوصل إليها العلم بمئات السنين ، كما بهر فصحاء العرب قديماً بفصاحة القرآن .

إن هذا الوجه الجديد من وجوه الإعجاز القرآني لأكبر دليل على صدق ما أخبر به رسول اللّٰه ﷺ وهو يصف كتاب اللّٰه ويقول : « القرآن حبل اللّٰه المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلَق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه »[1] .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل القرآن جـ ٥ ص ١٧٢ ، سنن =

والقاريء لكتاب اللّه يجد فيه نصوصاً صريحة تعالج موضوعات علمية دقيقة مجملة لم تصل البشرية إلى معرفتها إلّا في القرنين الأخيرين ، نزل بها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً ، وما توصل إليه العلم من حقائق ثابتة مطابق لتلك النصوص تمام المطابقة ، وفي هذا تأكيد على صدق نبوته ﷺ .

ولكن ، من الجدير بالذكر في هذا المقام التأكيد على أن القرآن ليس كتاباً علمياً بحتاً ، غايته الأولى بيان الحقائق العلمية والنواميس الكونية ، بل هو في الدرجة الأولى كتاب هداية وإرشاد وتشريع نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى ﷺ لتصحيح عقائد الناس المنحرفة ، ولبيان شريعة الإسلام الكفيلة بسعادتهم في الدنيا والآخرة ، فهو كتاب عقيدة ومنهاج حياة للبشرية .

والقرآن الكريم وهو يؤدي مهمته هذه تعرض لذكر الكثير من الحقائق العلمية التي تخدم بدورها المهمة الأساسية للقرآن ، ومن ثم فليس لنا أن نتمحل تفسير الآيات القرآنية فنحملها من المعاني ما لا تطيق لنبين للناس أن كل جديد في دنيا العلم والاكتشافات موجود في كتاب اللّه ، وفي النصوص الصريحة والواضحة القوية الدلالة غناء عن غيرها وهي كثيرة وللّه الحمد ، وعلى هذا فلا داعي للإغراق في التفسير العلمي للقرآن الكريم .

لقد خرج عدد من العلماء في هذا العصر من حظيرة الإلحاد إلى حظيرة الإيمان بسبب تطابق نتائج بحوثهم العلمية مع النصوص القرآنية ، وبذلك تحطمت سهام الحقد والجهل ، وظهر زيف الدعايات التي يطلقها أنصاف المتعلمين من تعارض العلم والدين ، لقد غدا الانسجام الكامل والتآلف التام بين العلم وبين ما جاء في القرآن الكريم حقيقة واضحة جلية ، تحدثت عنه الأبحاث العلمية الحديثة ، ومن هذه الأبحاث دراسة قام بها

الدارمي كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن ، جـ ٢ ص ٣١٣ . والحديث ضعيف ، وانما أوردته على رأي من يرى العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال .

الطبيب الفرنسي موريس بوكاي للقران والتوراة والانجيل في ضوء المعارف الحديثة .

بدأ الحديث في المقدمة بأنه بدأ دراسة القرآن دون فكر مسبق وبموضوعية تامة ، وقد خلص بعد دراسته هذه لحقيقتين هامتين :

الأولى : تطابق ما توصل إليه العلم مع ما ذكر في القرآن الكريم تماماً ، يقول في كتابه : « لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتي كانت وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث »[١] .

كيف لا ، والقرآن كتاب اللّه المسطور ، والكون كتاب اللّه المنظور فلا خلاف بينهما ، بل الإنسجام والتطابق ، ويقول أيضاً في موضع آخر : « وتناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية ، لقد أذهلني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات ، وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلاَّ في النص الأصلي ، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يُكَوِّنَ عنها أدنى فكرة »[٢] .

والحقيقة الثانية التي توصل إليها اختلاف القرآن الكريم عن التوراة والانجيل في أمرين أساسيين هما ، ثراء الموضوعات العلمية في القرآن

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ١٣ .
(٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ١٤٥ .

ونـدرتها في التـوراة والانجيل ، والتـطابق التـام بين القـرآن والعلم بخـلاف التوراة والانجيل اللذين يصطدمان كثيراً مع الحقائق العلمية .

وأخيـراً يقرر أن هـذا الكتاب السمـاوي لا يمكن أن يكون صـادراً عن بشر نظراً لهذا التوافق العجيب بين معطيات العلم وما جاء في القرآن ، يقول في كتابه : « إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثـل هذا النص لأول مـرة هو ثـراء الموضـوعات المعـالجـة ، فهنـاك الخلق وعلم الفلك وعـرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض وعـالم الحيوان وعـالم النبات والتنـاسل الإنساني ، وعلى حين نجد في التـوراة أخطاء علميـة ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ ، وقـد دفعني ذلك لأن أتسـاءل لو كـان كاتب القـرآن إنسانـاً كيف استطاع في القرن السـابع من العصـر المسيحي أن يكتب ما اتضـح أنه يتفق اليوم مع المعارف الحديثـة ؟ ليس هناك أي مجـال للشك فنص القـرآن الـذي نملك اليوم هـو فعلاً نفس النص الأول ، مـا التعليل الانسـاني الـذي يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة . . . . . . في رأيـي ليس هنـاك أي تعليل إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير استطاع أن يملك ثقافة علميـة تسبق بحـوالي عشـرة قـرون ثقـافتنـا العلميـة فيمـا يخص بعض الموضوعات »[1] .

وهكذا يخدم العلم قضية الإيمان في عصرنا الحاضر ، إذ يـدل بما لا يـدع مجالاً للشـك بـأن القـرآن منـزل من لـدن حكيم خبيـر ، ونحن معشـر المسلمين لا ننتظر العلم ليدلنا على اللّه ، بل نؤمن به وبرسوله وبكتـابه قبـل أن يكتشف العلم هذه المنجزات الجديدة التي لبعضها أصل في القرآن وإنما العلم سلاح نخاطب بـه من لم يهتد إلى هـذا الكتاب العـزيز ، لنفتـح عينيه على هذا الكون الـواسع ليتـأمله ويتفحصه فيعـرف بعد ذلـك نور الإيمـان وبطلاد قول من يرتكز على العلم في دعـواه الإلحاد وإنكـار اللّه ، إذ ما بين

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ١٤٥ .

دعواه وما بين العلم ، نسب أوهى من بيت العنكبوت .

وسأعرض الآن لبعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن بعض الظواهر الكونية مبينة موافقة العلم بحقائقه الثابتة لمدلولات هذه الآيات .

١ ـ أطوار الجنين :

وردت آيات كثيرة في كتاب اللَّه تتحدث عن خلق الإنسان ، والمراحل التي يمر بها وهو في بطن أمه ، تارة بالإجمال وأخرى بالتفصيل ، ومن هذه الآيات :

قال تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾(١) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِيْنَ ﴾(٢) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾(٣) .

---

(١) سورة نوح ، الآيتان ١٣ ـ ١٤ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآيات ١٢ ـ ١٤ .
(٣) سورة الحج ، آية ٥ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾(١) .

تبين هذه الآيات الكريمات أصل الإنسان الطيني ، والأطوار التي يمر بها في تخلقه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى مرحلة تكون العظام واكتسائها باللحم ثم مرحلة الخلق الآخر من التسوية والتصوير والنفخ في الروح ، وهذا ما توصل إليه العلم مؤخراً ، بعد أبحاث علمية طويلة حيث أثبت العلماء أن العناصر التي يتكون منها جسم الإنسان موجودة في الطين الذي هو عبارة عن تراب وماء .

يقول التحليل المخبري : انه لو أرجعنا الإنسان إلى عناصره لوجدناه أشبه بمنجم صغير يشترك في تركيبه حوالي اثنين وعشرين عنصراً تتوزع بشكل رئيسي على النحو التالي :

١ - أكسجين وهيدروجين على شكل ماء بنسبة ٦٥ - ٧٠٪ من وزن الجسم .

٢ - كربون وهيدروجين وأكسجين وتشكل أساس المركبات العضوية من سكريات ودهون وبروتينات وفيتامينات وهرمونات .

٣ - مواد جافة يمكن تقسيمها إلى :

أ - سبع مواد هي الكلور والكبريت والفسفور والمغنزيوم والكلس والبوتاسيوم والصوديوم ، وهي تشكل ٦٠ - ٨٠٪ من المواد الجافة .

ب - سبع مواد أخرى بنسبة أقل هي الحديد والنحاس واليود والمنغنيز والكوبالت والتوتياء والموليبديوم .

جـ - ستة عناصر بشكل زهيد هي الفلور والسيلينيوم والكادميوم والكروم والألمونيوم والبور .

---

(١) سورة السجدة ، الآيات ٧ - ٩

وهذه العناصر موجودة في تراب الأرض ، علماً بأن التراب يتكون من أكثر من مائة عنصر ، والإنسان من اثنين وعشرين عنصراً موجودة في التراب ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ **من سلالة من طين** ﴾ أي من خلاصه الطين وليس كله وهذا إعجاز علمي رائع[1] .

وأما بالنسبة لأطوار الجنين ، فقد أثبت علم الأجنة أن خلق الإنسان يمر بعدة مراحل ، تطابق ما جاء في القرآن الكريم قبل مئات السنين ، حتى أن العلم الحديث عجز عن استعمال ألفاظ مغايرة لألفاظ القرآن الكريم .

وأول مراحل تكون الجنين هي مرحلة النطفة ، حيث تجتمع نطفة الرجل (الحيوان المنوي) مع نطفة المرأة (البويضة) وتتكون منهما النطفة الأمشاج (المختلطة) والتي أشار إليها القرآن الكريم بقوله ﴿ **من نطفة أمشاج نبتليه** ﴾ ، يتم تلقيح البويضة بالحيوان المنوي في الثلث الأخير من قناة الرحم حيث تمكث فيه مدة خمسة أيام إلى سبعة تقريباً ، ومن ثم تنتقل إلى الرحم بعد قيامها بعدة انقسامات متلاحقة حيث يصبح شكلها كحبة التوت ، وهذه النطفة هي النواة الأولى لخلق الإنسان .

يقول الدكتور محمد علي البار : « حالما يتم التخصيب وتتكون النطفة الأمشاج من الحيوان المنوي والبويضة ، تصنع يد القدرة للبويضة الملقحة جداراً سميكاً مصمتاً لا يمكن لأي حيوان منوي آخر اختراقه ، كما أنها تخلع عنها تاجها المشع الذي كان يغري الحيوانات المنوية بالاقتراب منها ، ومنذ تلك اللحظة تبدأ بالعمل الجاد وتبدأ بالانشطار ، الخلية تصبح خليتين ، والخليتان أربعاً وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت وعندئذ تسمى التوتة ، فإذا ما كبرت الكرة قليلاً صار ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق ، وعندئذ تدعى بالتكور الجرثومي أو البلاستولا ، وفي هذه الأثناء لا تكف البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج عن الحركة ، وإن كانت حركة بطيئة ، فهي تنتقل من الثلث الوحشي لقناة الرحم (قناة فالوب)

---

(١) الطب محراب الايمان جـ ٢ ص ٩٦ ، مع الطب في القرآن الكريم ص ٧٢ ـ ٧٣ .

حيث يتم التلقيح وتتجه عبر القناة الرحمية حتى تقترب من الرحم ، وفي خلال خمسة أيام أو أسبوع على الأكثر تكون قد وصلت إلى الرحم وهناك تنظر أين تتوسد وتنغرز »[1] .

والمرحلة الثانية : مرحلة العلقة ، وتأتي بعد تكون النطفة الأمشاج وانتقالها إلى الرحم حيث تقوم بالانغراز والتعلق بجدار الرحم لذا سميت بالعلقة ، وهذا ما قرره الأطباء مؤخراً ، إذ اتفقوا على أن العلقة هي المرحلة التي تعلق فيها النطفة الأمشاج بجدار الرحم وتنشب فيه خلافاً لأقوال المفسرين الذين قالوا بأن العلقة هي دم غليظ متجمد .

وتكون العلقة محاطة بالدم المتخثر من كل الجهات نتيجة لقيام الخلايا الآكلة في الطبقة الخارجية التي تتكون منها البويضة الملقحة بقضم خلايا الرحم والانغراز فيه وذلك لتغذية الخلايا الداخلية التي سيتكون منه الجنين .

وتبدأ هذه المرحلة من اليوم السادس أو السابع من بداية التلقيح وتستمر حتى اليوم العشرين ، وان أهم ما يميز هذه المرحلة هو العلوق حيث تتعلق النطفة الأمشاج بالرحم عن طريق الخلايا الآكلة والغشاء المشيمي والحبل السري الذي هو بمثابة حلقة الوصل بين الجنين وبين الغشاء المشيمي .

يقول الدكتور محمد على البار : « إن وصف العلقة هو أهم ما يميز هذه المرحلة من مراحل خلق الجنين ونموه وقد وصفها علماء الأجنة بأنها مرحلة الالتصاق والانغراز وذلك حينما تقترب البلاستولا من الغشاء المخاطي المبطن للرحم والذي استعد أيما استعداد لاستقبال النطفة الأمشاج ، فإذا اقتربت الكرة الجرثومية من الرحم التصقت في الجزء العلوي منه وفي جداره الخلفي في أغلب الحالات ، ثم تقوم الخلايا الآكلة للكرة

---

(١) خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ١٩٨ ، ٢٠٠ .

الجرثومية بالتعلق بواسطة خَملات دقيقة بينها وبين الخلايا الطلائية لغشاء الرحم »[1] .

ويقول أيضاً : « وهكذا نرى أن أهم ما يميز هذه المرحلة من نمو الجنين هو هذه التعلقات فهناك تعلق أولي عند الانغراز وبعده تعلق ثان عند تكون الغشاء المشيمي (الكوريون) وبعده تعلق ثالث للجنين عند المعلاق أو الساق الموصلة »[2] .

وهكذا تطابقت المعارف الحديثة مع وصف القرآن الكريم لهذه المرحلة .

المرحلة الثالثة : مرحلة المضغة ، حيث تبدأ الكتل البدنية في الظهور على كل جانب من محور الجنين من الرأس إلى مؤخرة الجنين ، ويبلغ عددها عند اكتمالها اثنتين وأربعين إلى خمس وأربعين كتلة على كل جانب ، وهذه الكتل البدنية تجعل الجنين يبدو وكأنه قطعة لحم مضغتها الأسنان ثم قذفتها ، وأثر الأسنان بارز فيها ، وهكذا يكون شكل الجنين وبهذا انطبق الوصف القرآني على هذه المرحلة تمام الانطباق .

وتبدأ هذه المرحلة من اليوم العشرين أو الحادي والعشرين من بداية التلقيح حتى اليوم الخامس والثلاثين حيث ينمو في هذه الفترة الجهاز العصبي للجنين وكذلك انحناءات الرأس وتظهر فتحة الفم البدائية كما تظهر حويصلة العين وحويصلة السمع ولوح قرص الشم والحبل السري وكذلك الأوعية الدموية وبداية الجهاز التنفسي[3] وغير ذلك من الأجهزة حتى بداية تكون العظام ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ **من مضغة مخلقة وغير مخلقة** ﴾ . فالأسبوع الرابع تكون المضغة غير مخلقة إذ لا يظهر أي جهاز في هذا الاسبوع ، إذ تظهر الكتل البدنية فقط ، أما الأسبوع الخامس فتكون المضغة قد بدأت بالتخلق لظهور الأجهزة .

---

(١) خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ٢١١ .

(٢) خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٣) خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ٢٤٧ ـ ٢٥٥ .

المرحلة الرابعة : مرحلة تكوين العظام وكسوتها باللحم ، تبدأ الكتل البدنية بالتحول إلى عظام وعضلات ويكون تكون العظام سابقاً لتكون العضلات ، وتبدأ هذه المرحلة من الأسبوع الخامس من بداية التلقيح حتى الأسبوع السابع .

يقول الدكتور محمد علي الباز : « وتتحول الكتل البدنية إلى جزأين :

١ - جزء أمامي وأنسي ويسمى القطعة الهيكلية ، وهي تُكَوِّنُ عظام الفقرات ، كما أن انسياب خلاياه في المنطقة العنقية يشكل عظام الأطراف العليا ، وانسياب خلاياه في المنطقة القطنية والعجزية يشكل عظام الأطراف السفلى ، كما تشكل الأربع كتل البدنية الواقعة في منطقة الرأس الجزء المؤخري القاعدي من الجمجمة ، وتتكون الأضلاع من نتوءات من العمود الفقري في المنطقة الصدرية ، وبذلك يتشكل معظم الجهاز الهيكلي من هذه الكتل البدنية ، أما عظام الوجه والكفين وعظام الأذن الوسطى فإنها جميعاً تشكل من القوس البلعومي الأول ، ويتكون العظم اللامي من القوس البلعومي الثاني ولا يبقى إلا قحفة الجمجمة التي تتكون من الخلايا الميزودرمية (المتوسطة) المتكثفة في قمة الرأس والتي تتحول مباشرة من غشاء إلى عظم دون أن تتحول إلى غضاريف كما هو معهود في أغلب عظام الجسم .

٢ - وجزأ خلفي وظهري ويسمي المقطع العضلي الأدمي الذي سرعان ما ينقسم بدوره إلى قسمين :

أ - أدمي : وهو يشكل أدمة الجلد وما تحت الجلد من أنسجة .

ب - عضلي ، وهو يشكل معظم عضلات الجسم وخاصة تلك الموجودة في الجذع ، ويكون تكون العظام سابقاً ولو ببضعة أيام لتكون العضلات وتأتي العضلات بعد ذلك لتكسو العظام »[١] .

---

(١) خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

وهكذا بعد أن يكتمل الهيكل العظمي تبدأ العضلات في الظهور لكسوة العظام وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ **فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً** ﴾ .

المرحلة الخامسة : الخلق الآخر ، وهي مرحلة التمام والكمال ، حيث تسعى الأجهزة التي تكونت نحو التكامل حتى أن بعضها يبدأ بالعمل كالقلب وجهاز الهضم ، ويزداد حجم الجنين يوماً بعد يوم في هذه المرحلة ويتكامل شكله الخارجي فيصبح لون الجلد أحمر ، وتنبسط تجعداته وتسقط عنه الأوبار ، وتنفتح الجفون وتتكامل الأظافر ، وتظهر الأعضاء التناسلية التي تحدد جنس الجنين ويتكامل جهاز السمع حتى أنه يبدأ عمله في وقت مبكر ، ويتحرك الجنين في بطن أمه في هذه المرحلة حركة ظاهرة تشعر بها الأم[1] . وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ **ثم أنشأناه خلقاً آخر** ﴾ وبعد هذا العرض لمراحل تكوين الجنين ، نرى أن القرآن الكريم سبق علم الأجنة بمئات السنين في بيانه لهذه المراحل الدقيقة ، وهذا إعجاز علمي بليغ بهر العلماء .

٢ ـ فائدة العسل .

يقول تعالى : ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[2] .

تقرر هذه الآية الكريمة حقيقة علمية ثابتة ، وهي أن شراب العسل فيه شفاء للناس ، يُعالج به كثير من الأسقام والأمراض ، وقد كان رسول الله ﷺ

---

(١) مع الطب في القرآن الكريم ص ٨٣ ـ ٨٤ .
(٢) سورة النحل ، الآيتان ٦٨ ـ ٦٩ .

يأمر بالتداوي به ، حتى في حالات الاسهال التي ينصح فيها عادة بعدم تناول المواد الحلوة ، وهذا بسبب ما للعسل من خواص علاجية فَعَّالة كشف العلم الحديث عنها .

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً جاء إلى رسول اللّه ﷺ ، فقال : « ان أخي استطلق بطنه ، فقال له رسول اللّه ﷺ ، اسقه عسلاً ، فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : يا رسول اللّه ما زاده ذلك إلَّا استطلاقاً ، قال : اذهب فاسقه عسلاً ، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء ، فقال : يا رسول اللّه ما زاده ذلك إلَّا استطلاقاً ، فقال رسول اللّه ﷺ : صدق اللّه وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً ، فذهب فسقاه عسلاً فبرىء »[1] .

وهكذا وبكل يقين أكد رسول اللّه ﷺ فائدة العسل الفعالة في شفاء الأمراض تصديقاً منه عليه السلام لهذه الحقيقة الواردة في هذه الآية ، وفي هذا درس للمسلمين في كل زمان ومكان لتحديد موقفهم تجاه حقائق القرآن . تصديق وتسليم دون تردد .

لقد أجرى العلماء في العصر الحاضر كثيراً من التجارب على هذه المادة التي ينتجها هذا المخلوق الصغير بإلهام من اللّه جلت قدرته ، فتبين لهم أن العسل مخزن كامل لمجموعة من العقاقير العلاجية والوقائية ، لذا لجأوا إليه في كثير من الحالات المرضية المستعصية المحيرة عندما أخفقت أحدث الأدوية والعلاجات الكيماوية .

يستعمل العسل في شفاء الجروح والقرحات المستعصية على العلاج الكيماوي ، وتبين أن استعمال العسل كمرهم لهذه الجروح يساعد على شفائها بسرعة فائقة ، ولهذا فإن الجراح العالمي البرت شويتزر الحائز على شهادة نوبل عدل عن استعمال كافة المطهرات في مستشفاه بالغابون ، واعتمد في شفاء الجروح السريع على شاش معقم مغمس بالعسل .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب الدواء بالعسل جـ ٧ ص ١٢ .

كما استعمل العسل علاجاً ناجعاً في أمراض العيون ، فقد عالج به العالم اوسادلكو التهابات القرنية وتقرحاتها المعندة على العلاجات الأخرى ، والعالم ماكسيمنكو أنقذ بالعسل العيون التي تصاب بحروق مختلفة من العمى المطلق .

واستعمل العسل أيضاً علاجاً للاضطرابات الهضمية المزمنة من إمساك وفرط أو نقص في الحموضة المعدية حيث أثبتت البروفسورة خوتكينا بعد دراسة قامت بها على أكثر من ستمائة مريض أن نسبة شفاء القرحة المعدية بالعسل ضعف نسبة الشفاء بأي من العلاجات الأخرى علاوة على أن العسل يعجل في شفاء المرض .

والعسل من أفضل العلاجات في أمراض الجهاز التنفسي وأمراض القلب والكلية ، وهو من أفضل المهدئات للجهاز العصبي وغير ذلك من الأمراض .

كما اعتمد عليه العلماء فاستعملوه مادة مضادة للعفونة ومبيدة للجراثيم في أحدث مجالات الطب الحديث لحفظ الأنسجة[١] .

هذا غيض من فيض ، فالعسل له أهمية بالغة في شفاء الكثير من الأمراض المختلفة مما يؤكد ربانية هذا الكتاب الكريم ، وصدق النبي ﷺ فيما جاء به ، وبهذا كان هذا الكتاب معجزة اللّه الخالدة المتجددة في الأرض حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها .

٣ ـ اللبن الذي نشربه :

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾[٢] .

---

(١) انظر كتاب العسل فيه شفاء للناس ص ٥ ، ٨ ، ٩ .
(٢) سورة النحل ، آية ٦٦ .

تشير هذه الآية الكريمة إلى كيفية تكون اللبن في ضروع الأنعام ، حيث يتم استخلاصه من بين الفرث ـ وهو الطعام المهضوم في الأمعاء ـ والدم ، الذي يقوم بدور امتصاص المواد الغذائية النافعة من الطعام المهضوم الموجود في الأمعاء ، ومن ثم يغذي الدم الغدد التي تفرز الحليب ، وهذا ما توصل إليه العلم في العصر الحديث ، يقول موريس بوكاي مستنداً على معلومات علم وظائف الأعضاء : « تأتي المواد الأساسية التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيماوية تحدث في القناة الهضمية ، وتأتي هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء ، وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيمائي ، فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة ، ويتم هذا الانتقال بطريقتين إما مباشرة بواسطة ما يسمى بالأوعية اللمفاوية ، واما بشكل غير مباشر بواسطة الدورة البابية التي تقود هذه المواد إلى الكبد حيث تقع عليها بعض التعديلات ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيراً إلى الدورة الدموية، بهذا الشكل إذن يمر كل شيء بالدورة الدموية ، والغدد الثديية هي التي تفرز مكونات اللبن ، وتتغذى هذه الغدد إذا جاز القول بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي إليها بواسطة الدم الدائر ، الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية ، ومغذي الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يغذي أي عضو آخر . كل شيء يحدث هنا إذن ابتداء من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار الأمعائي نفسه ، هذه المعلومة المحددة تعد اليوم من مكتسبات الكيمياء وفسيولوجيا الهضم وكانت غير معروفة مطلقاً في عصر النبي محمد ﷺ . إن معرفتها ترجع إلى العصر الحديث »[1] .

وهذا دليل على إعجاز القرآن الكريم الذي يشهد بصدق نبوة محمد ﷺ في كل زمان ومكان ، وإلاّ فمن أين له بهذه المعلومات وهو النبي الأمي .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٢٢٣ .

٤ ـ انفصال الأرض عن السماء ، وكون الماء أساس الحياة :

يقول تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[1] .

تقرر هذه الآية الكريمة حقيقتين علميتين توصل إليهما العلماء مؤخراً ، الأولى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة ، متصلة الأجزاء ملتحمة بعضها مع بعض ، إلَّا أن الأرض انفصلت عن السموات بمشيئة اللّٰه وقدرته واستقر بها الحال على ما هي عليه الآن لتصبح صالحة للعيش عليها .

والحقيقة الثانية : أن الماء أساس الحياة لجميع الكائنات الحية ، وأن ما توصل إليه العلماء في هذا المجال يتفق تمام الاتفاق مع ما جاء في القرآن مما يؤكد سبقه العلمي لكثير من الحقائق العلمية الثابتة التي لم يكشف العلم عن أسرارها إلَّا في العصر الحاضر .

لقد أثبت العلماء حقيقة أن الكون كان شيئاً واحداً ، متصل الأجزاء ، ثم انقسم إلى مجرات ونجوم وكواكب وأن الأرض انفصلت عن الشمس وابتعدت عنها ، وبابتعادها بدأت تبرد حتى تجمد السطح الخارجي ويستدل العلماء على صحة ما توصلوا إليه بوجود المواد الملتهبة الموجودة في باطن الأرض والتي تسبب حدوث البراكين بين الحين والآخر .

واكتشفوا أيضاً أن العناصر التي تتكون منها الأرض هي نفس العناصر الموجودة في الشمس وفي سائر النجوم .

وقد أثبت العلماء أيضاً أن الماء هو أصل الحياة لجميع الكائنات الحية ، فلا حياة بدون ماء ، واكتشفوا أن العمليات الكيماوية اللازمة للحياة

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٣٠ .

والنمو لا بد لها من الماء وأن نسبة الماء تتراوح ما بين ٨٠ ـ ٩٠٪ من وزن الكائنات الحية المختلفة[١] .

يقول الدكتور خالص جبلي : « أما الماء فهذا يحتاج لحديث كامل لوحده ذلك لأنه يمثل أساس الحياة ، فهو يدخل في تركيب جميع الكائنات الحية وطالما وجدت الحياة فحتماً سيوجد الماء ، يقول استاذ علم الأنسجة في كلية الطب: يتخلل الماء جميع الأنسجة ولا حياة للخلايا بدون الماء وهو يوجد في الخلية بثلاثة أشكال وليس بشكل واحد عادي كما نعرفه نحن في الحياة الطبيعية ، فهو يوجد بشكل متحد اتحاداً كيماوياً في هيولى الخلية أو متشرب في جزئياتها »[٢] .

٥ ـ نقص الأكسجين في طبقات الجو العليا :

يقول تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِد أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾[٣] .

تقرر هذه الآية الكريمة أن الارتفاع في طبقات الجو العليا يسبب ضيقاً في الصدر وشعوراً بالاختناق يزداد ذلك كلما ازداد الارتفاع .

وهذا ما كشف عنه العلم في الوقت الحاضر بعد أن تمكن الإنسان من التحليق في الجو وذلك بعد اختراع الطائرات .

ويبين العلماء أن سبب هذه الظاهرة يرجع إلى أمرين اثنين :

الأول : ان نسبة الأكسجين في طبقات الجو العليا قليلة جداً .

الثاني : أن الضغط الجوي منخفض جداً ، مما يؤدي إلى زيادة الضغط الداخلي للجسم فيسبب الضيق والحرج لهذا الإنسان المحلق في الفضاء[٤] .

---

(١) وجوه من الاعجاز ص ٩٣ .
(٢) الطب محراب الأيمان جـ ١ ص ٤٨ .
(٣) سورة الأنعام ، آية ١٢٥ .
(٤) مع الطب في القرآن الكريم ص ٢١ .

٦ ـ انتشار الزوجية في كل شيء :

يقول تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

ويقول أيضاً : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢) .

تكشف هاتان الآيتان عن سنة ربانية جارية في هذا الكون ، وهي أن كل شيء في هذا الوجود قائم على نظام الزوجية في الإنسان وفي الحيوان وفي النبات وفي الجماد ، في المتحرك وفي الساكن .

هذا الأمر لم يتم الكشف عنه إلَّا مؤخراً ، حيث توصل العلماء في أبحاثهم العلمية أن الزوجية منبثة في كل شيء في هذا الوجود ، وليست مقصورة على الجنس البشري والحيواني ، بل انها موجودة في النباتات والجمادات .

فالذرة مثلاً أثبت العلماء أن فيها شحنتين احداهما موجبة ، والأخرى سالبة ، وهو ما يشبه الذكر والأنثى ، يقول الدكتور الباز : « ان الزوجية هي نظام هذا الكون ، السالب يقابل الموجب ، الالكترون يقابل البروتون ، الصبغيات تتقابل على هيئة أزواج ، شارة الذكورة Y تقابل شارة الأنوثة X ، الحيوان المنوي المذكر يقابله الحيوان المنوي المؤنث في كل ثمرة ، وفي كل شجرة وفي كل ذرة ، وفي كل خلية ، ترى الزوجية منبثة في هذا الكون حتى في الكهارب ، حتى في الموجات »(٣) .

فما من شيء في هذا الوجود إلَّا ويحمل إشارة الذكورة والأنوثة ، أما متصلة أو منفصلة ، وهذا إنما يدل على عظمة القرآن الكريم وإعجازه

---

(١) سورة يس ، آية ٣٦ .

(٢) سورة الذاريات ، آية ٤٩ .

(٣) خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

الواضح في كل زمان ومكان ، فقد سبق العلم بمئات السنين في إقرار كثير من الحقائق العلمية .

٧ ـ عملية تكون السحب :

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾[١] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[٢] .

تبين هاتان الآيتان طريقة تكون السحب ، وتراكمها بعضها فوق بعض ودور الرياح في ذلك ، فالرياح تسوق السحاب وفق مشيئة اللّٰه من مكان إلى مكان وتجمع بين قطعه المتفرقة حتى تتراكم بعضها فوق بعض ، ومن ثم يبدأ نزول المطر من خلال هذه السحب المتراكمة وفق ناموس إلٰهي ثابت .

وقد بينت الآية الكريمة أيضاً أن شكل السحب المتراكمة يشبه الجبال في ضخامتها وارتفاعاتها ، وهذا لا يظهر للإنسان المقيم على الأرض ، حتى ولو صعد إلى قمم الجبال الشامخة ، وإنما يبدو ذلك جلياً لمن ركب الطائرة وحلق فوق السحاب ، وهذا دليل على إعجاز القرآن الكريم ، فهذا الوصف لا يمكن أن يكون من رجل أمي لم يحلق في الجو فوق السحاب حتى يصف هذا الوصف الدقيق ، فلا بد إذن أن يكون هذا الكلام صادراً عن اللّٰه المحيط بكل شيء علماً .

وإضافة إلى دور الرياح في تجميع السحب ، تقوم بتلقيحها ببخار

---

(١) سورة النور ، آية ٤٣ .

(٢) سورة الحجر ، آية ٢٢ .

الماء الذي تحمله فينتج عن ذلك نـزول المطر ، وهـذا ما كشف عنـة القرآن منذ أربعة عشر قرناً ، وإن ما توصل إليه العلم الحديث يتفق تمام الاتفاق مع ما جاء في القرآن الكريم . فقد أثبت العلماء أن الرياح تقـوم بتلقيح السحب ببخـار المـاء وبنـوى التكـاثف أيضـاً ممـا يسبب تكـون السحب الممـطرة ، وتحمل الرياح شحنة كهربائيـة موجبـة تتحد مـع الشحنة الكهـربائيـة السالبـة الموجودة في الفضاء ويتكون مجال كهربائي يحول بخـار الماء إلى قـطرات دقيقة من الماء تكبر شيئاً فشيئاً إلى أن تسقط مطراً وبهذا يظهر لنا دور الـرياح الأساسي في عملية تكون السحب ونزول المطر على الأرض .

وأوضـح العلماء كيفيـة تكون السحب الـركاميـة ، فقالـوا أن السحابـة الركامية الممطرة تتألف في الأصل من وحدات أساسية صغيرة يتم تجميع كل اثنتين أو أكثر منها لِتُكَوِّنَ السحابة الركـامية التي تنمـو رأسياً وتصيـر كالجبـال كما وصفها القرآن الكريـم .

كما بيّن العلماء أن هذه السحب الركامية تحتوي على البرد الذي يعتبر القاعدة الأسـاسية لهـذا النوع من السحب ، وأن عمليـة تكون البـرد تتم في داخل السحابة نفسها ، وهذا ما ذكر في الآية[١] .

٨ ـ حفظ توازن الأرض بالجبال الراسية :

يقول تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ** ﴾[٢] .

ويقول في آية أخرى : ﴿ **وَالجِبَالَ أَوْتَاداً** ﴾[٣] .

تبين هاتان الآيتـان أن الجبال أرسيت في الأرض حفـاظاً على تـوازنها فهي كالأوتاد تثبت الأرض وتحافظ عليها من الاضطراب ولولاها لاختل توازن الأرض أثناء دورانها .

---

(١) وجوه من الاعجاز ص ٩٧ ـ ٩٨ .
(٢) سورة الأنبياء آية ٣١ .
(٣) سورة النبأ ، آية ٧ .

وهذه الحقيقة لم يتوصل إليها العلم إلّا مؤخراً حيث أن الجبال الراسية والبحار العميقة تعمل على حفظ توازن الأرض وتحميها من الاضطراب .

يقول أنجلسن : « من المفهوم الآن أن المادة الأقل وزناً ارتفعت على سطح الأرض ، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية وهي التي نراها الآن في شكل البحار ، وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظ على توازن الأرض »[1] .

ثم إن العلم الحديث أثبت أن لهذه الجبال التي نراها جذوراً ضخمة أضعاف حجمها الظاهر للعيان تغوص في أعماق الأرض تمسك بها وتحافظ على توازنها[2] .

وصَدق اللّه العظيم القائل : ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ .

٩ ـ إثبات حركة الشمس :

قال تعالى : ﴿ وانشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيْرُ العَزِيْزِ العَلِيمِ ﴾[3] .

تدل هذه الآية على أن الشمس متحركة وليست ثابتة ، وهي تجري لمستقر لها وفق ناموس إلّهي ثابت ، وهذا ما انتهى إليه البحث العلمي مؤخراً ، مع العلم بأن العلماء إلى وقت قريب كانوا يعتقدون أنها ثابتة ، وأن الكواكب السيارة التابعة لها تدور حولها .

وقد أثبت علم الأرصاد الحديث بطلان هذا الاعتقاد ، ودل على أنها تسبح في الفضاء متنقلة بين النجوم والشموس بسرعة قدرها ثلاثون كيلو متراً في الثانية ، وهي متجهة نحو أحد النجوم المعروف باسم الجاثي على ركبتيه

---

(١) الاسلام يتحدى ص ١٤٨ .

(٢) الانسان بين العلم والدين ص ١٠٢ .

(٣) سورة يس ، آية ٣٨ .

مصحوبة بسياراتها ، والشمس في حركتها هذه تمر بالبروج الممتدة على جانبيها حيث تمر في كل شهر ببرج منها[1] .

ويؤكد موريس بوكاي حركة الشمس بحركة المجرة التي تدور حول نفسها ، ومن ثم يبين تطابق ما توصل إليه العلم مع ما ذكر في القرآن قبل مئات السنين ، ومن هنا فالقرآن الذي تضمن هذه الحقائق لا يمكن أن يكون من عند محمد ﷺ .

يقول بوكاي : « وبما أن المجرة تدور حول نفسها وكان محورها مركزها فإن ناتج ذلك هو أن الشمس تدور حول نفس هذا المركز على حسب مدار دائري ، تلك هي الحركة المدارية للشمس التي صرح بها القرآن منذ أربعة عشر قرناً تقريباً » . ويقول أيضاً : « لا يمكن تصور أن رجلاً في القرن السابع من عصرنا قد استطاع تخيل هذا مهما يكن عالماً في عصره وليس ذلك حال محمد ﷺ »[2] .

وهكذا يبدو إعجاز القرآن ظاهراً جلياً ، وهو من أعظم الأدلة على صدق نبوته ﷺ .

١٠ ـ حركة الأرض وشكلها :

يقول تعالى : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾[3] . ويقول : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[4] .

ويقول في آية أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[5] .

---

(١) الانسان بين العلم والدين ص ٦٥ ـ ٦٧ .
(٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .
(٣) سورة الأعراف ، آية ٥٤
(٤) سورة الزمر ، آية ٥ . (٥) سورة لقمان ، آية ٢٩

ويقول أيضاً : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (١) .

تبين هذه الآيات الكريمات شكل الأرض وحركتها قبل مئات السنين من معرفة العلماء لذلك ، فالآية الرابعة تحدد شكل الأرض بدقة فائقة إذ تبين أن شكلها بيضاوي وليست كالكرة الهندسية تماماً لكونها مفلطحة من جانبيها كالدحية التي هي بيضة النعام ، وهذا ما ثبت مؤخراً بعد التقدم العلمي الذي وصلت إليه البشرية في العصر الحديث ، فقد أثبتت الأقمار الصناعية التي علت في الفضاء ، وقامت بتصوير الأرض من مسافات بعيدة أن الأرض بيضاوية الشكل . وهذه الأرض التي نقيم عليها ليست ثابتة ، بل تدور كباقي الكواكب السيارة وهذا ما دلت عليه الآيات السابقة .

إن تعاقب الليل والنهار السريع والمستمر الذي أشارت إليه الآية الأولى يؤكد أن الأرض متحركة وليست ثابتة ، وهو ما توصل إليه العلماء في العصر الحديث حيث أثبتوا أن للأرض دورتين : الأولى يومية تدور بها الأرض حول نفسها وينتج عن هذه الدورة تعاقب الليل والنهار واختلاف الزمن من مكان لآخر ، والثانية : سنوية تدور بها حول الشمس وينتج عن هذه الحركة الفصول الأربعه(٢) .

يقول عالم الفضاء الروسي جاجارين : أنه شاهد تعاقباً سريعاً للظلام والنور على سطح الأرض وذلك بسبب دورانها المحوري (٣) .

وبهذا يتطابق ما توصل إليه العلم الحديث مع الايات القرآنية التي أشارت إلى شكل الأرض وحركتها وهذا ما يؤكد إعجاز القرآن العلمي الذي بهر العلماء بالحقائق الكثيرة التي أشار إليها .

يقول موريس بوكاي : « إن الشمس تضيء بشكل دائم نصف الكرة

---

(١) سورة النازعات ، آية ٣٠ .
(٢) الانسان بين العلم والدين ص ٨٩ ـ ٩١ .
(٣) الاسلام يتحدى ص ١٤٤ .

الأرضية التي تقع أمامها على حين يظل النصف الآخر مظلماً، وقد رأى رواد الفضاء الأمريكيون هذا وصوروه من مركباتهم الفضائية وخاصة على بعد بعيد عن الأرض من على القمر مثلاً ، وبدوران الأرض حول نفسها على حين تظل الإضاءة ثابتة ، فإن المنطقة المضاءة منها تؤدي في أربع وعشرين ساعة دورتها حول الأرض ، على حين يتم النصف الآخر المظلم في نفس الوقت نصف الرحلة ، والقرآن يصف بشكل كامل هذه الدورة التي لا تكف أبداً للنهار والليل . . . . .

هذه العملية الدائمة في التكور مع الولوج المستمر لقطاع في آخر يعبر القرآن عنها وكأن اكتشاف استدارة الأرض كان قد تم في عصر تنزيل القرآن وبالطبع لم يكن هذا قد حدث بعد »[1] .

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ١٨٩ .



الفصل الثاني
المعجزات الحسية

أجمعت الأمة الإسلامية على أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول اللّٰه ﷺ ، إذ تحدى به العرب خاصة والناس عامة ، فعجزوا عن الاتيان بمثله أو بسورة من مثله ، وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان .

إلّا أن معجزات رسول اللّٰه ﷺ لم تقتصر على هذا الكتاب الرباني ، بل أيده اللّٰه بمعجزات حسية كثيرة ومتنوعة رحمة به وتسرية عنه وإكراماً له ولأمته وتصديقاً لدعوته ودحضاً لمفتريات أعدائه وتثبيتاً لأتباعه .

من هذه المعجزات ما ثبت بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة كالإسراء والمعراج ، ومنها ما ثبت بالسنة الصحيحة المتواترة كحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام ، حيث حدثت على مرآى ومسمع العدد الكثير من صحابته رضي اللّٰه عنهم ، ونقلها عنهم الجمّ الغفير والعدد الكثير من الرواة في عهد التابعين ومن بعدهم .

ومن معجزاته ﷺ ما ثبت بطريق الآحاد ولكنها بمجموعها تبلغ درجة التواتر المعنوي وهو يفيد القطع .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّٰه : « وهذه الأخبار منها ما هو في القرآن ومنها ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة كنبع الماء من أصابعه وتكثير الطعام وحنين الجذع ونحو ذلك ، فإن كلا من ذلك تواترت به الأخبار

واستفاضت وَنَقَلَتْهُ الأمة جيلاً بعد جيل وخلفاً عن سلف فما من طبقة من طبقات الأمة إلَّا وهذه الآيات منقولة مشهورة فيها ، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيراً من آيات القرآن وأكثر ممن سمع ونقل أنه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو وممن سمع ونقل نصب الزكاة وفرائضها ، بل مواقيت الصلاة وأعدادها إنما شاع نقلها للعمل الدائم بها ، وأما هذه الآيات فنقلها أكثر ممن نقل مواقيت الصلاة من جهة الاخبار المعينة وذلك أن آيات الرسول كان كثير منها يكون بمشهد من الخلق عظيم فيشاهدون تلك الآيات كما شاهد أهل الحديبية وهم ألف وخمسمائة نبع الماء من بين أصابعه »[1] .

ويقول القاضي عياض في كتابه الشفا : « قال القاضي أبو الفضل : وأنا أقول صدعاً بالحق أن كثيراً من هذه الآيات المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقطع »[2] .

وهذه المعجزات الخارقة لمألوف العادات التي أجراها اللّه سبحانه على يد نبينا محمد ﷺ لم يحصل بها التحدي كالقرآن الكريم إلَّا أنها من أعظم الأدلة وأصدق البراهين على نبوته ﷺ ، وسميت بهذا الاسم لعجز البشر عن الاتيان بمثلها » .

وما ظهر على يد رسول اللّه ﷺ من المعجزات الحسية لم يجتمع لنبي قبله ، فما من نبي إلَّا وأوتي نبينا من المعجزات ما هو أكثر منه عدداً ، وأشد تنوعاً ، وأبلغ أثراً .

يقول القاضي عياض رحمه اللّه : « معجزات نبينا أظهر من سائر معجزات الرسل وأنه لم يؤت نبي معجزة إلَّا وعند نبينا مثلها أو ما هو أبلغ منها »[3]

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٢) الشفا جـ ١ ص ١٩٥ .

(٣) الشفا جـ ١ ص ٧٣ .

فإذا كان موسى عليه السلام قد أيده اللّٰه بقلب العصا إلى حية فقد أوتي نبينا محمد ﷺ نظير ذلك أو ما هو أعجب منه كبكاء الجذع اليابس وحنينه لرسول اللّٰه ﷺ الثابت في الأحاديث الصحيحة .

وإذا كان عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص بإذن اللّٰه فقد وقع من نبينا ﷺ شفاء المرضى مرات عدة كما ثبت في الأحاديث الصحيحة .

وإذا كان يوسف وعيسى عليهما السلام قد أخبرا بما أطلعهم اللّٰه عليه من الغيب فإن رسولنا محمداً ﷺ قد أخبر بأمور مغيبة كثيرة .

وإذا كانت الجبال تسبح مع داود عليه السلام ، فإن الحجر سبح بين يدي الرسول محمد ﷺ وكذلك الطعام .

إلى غير ذلك من المعجزات الباهرة والآيات الدالة بجلاء ووضوح على صدق نبوته وصحة دعوته .

وأشرع الآن في توضيح هذه المعجزات وبيان وقائعها ، مرتبة لها على شكل مجموعات يندرج تحت كل مجموعة من الأخبار والوقائع المتماثلة .

أولًا : الإسراء والمعراج:

بعد وفاة خديجة رضي اللّٰه عنها ، الزوجة التي آزرت رسول اللّٰه ﷺ ، وأبي طالب العم الذي حماه ودفع عنه أذى قومه ، حزن رسول اللّٰه ﷺ حزناً شديداً حتى عرف ذاك العام بعام الحزن ، ونال رسول اللّٰه ﷺ من أذى سفهاء قريش فيه ما لم ينله في عام قبله ، فأسرى اللّٰه سبحانه وتعالى برسوله محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، ومن ثم عرج به إلى السموات العلى ليريه اللّٰه تعالى من آياته العظيمة إكراماً منه لخاتم رسله وتسلية له لما نزل به من الضيق والشدة والأذى بفقدان ناصِرَيْهِ : زوجته وعمه .

وقد أشار القرآن الكريم لحادثة الإسراء بقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[١] .

وأشار لحادثة المعراج في قوله: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾[٢] .

تؤكد الآية الأولى إسراء رسول اللّٰه ﷺ ، والجمهور على أنه أسري به بجسده وروحه ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك صعد إلى السموات العلى ورأى من الآيات الكبرى ما رأى في هذه الرحلة العظيمة كما تشير آيات سورة النجم .

وقد أخبر ﷺ برؤية الأنبياء وصلاته بهم ، وبرؤية الملائكة ومنهم جبريل ، رآه على صورته الحقيقية التي خلق عليها ، ورأى الجنة والنار وسدرة المنتهى إلى غير ذلك من الآيات الكبرى التي أكرمه اللّٰه برؤيتها دون غيره من البشر .

وبهذه الرحلة العظيمة رفع اللّٰه درجة نبيه ﷺ وأعلى شأنه فكلمه من وراء حجاب وفرض على أمته الصلاة وهذه درجة لم يصل إليها أحد من الأنبياء قبله .

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي اللّٰه عنهما قال : قال النبي ﷺ :« بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان ، وذكر يعني رجلًا بين الرجلين ، فأُتيتُ بطستٍ من ذهب مليء حكمة وإيماناً فشق من النحر إلى مَراقِّ البطن ثم غَسل البطن بماء زمزم ، ثم مليء حكمة وإيماناً ، وأوتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار، البراق

---

(١) سورة الاسراء ، آية ١ .

(٢) سورة النجم ، آية١٢- ١٨ .



فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على آدم فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من ابن ونبي فأتينا السماء الثانية ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على عيسى ويحيى فقالا : مرحباً بك من أخ ونبي . فأتينا السماء الثالثة ، قيل : من هذا ؟ قيل : جبريل . قيل : من معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء . فأتيت يوسف فسلمت عليه ، قال : مرحباً بك من أخ ونبي . فأتينا السماء الرابعة ، قيل : من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل: ومن معك ؟ قيل : محمد ﷺ ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء . فأتيت على ادريس فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من أخ ونبي . فأتينا السماء الخامسة ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قيل : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء . فأتينا على هارون فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من أخ ونبي . فأتينا على السماء السادسة ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ؟ قيل : محمد ﷺ ، قيل : وقد أرسل إليه مرحباً به ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على موسى فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من أخ ونبي ، فلما جاوزت بكى فقيل : ما أبكاك ؟ قال : يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي ، فأتينا السماء السابعة ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ مرحباً به ونعم المجيء جاء ، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه ، فقال: مرحباً بك من ابن ونبي ، فرفع لي البيت المعمور ، فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم ورفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها كأنه قلال هُجَر ، وورقها كأنه آذان الفيول ، في أصلها أربعة أنهار ،

نهران باطنان ونهران ظاهران ، فسألت جبريل ، فقال : أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران النيل والفرات ، ثم فرضت علي خمسون صلاة ، فأقبلت حتى جئت موسى ، فقال : ما صنعت ؟ قلت : فرضت علي خمسون صلاة ، قال : أنا أعلم بالناس منك ، عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، وان أمتك لا تطيق فارجع إلى ربك فسله ، فرجعت فسألته فجعلها أربعين ، ثم مثله ثم ثلاثين ، ثم مثله فجعل عشرين ، ثم مثله فجعل عشراً فأتيت موسى فقال : ما صنعت ؟ قلت : جعلها خمساً ، فقال مثله ، قلت : فسلمت فنودي اني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي وأجزي الحسنة عشراً »[1] .

فلما سمعت قريش نبأ الاسراء طار صوابها ، واستعظمت هذا الأمر لأن قطع المسافات الطويلة في زمن يسير ذهاباً وإياباً مع عدم توفر المواصلات السريعة في ذلك الوقت أمر يستدعي العجب حقاً ، ولكن هذا العجب يزول إذا علم أن اللّه بقدرته المطلقة هو الذي مكن لنبينا محمد ﷺ من القيام بهذه الرحلة العظيمة خرقاً للعادة وتطميناً لقلب المصطفى ﷺ وتصديقاً لنبوته ، ولكن قريشاً بكفرها وعنادها لم تصدق رسول اللّه ﷺ فيما أخبرها به فطلبت منه الدليل على صدق ما يقول وذلك بأن يصف بيت المقدس فوصفه لهم بدقة فائقة حتى شهد بصدقه كل من له معرفة به .

وبهذا قام الدليل المادي القطعي على صدق رسول اللّه ﷺ فيما أخبرهم به من الإسراء والمعراج في جزء يسير من الليل مما دفع بعض المشركين للدخول في الإسلام واتباع الرسول ﷺ .

ثانياً : انشقاق القمر:

من المعجزات الخارقة للعادة التي أيّد اللّه بها نبينا محمداً ﷺ انشقاق القمر الذي حدث لرسول اللّه ﷺ وهو بمكة المكرمة ، حين سألته قريش أن

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة جـ ٤ ص ٧٧ ـ ٧٨ .

يريهم آية تدل على صدقه فأراهم انشقاق القمر ، فلما رأوا ذلك قالوا : هـذا سحر منه ﷺ لأعينهم ، إلَّا أن بعضهم قالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمـداً لا يستطيـع أن يسحر النـاس كلهم ، فلما سـألوا من قـدم عليهم من المسافرين أجابوهم برؤية القمر وقد انشق إلى نصفين .

وقـد ثبت في السنة الصحيحـة وقوع هـذه الآية الخـارقة على يـد نبينا محمـد ﷺ ، تصديقـاً لـه وإثبـاتـاً لنبـوتـه ، ومن الأخبـار التي تحـدثت عن الواقعة :

١ - روى البخـاري ومسلم عن أنس بن مـالـك رضي اللَّه عنـه قـال : « ان أهل مكة سألوا رسول اللَّه ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر »[1] .

٢ - وعـن ابن مسعـود رضي اللَّه عنـه قـال : « انشق القمـر على عهـد رسول اللَّه ﷺ شقتين ، فقال النبي ﷺ : اشهدوا »[2] .

٣ - وعن ابن مسعـود رضي اللَّه عنه قـال : « بينما نحن مـع رسول اللَّه ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه ، فقـال لنا رسول اللَّه ﷺ : اشهدوا »[3] .

٤ - وعن ابن عبـاس رضي اللَّه عنهمـا أن القمـر انشق في زمـان النبي ﷺ »[4] .

وبهذه الأخبار يتبين لنا ثبوت هذه المعجزة لرسولنا محمد ﷺ .

---

(١) صحيـح البخاري ، كتـاب المناقب ، بـاب سؤال المشركين النبي ﷺ أن يـريهم آية فـأراهم انشقاق القمر جـ ٤ ص ١٨٦ .
صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب انشقاق القمر ، جـ ٤ ص ٢١٥٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب سؤال المشركين جـ ٤ ص ١٨٦ ، صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين جـ ٤ ص ٢١٥٨ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر جـ ٤ ص ٢١٥٨ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب سؤال المشركين جـ ٤ ص ١٨٦ .
صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب انشقاق القمر جـ ٤ ص ٢١٥٩ .

ثالثاً : بركة الطعام وكثرته بين يدي رسول اللّه ﷺ

ومن المعجزات الحسية أيضاً تكثير الطعام وبركته بين يـدي رسول اللّه ﷺ ، حتى أن القليـل منه كـان يكفي العدد الكبيـر من الناس ، وقـد حدث هذا مرات عدة على مرأى ومسمع العدد الكبيـر من الناس ، ونقلت لنـا هذه الأخبار جيلاً بعد جيل مما يؤكد ثبوت هذه المعجزة لرسولنا محمد ﷺ .

ومن الأخبار الثابتة الصحيحة :

١ - روى البخـاري عن عبد الـواحد بن أيمن عن أبيـه قال: «أتيت جـابـراً رضي اللّه عنه ، فقال : إنَّا يوم الخنـدق نحفر فعـرضت كُدْيَـةٌ شديـدة فجاءوا النبي ﷺ ، فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثـنـا ثلاثـة أيام لا نـذوقَ ذَواقاً فأخذ النبي ﷺ المعـول فضرب فعـاد كثيباً أهيـل أو أهيم ، فقلت : يا رسول اللّه ائذن لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء ؟ قالت : عندي شعير وعَناق ، فَذَبَحْتُ العَنـاق وَطَحَنَتِ الشعير حتى جعلنـا اللحم في البرمـة ، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كـادت أن تنضج فقلت : طُعَيِّمٌ لي فقم أنت يـا رسول اللّه ورجـل أو رجلان ، قـال : كم هـو ؟ فذكرت له ، قال : كثير طيب ، قال : قل لها لا تنزع البُرمـة ولا الخبز من التنور حتى آتي ، فقال : قوموا ، فقام المهاجرون والأنصار ، فلمـا دخل على امرأته ، قال : ويحـك جاء النبي ﷺ بـالمهاجـرين والأنصار ومن معهم . قـالت : هل سـألـك ؟ قلت : نعم . فقـال : ادخلوا ولا تضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم وَيُخَمِّرُ البُرمة والتّنّور إذا أخـذ منه ويقـرِّبُ إلى أصحـابـه ، ثم ينـزع فلم يـزل يكسـر الخبـز ويغـرف حتى شبعوا وبقي بقيـة ، قال : كلي هـذا وأهدي فـإنّ النـاس

أصابتهم مجاعة »(١) .

٣ ـ وروى مسلم عن مالك بن أنس عن إسحاق بن عبد اللّه بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول :«قال أبو طلحة لأم سُلَيم : قد سمعت صوت رسول اللّه ﷺ ضعيفاً ، أعرف فيه الجوع ، فهل عندك شيء ؟ فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصاً من شعير ، ثم أخذت خماراً لها فَلَفَّت الخبز ببعضه ، ثم دسَّته تحت ثوبي وَرَدَّتْنِي ببعضه ثم أرسلتني إلى رسول اللّه ﷺ ، قال : فذهبت به فوجدت رسول اللّه ﷺ جالساً في المسجد ومعه الناس فقمت عليهم ، فقال رسول اللّه ﷺ : أرسلك أبو طلحة ؟ قال : فقلت : نعم . فقال : أَلِطعام ؟ فقلت : نعم ، فقال رسول اللّه ﷺ لمن معه : قوموا . قال : فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته . فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول اللّه ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : اللّه ورسولُهُ أعلم . قال : فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول اللّه ﷺ فأقبل رسول اللّه ﷺ معه حتى دخلا ، فقال رسول اللّه ﷺ : هلمي ما عندك يا أم سليم ؟ فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول اللّه ﷺ فَفُتَّ ، وعصرت عليه أم سليم عُكَّةً لها فَأَدَمَتْهُ ، ثم قال فيه رسول اللّه ﷺ ما شاء اللّه أن يقول . ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون »(٢) .

٣ ـ روى البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي اللّه عنهما قال :«كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة ، فقال النبي ﷺ : هل مع أحد منكم

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق جـ ٥ ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الأشربة ، باب جواز استتباعه الى دار من يثق برضاه جـ ٣ ص ١٦١٢ .

طعام ؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ، ثم جاء رجل مشرك مُشْعَانٌ طويل بغنم يسوقها ، فقال النبي ﷺ بيعاً أم عطية أو قال أم هبة ؟ قال : لا بل بيع ، فاشترى منه شاة فصنعت وأمر النبي ﷺ بسواد البطن أن يشوى ، وأيم اللّه ما في الثلاثين والمائة إلَّا وقد حز النبي ﷺ له حزة من سواد بطنها ان كان شاهداً أعطاها إياه ، وإن كان غائباً خبأ له ، فجعل منها قصعتين فأكلوا أجمعون وشبعنا ففضلت القصعتان فحملناه على البعير أو كما قال »[1] .

٤ - وروى مسلم عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد (شك الأعمش) قال : « لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة . قالوا : يا رسول اللّه لو أذنت لنا فنحرنا ناضحاً فأكلنا وأدهنا ، فقال رسول اللّه ﷺ : افعلوا ، قال : فجاء عمر فقال : يا رسول اللّه إن فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع اللّه لهم عليها بالبركة لعل اللّه أن يجعل في ذلك ، فقال رسول اللّه ﷺ : نعم ، قال : فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم . قال : فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ، قال : ويجيء الآخر بكف تمر . قال : ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، قال : فدعا رسول اللّه ﷺ عليه بالبركة ، ثم قال : خذوا في أوعيتكم ، قال : فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلَّا ملأوه ، قال : فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة ، فقال رسول اللّه ﷺ : أشهد أن لا إله إلَّا اللّه وأني رسول اللّه ، لا يلقى اللّه بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة »[2] .

٥ - روى البخاري عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : كان النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين جـ ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الأيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً جـ ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

عـروساً بـزينب فقالت لي أم سليم : لـو أهدينـا لرسـول اللَّه ﷺ هديـة فقلت لها : افعلي ، فعمدت إلى تمر وسمن وَأَقِطٍ فاتخـذت حيسة في بُرمة فأَرسَلَت بها معي إليه ، فانطلقتُ بها إليـه فقال لي : ضعهـا ، ثم أمـرني فقال : ادع لي رجـالاً سماهم وادع لي من لقيت قـال : ففعلت الذي أمرني فـرجعت فإذا البيت غـاص بأهله ، فـرأيت النبي ﷺ وضع يديه على تلك الحَيْسَـةِ وتكلم بها مـا شاء اللَّه ، ثم جعـل يدعـو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم : اذكـروا اسم اللَّه وليأكـل كل رجـل مما يليه قال : حتى تصدعوا كلهم عنهـا فخرج منهم من خـرج ، وبقي نفر يتحـدثـون ، قـال : وجعلت أغتم ثم خـرج النبي ﷺ نحـو الحجـرات وخـرجت في أثـره ، فقلت : انهم قـد ذهبـوا ، فـرجـع فـدخـل البيت وأرخى السـتـر واني لفي الحجرة وهـو يقول : ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِيْنَ إِنَـاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيْتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِـي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِـي مِنَ الحَقِّ ﴾[1] .

٦ ـ روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر أن أم مالك كـانت تهدي للنبي ﷺ في عُكَّةٍ لها سمناً فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندهم شيء فتعمـد إلى الذي كـنت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتهـا حتى عصرتـه ، فأتت النبي ﷺ فقـال : عصرتيهـا ؟ قـالت : نعم . قال : لو تركتيها ما زال قائماً »[2] .

٧ ـ روى البخـاري عن جـابـر رضي اللَّه عنـه ، قـال :« توفي عبـد اللَّه بن عمرو بن حزام وعليه دين فاستعنت النبي ﷺ على غرمائه أن يضعوا من

---

(١) سورة الأحزاب ، آيـة ٥٣ ، والحديث في صحيـح البخاري ، كتـاب النكاح ، بـاب الهديـة للعروس جـ ٦ ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب في معجزات النبي ﷺ جـ ٤ ص ١٧٨٤ .

دينه ، فطلب النبي ﷺ إليهم فلم يفعلوا فقال لي النبي ﷺ : اذهب فصنف تمرك أصنافاً ، العجوة على حدة ، وَعَذَقَ زيد على حدة ، ثم أرسل إلي ففعلتُ ثُمَّ أرسلتُ إلى النبي ﷺ فجلس على أعلاه أو في وسطه، ثم قال : كِل للقوم فَكِلْتُهم حتى أوفيتهم الذي لهم وبقي تمري كأنه لم ينقص منه شيء »[1] .

٨ - وروى البخاري أيضاً عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول: «آللّه الذي لا إله إلاَّ هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب اللّه ما سألته إلاَّ ليشبعني فمر ولم يفعل ، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب اللَّه ما سألته إلاَّ ليشبعني فمر فلم يفعل ، ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ، ثم قال : أبا هر . قلت : لبيك يا رسول اللَّه ، قال : الحق ومضى فتبعته فدخل فاستأذن فَأَذِنَ لي فدخل فوجد لبناً في قدح ، فقال : من أين هذا اللبن قالوا : أهداه لك فلان أو فلانة ، قال : يا أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول اللَّه ، قال : الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي ، قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءني ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة ، كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة اللّه وطاعة رسوله ﷺ بد ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : يا أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول اللَّه ، قال : خذ فأعطهم ، قال : فأخذت القدح

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب البيع ، باب الكيل على البائع والمعطي جـ٣ ص ٢١ ـ ٢٢ .

فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى ، ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال : أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول اللّه ، قال : بقيت أنا وأنت ، قلت : صدقت يا رسول اللّه ، قال : أقعد فاشرب ، فقعدت فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول أشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً ، قال : فأرني فأعطيته القدح فحمد اللّه وسمى وشرب الفضلة »(١) .

هذا غيض من فيض من الأخبار المشهورة المتواترة الدالة على بركة الطعام وكثرته بين يدي رسول اللّه ﷺ ، وهو أمر خارق للعادة أيد اللّه به رسوله ﷺ وأقام الدليل على صدق دعوته وثبوت نبوته .

رابعاً : كثرة الماء ونبعه من بين أصابع الرسول :

تواترت الأخبار واشتهرت في نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، وفي كثرته وبركته ، حتى أن اليسير منه كان يكفي الجماعة الكبيرة من الناس ، وهذا أمر خارق للعادة يعجز البشر عن الإتيان بمثله ، أجراه اللّه على يد نبيه محمد ﷺ إثباتاً لنبوته وتصديقاً له فيما جاء به من عند ربه سبحانه وتعالى .

ومن الأخبار الثابتة في هذا الأمر :

١ - روى البخاري عن أنس بن مالك أنه قال: «رأيت رسول اللّه ﷺ ، وحانت صلاة العصر ، فالتمس الوَضوء فلم يجدوه فأتى رسول اللّه ﷺ بوضوء فوضع رسول اللّه ﷺ يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضؤوا

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب كيف كان عيش النبي ﷺ جـ ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم »[1] .

٢ ـ روى مسلم عن عمران بن الحصين قال: «كنت مع النبي ﷺ في مسير له ، فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان في وجه الصبح عَرَّسنا ، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس قال : فكان أول من استيقظ منا أبو بكر ، وكنا لا نوقظ نبي اللّه ﷺ إذا نام حتى يستيقظ ، ثم استيقظ عمر فقام عند نبي اللّه ﷺ ، فجعل يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ رسول اللّه ﷺ ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال : ارتحلوا ، فسار بنا حتى إذا ابيضت الشمس نزل فصلى بنا الغداة ، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا ، فلما انصرف قال له رسول اللّه ﷺ : يا فلان ما منعك أن تصلي معنا ؟ قال : يا نبي اللّه أصابتني جنابة فأمره رسول اللّه ﷺ فتيمم بالصعيد فصلى ، ثم عَجَّلَني في ركب بين يديه ، نطلب الماء وقد عطشنا عطشاً شديداً ، فبينما نحن نسير إذا بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين فقلنا لها : أين الماء ؟ فقالت : أَيْهاه أَيْهاه لا ماء لكم . قلنا : فكم بين أهلك وبين الماء ؟ قالت : مسيرة يوم وليلة . قلنا : انطلقي إلى رسول اللّه ﷺ ، قالت : وما رسول اللّه ؟ فلم نُمَلِّكْهَا من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها فاستقبلنا بها رسول اللّه ﷺ فسألها فأخبرته مثل الذي أخبرتنا وأخبرته أنها موتمة لها صبيان أيتام فأمر براويتها فأنيخت فَمَجَّ في العزلاوين العُلْيَاوَين ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلاً عطاش حتى روينا وملأنا كل قربة معنا وإداوة وَغَسَّلْنَا صاحبنا غير أَنَّا لم نَسْقِ بعيراً وهي تكاد تنضرج من الماء (يعني المزادتين) ثم قال : هاتوا ما كان عندكم ، فجمعنا لها من كِسَر وتمر وَصَرَّ لها صُرَّة ، فقال لها : اذهبي فأطعمي هذا عيالك واعلمي أَنَّا لم نرزأ من مائك ، فلما أتت أهلها قالت : لقد لقيت أسحر الناس ، أو انه لنبي كما زعم

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، جـ ٤ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

كـان من أمـره ذيت وذيت ، فهـدى اللَّه ذاك الصِّـرم بتلك المـرأة ، فأسلمت وأسلموا »[1] .

٣ - وروى البخـاري عن البراء بن عـازب رضي اللَّه عنهما أنهم كـانوا مـع رسول اللَّه ﷺ يوم الحـديبية ، ألفـاً وأربعمائـة أو أكثر فنـزلوا على بئـر فنزحوها فأتوا النبي ﷺ فأتى البئـر وقعد على شفيـرها ثم قال: «أئتوني بدلو من مائها فأتي به فبصق فدعا ثم قال : دعوها ساعة فَأَرْوَوْا أَنفُسَهم ورِكابهم حتى ارتحلوا »[2] .

٤ - وروى أيضاً عن جابر رضي اللَّه عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية ورسول اللَّه ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها ، ثم أقبل النـاس نحوه فقـال رسول اللَّه ﷺ : ما لكم ؟ قالوا : يا رسول اللَّه ليس عندنا ما نتوضـأ به ولا نشرب إلاَّ ما في ركوتك ، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كـأمثال العيـون ، قال : فشـربنا وتـوضأنـا . قلت لجـابر : كم كنتم يـومئذ ؟ قـال : لو كـنـا مائـة ألف لكفانـا ، كنا خمس عشرة مائة »[3] .

٥ - وروى مسلم عن أنس بن مالك أن نبي اللَّه ﷺ وأصحابه بـالزوراء دعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل ينبـع من بين أصابعـه فتوضـأ جميع أصحـابه ، قال « قلت : كم كانـوا يا أبـا حمزة ؟ قـال : كانـوا زهـاء الثلاثمائة »[4] .

٦ - ورويَ أيضـاً عن معاذ بن جبـل قال : «خرجنا مـع رسول اللَّه ﷺ عـام غـزوة تبوك فكـان يجمـع الصـلاة ، فصلى الـظهـر والعصـر جميعـاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، حتى إذا كان يـوماً أخـر الصلاة ، ثم خـرج

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة جـ ١ ص ٤٧٤ - ٤٧٦ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية جـ ٥ ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية جـ ٥ ص ٦٣ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب معجزات النبي ﷺ جـ ٤ ص ١٨٧٣ .

فصلى الظهر والعصر جميعاً ، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً ، ثم قال : إنكم ستأتون غداً إن شاء اللّه عين تبوك ، وانكم لن تأتوها حتى يضحي النهار ، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي ، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان ، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء ، قال : فسألهما رسول اللّه ﷺ : هل مسستما من مائها شيئاً ؟ قالا : نعم . فسبهما النبي ﷺ ، وقال لهما ما شاء اللّه أن يقول ، قال : ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء ، قال : وغسل رسول اللّه ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر ، أو قال : غزير حتى استقى الناس ، ثم قال : يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جناناً »[1] .

٧ - وروى البخاري عن أنس رضي اللّه عنه قال : « خرج النبي ﷺ في بعض مخارجه ومعه ناس من أصحابه فانطلقوا يسيرون فحضرت الصلاة ولم يجدوا ماء يتوضؤون فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير فأخذه النبي ﷺ فتوضأ ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال: قوموا فتوضؤوا ، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء وكانوا سبعين أو نحوه »[2] .

٨ - وروى البخاري عن أنس أيضاً قال: «حضرت الصلاة فقام من كان قريب الدار من المسجد يتوضأ وبقي قوم فأتى النبي ﷺ بمخضب من حجارة فيه ماء فوضع كفه ، فَصَغُرَ المِخضب أن يبسط فيه كفه فضم أصابعه فوضعها في المخضب فتوضأ القوم كلهم جميعاً ، قلت : كم كانوا ؟ قال : ثمانون رجلاً »[3] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب معجزات النبي جـ ٤ ص ١٨٧٤ - ١٨٧٥ . .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة جـ ٤ ص ١٧٠ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة جـ ٤ ص ١٧٠ .

٩ - وروى مسلم عن عبادة بن الصامت في حديث طويل قوله: «قال - أي جابر بن عبد اللّه - : فأتينا العسكر ، فقال رسول اللّه ﷺ : يا جابر ناد بوضوء . فقلت : ألا وضوء ؟ ألا وضوء ؟ ألا وضوء ؟ قال : قلت : يا رسول اللّه ما وجدت في الركب من قطرة ، وكان رجل في الأنصار يُبَرِّدُ لرسول اللّه ﷺ الماء في أشجاب له على حِمَارَةٍ من جريد ، قال : فقال لي : انطلق إلى فلان بن فلان الأنصاري فانظر هل في أشجابه من شيء ، قال : فانطلقت إليه فنظرت بها فلم أجد فيها إلّا قطرة في عزلاء شجب منها لو أني أفرغه لشربه يابسه فأتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يا رسول اللّه إني لم أجد فيها إلّا قطرة في عزلاء شجب منها ، لو أني أفرغه لشربه يابسه ، قال : اذهب فأتني به ، فأخذه بيده ، فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو ، يغمزه بيديه ، ثم أعطانيه فقال : يا جابر ناد بجفنة ، فقلت : يا جفنة الركب ! فأتيت بها تحمل فوضعتها بين يديه . فقال رسول اللّه ﷺ بده في الجفنة هكذا فبسطها وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة وقال : خذ يا جابر فصب علي وقل باسم اللّه فصببت عليه وقلت باسم اللّه فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول اللّه ﷺ ، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت ، قال جابر : ناد من كان له حاجة بماء . قال : فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ، قال : فقلت : هل بقي أحد له حاجة فرفع رسول اللّه ﷺ يده من الجفنة وهي ملآى »[١] .

نكتفي بهذا القدر من الأخبار الصحيحة المنقولة عن طريق ثقات الرواة ، الدالة على ثبوت هذه المعجزة لرسولنا ﷺ إكراماً من اللّه له ، ودليلاً على نبوته الحقة .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب حديث جابر الطويل جـ ٤ ص ٢٣٠٧ - ٢٣٠٨ ، والأشجاب : جمع شجب وهو السقاء البالي ، حمارة : اعواد تعلق عليها أسقية الماء ، عزلاء : فم القربة . يغمزه بيديه : أي يعصره .

خامساً : شفاؤه للمرضى وذوي العاهات :

شفاء الناس من الأمراض أمر يحصل بإرادة اللّه وقدره ، ولا يمكن لبشر شفاء أي مريض إلاّ بإذن اللّه ومشيئته ، وقد يتوصل الطبيب إلى معرفة أسباب المرض ، فيصف للمريض العلاج المناسب ولكن الشفاء لا يحصل لعدم إرادته سبحانه وتعالى .

وما أثر عن نبينا محمد ﷺ من شفائه للمرضى وذوي العاهات بغير الأسباب المعهودة وطرق العلاج المعروفة ، ما هو إلاّ أمر خارق للعادة أجراه اللّه على يده ليكون شاهداً على نبوته وعلى اختيار اللّه له لتبليغ رسالته وحمل الأمانة للناس كافة .

والأخبار في هذا المجال كثيرة ومستفيضة نذكر منها :

١ - روى البخاري عن البراء بن عازب قال : «بعث رسول اللّه ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار ، فَأَمَّر عليهم عبد اللّه بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذي رسول اللّه ﷺ ويعين عليه ، وكان في حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، فقال عبد اللّه لأصحابه : اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة ، وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد اللّه إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، وكان أبو رافع يُسْمَرُ عنده وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل . قلت : إنِ القومُ نَذِروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت ، فقلت : أبا رافع ، فقال : من هذا فأهويت نحو الصوت فأضربه بالسيف وأنا دَهِش فما أغنيت شيئاً وصاح

فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ، فقال لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ، حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أَقَتَلْتُهُ ، فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال : أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء فقد قتل اللّه أبا رافع فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال لي : ابسط رجلك ، فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكيتها قط »[1] .

٢ ـ وروي أيضاً عن يزيد بن أبي عبيد قال: «رأيت أثر ضربة في ساق سلمة ، فقلت : يا أبا مسلم ما هذه الضربة ؟ قال : هذه ضربة أصابتني يوم خيبر ، فقال الناس أصيب سلمة ، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات لما اشتكيتها حتى الساعة »[2] .

٣ ـ وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح اللّه على يديه يحب اللّه ورسوله ويحبه اللّه ورسوله قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطَاها فلما أصبح الناس غدوا إلى رسول اللّه ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يا رسول اللّه يشتكي عينيه ، قال : فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول اللّه ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي :

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المعازي ، جـ ٥ ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، جـ ٥ ص ٧٥ .

يا رسول اللّه أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه فيه فواللّه لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم »[1] .

٤ - وروى الإمام أحمد عن يعلى بن مرة الثقفي قال: «سرنا مع رسول اللّه ﷺ فمررنا بماء فأتته امرأة بابن لها به جِنَّة فأخذ النبي ﷺ بمنخره ثم قال : اخرج فإني محمد رسول اللّه ، ثم سرنا ، فلما رجعنا من سفرنا مررنا بذلك الماء . . . . . فسألها عن الصبي فقالت : والذي بعثك بالحق ما رأينا منه ريباً بعدك »[2] .

٥ - وروى أبو نعيم في الدلائل عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان أنه سقطت عينه يوم أحد فردها رسول اللّه ﷺ فكانت أحسن عينيه وأحدهما[3] .

٦ - وروي «أن طفيلاً العامري جاء إلى النبي ﷺ فشكا إليه الجذام فدعا بركوة ثم تفل فيها وأمره أن يغتسل بها فاغتسل فقام صحيحاً »[4] .

وهكذا مكن اللّه نبيه من شفاء المرضى وإزالة ما أَلَمَّ بهم من الآلام ، حتى أن الواحد منهم يعود إلى حالته السليمة كأن لم يكن به شيء ، وهذا إكرام من اللّه لنبيه ﷺ ، وإثبات لنبوته وتصديق لدعوته .

سادساً : استجابة دعائه :

ومن المعجزات الحسية التي أيد اللّه بها نبيه محمداً ﷺ استجابة دعائه على الدوام ، فكان لا يدعو دعاء ولا يطلب من اللّه أمراً إلاَّ ويستجاب

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر جـ ٥ ص ٧٦ ـ ٧٧ .
(٢) مسند أحمد جـ ٤ ص ١٧٣ .
(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم الاصبهاني ص ٤١٨ .
(٤) اعلام النبوة للماوردي ص ٨٩ .

له فيه ، سواء كان دعاء بالخير أو دعاء بالهلاك وهذا لم يكن لأحد من البشر إلاَّ للأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم ، إذ يتوجه الإنسان إلى اللَّه بالدعاء فقد يستجابُ له ، وقد لا يستجاب له لحكمة يعلمها اللَّه سبحانه وتعالى .

وقد أثر عن نبينا محمد ﷺ مواقف عدة دعا فيها لأقوام بالخير ، وعلى أقوام بالهلاك ، وقد تحقق ما دعا به ، كيف لا وهو خير خلق اللَّه ، الحبيب إلى ربه ، القريب منه ، وهذا إكرام من اللَّه لنبيه عليه الصلاة والسلام للدلالة على نبوته وصدق دعوته .

ومن الأخبار المتواترة في استجابة دعائه ﷺ :

١ - روى البخاري عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال : « أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ ، فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي فقال : يا رسول اللَّه هلك المال ، وجاع العيال ، فادع اللَّه لنا فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة ، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحاور على لحيته ﷺ فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره ، فقال : يا رسول اللَّه تهدم البناء وغرق المال فادع اللَّه لنا ، فرفع يده فقال : اللهم حوالينا ولا علينا فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلاَّ انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسار الوادي قناة شهراً ، ولم يجيء أحد من ناحية إلاَّ حدث بالجود »[1] .

٢ - وروى البخاري عن جرير رضي اللَّه عنه قال : « قال لي رسول اللَّه ﷺ : ألا تريحني من ذي الخلصة ؟ فقلت : بلى ، فانطلقت في

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الاستسقاء في الخطبة جـ ١ ص ٢٢٤ ، والقزعة : القطعة من السحاب ، والجوبة : الفرجة المستديرة في السحاب ، وقوله : قناة مرفوع على البدل من الوادي ، غير منصرف لأنه اسم لواد معين من أودية المدينة ، والجود : بفتح الجيم المطر الغزير .

خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري ، حتى رأيت يده في صدري فقال : اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً ، قال : فما وقعت عن فرس بعده ، قال : وكان ذو الخَلَصةِ بيتاً باليمن لِخَثْعَم وَبَجِيلة فيه نُصُب يُعبد يقال له الكعبة ، قال : فأتاها فَحَرَّقها بالنَّار وكسرها »[1] .

٣ - وروى البخاري عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه ، قال: «استقبل النبي ﷺ الكعبة فدعا على نفر من قريش ، على شيبة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبي جهل بن هشام ، فأشهد باللّه لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس وكان يوماً حاراً »[2] .

٤ - وروى مسلم عن جابر بن عبد اللّه قال : «غزوت مع رسول اللّه ﷺ ، فتلاحق بي وتحتي ناضح لي قد أعيا ولا يكاد يسير ، قال : فقال لي : ما لبعيرك ؟ قال : قلت عليل ، قال : فتخلف رسول اللّه ﷺ فزجره ودعا له ، فما زال بين يدي الابل قدامها يسير ، قال : فقال لي : كيف ترى بعيرك ؟ قال : قلت : بخير ، قد أصابته بركتك ، قال : أَفَتَبِيعُنِيهِ ؟ فاستحييت ولم يكن لنا ناضح غيره ، قال : فقلت : نعم ، فبعته إياه على أن لي فقار ظهره حتى أبلغ المدينة . . . قال : فلما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة غدوت إليه بثمن البعير فأعطاني ثمنه وَرَدَّهُ عَلَيَّ »[3] .

٥ - وروى مسلم عن اياس بن سلمة بن الأكوع أن أباه حدثه أن رجلاً

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة ذي الخلصة جـ ٥ ص ١١٢ ، وأحمس : أخو بجيلة رهط جرير .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب دعاء النبي على كفار قريش جـ ٥ ص ٥ ـ ٦ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، باب بيع البعير واستثناء ركوبه جـ ٣ ص ١٢٢١ ـ ١٢٢٢ ، وقوله فقار ظهره : أي ركوبه .

أكل عند رسول اللّه ﷺ بشماله فقال : « كل بيمينك ، قال : لا استطيع ، قال : لا استطعت ، ما منعه إلَّا الكِبر قال : فما رفعها إلى فيه »[1] .

٦ - وروى مسلم عن أبي كثير يزيد بن عبد الرحمن قال : «حدثني أبو هريرة قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة ، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول اللّه ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول اللّه ﷺ وأنا أبكي . قلت : يا رسول اللّه اني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع اللّه أن يهدي أم أبي هريرة ، فقال رسول اللّه ﷺ : اللهم اهد أم أبي هريرة فخرجت مستبشراً بدعوة نبي اللّه ﷺ ، فلما جئت فَصِرتُ إلى الباب فإذا هو مُجافٌ ، فسمعت أمي خشف قَدَمَيَّ ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خَضْخَضَةَ الماء ، قال : فاغتَسَلَت ولبست درعها وَعَجَلَت عن خمارها فَفَتَحَتِ الباب ثم قالت : يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلَّا اللّه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح ، قال : قلت : يا رسول اللّه أبشر قد استجاب اللّه دعوتك وهدىَ أم أبي هريرة فحمد اللّه وأثنى عليه وقال خيراً ، قال : قلت : يا رسول اللّه ادع اللّه أن يُحَبِّبَنِي أنا وأمي إلى عباده المؤمنين وَيُحَبِّبَهُم إلينا ، قال : فقال رسول اللّه ﷺ : اللهم حَبِّب عُبَيْدَكَ هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين وَحَبِّب إليهم المؤمنين ، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلَّا أحبني »[2] .

٧ - وروى مسلم أيضاً عن أنس بن مالك قال : «جاءت بي أمي ، أم أنس إلى رسول اللّه ﷺ ، وقد أَزَّرَتْنِي بنصف خمارها وَرَدَّتْنِي بنصفه ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الأشربة ، باب آداب الطعام والشراب جـ ٣ ص ١٥٩٩ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل أبي هريرة جـ ٤ ص ١٩٣٨ - ١٩٣٩ وقوله مجاف : أي مغلق ، خشف قدمي ، أي صوتهما في الأرض ، خضخضة الماء : صوت تحريكه .

فقالت : يا رسول اللّٰه هذا أنس ابني أتيتك به يخدمك فادعِ اللّٰه له ، فقال : اللهم أكثر ماله وولده ، قال أنس : فواللّٰه ان مالي لكثير ، وان ولدي وولد ولدي ليتعادون نحو المائة اليوم »[1] .

٨ - وروى البخاري عن شَبِيبِ بن غَرقَدَة قال: «سمعت الحيَّ يحدثون عن عروة أن النبي ﷺ أعطاه ديناراً يشتري له به شاة فاشترى له به شاتين فباع احداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة فدعا له بالبركة في بيعه وكان لو اشترى التراب لربح منه »[2] .

٩ - وروى أبو نعيم الأصبهاني عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن هبار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتيبة قد تجهز إلى الشام وتجهزت معهما فقال ابنه عتيبة : واللّٰه لأنطلقن إليه فلأوذينه في ربه فانطلق حتى أتى رسول اللّٰه ﷺ فقال : يا محمد هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال رسول اللّٰه ﷺ : اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك ، ثم انصرف عنه فرجع إليه فقال : أي بني ما قلت له ؟ قال : كفرت بإلهه الذي يعبد . قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال : اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك ، فقال : أي بني واللّٰه ما آمن عليك دعوة محمد . قال : فسرنا حتى نزلنا الشراة وهي مُؤسدة فنزلنا إلى صومعة راهب ، فقال : يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد وانها مسرح الضيغم ، فقال لنا أبو لهب : انكم قد عرفتم حقي ، قلنا : أجل يا أبا لهب ، فقال : إن محمداً قد دعا على ابني دعوة واللّٰه ما آمنها عليه فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم افرشوا لابني عتيبة ثم افرشوا حوله ، قال : ففعلنا جمعنا المتاع حتى ارتفع ثم فرشنا له عليه وفرشنا حوله ، فبينا نحن حوله وأبو لهب معنا أسفل ، وبات هو فوق المتاع فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض ، ثم وثب

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل أنس جـ ٤ ص ١٩٢٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، الباب الثامن والعشرون جـ ٤ ص ١٨٧ .

فإذا هو فوق المتاع فجاء الأسد فشم وجهه ثم هزمه هزمة ففضخ رأسه ، فقال : سيفي يا كلب لم يقدر على غير ذلك ووثبنا فانطلق الأسد وقد فضخ رأسه فقال له أبو لهب : قد عرفت والله ما كان لينفلت من دعوة محمد »[1] .

ـ والأمثلة على استجابة الله سبحانه وتعالى لدعاء نبيه كثيرة ومستفيضة ، مما يدل على صدقه وعلى تأييد الله له ، وتصديقه لنبوته وتأييده لدعوته .

سابعاً : نطق الشجر والحجر وانقيادهما لأمر الرسول :

جرت سنة الله في الشجر والحجر أن لا يصدر عنهما كلام ، وهذا معروف لدى الناس جميعاً ، ولكن الله بقدرته المطلقة وحكمته البالغة انطقهما خرقاً للعادة إكراماً لنبيه الذي اصطفاه وأيده بهذه المعجزة الباهرة لتدل على نبوته وصدق دعوته ، فقد جاء في السنة الصحيحة أن الحجر تكلم وسبح بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنه كان يسلم عليه قبل البعثة وبعدها وكذلك الشجر شهد بنبوته وانقاد لأمره . وأن جذع النخلة التي كان يقوم عليه خطيباً بكى وحنّ للنبي ﷺ عندما تركه لما بنى له المنبر .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نورد منها :

١ ـ روى البخاري عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي قال : سألت مسروقاً مَن آذَنَ النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك يعني عبد الله أنه آذَنَت بهم شجرة[2].

٢ ـ وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : كان جذع يقوم إليه النبي

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ص ٣٩٠ ، مؤسدة : فيها الأسود ، والضيغم : من أسماء الأسد ، القاموس المحيط ٤/١٤٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ذكر الجن ، جـ ٤ ص ٢٤٠ ، وآذن : أعلم ، وعبد الله هو: ابن مسعود .

ﷺ إذا خطب ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العِشار حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه .

وفي رواية أخرى عن جابر ان النبي ﷺ كان يقوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة فقالت امرأة من الأنصار : أو رجل يا رسول اللّه ألا نجعل لك منبراً ؟ قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبراً ، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي ، ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه ، تئن أنين الصبي الذي يسكن ، قال : كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها »[1] .

٣ - وروى مسلم من حديث جابر الطويل قال : سرنا مع رسول اللّه ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول اللّه ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء ، فنظر رسول اللّه ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به فإذا شجرتان بشاطيء الوادي فانطلق رسول اللّه ﷺ إلى احداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي علي بإذن اللّه فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي علي بإذن اللّه ، فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأَمَ بينهما (يعني جمعهما) فقال : التئما علي بإذن اللّه فالتأمتا . قال جابر : فخرجت أُحضِرُ مخافة أن يحس رسول اللّه ﷺ بقربي فيبتعد ، فجلست أحدث نفسي ، فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول اللّه ﷺ مقبلاً وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق فرأيت رسول اللّه ﷺ وقف وقفة فقال برأسه هكذا (وأشار أبو اسماعيل برأسه يميناً وشمالاً) ثم أقبل ، فلما انتهى إلي قال : يا جابر هل رأيت مقامي ؟ قلت : نعم يا رسول اللّه »[2] .

---

١) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، جـ ٤ ص ١٧٣ .

٢) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب حديث جابر الطويل جـ ٤ ص ٢٣٠٦ - ٢٣٠٧ . قوله ، داويا أفيح : أي واسعاً ، والبعير المحشوش ، هو الذي يجعل في أنفه عود إذا كان صعباً ليذل وينقاد .

٤ ـ وعن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابي ، فلما دنا قال له رسول اللّه ﷺ : « تشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قال : ومن يشهد على ما تقول ؟ قال : هذه السلمة ، فدعاها رسول اللّه ﷺ بين يديه فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت ثلاثاً أنه كما قال ثم رجعت إلى منبتها »[1] .

٥ ـ وعن ابن عباس قال : « جاء أعرابي إلى رسول اللّه ﷺ فقال : بم أعرف أنك نبي ؟ قال : إن دعوت هذا العِذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول اللّه ؟ فدعاه رسول اللّه ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ ، ثم قال : ارجع فعاد فأسلم الأعرابي »[2] .

٦ ـ وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال : « قال رسول اللّه ﷺ : إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث واني لأعرفه الآن »[3] .

٧ ـ وعن أسامة بن زيد بن حارثة قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجته التي حجها ، فلما هبط بطن الروحاء قال لي رسول اللّه ﷺ : يا أسيم هل ترى خمراً لمخرج رسول اللّه ﷺ ؟ فخرجت حتى مشيت حتى حسرت فلم أقطع الناس ولم أر شيئاً يواري أحداً فرجعت إليه فقلت : يا رسول اللّه والذي بعثك بالحق لقد مشيت حتى حسرت فما رأيت شيئاً يواري أحداً ولقد ملأ الناس ما بين السدين . قال : هل رأيت شجراً أو أحجاراً ؟ قال : قلت : قد رأيت نخلات صغاراً وإلى جانبهن

---

(١) سنن الدارمي ١/١٨ .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب في آيات اثبات نبوة النبيّ ﷺ جـ ٥ ص ٥٩٤ وقال الترمذي حسن صحيح غريب .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ، جـ ٤ ص ١٧٨٢ .

رخماً من حجارة قال : فأت النخلات فقل : ان رسول اللّه ﷺ يأمركن أن تلتصقن بعضكن ببعض حتى تكن سترة لمخرج رسول اللّه ﷺ ، وقل ذلك للحجارة ، فأتيت النخلات فقلت لهن : أن رسول اللّه ﷺ يأمركن أن تلتصقن بعضكن ببعض حتى تكن سترة لرسول اللّه ﷺ ، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيتهن يتقافزن بعروقهن وترابهن حتى لصق بعضهن ببعض فكأنهن نخلة واحدة ، وقلت ذلك للحجارة ، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيتهن يتقافزن حجراً حجراً حتى صرن كأنها جدار ، فأتيته عليه السلام فأخبرته فقال : يا أسيم خذ هذه الأداوة ، فأخذتها ثم انطلقنا ، فلما قربنا من ذلك المكان أخذ الأداوة ثم مضى فقضى حاجته ، ثم أتاني يحمل الأداوة فمضينا حتى دخل الخباء ، فقال لي : يا أسيم ائت النخلات فقل لهن : يأمركن رسول اللّه ﷺ أن ترجع كل نخلة منكن إلى مكانها ، وقل ذلك للحجارة ، فأتيت النخلات فقلت لهن ما أمرني ، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيتهن يتقاذفن كل نخلة إلى مكانها ، وقلت ذلك للحجارة ، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيتهن يتقافزن حجراً حجراً حتى رجع كل حجر إلى مكانه فأتيته فأخبرته ﷺ »[١] .

٨ - وروى البيهقي عن عباد بن عبد اللّه قال : « سمعت علياً يقول : لقد رأيتني أدخل معه يعني النبي ﷺ الوادي فلا يمر بحجر ولا شجر إلّا قال : السلام عليك يا رسول اللّه وأنا أسمعه »[٢] .

٩ - وروى أبو نعيم عن أبي ذر الغفاري رضي اللّه عنه قال : « إني لشاهد عند النبي ﷺ في خلقة وفي يده حصيات فسبحن في يده ، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، يسمع تسبيحهن من في الحلقة ، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى أبي بكر ، فسبحن مع أبي بكر ، يسمع تسبيحهن من في

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ، وقوله : خمراً لمخرج رسول الله : أي ما يتوارى به من شجر وغيره عند خروجه لقضاء الحاجة .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٤٠٩ .

الحلقــة ، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عمـر ، فسبحن في يــده ، يسمـع تسبيحهن من في الحقـة ، ثم دفعهن إلى عثمـان فسبحن في يـده، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا»[١] .

ثامناً : نطق الحيوان وشكواه وسجوده لرسول اللّه :

من الحوادث التي أيد اللّه بها نبيه ﷺ نـطق الحيوان وشكـواه وسجوده بين يـدي رسول اللّه ، وهـذا خلاف المـألوف والمعـروف من عادة الحيـوان وطبعـه ، وليس من عـادة البشـر ولا في مقـدورهم التخـاطب مـع البهــائم والتفـاهم معها إلّا مـا جرى لأنبيـاء اللّه أمثـال سليمـان ونبينـا عليهم الصـلاة والسلام ، وفي هذا البينة الواضحة والحجة الدامغة على نبوته ﷺ .

ومن الأخبار الواردة في ذلك :

١ - عن أبي هـريرة رضي اللّه عنـه قال : جـاء ذئب إلى راعي الغنم فأخـذ منها شاة فطلبه الراعي حتى انتزعها منه ، قال ، فصعد الـذئب على تل فأقعى واستذمر ، فقال : عمدت إلى رزق رزقنيه اللّه عز وجل انتـزعته مني ؟ فقال الرجل : تاللّه إن رأيت كـاليوم ذئبـاً يتكلم ، قال الـذئب : أعجب من هـذا ، رجل في النخـلات بين الحرتين يخبـركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم ، كان الرجل يهودياً ، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ فأسلم وخبره فصدقه النبي ﷺ ثم قال النبي ﷺ : انها أمارة من أمارات بين يدي الساعة فقد أوشـك الرجـل أن يخرج فـلا يرجـع حتى تحدثـه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده »[٢] .

٢ - وعن عبـد اللّه بن جعفر قـال : أردفني رسول اللّه ﷺ خلفـه ذات يـوم فأسر إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس ، وكان أحب ما استتـر به

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٢) مسند أحمد جـ ٢ ص ٣٠٦ .

رسـول اللَّه ﷺ لحاجتـه هدفـاً أو حائش نخـل ، قال : فـدخل حـائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي ﷺ صنّ وذرفت عينـاه ، فـأتاه النبي ﷺ فمسـح ذِفراه فسكت ، فقـال : من رب هذا الجمـل ؟ لمن هـذا الجمل ؟ فجـاء فتى من الأنصار فقـال : لي يا رسـول اللَّه ، فقال : أفلا تتقي اللَّه في هذه البهيمة التي ملكك اللَّه إياها فإنـه شكى إلى أنك تجيعه وتدئبه »(١) .

٣ - وروى الأصبهاني في الدلائل عن جابر بن عبد اللَّه قال : « خرجت مع رسـول اللَّه ﷺ في سفر ، ثم سـرنا ورسـول اللَّه ﷺ بيننـا كـأنمـا على رؤوسنا الطير فإذا جمل نادّ حتى إذا كـان بين السماطين خـرّ ساجـداً ، فجلس رسول اللَّه ﷺ ثم قال على الناس : من صاحب هـذا الجمل ؟ فإذا فتية من الأنصار فقالوا : هو لنا يا رسـول اللَّه . قال : فمـا شأنـه ؟ قالوا : أسنينـاه منذ عشـرين سنة فكـانت به شحيمـة ، فأردنـا أن ننحره فنقسمه بين غلماننا فانفلت عنا . قال : بيعونه ؟ قالوا : بـل هو لـك يا رسول اللَّه . قال : أما لا فأحسنوا إليه حتى يأتيه أجله »(٢) .

٤ - وروى أبو نعيم أيضاً عن أنس بن مـالك رضي اللَّه عنـه قال : « دخـل النبي ﷺ حائطاً للأنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجـال من الأنصار ، وفي الحائط غنم فسجدت لرسول اللَّه ﷺ ، فقـال أبو بكـر : يا رسـول اللَّه كنا نحن أحق بالسجود لك من هذه الغنم فقال : إنه لا ينبغي من أمتي أن يسجد أحد لأحد ولو كان ينبغي أن يسجد أحـد لأحد لأمـرت المرأة أن تسجد لزوجها »(٣) .

---

(١) سنن أبي داود كتاب الجهاد ، باب ما يؤمـر به القيـام على الدواب والبهـائم جـ ٣ ص ٢٣ ، مسند أحمد ١ / ٣٠٤ ، والذفرى بالكسر : العظم الشاخص خلف الأذن . القـاموس المحيط جـ ٢ ص ٣٦ .

(٢) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

٥ - وعن يعلى بن مرة قال : خرج النبي ﷺ يوماً فجاء بعير يرغو حتى سجد له ، فقال المسلمون نحن أحق أن نسجد للنبي ﷺ فقال : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير اللّه لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، تدرون ما يقول هذا ؟ يزعم أنه خدم مواليه أربعين سنة حتى إذا كبر نقصوا من علفه وزادوا في عمله حتى إذا كان لهم عرس أخذوا الشفار لينحروه ، فأرسل إلى مواليه فقص عليهم قالوا : صدق واللّه يا رسول اللّه ، قال : إني أحب أن تدعوه لي فتركوه »(١) .

تاسعاً : تأييد اللّه رسوله بالملائكة:

من المعجزات التي أيد اللّه بها رسوله ﷺ امداده بالملائكة في حروبه وغزواته وهذا ثابت بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

فقد جاء في القرآن الكريم أن الملائكة اشتركت مع رسول اللّه ﷺ وصحابته الكرام في قتال المشركين يوم بدر ، قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلفٍ مِّنَ المَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ المَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَورِهِم هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾(٣) .

وقد جاء في السنة الصحيحة أخبار كثيرة تؤكد تأييد اللّه سبحانه وتعالى لرسوله بالملائكة في غزوة بدر وأحد والأحزاب ، ومن الأخبار في ذلك :

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٣٢٨ .
(٢) سورة الأنفال ، آية ٩ .
(٣) سورة آل عمران ، الآيات ١٢٣ - ١٢٥ .

١ - روى البخاري عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب »[١] .

٢ - روى مسلم عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفُهُ وَشُقَّ وجهُهُ كَضَرَبَةِ السَوط فاخضَرَّ ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول اللَّه ﷺ ، فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة »[٢] .

٣ - وروى البخاري عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها ، قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة »[٣] .

٤ - وروى البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه قال : « رأيت رسول اللَّه ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد »[٤] .

٥ - وعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : قد وضعت السلاح واللَّه ما وضعناه فاخرج إليهم ، قال : إلى أين ؟ قال : ههنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي إليهم .

وعن أنس رضي اللَّه عنه قال : كأني انظر إلى الغبار ساطعاً في

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدر جـ ٥ ص ١٤ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر جـ ٣ ص ١٣٨٤ - ١٣٨٥ . وحيزوم : اسم فرس الملك ، والخَطم : الأثر على الأنف .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدر جـ ٥ ص ١٤ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا جـ ٥ ص ٣٢ .

زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول اللَّه ﷺ إلى بني قريظة »[1]

٦ - وروى الأصبهاني في الدلائل عن عائشة رضي اللَّه عنها أن رسول اللَّه ﷺ سمع صوت رجل فوثب وثبة شديدة وخرج إليه ، قالت : « فاتبعته انظر فإذا معتم مرخ عمامته بين كتفيه ، فلما دخل علي رسول اللَّه ﷺ قلت : لقد وثبت وثبة شديدة ، ثم خرجت أنظره فإذا هو دحية الكلبي قال : أو رأيتيه ؟ قلت : نعم ، قال : ذاك جبريل عليه السلام أمرني أن أخرج إلى بنى قريظة »[2] .

٧ - وعن ابن عباس قال : كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو ، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً ، وكان العبس رجلاً جسيماً فقال رسول اللَّه ﷺ : يا أبا اليسر كيف أسرت العباس ؟ قال : « يا رسول اللَّه لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده ، وهيئته كذا كذا وكذا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : لقد أعانك عليه ملك كريم »[3] .

٨ - وعن ابن عباس أيضاً قال : « حدثني رجل من بني غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لي حتى صعدنا على جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة فننتهب مع من يَنهب ، قال : فبينا نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل فسمعت قائلاً يقول : أقدم حيزوم . قال : فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أن أهلك فتماسكت »[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب مرجع النبي من الأحزاب جـ ٥ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤٣٧ .

(٣) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

(٤) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤٠٦ .

وهكذا فقد أيد اللّه رسوله الكريم بالملائكة في حروبه وغزواته وجميع أحواله ، وفي هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على نبوته ﷺ .

عاشراً : خوارق متفرقة:

ثم ان هناك طائفة من الخوارق الباهرة جرت على يديه ﷺ تؤكد نبوته وصدق دعوته منها :

أولاً : رؤيته من خلفه في الصلاة :

١ - عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : « أقيموا الصفوف فإني أراكم خلف ظهري »[١] .

٢ - عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : « صلى بنا رسول اللّه ﷺ يوماً ، ثم انصرف فقال : يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي ؟ فإنما يصلي لنفسه ، إني واللّه لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي »[٢] .

ثانياً : بركة الضرع عندما مسح رسول اللّه عليه :

١ - عن حبيش بن خالد صاحب رسول اللّه ﷺ قال : « إن رسول اللّه ﷺ حين خرج من مكة خرج منها مهاجراً هو وأبو بكر ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة ودليلهم الليثي عبد اللّه بن أريقط ، فمروا على خيمتي أم معبد الخزاعية . . . . فنظر رسول اللّه ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، قال : بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : أفتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : بأبي أنت وأمي نعم إن رأيت بها حلباً

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب تسوية الصفوف عند الاقامة جـ ١ ص ١٧٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب الأمر بتحسين الصلاة واتمامها والخشوع فيها جـ ١ ص ٣١٩ .

فاحلبها ، فدعا بها رسول اللَّه ﷺ فمسح ضرعها بيده وسمى اللَّه عز وجل ودعا لها في شاتها ، فتفاجت عليه ودرت واجترت ، فدعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ﷺ ثم أراضوا ، ثم حلب ثانياً بعد بدء حتى ملأ الاناء ثم غادره عندها وبايعها »[1] .

٢ ـ وعن زر بن حبيش عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه قال : « كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة فأتى عليّ رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وقد فرّا من المشركين فقالا : يا غلام عندك غنم تسقينا ؟ فقلت : إني مؤتمن ولست بساقيكما . قالا : هل عندك من جدعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ قلت : نعم . فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر ، وأخذ رسول اللَّه ﷺ الضرع فمسحه ودعا فحفل الضرع وأتى أبو بكر بصخرة منقعرة فحلب فيها ، ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني ثم قال للضرع : اقلص فقلص ، فلما كان الغد أتيت رسول اللَّه ﷺ فقلت : علمني من هذا القول الطيب ، يعني القرآن . فقال رسول اللَّه ﷺ إنك غلام معلم ، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد »[2] .

٣ ـ وعن قيس بن النعمان قال : «لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين مروا بعبد يرعى غنماً فاستسقياه اللبن ، فقال : ما عندي شاة تحلب ، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء ، وقد أخرجت وما بقي لها لبن ، فقال : ادع بها فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت ، قال : وجاء أبو بكر بمجن ، فحلب وسقى أبا بكر ، ثم حلب فسقى الراعي ، ثم حلب فشرب ، فقال الراعي : بالله من أنت فوالله ما

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٢٨٢ ، وكسر الخيمة : الشقة السفلى منها أو ما تكسر وتثنى على الأرض منها ، القاموس المحيط ٢/١٣١ ، وتفاجت : فتحت ما بين رجليها ، القاموس المحيط ١/٢٠٩ ، ويربض الرهط : يكفيهم . القاموس المحيط ٢/٣٤٢ ، ثم أراضوا : شربوا مرة ثانية حتى ارتووا ـ القاموس المحيط ٢/٣٤٥ .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

رأيت مثلك قط ؟ قال : أو تراك تكتم على حين أخبرك : قال : نعم . قال : فإني محمد رسول الله ﷺ فقال : أنت الذي تزعم قريش انه صابىء ؟ قال : انهم ليقولون ذلك . قال : أشهد أنك نبي وأشهد أن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت الا نبي وأنا متبعك ، قال : انك لن تستطيع ذلك يومك ، فإذا بلغك أني قد ظهرت فائتنا »[1] .

ثالثاً : انقلاب العصى سيفاً ، والعود سهماً :

١ ـ عن ابن إسحاق في تسمية من شهد بدراً قال : «وعكاشة بن محصن ، وهو الذي قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب ، وقال : قاتل بها يا عكاشة ، فلما أخذه من يد رسول الله ﷺ هزه فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدة ، فقاتل بها حتى فتح الله تعالى على رسوله ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل ، يعني في قتال اهل الردة وهو عنده ، وكان ذلك السيف يسمى القوي»[2] .

٢ ـ قال الواقدي : « كان أبو طلحة يوم أحد قد نثر كنانته بين يدي النبي ﷺ وكان رامياً ، وكان صيتاً ، فقال رسول الله ﷺ : صوت أبي طلحة خير من أربعين رجلاً ، وكان في كنانته خمسون سهماً فنثرها بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم جعل يصيح يا رسول الله نفسي دون نفسك ، فلم يزل يرمي بها سهماً وكان رسول الله ﷺ يطلع رأسه خلف أبي طلحة ، بين رأسه ومنكبيه ينظر الى مواقع النبل ، حتى فنيت نبله ، وهو يقول : نحري دون نحرك جعلني الله فداك ، فإن كان رسول الله ﷺ ليأخذ العود من الأرض فيقول : ارم يا أبا طلحة فيرمي به سهماً جيداً »[1].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ٣٦٩ .

(٣) المعجزات المحمدية ص ٦٣ ـ ٦٤ نقلاً عن البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧ .

رابعاً : حمايته من الأعداء :

١ ـ عن ابن شهاب الزهري ـ وهذا لفظ حديث اسماعيل ـ قال : «ومكث رسول الله ﷺ بعد الحج بقية ذي الحجة والمحرم وصفر ، ثم ان مشركي قريش اجتمعوا يقتلوه أو يحرجوه حين ظنوا أنه خارج وعلموا أن الله عر وجل قد جعل له مأوى ومنعة ولأصحابه ، وبلعهم اسلام من أسلم ورأوا من يخرج اليهم من المهاجرين فأجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ أو يثبتوه فقال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَاكِرِينَ ﴾[1] . وبلغه ﷺ في ذلك الذي أتى فيه أبا بكر أنهم مبيتوه اذا أمسى على فراشه فخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر في جوف الليل قِبَلَ الغار ، غار ثور وهو الغار الذي ذكر الله عز وجل في الكتاب ، وعمد علي بن أبي طالب فرقد على فراش رسول الله ﷺ يواري عنه ، وباتت قريش يختلفون ويأتمرون أيهم يجثم على صاحب الفراش فيوثقه فكان ذلك أمرهم حتى أصبحوا ، فإذا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فسألوه عن النبي ﷺ فأخبرهم أنه لا علم له به ، فعلموا عند ذلك أنه قد خرج فاراً منهم فركبوا في كل وجه يطلبونه »[2] .

٢ ـ وعن عكرمة قال: « قال شيبة بن عثمان لما غزا النبي ﷺ حنيناً تذكرت أبي وعمي قتلهما علي وحمزة فقلت اليوم أدرك ثأري في محمد فجئت من خلفه فدنوت منه ، ودنوت حتى لم يبق إلا أن أُسَوِّرَهُ بالسيف ، اذ رفع لي شواظ من نار كأنه البرق فخفت أن يخمشني فنكصت القهقرى ، فالتفت إلي النبي ﷺ فقال : يا شيبة : قال : فوضع رسول الله ﷺ يده على صدري فاستخرج الله الشيطان من قلبي

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٣٠ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

فـرفعت اليـه بصـري وهـو أحب اليَّ من سمعي ومن بصـري ومن كذا »[1] .

٣ ـ وعن سعيد بن جبير قال: «لما نزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ جاءت امرأة أبي لهب الى النبي ﷺ ومعه أبو بكر فقال أبو بكر : يا رسـول الله لـو تنحيت عنهـا لا تسمعـك شيئاً يؤذي فـإنهـا امـرأة بـذيئـة ، فقـال رسول الله ﷺ سيحال بيني وبينها ، فلم تره ، فقالت لأبي بكر : هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله ، قال : قالت انـك لمصـدق ، فـانـدفعت راجعـة ، فقـال ابو بكـر ، مـا رأتـك يـا رسول الله . قال : كان بيني وبينها ملك يسترني حتى ذهبت »[2] .

٤ ـ وعن أنس أن أبا بكر حـدثه قال : «كنت مع رسـول الله ﷺ في الغار ، فقلت : يـا رسول الله لـو أن أحدهم ينـظر الى قـدميـه لأبصـرنـا تحت قـدميـه ، قـال : فقـال النبي ﷺ يـا أبـا بكـر : مـا ظنـك بـاثنين الله ثالثهما»[3] .

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٢) دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٥٠ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ٢١٣ .

الفصل الثالث

اخباره بالمغيبات

من الدلائل الواضحة على صدق نبوته ﷺ اخباره بالعديد من الأمور الغيبية التي أثبتت الأيام والوقائع مصداقيتها ، حيث وقعت بدقة على الوجه الذي أخبر به ﷺ ، كيف لا وهو الرسول المبعوث من رب العالمين ، الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .

ان علم الغيب أمر اختص به الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن لأحد من الخلق معرفة شيء من علم الغيب ، ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً ، الا بإذن الله عز وجل ، يقول تعالى : ﴿ **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[1] .

ولكن جرت سنة الله في عباده المرسلين أن يطلعهم على بعض ما عنده سبحانه وتعالى من أخبار الغيب تأييداً لهم وتمكيناً لدعواتهم وتثبيتاً لأتباعهم واقامة للحجة على أقوامهم ودحضاً لمفتريات أعدائهم ، يقول تعالى : ﴿ **عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ، إلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن**

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٩ .

رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾[1] .

وقد أوحى الله لنبينا محمد ﷺ بكثير من أخبار الغيب ، كما أوحى من قبل بمثل ذلك لسائر الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد نقل الينا كثير من الأخبار المغيبة التي حدث بها رسول الله ﷺ عن طريق الأئمة الثقات ، وشهد بها لرسول الله ﷺ صحابته الكرام الذين رووها لمن بعدهم من التابعين فتناقلتها الأمة جيلاً عن جيل الى يومنا هذا .

عن حذيفة رضي الله عنه قال : «لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئاً الى قيام الساعة الا ذكره ، عَلِمَهُ من عَلِمَهُ ، وَجَهلَهُ مَن جَهِلَهُ ، ان كنت لأرى الشيء قد نَسِيتُ فَأَعْرِفُ ما يَعرِفُ الرَّجُلُ اذا غاب عنه فرآه فَعَرَفَهُ »[2] .

وعن أبي زيد - عمرو بن أخطب - قال : «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر ، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمنا أحفظنا »[3] .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، فأخبرنا بما يكون في أمته الى يوم القيامة وعاه من وعاه ونسيه من نسيه »[4] .

دلت هذه الأحاديث على علم رسول الله ﷺ بكثير من أخبار الغيب ،

---

(١) سورة الجن ، الآيتان ٢٦ - ٢٧ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، جـ ٧ ص ٢١١ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب اخبار النبي فيما يكون الى قيام الساعة . جـ ٤ ص ٢٢١٧ .

(٤) مسند أحمد جـ ٤ ص ٢٥٤ .

وكان ﷺ يخبر بها أصحابه ، وقد تحقق كثير منها في زمانه ، وبعد وفاته ، ولا تزال الأيام تكشف عن صدق ما أُخبر به ﷺ على الوجه الذي أخبر به ، مما يؤكد صدق نبوته وصدق ما جاء به عن ربه عز وجل ، ولو لم يكن يوحى اليه من علام الغيوب لخالف خبره الوقائع ولو مرة واحدة ، ولكن هذا لم يحدث قط لأنه لا يقول من عند نفسه بل يخبر عن الحق سبحانه وتعالى .

ومن الأخبار التي ثبت الاخبار بها :

أولاً : اخباره بأمور غيبية حدثت في زمانه

من ذلك :

١ - عن أبي سفيان عن جابر قال : « أن رسول الله ﷺ قدم من سفر ، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد آن تدفن الراكب ، فزعم أن رسول الله ﷺ قال : بعثت هذه الريح لموت منافق ، فلما قدم المدينة فإذا عظيم من المنافقين قد مات »[1] .

٢ - عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه اقبال أبي سفيان ، قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عبادة فقال ايانا تريد ؟ يا رسول الله ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادنا الى بَرْكِ الغَماد لفعلنا ، قال : فندب رسول الله ﷺ الناس ، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ، ووردت عليهم روايا قريش ، وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذوه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه ؟ فيقول : ما لي علم بأبي سفيان ، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف فإذا قال ذلك ضربوه ، فقال : نعم ، أنا أخبركم ، هذا أبو سفيان ، فإذا تركوه فسألوه فقال : ما لي بأبي سفيان علم ، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس ، فإذا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين جـ ٤ ص ٢١٤٦ .

قال هذا أيضاً ضربوه ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فلما رأى ذلك انصرف ، قال : والذي نفسي بيده لتضربوه اذا صدقكم وتتركوه اذا كذبكم ، قال : فقال رسول الله ﷺ هذا مصرع فلان ، قال : ويضع يده على الأرض ههنا وههنا قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ[1] .

٣ - عن سليمان بن صرد سمعت النبي ﷺ يقول حين أُجلي الأحزابُ عنه : «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير »[2] ، فكان الأمر كذلك بعد الأحزاب .

٤ - عن أبي سعيد الخدري قال : « خرجنا مع نبي الله ﷺ حتى قدمنا عسفان فأقام بها ليالي فقال الناس : والله ما نحن ههنا في شيء وان عيالنا لخُلوف ما نأمن عليهم فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ما هذا الذي بلغني من حديثكم ، والذي نفسي بيده ما من المدينة شعب ولا نقب الا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا اليها ، ثم قال للناس : ارتحلوا ، فارتحلنا فأقبلنا الى المدينة فوالذي يحلف به ما وضعنا رحالنا حين دخلنا المدينة حتى أغار علينا بنو عبد الله بن غطفان وما يهيجهم قبل ذلك شيء»[3] .

٥ - وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان يكتب للنبي ﷺ فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين فقال النبي ﷺ : « ان الأرض لم تقبله ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة بدر جـ ٣ ص ١٤٠٣ - ١٤٠٤ . لأخضناها : أي لو أمرتنا بادخال خيولنا البحر لفعلنا ، برك الغماد : موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل يذكر المرجع ، وروايا قريش : ابلها ، انصرف : سلم من صلاته ، فما ماط : أي تَباعد .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي : باب غزوة الخندق جـ ٥ ص ٤٨ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب الترغيب في سكن المدينة جـ ٢ ص ١٠٠١ ، وقوله : لخلوف : أي ليس عندهم رجال ولا من يحميهم ، الشعب : الفرجة النافذة بين جبلين ، انقاب المدينة : طرقها وفجاجها ، يهيجهم : يحركهم .

وقال أنس : فحدثني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها ذلك الرجل فوجده منبوذاً ، فقال أبو طلحة : ما شأن هذا الرجل ؟ قالوا دفناه مراراً فلم تقبله الأرض »[1] .

٦ - عن عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال :« خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فرأيت رسول الله ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر : « أوسع من قبل رجليه ، أوسع من قبل رأسه ، فلما رجع استقبله راعي امرأة فجاء وجيء بالطعام فوضع يده ، ثم وضع القوم فأكلوا ، فنظر آباؤنا رسول الله ﷺ يلوك لقمة في فمه ، ثم قال : أجد لحم شاة أخذت بغير اذن أهلها »، فأرسلت المرأة قالت : يا رسول الله : اني أرسلت الى البقيع يشتري لي شاة ، فلم أجد ، فأرسلت الى جار لي قد اشترى شاة أن أرسل الي بها بثمنها فلم يوجد ، فأرسلت الى امرأته فأرسلت الي بها ، فقال رسول الله ﷺ : أطعميه الأسارى »[2] .

٧ - عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين الراية غدا رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله [3] .

فأعطاها علي بن أبي طالب ، وكان الأمر كما أخبر ﷺ ، اذ فتح الله على يديه وانتصر المسلمون وفتحت خيبر .

٨ - وروى السدي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان ، فأتاه الحطم بن هند البكري وحده ، وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه رسول الله ﷺ فقال : الى ما تدعو ؟ فأخبره فقال : انظرني فلي من اشاوره فخرج من عنده فقال رسول الله ﷺ : لقد دخل بوجه كافر وخرج بعتب غادر ، فمر

---

(١) مسند أحمد ٣/١٢١ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب في اجتناب الشبهات جـ ٣ ص ٢٤٤ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر جـ ٥ ص ٧٦ .

بسرح من سرح المدينة فاستاقه وانطلق[1] .

٩ ـ وروى ابن اسحق أن أبا خيثمة رجع ـ بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً ـ الى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر الى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : «رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زاداً ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك . . . . . . حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيثمة فقالوا : يا رسول الله هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : أولى لك أبا خيثمة ، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير»[2] .

ثانياً : اخباره ﷺ بأمور غيبية في نفس الوقت الذي حدثت فيه

أخبر الرسول الكريم ببعض الغيوب التي وقعت في نفس الوقت الذي حدثت فيه رغم بعده عن مكان الحادث ، وهذا لا يمكن أن يصدر الا عن نبي يوحى اليه ، ومن هذه الأخبار :

١ ـ اخباره بموت النحاشي ملك الحبشة في اليوم الذي مات فيه .

---

(١) اعلام النبوة للماوردي ص ١٠٢ ـ ١٠٣ والعتب : الفساد . القاموس المحيط ١/ ٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٢١ ، والضح : الشمس ، الناضح : الجمل الذي يسقى عليه الماء ، ارتحله : وضع الرحل عليه ، الحائط : البستان ، أولى لك : كلمة تهديد بمعنى الويل لك .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه فخرج بهم الى المصلى وكبر أربع تكبيرات[1].

٢ ـ اخباره باستشهاد امراء الجيش في معركة مؤتة :

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، وان عيني رسول الله ﷺ لتذرفان ، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير امرة ففتح له »[2].

٣ ـ اخباره بمقتل كسرى في اليوم الذي قتل فيه .

يقول الماوردي : «ومن اعلامه انه كتب الى كسرى كتاباً يدعوه الى الاسلام وبدأ باسمه قبل اسمه ، فلما قرأه أنف لنفسه من ابتدائه باسمه فمزق كتابه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « تمزق ملكه ، ثم كتب كسرى في الوقت الى عامله باليمن باذان ويكنى أبا مهران أن احمل اليَّ هذا الذي يذكر أنه نبي وبدأ باسمه قبل اسمي ودعاني الى غير ديني ، فبعث اليه فيروز بن الديلمي مع جماعة من أصحابه وكتب معهم كتاباً يذكر فيه ما كتب به كسرى فأتاه فيروز بمن معه وقال له : ان ربي - يعني كسرى ـ أمرني أن أحملك اليه فاستنظره ليلة ، فلما كان من الغد حضر فيروز ، فقال له رسول الله ﷺ : أخبرني ربي أنه قتل ربك البارحة ، سلط عليه ابنه شيرويه على سبع ساعات من الليل ، فأمسك ريثما يأتيك الخبر ، فراع ذلك فيروز وهاله ، وعاد فيروز الى باذان فأخره ، فقال له باذان : كيف وجدت نفسك حين دخلت عليه ؟ فقال : والله ما هبت أحداً قط كهيبة هذا الرجل ، فقال باذان : ان كان

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الرجل ينعي إلى أهل الميت بنفسه جـ ٢ ص ٧١ ، صحيح مسلم كتاب الجنائز ، باب في التكبير على الجنازة جـ ٢ ص ٦٥٦ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الرجل ينعي الى أهل الميت بنفسه جـ ٢ ص ٧٢ .

ما قاله حقاً ، فهو نبي ، فلم يرعه الا ورود الخبر عليه بقتله في تلك الليلة من تلك الساعة ، فأسلم باذان وفيروز ومن معهم من الأبناء»[1] .

ثالثاً: كشفه للأسرار وخفايا النفوس :

وقد حصل ذلك من رسول اللّه ﷺ مرات عدة حيث كان يخبر بعض الأفراد عما يختلج في صدورهم من خفايا ومكنونات لا يعلم بها إلاَّ اللّه ، كما كان يخبر بما يدور بين بعض الأفراد من أحاديث وأسرار ، كل هذا يؤكد ويقطع بنبوته ﷺ .

ومن الأخبار في ذلك :

١ ـ ما رواه أبو نعيم الأصبهاني عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش وكان ممن يؤذي رسول اللّه ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى أصحاب بدر ، قال : فذكرا أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان : واللّه ما في العيش خير بعدهم ، فقال له عمير : صدقت ، أما واللّه لولا دين علي ليس عندي قضاء له ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي قبلهم عذراً ان ابني أسير في أيديهم ، فاغتنمها صفوان بن أمية وقال : علي دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أمونهم ما بقوا ، لا يسعني شيء فاعجز عنهم ، قال عمير : اكتم علي شأني ، قال : افعل . قال : ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين في المسجد يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكر ما أكرمهم اللّه عز وجل به وما أراهم من عدوهم إذ نظر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف فقال : هذا الكلب عدو اللّه

---

(١) اعلام النبوة للماوردي ص ٩٦ ـ ٩٧ .

عمير بن وهب ما جاء إلَّا بشر وهو الذي حرش بيننا وحذرنا يوم بدر ، ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا نبي اللَّه هذا عدو اللَّه عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : فأدخله . قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه به ، وقال لرجال ممن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول اللَّه ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول اللَّه ﷺ فلما رآه رسول اللَّه ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال رسول اللَّه ﷺ : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا ثم قال : انعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم فقال رسول اللَّه ﷺ : قد أكرمنا اللَّه عز وجل بتحية الإسلام خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة ، قال : أما واللَّه يا محمد ان كنت لحديث عهد بها ، فقال : فما ذاك يا عمير ، قال : جئتك لهذا الأسير الذي في أيديكم فاحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبحها اللَّه من سيوف وهل أغنت شيئاً ، قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلَّا لذلك ، قال رسول اللَّه ﷺ : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني ، واللَّه حائل بيني وبين ذلك ، قال عمير : أشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وأنك رسول اللَّه ، قد كنا نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلَّا أنا وصفوان ، فواللَّه إني لأعلم أنه ما أتاك به إلَّا اللَّه ، فالحمد للَّه الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق ثم تشهد بشهادة الحق فقال رسول اللَّه ﷺ : فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن واطلقوا له أسيره قال : ففعلوا »[1] .

٢ - عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال للعباس : « يا عباس

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤١٣ - ٤١٥ .

افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن جحدم ، قال : فأبى وقال : إني قد كنت مسلماً قبل ذلك إنما استكرهوني ، قال : اللَّه أعلم بشأنك ان يك ما تدعيه حقاً فاللَّه يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك ، وكان رسول اللَّه ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية ذهب ، فقال : يا رسول اللَّه احسبها لي من فداي ، قال : لا ذاك شيء أعطاناه اللَّه منك ، قال : فإنه ليس لي مال ، قال : فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت عند أم الفضل ، وليس معكما أحد غيركما فقلت : إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا ولقثم كذا ولعبد اللَّه كذا ، قال : فوالذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيري وغيرها واني لأعلم أنك رسول اللَّه »[1] .

٣ - عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : «وكلني رسول اللَّه ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : واللَّه لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ ، قال : إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة قال : فخليت عنه فأصبحت ، فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة، قال : قلت : يا رسول اللَّه شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما انه قد كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول اللَّه ﷺ انه سيعود ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ ، قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله فأصبحت ، فقال لي رسول اللَّه ﷺ : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ؟ قلت : يا رسول اللَّه شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله ، قال : اما أنه قد كذبك وسيعود فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات انك تزعم لا تعود

(١) مسند أحمد ١/٣٥٣ .

ثم تعـود ، قال : دعني أعلمـك كلمات ينفعـك اللّه بها ، قلت : مـا هو؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ حتى تختم الآيـة فـإنـك لن يـزال عليـك من اللّه حـافظ ، ولا يقربـك شيطان حتى تصبـح ، وكانـوا أحـرص شيء على الخير فقال النبي ﷺ : انه قد صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخـاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا . قال : ذاك شيطان »[1] .

٥ - ومن ذلـك أيضاً مـا رواه البيهقي عن صهيب قـال : « قـال رسـول اللّه ﷺ : أريت دار هجـرتكم سبخـة بين ظهـراني حـرة ، فـأمـا أن تكـون هجر ، واما أن تكون يثرب ، قال : وخرج رسول اللّه ﷺ إلى المدينـة وخـرج معه أبـو بكر رضي اللّه عنـه وكنت قـد هممت بـالخـروج معـه فصدني فتيان من قريش فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد ، فقالـوا : قد شغله اللّه عنكم ببـطنه ولـم أكن شـاكياً ، فنـاموا فخرجت فلحقني منهم نـاس بعدمـا سرت بـريداً ليـردوني فقلت لهم : هـل لكم أن أعـطيكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي وتوثقون إلى اللّه ففعلوا فسقتهم إلى مكة فقلت : احفـروا تحت اسكفـة البـاب فـإن تحتهـا الأواقي واذهبـوا إلى فلانة فخذوا الحليتين وخرجت حتى قدمت رسول اللّه ﷺ في قبـاء قبل أن يتحول منها فلما رآني قال : يا أبا يحيـى ربح البيع ثـلاثاً ، فقلت : يا رسول اللّه ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلّا جبريل عليه السلام »[2] .

٦ - ومن ذلـك ما روى ابن هشـام قال : « لمـا انصرف رسـول اللّه ﷺ من غزوة بني المصطلق ومعـه جويـرية بنت الحـارث وكان بـذات جيش ، دفع جويرية إلى رجـل من الأنصار وديعـة وأمره بـالاحتفاظ بهـا ، وقدم رسـول اللّه ﷺ المدينـة ، فأقبـل أبوهـا الحـارث بن أبي ضـرار بفـداء

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الوكالة ، باب اذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل جـ ٣ ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء فرغب في بعيرين منها فغيبهما في شعب من شعاب العقيق ثم أتى إلى النبي ﷺ وقال : يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا ؟ فقال الحارث : أشهد أن لا إلّه إلَّا اللَّه وأنك محمد رسول اللَّه فواللَّه ما اطلع على ذلك إلَّا اللَّه ، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس من قومه »[1] .

٧ - عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن : ما معنا إلَّا الماء فقال رسول اللَّه ﷺ : « من يضم أو يضيف هذا ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا ، فانطلق به إلى امرأته ، فقال : أكرمي ضيف رسول اللَّه ﷺ ، فقالت : ما عندنا إلَّا قوت صبياني ، فقال : هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته ، فجعلا يريانه أنهما يأكلان ، فباتا طاويين ، فلما أصبح غدا إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : ضحك اللَّه الليلة أو عجب من فعالكما فأنزل اللَّه : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[2] .

رابعاً : إخباره بسوء خاتمة بعض الأفراد وأنهم من أهل النار وتحقق ذلك

أخبر ﷺ بسوء خاتمة بعض الأفراد الذين تخالف ظواهرهم بواطنهم ، فهم فيما يبدو للناس مسلمون يعملون من اجل نصرة الإسلام ولكن الحقيقة خلاف ذلك ، تماماً وهذا مما أطلع اللَّه سبحانه وتعالى رسوله عليه فأخبر

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار ، باب ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة جـ ٤ ص ٢٢٦ .

بسوء عاقبتهم وأنهم من أهل النار رغم الأعمال العظيمة التي عملوها ، ومن الأخبار الواردة في ذلك :

١ - عن سهل بن سعد الساعدي رضي اللّه عنه : « أن رسول اللّه ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا ، فلما مال رسول اللّه ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم ، وفي أصحاب رسول اللّه ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلّا اتبعها يضربها بسيفه ، فقيل : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان ، فقال رسول اللّه ﷺ : أما أنه من أهل النار ، فقال رجل من القوم : أنا صاحبه ، قال : فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه ، قال : فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذُبَابَهُ بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول اللّه ﷺ ، فقال : أشهد أنك رسول اللّه ، قال : وما ذاك ، قال : الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فقلت : أنا لكم به فخرجت في طلبه ، ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فقال رسول اللّه ﷺ عند ذلك : ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة »[١] .

٢ عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال :«شهدنا مع رسول اللّه ﷺ حنيناً فقال لرجل ممن يدعي بالإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة فقيل : يا رسول اللّه : الرجل الذي قلت له آنفاً أنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات ، فقال النبي ﷺ : إلى النار ، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب ، فبينما هم على ذلك إذ قيل : إنه لم يمت ، ولكن به جراحاً

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر جـ ٥ ص ٧٤ .

شديداً ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي ﷺ فقال : اللّه أكبر أشهد أني عبد اللّه ورسوله ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : أنه لا يدخل الجنة إلّا نفس مسلمة ، وأن اللّه يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »[1] .

٣ ـ عن أبي هريرة قال : «خرجنا مع رسول اللّه ﷺ يوم خيبر ، فلم نغنم ذهباً ولا فضة إلّا الأموال والثياب والمتاع فأهدى رجل يقال له رفاعة بن زيد لرسول اللّه ﷺ غلاماً يقال له مِدعَم ، فوجه رسول اللّه ﷺ إلى وادي القرى حتى إذا كان بوادي القرى بينما مدعم يحط رحلاً لرسول اللّه ﷺ إذا سهم عائر فقتله ، فقال الناس هنيئاً له الجنة ، فقال رسول اللّه ﷺ : كلا والذي نفسي بيده أن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً »[2] .

٤ ـ عن زيد بن خالد أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر ، فذكروا ذلك لرسول اللّه ﷺ فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال : « إن صاحبكم غل في سبيل اللّه ، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين »[3] .

٥ ـ عن رافع بن خديج رضي اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال لقوم من جلسائه : ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد ، قال أبو هريرة : فذهب القوم وبقيت أنا ورجل فقتل مرتداً يوم اليمامة[4] والرجل هو الرحال بن عفوة اسلم فلما ادعى مسيلمة النبوءة ارتد وشهد له بذلك .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب غلظ تحريم قتل الانسان نفسه جـ ١ ص ١٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الايمان والنذور ، باب هل يدخل في الايمان والنذور الأرض والغنم جـ ٧ ص ٢٣٥ ، صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب غلظ تحريم الغلول وانه لا يدخل الجنة الا المؤمنون جـ ١ ص ١٠٧ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب في تعظيم الغلول جـ ٣ ص ٦٨ ، موطأ مالك ، كتاب الجهاد ، باب ما جاء في الغلول جـ ٢ ص ٤٥٨ .

(٤) الشفا للقاضي عياض جـ ١ ص ٦٦٨ .

٦ - روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : « كان فينا رجل لا يدرى ممن هو ، يقال له قزمان ، وكان رسول اللّه ﷺ يقول إذا ذكر له انه لمن أهل النار ، قال : فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس ، فاثبتته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظفر ، قال : فجعل رجال من المسلمين يقولون له : واللّه لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر ، قال بماذا أبشر ، فواللّه إن قاتلت إلاَّ عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت ، قال : فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه »(١) .

خامساً : إخباره بحسن خاتمة بعض الأفراد وأنهم من أهل الجنة

١ - اخباره ﷺ أن أبا بكر وعمر وعثمان من أهل الجنة ، وان عمر وعثمان رضي اللّه عنهم أجمعين سيكرمهما اللّه بالشهادة في سبيله .

عن أنس رضي اللّه عنه قال : « صعد النبي ﷺ إلى أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله قال : اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان »(٢) .

وعن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه قال: «كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو أبو بكر فبشرته بما قال النبي ﷺ فحمد اللّه ، ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النبي ﷺ ، فحمد اللّه ، ثم استفتح رجل فقال لي : افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول اللّه ﷺ ، فحمد اللّه

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب مناقب عمر جـ ٤ ص ١٩٧ .

ثم قال : اللّه المستعان »[1] .

٢ ـ إخباره باستشهاد أم حرام .

عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : «كان رسول اللّه ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت ام حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول اللّه ﷺ فأطعمته وجعلت تَفْلي رأسه ، فنام رسول اللّه ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت : فقلت : وما يضحكك يا رسول اللّه ؟ قال : ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل اللّه يركبون ثبج البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة شك إسحاق قالت : فقلت : يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم فدعا لها رسول اللّه ﷺ ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك ، فقلت : وما يضحكك يا رسول اللّه ، قال : ناس من امتي عرضوا علي غزاة في سبيل اللّه ، كما قال في الأول، قالت: فقلت: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم قال : أنْت من الأولين ، فركبت البحر زمن معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت »[2] .

وهكذا فقد نالت الشهادة بعد أن ركبت البحر ، وتحقق خبر رسول اللّه ﷺ .

٣ ـ إخباره أن ثابت بن قيس من أهل الجنة :

عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: «يا رسول اللّه أنا أَعلَمُ لك عِلْمَهُ ، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب مناقب عمر جـ ٤ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عثمان جـ ٤ ص ١٨٦٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء جـ ٤ ص ٢٠١ ، صحيح مسلم ، كتاب الأمارة ، باب فضل الغزو في البحر جـ ٣ ص ١٥١٨ .

فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، فأتى الرجل فأخبره أنه قال كذا وكذا فقال موسى بن أنس فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : اذهب إليه فقل له انك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة »[1] .

وقد تحقق ذلك بأن استشهد في قتال المرتدين في معركة اليمامة .

٤ - إخباره استشهاد عامر بن الأكوع .

عن سلمة بن الأكوع قال : «خرجنا مع رسول اللّٰه ﷺ إلى خيبر فتسيرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تُسمعنا من هُنَيَّاتِكَ ؟ وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم ...... فقال رسول اللّٰه ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر . قال : يرحمه اللّٰه ، فقال رجل من القوم : وَجَبَت يا رسول اللّٰه ، لولا أمتعتنا به ، قال : فأتينا خيبر فحاصرناهم ..... قال : فلما تَصَافَّ القوم كان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق يهودي ليضربه ويرجع ذباب سيفه فأصاب ركبة عامر فمات منه ، قال : فلما قفلوا قال سلمة وهو آخذ بيدي ، قال : فلما رآني رسول اللّٰه ﷺ ساكتاً قال : ما لك ؟ قلت له : فداك أبي وأمي زعموا أن عامراً حبط عمله ، قال : من قاله ؟ قلت : فلان وفلان وأسيد بن حضير الأنصاري فقال : كذب من قاله ، ان له لأجران ، وجمع بين اصبعيه ، وانه لجاهد مجاهد ، قلَّ عربي مشى بها مثله »[2] .

٥ - إخباره باستشهاد علي رضي اللّٰه عنه :

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام جـ ٤ ص ١٨٠ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر جـ ٣ ص ١٤٢٧ ، قوله فتسيرنا : أي سرنا ، هنيانك : أراجيزك ، وجبت يا رسول الله لولا متعتنا به : أي ثبتت له الشهادة وستقع قريباً ، وكان هذا معلوماً عندهم أن من دعا له النبي ﷺ هذا الدعاء في هذا الموطن استشهد فقالوا هلا امتعتنا به : أي وددنا أنك لو أخرت الدعاء له لنتمتع بصحبته ، ان له لاجران : هكذا في معظم النسخ فهو صحيح ، لجاهد مجاهد : جاد في طاعة الله ، مجاهد في سبيله .

عن عمار بن ياسر رضي اللّه عنه قال : « كنت أنا وعلي رفيقين في غزوة ذات العشيرة ، فلما نزلها رسول اللّه ﷺ وأقام بها رأينا ناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل ، فقال لي علي : يا أبا اليقظان هل لك أن نأتي هؤلاء فننظر كيف يعملون ؟ فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة ، ثم غشينا النوم فانطلقت أنا وعلي فاضطجعنا في صور من النخل في دقعاء من التراب فنمنا ، فوالله ما أهبنا إلّا رسول اللّه ﷺ يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء فيومئذ قال رسول اللّه ﷺ لعلي : يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب ، قال : ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين ، قلنا : بلى يا رسول اللّه ، قال : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه ، يعني قرنه حتى تبل منه هذه يعني لحيته »[1] .

٦ ـ إخباره باستشهاد أم ورقة بنت عبد اللّه بن عويم الأنصاري :

روى البيهقي في السنن « أن رسول اللّه ﷺ كان يزورها ويسميها الشهيدة ، وكانت حين غزا رسول اللّه ﷺ بدراً قالت له : ائذن لي أن أخرج معكم ، أداوي جرحاكم لعل اللّه يهدي إلي الشهادة ، فقال لها رسول اللّه ﷺ : إن اللّه يهديك الشهادة وقري في بيتك فإنك شهيدة »[2] .

وكان النبي ﷺ قد أمر أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن فكانت تؤم أهل دارها حتى غمها غلام لها وجارية وقد كانت دبرتهما فقتلاها في خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فبلغ ذلك عمر فقام في الناس فقال : ان أم ورقة غمها غلامها وجاريتها فقتلاها وانهما هربا وأمر بطلبهما فأدركا فأتي بهما فصلبا فكانا أول مصلوبين في المدينة

---

(١) مسند أحمد ٤/٢٦٣ . والدقعاء من الأرض : التي لا نبات فيها ، القاموس المحيط جـ ٣ ص ٢٢ .

(٢) سنن البيهقي جـ ٣ ص ١٣ .

وقال عمر : صدق رسول اللّه ﷺ حين كان يقول : « انطلقوا بنا نزور الشهيدة »[1] .

سادساً : إخباره بظهور الإسلام وعزة المسلمين وإقبال الدنيا عليهم

وردت طائفة من الأخبار الصحيحة عنه ﷺ تتضمن البشارة بظهور الإسلام وقوة شوكته في الأرض ، وتدل على أن الأمة الإسلامية ستكون عزيزة مهيمنة قاهرة لأعدائها وتفيد أن أبواب المتع الدنيوية ستفتح عليهم ، وقد تحقق كل ما أخبر به ﷺ في آخر حياته ، وبعد وفاته في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم .

ومن الأخبار الواردة في ذلك :

١ - عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول اللّه ﷺ وهو متوسد بردة، له في ظل الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق ثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه ، واللّه ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ اللّه والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »[2] .

وما هي إلاّ سنوات قليلة حتى دانت جزيرة العرب بكاملها بالإسلام ، وانتشر فيها الأمن وحل فيها السلام والأمان ، واختفت الغارات وذهب السلب والنهب ، وصدق الرسول الكريم ، وتحقق قوله : « لا يخاف إلاّ اللّه والذئب على غنمه » .

---

(١) المعجزات المحمدية ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام جـ ٤ ص ١٨٠ .

٢ ـ عن ثوبان رضي اللّه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ان اللّه زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض »(١) .

المراد بالكنزين الأحمر والأبيض : الذهب والفضة ، وهما اشارة الى كنزي كسرى وقيصر ، وملك العراق والشام ، وقد ملك المسلمون كنوزهما ، وفتحوا العراق والشام في عهد أبي بكر وعمر ، وفي الحديث بشارة أخرى لم تقع بعد وهي ملك أمة محمد ﷺ لمشارق الأرض ومغاربها ، وهي لا بد حاصلة ان شاء الله يوم يعود المسلمون لربهم ويعملون بدينهم .

٣ ـ عن جابر رضي الله عنه قال : « لما تزوجت قال لي رسول الله ﷺ : اتَّخَذتَ أَنمَاطاً ؟ قلت : وَأَنَّى لنا أنماط ؟ قال : أما انها ستكون . قال جابر : وعند امرأتي نمط ، فأنا أقول نحيه عني ، وتقول : قد قال رسول الله ﷺ أنها ستكون»(٢) .

٤ ـ عن عبد الله بن حوالة قال : « كنت عند النبي ﷺ فشكونا اليه الفقر والعري وقلة الشيء فقال : أبشروا ، فوالله لأنا بكثرة الشيء أخوف عليكم من قلته ، ووالله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى تفتح لكم فارس والروم وأرض حمير حتى تكونوا أجناداً ثلاثة : جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن ، حتى يعطي الرجل المائة دينار فيستخطها فقال ابن حوالة : فقلت يا رسول الله ومن يستطيع الشام وبها الروم ذات القرون ؟ فقال والله ليستخلفنكم الله فيها حتى تكون العصابة منهم ، البيض قمصهم ، المحلقة أقفاؤهم ، قياماً على الرجل الأسود منكم

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض جـ ٤ ص ٢٢١٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب جواز اتخاذ الأنماط جـ ٣ ص ١٦٥٠ والأنماط : بفتح الهمزة جمع نمط بفتح النون والميم وهو ظهارة الفراش وقيل ظهر الفراش ، ويطلق أيضاً على بساط لطيف له خمل يجعل على الهودج وقد يجعل ستراً . شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٤ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

المحلوق ما يأمرهم فعلوا ، وان بها اليوم رجالاً لأنتم أحقـر في أعينهم من القـردان في أعجـاز الأبـل ، فقـال ابن حـوالـة : فـاختـر لي يـا رسـول الله ، قال : أختار لك الشـام فإنهـا صفـوة الله من بـلاده اليهـا يجتبي صفوته من عباده »[1] .

٥ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه قال : نـظر رسول الله ﷺ الى الجوع في وجوه أصحابه فقال : أبشروا فإنه سيأتي عليكم زمان يغـدى على أحـدكم بالقصعـة من الثـريـد ويـراح عليـه بمثلهـا ، قـالـوا : يـا رسـول الله نحن يـومئـذ خيـر ؟ قـال : « بـل أنتم اليـوم خيـر منكم يومئذ»[2] .

وقد تحقق هذا بعد أن فتح الله على المسلمين ودانت لهم الأمم .

٦ - وعن عبد الله بن يزيد الخطمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أنتم اليوم خير أم اذا غدت على أحدكم صفحـة وراحت أخرى وغـدا في حلة وراح في أخرى ، وتكسون بيـوتكم كما تكسى الكعبـة ، فقال رجل : نحن يومئذ خير قال : بل أنتم اليوم خير»[3]

وهذا اشارة الى تعدد وكثرة أنواع الطعـام والشراب ، وكثـرة الألبسة عند الرجل الواحد وفيه اشارة الى ما انتشر في عصرنا الحاضر من كساء للجدران ووضع الستائر عليها وصدق الرسول الكريم الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .

٧ - عن عدي بن حاتم قال : « بينا أنا عند النبي ﷺ اذ أتاه رجل فشكا اليه الفـاقـة ، ثم أتـاه آخـر فشكـا اليـه قـطع السبيـل . فقـال يـا عـدي : هـل رأيت الحيـرة قلت لم أرهـا وقـد أنبئت عنهـا ، قـال : فـإن

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤٧٨ .

(٢) اتحاف الجماعة ١ / ٢٨٥ ، رواه البزار باسناد جيد .

(٣) اتحاف الجماعة ١ / ٢٨٥ ، رواه الطبراني .

طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً الا الله ، قلت فيما بيني وبين نفسي دُعَّارُ طيىء الذين سعروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه .... قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ : يخرج ملء كفه »[1] .

وهكذا يجزم عدي بن حاتم رضي الله عنه بتحقق الخبر الأول والثاني مما أخبر به المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وأما ما أخبر به من اخراج الرجل ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً ، يجزم شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام البيهقي بتحقق هذا أيضاً في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز .

يقول ابن تيمية رحمه الله : « وهذا الذي أخبر به من اخراج الرجل ملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله ظهر كما أخبر في زمن عمر بن عبد العزيز »[2] .

وروى البيهقي عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أنه قال : إنما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهراً ، ألا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه منه فلا يجده قد أغنى عمر الناس»[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام جـ ٤ ص ١٧٦ .
(٢) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ١٣٤ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٢ .

سابعاً : اخباره بفتح الأمصار وزوال ملك كسرى وقيصر .

أخبر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بفتح العديد من الأمصار قبل أن تفتح ، كما أخبر بزوال ملك كسرى وقيصر ووراثة المسلمين لأرضهم وأموالهم ، ودخول كثير من الفرس في الاسلام ، وقد وقع جميع ما أخبر به على الوجه الذي أخبر .

ومن الأخبار الواردة في هذا :

١ - عن نافع بن عقبة قال : « قال رسول الله ﷺ : تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثم فارس فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله »(١) .

٢ - عن جابر بن سمرة قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : لتفتحن عصابة من المسلمين أو من المؤمنين كنز آل كسرى الذي في الأبيض »(٢) .

وقد فتح في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٣ - عن عبد الله بن حوالة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليفتحن لكم الشام والروم وفارس حتى يكون لأحدكم من الأبل كذا وكذا ، ومن البقر كذا وكذا ، ومن الغنم ، حتى يعطى أحدكم مائة دينار فيسخطها ثم وضع يده على رأسي أو هامتي فقال ابن حوالة اذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام ، والساعة يومئذ اقرب الى الناس من يدي هذه من رأسك »(٣) .

٤ - عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال : « اذا هلك قيصر فلا قيصر

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة جـ ٤ ص ٢٢٣٧ .

(٢) مسند أحمد جـ ٥ ص ٢٨٨ . وقوله الذي في الأبيض : أي الذي في قصره الأبيض .

(٣) صحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ جـ ٧ ص ٢١٨ .

بعده ، واذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله »[1] .

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كنا عند رسول الله ﷺ حين أنزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ ﴿وَآخَرِيْنَ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِم﴾ قال له رجل يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه ، قال : وسلمان الفارسي فينا ، قال : فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان فقال : والذي نفسي بيده لو كان الأيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء »[2] قال الترمذي حديث حسن .

وقد تحقق ما أخبر به ﷺ بأن فتح الله على أيدي المسلمين فارس وانتشرت في ربوعها دعوة الحق ودخل الكثير من أبنائها في الاسلام وكان منهم العلماء الأجلاء .

يقول الإمام ابن تيمية : « وكان كما أخبر فإنه حصل في التابعين وتابعيهم وهلم جرا من أبناء فارس مثل الحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد بن جبر وأضعاف هؤلاء ممن نالوا ذلك »[3] .

٦ ـ عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستفتح أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه »[4] .

وقد فتح الله على المسلمين جزيرة العرب والشام والعراق وغيرها من الأمصار ، وفاض المال واستغنى الناس .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه جـ ٤ ص ٢٢٣٧ .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب فضل العجم جـ ٥ ص ٧٢٥ .

(٣) الجواب الصحيح جـ ١ ص ١٤١ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب فضل الرمي والحث عليه جـ ٣ ص ١٥٢٢ ، وقوله : « فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » المراد به التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك .

٧ - عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه أنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : تفتح اليمن فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وتفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »(١) .

٨ - عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « انكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً أو قال ذمة وصهراً ، فإذا رأيت رجلين يختصمان بها في موضع لبنة فاخرج منها» . قال : فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة فخرجت منها »(٢) .

وقد تحقق ما أخبر به ﷺ ، وصدق الله رسوله ، ففتح المسلمون الشام والعراق ومصر وفارس ودانت شعوبها بالاسلام وأنفقت كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله .

ثامناً : اخباره بفساد أحوال المسلمين من بعده :

أخبر الرسول الكريم بما سيكون عليه حال المسلمين من الفساد والانحراف والاعراض عن أحكام الله عز وجل واتباع الهوى وحب الدنيا وتكالبهم عليها ، وتقليد اليهود والنصارى في عاداتهم وأساليب حياتهم مما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل المدينة ، باب من رغب عن المدينة جـ ٢ ص ٢٢٢ ، وقوله : يبسون : أي يسوقون دوابهم الى المدينة سوقاً ليناً .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب وصية النبي بأهل مصر جـ ٤ ص ١٩٧٠ ، والقيراط : جزء من أجزاء الدينار والدرهم ، والذمة : الحرمة والحق ، ورحماً : الرحم لكون هاجر أم اسماعيل منهم، وصهراً : الصهر لكون مارية أم ابراهيم منهم

يستوجب غضب الله تعالى عليهم بأن ينزع من قلوب أعدائهم المهابة منهم ويسلطهم عليهم .

ونظرة سريعة الى واقع المسلمين في العصر الحاضر يتبين لنا مدى مصداقية أخبار رسول الله ﷺ ومطابقتها لواقعهم ، لقد استشرى الفساد في جسم الأمة الاسلامية في شتى مجالات الحياة واستبيح كثير من المحرمات ، وانقلبت الموازين والقيم ، وأقبلوا على الدنيا بقلوبهم وعقولهم يتنافسونها ، وسلط عليهم شرارهم وتداعت عليهم أمم الشرق والغرب وصدق رسول الله ﷺ بكل ما أخبر به ، انه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .

ومن هذه الأخبار :

١ - عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »(١) .

ما أصدق هذا الخبر على واقعنا المعاصر ، حيث تكالبت قوى الشرق والغرب على الأمة الاسلامية رغم الكثرة الكاثرة ، فالمسلمون اليوم يعدون بمئات الملايين ولكنهم غثاء لا وزن لهم ولا اعتبار وذلك لاعراضهم عن الله وحبهم للدنيا وتكالبهم عليها وقعودهم عن الجهاد في سبيل الله .

٢ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب في تداعي الأمم على الاسلام جـ ٤ ص ١١١ .

لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن »[1] .

وتقليد الأمة الاسلامية لغيرها من الأمم بلاء عم في زمننا هذا ، فالمسلمون اليوم تغلغل في نفوسهم التقليد الأعمى لأعدائهم ، حتى ولو كان على حساب دينهم وعقيدتهم ، وان كل ما يصدر عن هؤلاء الأعداء يقف من يتسمون بالمسلمين اليوم حياله مبهورين مشدوهين لضعف الأيمان في النفوس واصابتها بداء حب التقليد الناجم عن الشعور بالنقص ، وبهذا يظهر لنا مدى صدق خبر رسول الله ﷺ وانطباقه على الواقع الحالي .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[2] .

وقد رأينا هذين الصنفين بأعيننا في الوقت الحاضر ، فقد سمعنا الكثير من ظلم الحكام الذين يأمرون أتباعهم فيلهبون ظهور الناس بسياطهم ظلماً وعدواناً ، ورأينا الكاسيات العاريات اللاتي ينتسبن للاسلام بالاسم .

٤ - عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران لا أدري أذكر

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني اسرائيل جـ ٤ ص ١٤٤ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات جـ ٣ ص ١٦٨٠ ، وقوله « كاسيات عاريات » أي تستر بعض بدنها وتكشف بعضه اظهاراً لجمالها ، وقيل : تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنها ، مائلات : يمشين متبخترات أو يمشين المشية المائلة وهي مشية البغايا ، مميلات : يعلمن غيرهن الميل أو مميلات لأكتافهن ، كأسنمة البخت ، البخت : هي الأبل الخراسانية ، والمعنى رؤوسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة .

النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة ، قال النبي ﷺ : « ان بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون وينذرون ولا يفون ويظهر فيهم السمن »[1] .

وهكذا وبعد القرون الثلاثة المفضلة ، ظهرت الخيانة وارتفعت الأمانة ، وأقدم الناس على شهادة الزور وظهر عدم الوفاء بالنذر ، وظهرت السمنة لانفتاح الدنيا على الناس وكثرة وتعدد أنواع الأطعمة والأشربة .

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « سيأتي على الناس سنون يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن وينطق فيها الرويبضة . قال : قيل يا رسول الله وما الرويبضة ؟ قال : السفيه يتكلم في أمر العامة »[2] .

٦ ـ عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم لا يدركني زمان ولا تدركوا زماناً لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا فيه من الحليم قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب »[3] .

٧ ـ عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لينقضنَّ عرا الاسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها أولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة »[4] .

وقد وقع ما أخبر به ﷺ ، فالحكم في زماننا بغير ما أنزل الله ، واستبدلت بكتاب الله الدساتير والقوانين الوضعية .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة جور اذا أشهد جـ ٣ ص ١٥١ .

(٢) المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم ، جـ ٤ ص ٥١٢ ، قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٣) مسند أحمد جـ ٥ ص ٣٤٠ .

(٤) مسند أحمد جـ ٥ ص ٢٥١ .

٨ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان أول ما يكفأ قال زيد يعني الاسلام كما يكفأ الانـاء يعني الخمر ، فقيل : كيف يا رسول الله وقد بين الله فيها ما بين ؟ قال رسول الله ﷺ : يسمونها بغير اسمها فيستحلونها »(١) .

صدقت يا رسول الله ، فقد سموها بالمشروبات الروحية وشربوها واستحلوا ما حرم الله تعالى .

٩ - عن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب فيها طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها »(٢) .

١٠ - عن أبي عامر الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول : « ليكوننَّ من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف »(٣) .

وقد ظهر جميع ما أخبر به ﷺ في هذه الأحاديث ، فقد استباح بعض من ينتسبون للاسلام الخمور والزنا والمعازف وكثيراً مما حرم الله جرياً وراء شهواتهم ونزواتهم .

١١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ليأتِيَنَّ على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن حلال أم حرام »(٤) .

---

(١) سنن الدارمي ، كتاب الأشربة ، باب ما قيل في المسكر جـ ٢ ص ٣٩ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الأشربة ، باب الخمر يسمونها بغير اسمها جـ ٢ ص ١١٢٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه جـ ٦ ص ٢٤٣ .

وهذا الحديث من تعليقات البخاري وقد وصله الطبراني والبيهقي وابن عساكر وغيرهم . انظر فتح الباري جـ ١٠ ص ٥٣ .

والحر : الفرج والمعنى يستحلون الزنا ، المعازف : آلات اللهو .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا جـ ٣ ص ١١ .

١٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يأتي على الناس زمانٍ يأكلون الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره »(١) .

وقد ظهر ما أخبر به ﷺ في الحديثين السابقين ، فقد أكب الناس على تحصيل المال بشتى الطرق لا يبالون هل هي طريق حرام أو حلال ، والربا فقد عم أمره وانتشر بلاؤه فتعامل به أكثر الناس ، وقد أقيمت المصارف في زماننا هذا على أساس ربوي ، وقل من الناس من سلم من أكل الربا ، ومن لم يتعامل به فقد أصابه غباره .

١٣ ـ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت : يا رسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر . قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة الى أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها ، قلت : يا رسول الله صفهم لنا ، فقال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، قلت : فما تأمرني ان أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وامامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا امام ؟ قال : فاعتزل الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »(٢) .

ذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث ما تكون عليه أمته من حال بعده ، وما يتعاقبهم من خير وشر ، وقد جاء الأمر كما ذكر ﷺ . يقول القاضي عياض : « المراد بالشر الأول الفتن التي وقعت بعد عثمان ،

---

(١) سنن النسائي ، كتاب البيوع ، باب اجتناب الشبهات في الكسب جـ ٧ ص ٢٤٣ ، سنن ابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب التغليظ في الربا جـ ٢ ص ٧٦٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام جـ ٤ ص ١٧٨ صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند الفتن جـ ٣ ص ١٤٧٥ .

والمراد بالخير الذي بعده ما وقع في خلافة عمر بن عبد العزيز ، والمراد بالذين تعرف منهم وتنكر الأمراء بعده فكان فيهم من يتمسك بالسنة والعدل وفيهم من يدعو الى البدعة ويعمل بالجور»[1] .

وما أكثر الدعاة الى أبواب جهنم في أيامنا هذه ، الذين يدعون الى الشر والذين يزينون المعصية في أعين الناس كدعاة الحكم بغير ما أنزل الله ودعاة التغريب والقومية والعلمانية ، ودعاة السفور والتحلل وغير هؤلاء ممن يتهافتون الى النار تهافت الفراش .

١٦ ـ عن عبد الله بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها ، قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم»[2] .

١٧ ـ عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : « قال رسول الله ﷺ يوشك ان طالت بك مدة أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله »[3] .

١٨ ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سيلي أموركم بعدي رجال يطفئون السنة ويعملون بالبدعة ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، فقلت يا رسول الله ان أدركتهم كيف أفعل ؟ قال : تسألني يا ابن أم عبد كيف تفعل ؟ لا طاعة لمن عصى الله»[4] .

---

(١) نقلاً عن فتح الباري جـ ١٣ ص ٣٦ . والمراد بالدخن : أن لا تصفو القلوب بعضها لبعض ولا يزول خبثها ، ولا ترجع الى ما كانت عليه من الصفا . شرح النووي على مسلم جـ ١٢ ص ٢٣٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب سترون بعدي اموراً تنكرونها جـ ٨ ص ٨٧ ، والأثرة : الاختصاص بحظ دنيوي ، واموراً تنكرونها : يعني من أمور الدين . فتح الباري جـ ١٣ ص ٦ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء جـ ٤ ص ٢١٩٣ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب لا طاعة في معصية جـ ٢ ص ٩٥٦ ، مسند أحمد جـ ١ ص ٤٠٠ .

١٩ ـ عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أخاف على امتي الأئمة المضلين »[١] .

٢٠ ـ عن حذيفة بن اليمان قال قال ﷺ : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس »[٢] .

وقد تحقق جميع ما أخبر به ﷺ في هذه الأخبار حيث ظهر الأمراء الظلمة ، المعتدون على حقوق الله وحقوق العباد ، العاملون بغير كتاب الله وبغير سنة نبيه ، المقربون لشرار الناس وبطانة السوء ، المتبعون للبدع ، المبتعدون عن السنن ، الذين لا يعرفون الصلاة ولا يبالون بها .

تاسعاً : اخباره بجملة من علامات الساعة التي تحقق حدوثها .

وردت طائفة من الأحاديث عن رسول الله ﷺ تتضمن اخباره بعلامات الساعة رحمة منه بأمته ليستعدوا لها ويتزودوا بالعمل الصالح ويسارعوا بالتوبة قبل وقوعها ، وتنقسم علامات الساعة الى علامات كبرى وعلامات صغرى ، وقد تحقق معظم العلامات الصغرى .

ومن الأحاديث الواردة في علامات الساعة التي وقعت :

١ ـ عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنْ رسول اللّه ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول اللّه ، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ،

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الأئمة المضلين جـ ٤ ص ٥٠٤ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن جـ ٣ ص ١٤٧٦ .

وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه وحتى تطلع الشمس من مغربها »[١] .

أخبر الرسول ﷺ في هذا الحديث عن إحدى عشرة علامة من أشراط الساعة وهي كما يقول ابن حجر على ثلاثة أقسام : « أحدها ما وقع على وفق ما قال ، والثاني ما وقعت مباديه ولم يستحكم والثالث ما لم يقع منه شيء ولكنه سيقع ...... والمذكور منه (الأول) هنا اقتتال الفئتين العظيمتين وظهور الفتن وكثرة الهرج وتطاول الناس في البنيان وتمني بعض الناس الموت ، ومن النمط الثاني تقارب الزمان وكثرة الزلازل وخروج الدجالين الكذابين »[٢] .

والفئتان العظيمتان : المراد بهما علي ومن معه ومعاوية ومن معه . وكان سبب القتال بينهما على ما يذكر ابن حجر نقلاً عن يحيى بن سعيد الجعفي أحد شيوخ البخاري في « كتاب صفين » في تأليفه بسند جيد عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية : أنت تنازع علياً في الخلافة أو أنت مثله ؟ قال : لا ، واني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر ، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه ؟ فأتوا علياً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان ، فأتوه فكلموه فقال : يدخل في البيعة ويحاكمهم إليَّ ، فامتنع معاوية ، فسار علي في الجيوش من العراق حتى نزل بصفين وسار معاوية حتى نزل هناك وذلك في ذي الحجة سنة ست وثلاثين فتراسلوا فلم يتم لهم أمر ، فوقع القتال إلى أن قتل من الفريقين فيما ذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه نحو سبعين ألفاً ، وقيل كانوا أكثر من ذلك ،

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ٢٥ ، جـ ٨ ص ١٠١ .
(٢) فتح الباري جـ ١٣ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

ويقال كان بينهم أكثر من سبعين زحفاً[1] .

ويقول النووي في شرحه لقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان » : « هذا من المعجزات وقد جرى هذا في العصر الأول »[2] .

وتصديقاً لحديث رسول اللّه فقد ظهر دجالون كذابون ادعوا النبوة أمثال مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي وسجاح بنت الحارث وغلام أحمد القادياني وغيرهم ، وكثرت الزلازل ، وظهرت الفتن وانتشرت وكثرت أنواعها وألوانها ، واستحر القتل في الناس قديماً وحديثاً ونزعت البركة من الوقت حتى أصبحت السنة شهراً والشهر اسبوعاً والأسبوع يوماً ، واليوم ساعة ، وتطاول الناس في البنيان ، وأكثروا منه وتباهوا فيه ، ورفعوا جدرانه وفاض المال بين أيدي الناس من زمن الصحابة عندما فتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر وتحقق في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز أن الرجل كان يخرج صدقته فلا يجد من يأخذها . ولعظم البلاء وشدة الفتن ، فقد غُبطَ أهلُ القبور وتمنى أهل الخير الموت خوف ذهاب الدين .

٢ - عن عوف بن مالك رضي اللّه عنه قال : « أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أَدَم فقال : أعدد ستاً بين يدي الساعة ، موتي ثم فتح بيت المقدس ثم مُوتانٌ يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلَّا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فَيَغدِرُون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً »[3] .

---

(١) فتح الباري جـ ١٣ ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) شرح النووي على مسلم جـ ١٨ ص ١٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجزية ، باب ما يحذر من الغدر ، جـ ٤ ص ٦٨ ، والأدم : الجلد ، والموتان : الموت الكثير الوقوع ، كقعاص الغنم : داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة . فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٨ .

وقد تحقق بعض هذه العلامات التي ذكرت في الحديث منها موت رسول الله ﷺ وفتح بيت المقدس حيث دخله المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم الموت الكثير الذي حدث في طاعون عمواس في خلافة عمر وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس . ثم كثرة المال بعد الفتوحات الكثيرة ، وأما الفتنة فهي إشارة إلى ما حدث في عهد عثمان وبين علي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين .

وأما قصة الروم فلم تجتمع إلى الآن كما يقول ابن حجر رحمه الله ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد فهي من الأمور التي لم تقع بعد[1] ولا وقعت بعد ابن حجر إلى الآن والله أعلم ، ولكن لا بد أن تكون لخبر رسول الله ﷺ .

٣ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل قال للنبي : « متى تقوم الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن اماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان »[2] .

«وقد ظهرت هاتان العلامتان أولهما بعد الفتوحات الكثيرة ، قال الأكثرون من العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن ، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها لأن مال الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين »[3] .

وثانيهما ظهرت في زماننا حيث ترك سكان البادية مواطنهم وأقبلوا على سكنى المدن ، وبناء البيوت الكبيرة ، المرتفعة ، ذوات الأدوار المتعددة ، وقد حصل التفاخر بينهم ، وهم في الأصل الفقراء الحفاة

---

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٨ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب الأيمان والاسلام والاحسان جـ ١ ص ٤٠ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ، جـ ١ ص ١٥٨ .

العراة رعاة الغنم كما وصفهم رسول اللّٰه ﷺ .

٤ - عن حذيفة بن اليمان أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا امامكم وتجتلدوا بأسيافكم ويرث دنياكم شراركم »(١) .

وقد حدث هذا فقتل من الخلفاء عمر وعثمان وعلي رضي اللّٰه عنهم ، واقتتل المسلمون ورفعوا السيوف بعضهم في وجوه بعض ، وتسلط شرار الناس على المال والحكم .

٥ - عن أبي موسى الأشعري رضي اللّٰه عنه قال : « قال رسول اللّٰه ﷺ : ان بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، فَكَسِّرُوا قِسِيَّكُم ، وَقَطِّعُوا أوتاركم واضربوا بسيوفكم الحجارة ، فإن دخل علي أحدكم فليكن كخير ابني آدم »(٢) .

وقد حدث ما أخبر به ﷺ بعد مقتل عثمان رضي اللّٰه عنه .

٦ - عن ثوبان قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان ، وانه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر اللّٰه »(٣) .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جـ ٤ ص ٤٦٨ ، وقال الترمذي حديث حسن ، سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب اشراط الساعة جـ ٢ ص ١٣٤٢ ، قوله تجتلدوا : تضاربوا .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الفتن والملاحم ، باب في النهي عن السعي في الفتنة جـ ٤ ص ١٠٠ ، سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب التثبت في الفتنة جـ ٢ ص ١٣١٠ .

(٣) سنن ابي داود ، كتاب الفتن ، باب ذكر الفتن ودلائلها ، جـ ٤ ص ٩٨ .

وقد حدث هذا بعد موت النبي ﷺ مباشرة حيث ارتدت بعض قبائل العرب عن الإسلام وظهر كثير من المتنبئين الكذابين .

٧ - عن أنس رضي اللَّه عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد »[١] .

٨ - عن أبي وائل قال : كنت جالساً مع عبد اللَّه وأبي موسى فقالا : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن بين يدي الساعة أياماً يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويكثر فيها الهرَج ، والهرج القتل »[٢] .

وقد ظهر مصداق هذه الأخبار بأن قل العلم وذلك بكثرة موت العلماء لأن ذهاب العلم لا يكون إلَّا بموت العلماء ، أشار إلى ذلك رسول اللَّه ﷺ بقوله : « إن اللَّه لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[٣] .

وظهر الزنا ، وكثر الهرج إلى غير ذلك مما ذكر من الامارات في هذين الحديثين .

٩ - عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الكذب »[٤] .

١٠ - عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا اتخذ الفيء دولاً ، والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته ، وعق أمه ، وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات في

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل جـ ١ ص ٢٨ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه ، جـ ٤ ص ٢٠٥٦ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه ، جـ ٤ ص ٢٠٥٨ .
(٤) مسند أحمد جـ ٢ ص ٥١٩ .

المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف ، وشربت الخمور ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وفسقاً ومسخاً وقذفاً ، وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع »[1] .

وقد ظهرت هذه الامارات جميعاً في زماننا هذا ، ونسأل اللّه العفو والعافية .

١١ ـ عن طارق بن شهاب قال : « كنا عند عبد اللّه جلوساً فجاء رجل فقال : قد أقيمت الصلاة فقام وقمنا معه ، فلما دخلنا المسجد رأينا الناس ركوعاً في مقدم المسجد فكبر وركع وركعنا ، ثم مشينا وصنعنا مثل الذي صنع فمر رجل يسرع فقال : عليك السلام يا أبا عبد الرحمن فقال : صدق اللّه ورسوله ، فلما صلينا ورجعنا دخل إلى أهله ، جلسنا فقال بعضنا لبعض : أما سمعتم رده على الرجل صدق اللّه وبلغت رُسُله ، أيكم يسأله ، فقال طارق : أنا أسأله فسأله حين خرج فذكر عن النبي ﷺ : أن بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق وظهور القلم »[2] .

١٢ ـ عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع »[3] .

وقد ظهر هذا في زماننا ، إذ أصبح أسعد الناس اللئام الماكرين منهم .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ، جـ ٤ ص ٤٩٥

(٢) مسند أحمد ٤٠٨/١ ، والحديث رواه أحمد والحاكم والبزار ، وقال الحاكم صحيح وأقره الذهبي ، انظر الفتح الرباني جـ ٢٤ ص ٣٠ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ٣٧ جـ ٤ ص ٤٩٣ . وقال الترمذي حديث حسن غريب .

١٣ ـ عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه اعرابي فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول اللَّه ﷺ يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه قال : أين أراه السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول اللَّه ، قال : فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[١] .

١٤ ـ عن أنس رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال : « من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد »[٢] .

وقد تفاخر الناس في بناء المساجد وتباهوا في بنائها وزخرفتها .

١٥ ـ وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يبني الناس بيوتا يوشونها وشي المراحيل »[٣] .

١٦ ـ وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى »[٤] .

وقد حدث هذا في القرن السابع ، يقول الإمام ابن تيمية رحمه اللَّه : « وقد ظهرت هذه النار سنة بضع وخمسين وستمائة ورأوها الناس ورأوا أعناق الإبل قد أضاءت ببصرى وكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم »[٥] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه ، جـ ١ ص ٢١ .

(٢) سنن النسائي ، كتاب المساجد ، باب المباهاة في المساجد جـ ٢ ص ٣٢ .

(٣) رواه الامام البخاري في الأدب المفرد واسناده حسن ، انظر اتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة جـ ١ ص ٤٧٣ ، والمراحيل الثياب المخططة ، وهو اشارة الى طلائها بالألوان المختلفة وهو كائن في زماننا هذا .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار ، جـ ٨ ص ١٠٠ .

(٥) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ١٣٦ .

وبعد فهذه طائفة من أخبار رسول الله ﷺ بعلامات الساعة ، تدل على صدقه ﷺ ، وعلى أنه مبلغ عن الله إذ جرى كثير من الوقائع على وفق ما أخبر ، ولا تزال الأيام تصدق أخباره ، وما لم يقع منها فلا بد كائن على الصفة التي أخبر بها ﷺ ، وشاهدنا على صدقه هو مما وقع ، فصلوات الله وسلامه عليك أيها الصادق المصدوق .

وما تحقق من العلامات يسميه العلماء بالعلامات الصغرى ، وما لم يقع بعد فهي العلامات الكبرى .

عاشراً : إخباره بطائفة من الغيوب المتفرقة

ومن هذه الغيوب التي أخبر بها رسول الله ﷺ :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة ، فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف ، والله يغفر له ضعفه ، ثم استحالت غَرْبَاً ، فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بِعَطَن »(١) .

وهذا إشارة إلى قصر مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه وكانت سنتين وثلاثة أشهر أما خلافة عمر رضي الله عنه فكانت طويلة المدة ، كثيرة النفع والخير للمسلمين ، قال البيضاوي : « أشار بالبئر إلى الدين الذي هو منبع ، ماؤه حياة النفوس وتمام أمر المعاش والمعاد ، والنزع منه إخراج الماء وفيه إشارة إلى إشاعة أمره وإجراء أحكامه ، وقوله : « يغفر الله له » إشارة إلى أن ضعفه - المراد به الرفق - غير قادح فيه ،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب قول النبي لو كنت متخذاً خليلاً جـ ٤ ص ١٩٢ ، والذنوب : الدلو الكبيرة ، وغربا : دلوا عظيماً ، وعطن : مناخ الابل اذا شربت ثم صدرت . فتح الباري جـ ٧ ص ٣٨ - ٣٩ .

أو المراد بالضعف ما وقع في أيامه من أمر الردة واختلاف الكلمة إلى أن اجتمع ذلك في آخر أيامه ، وتكمل في زمان عمر وإليه الإشارة بالقوة »[1] .

٢ - إخباره بما سيكون بعده من الخلافة ثم الملك العضوض ثم الملك الجبري .

عن حذيفة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء اللَّه أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء اللَّه أن تكون ثم يرفعها إذا شاء اللَّه أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء اللَّه أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت »[2] .

وقد كان الأمر كذلك من بعده ﷺ كما أخبر ، فكان الأمر من بعده خلافة ، ثم أصبح ملكاً عضوضاً ، وفي زماننا هذا أصبح ملكاً جبرياً ، ولا بد من الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ، ونسأل اللَّه أن يكون ذلك قريباً .

٣ - إخباره بمدة الخلافة من بعده .

عن سعيد بن جُهمان عن سَفِينة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك ، ثم قال لي سفينة : أمسك خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان ، ثم قال : أمسك خلافة علي ، قال : فوجدناها ثلاثين سنة ، قال سعيد : فقلت له : ان بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم ، قال :

---

(١) فتح الباري جـ ٧ ص ١٩ .

(٢) مسند أحمد جـ ٤ ص ٢٧٣ .

كذبوا بنو الزرقاء بل هم ملوك من شر الملوك »[1] . قال الترمذي : حديث حسن .

قال ابن كثير رحمه اللّه تعالى : « كانت خلافة أبي بكر رضي اللّه سنتين وأربعة أشهر إلاَّ عشر ليال وكانت خلافة عمر رضي اللّه عنه عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وخلافة عثمان رضي اللّه عنه اثني عشر سنة إلاَّ اثني عشر يوماً ، وكانت خلافة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه خمس سنين إلاَّ شهرين ، قال : وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي رضي اللّه عنهما نحواً من ستة أشهر حتى نزل عنها لمعاوية رضي اللّه عنه عام أربعين من الهجرة »[2] .

٤ - إخباره بأن أول أهله لحوقاً به بعد موته ابنته فاطمة رضي اللّه عنها .

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيها مشي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « مرحباً يا ابنتي ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم أسر إليها حديثاً فبكت ، فقلت لها : لم تبكين ، ثم أسر إليها حديثاً فضحكت ، فقلت : ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن . فسألتها عما قال فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول اللّه ﷺ حتى قبض النبي ﷺ فسألتها فقالت : أسر إلي أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلاَّ حضر أجلي ، وانك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت فقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين فضحكت لذلك»[3] .

قال ابن حجر رحمه اللّه : « وفي الحديث إخباره ﷺ بما سيقع فوقع كما قال ، فإنهم اتفقوا على أن فاطمة عليها السلام كانت أول من مات من أهل بيت النبي ﷺ حتى من أزواجه »[4] .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الخلافة جـ ٤ ص ٥٠٣ .

(٢) نقلاً عن اتحاف الجماعة جـ ١ ص ١٦٢ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام جـ ٤ ص ١٨٣ .

(٤) فتح الباري جـ ٨ ص ١٣٦ .

وقال الإمام النووي : « هذه معجزة ظاهرة له ﷺ بل معجزتان فأخبر ببقائها بعده وبأنها أول أهله لحاقاً به ووقع كذلك وضحكت سروراً بسرعة لحاقها »[1] .

٥ - إخباره بأن أكثر زوجاته صدقة أسرعهن لحاقاً به .

عن عائشة أم المؤمنين قالت: «قال رسول اللّه ﷺ أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً » . قالت : فكن يتطاولن أيتهن أطول يداً . قالت : فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق »[2] .

وقد ظنت نساء الرسول ﷺ أن المراد بطول اليد ، طول اليد الحقيقية ، فكن يذرعن أنفسهن بقصبة ، فكانت سودة أطولهن يداً ، وكانت زينب أكثرهن صدقة وفعلاً للخير ، فماتت زينب أولاً فعلموا أن المراد طول اليد في الصدقة والجود ، وكانت وفاتها رضي اللّه عنها في السنة العشرين من الهجرة في خلافة عمر رضي اللّه عنه .

٦ - إخباره بالإصلاح بين الفئتين العظيمتين على يد الحسن رضي اللّه عنه .

عن سفيان عن أبي موسى قال : سمعت الحسن يقول: « استقبل واللّه الحسن بن علي معاوية بِكتائِبَ أمثالِ الجبال . فقال عمرو بن العاص : إني لأَرَىٰ كَتَائِبَ لا تَـوَلَّىٰ حَتى تَقتُلَ أقرانها ، فقال له معاوية ، وكان خير الرجلين : أي عمرو ان قتل هؤلاء هؤلاء ، وهؤلاء هؤلاء ، من لي بأمور الناس ؟ من لي بنسائهم ؟ من لي بِضَيعَتِهِم ؟ فبعث (معاوية) إليه (الحسن) برجلين من قريش ، من بني عبد شمس ، عبد الرحمن بنَ سَمُرَةَ وعبدَ اللّهِ بنَ عامر بن كُرَيز ، فقال : اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه . فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا إليه . فقال لهما الحسن بن علي : أنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال وان هذه الأمة قد عاثت في

(١) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٦ ص ٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل زينب جـ ٤ ص ١٩٠٧ .

دمائها ، قالا : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ويطلبُ إليك ويسألك قال : فمن لي بهذا ؟ قالا : نحن لك به فما سألهما شيئاً إلَّا قالا نحن لك به ، فصالحه ، فقال الحسن : لقد سمعت أبا بكرة يقول : رأيت رسول اللّه ﷺ على المنبر والحسن بن علي على جنبه ، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول : ان ابني هذا سيد ولعل اللّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[1] .

فوقع ما أخبر به ﷺ فأصلح اللّه به بين أهل الشام وأهل العراق عندما تنازل عن الخلافة وبايع معاوية رضي اللّه عنهما رغبة منه في اجتماع الكلمة والتئام الشمل وحقن الدماء .

يقول الإمام ابن تيمية : قلت : فوقع هذا كما أخبر به بعد موت الرسول ﷺ بنحو ثلاثين سنة وهو سنة أربعين من الهجرة لما أصلح اللّه بالحسن بين الفئتين العظيمتين اللتين كانتا متحاربتين صف عسكر علي وصف عسكر معاوية »[2] .

٧ ـ اخباره بمقتل الحسين بن علي رضي الله عنه .

روى أبو نعيم في الدلائل عن أنس بن الحارث قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان ابني هذا يقتل بأرض العراق فمن أدركه منكم فلينصره » . قال فقتل أنس مع الحسين رضي الله عنهما »[3] . فوقع الأمر كما أخبر به ﷺ .

٨ ـ اخباره بمقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه من قبل الفئة الباغية .

عن عكرمة رضي الله عنه قال : « قال لي ابن عباس ولابنه علي انطلقا الى أبي سعيد فاسمعا من حديثه فانطلقنا فإذا هو في حائط

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصلح ، باب قول النبي للحسن بن علي ابني هذا سيد جـ ٣ ص ١٦٩ .

(٢) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ١٣٦ .

(٣) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٤٨٦ .

يصلي فأخذ رداءه فاحتبى ، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد فقال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار . قال : يقول عمار : أعوذ بالله من الفتن »[١] .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب : « وتواترت الأخبار عن النبي أنه قال يقتل عماراً الفئة الباغية وهو من أصح الأحاديث فقتل عمار في جيش علي ، وقتلته الفئة الباغية على علي رضي الله عنه وهي فئة معاوية فكان كما أخبر رسول الله ﷺ »[٢] .

٩ ـ اخباره بشفاء سعد وانتفاع أناس به وتضرر آخرين .

عن عامر بن سعد عن أبيه قال : عادني النبي ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت فقلت : يا رسول الله بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثني الا ابنة لي واحدة ، فأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا . قلت : أتصدق بشطره ؟ قال : لا . قلت فالثلث ؟ قال : الثلث ، والثلث كثير انك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا أجرت بها حتى اللقمة تجعلها في امرأتك . قلت : يا رسول الله أأخلف بعد أصحابي ، قال : انك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله الا ازددت به درجة ورفعة ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون ، اللهم امض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم »[٣] .

أخبر الرسول الكريم في هذا الحديث بأن سعداً لن يموت بمكة ولا في مرضه ذلك الذي اشتكى ، وأخبر أيضاً بأنه سيعيش حتى ينتفع

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة، التعاون في بناء المسجد جـ ١ ص ١١٥ .

(٢) الاستيعاب جـ ٢ ص ٤٨١ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب حجة الوداع جـ ٥ ص ١٢٧ .

به أناس ويتضرر به آخرون ، فقوله : «وعسى الله أن يرفعك » يقول ابن حجر فيه « أي يطيل عمرك وكذلك اتفق فإنه عاش بعد ذلك أزيد من أربعين سنة بل قريباً من خمسين لأنه مات سنة خمس وخمسين من الهجرة وقيل سنة ثمان وخمسين وهو المشهور فيكون عاش بعد حجة الوداع خمساً وأربعين أو ثمانيا وأربعين» ، وقوله: « فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون » أي ينتفع بك المسلمون بالغنائم مما سيفتح الله على يديك من بلاد الشرك ويضر بك المشركون الذين يهلكون على يديك »[1] .

١٠ ـ اخباره بما سيكون من سهيل بن عمرو من مقام محمود .

عن سفيان بن عمرو عن الحسين بن محمد قال للنبي ﷺ لما أسر سهيل بن عمرو يوم بدر : «يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقوم خطيباً في قومه أبداً . فقال : دعه فلعله يسرك يوماً . قال سفيان : فلما مات النبي ﷺ نفر أهل مكة فقام سهيل بن عمرو عند الكعبة فقال : من كان محمد ﷺ الهه فإن محمداً قد مات والله حي لا يموت»[2] .

وهكذا فقد تحقق رجاء رسول الله ﷺ فأسلم بعد كفره ، ووقف يثبت الناس بمكة على الاسلام يوم وفاة رسول الله ﷺ .

١١ ـ اخباره بلباس سراقة سواري كسرى .

روى البيهقي أن النبي ﷺ قال لسراقة : «كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ فلما اتِيَ بهما عمر ألبسهما اياه ، وقال الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة»[3] .

١٢ ـ اخباره ﷺ أنه سيكون في ثقيف كذاب ومبير .

---

(١) فتح الباري جـ ٥ ص ٣٦٧ .

(٢) المستدرك ، كتاب معرفة الصحابة ، باب ذكر سهيل بن عمرو جـ ٣ ص ٢٨٢

(٣) الشفا في أحوال المصطفى جـ ١ ص ٦٧٤ .

روى مسلم عن أبي نوفل ان الحجاج بن يوسف لما جاء الى أسماء بنت أبي بكر بعد مقتل ابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، قالت : «أما أن رسول اللَّه ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً ، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا إخالك إلا إياه »[١] .

يقول النووي رحمه الله : « والمبير : المهلك ، وقولها في الكذاب فرأيناه ، تعني به المختار بن أبي عبيد الثقفي ، كان شديد الكذب ومن أقبحه ادعى أن جبريل ﷺ يأتيه ، واتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيد ، وبالمبير الحجاج بن يوسف والله أعلم »[٢] .

١٣ ـ اخباره بظهور فرقة مارقة من الدين .

عن أبي سعيد الخدري قال : بينا النبي ﷺ يَقْسِمُ جاء عبدُ الله بنُ ذي الخُوَيْصِرَةِ التميمي فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك من يعدلُ اذا لم أعدل . قال عمر بن الخطاب دعني أضربْ عنقه ، قال : دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر في نَضِيِّهِ فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم ، آيتهم رجل احدى يديه أو قال ثدييه مثل ثدي المرأة أو قال مثل البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يخرجون على حين فُرقة من الناس . قال أبو سعيد : أشهد سمعت من النبي ﷺ وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ قال : فنزلت فيه ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَدَقَاتِ ﴾[٣] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها جـ ٤ ص ١٩٧٢ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٦ ص ١٠٠ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين ، باب من ترك قتال الخوارج للتألف جـ ٨ ص ٥٢ .

ووصف رسول الله ﷺ هذه الطائفة بالمبالغة في العبادة مع اظهار الاسلام ، وبسرعة خروجهم منه ، حيث يخرجون بغتة كخروج السهم اذا رماه رام قوي الساعد فأصاب ما رماه فنفذ منه بسرعة بحيث لا يعلق بالسهم ولا بشيء منه من المرمي شيء . وفيهم رجل له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدي ، تتحرك وتذهب وتجيء»[1] .

وقد قاتلهم علي رضي الله عنه وهزمهم في موقعة النهروان وقتل الرجل الذي وصفه رسول الله ﷺ في الحديث ، وقد عرفت هذه الفرقة باسم الخوارج ، وقد خرجوا على علي ابان خلافه مع معاوية .

١٤ ـ اخباره بعدم وقوع الفتن في حياة عمر .

عن شقيق قال : سمعت حذيفة قال : كنا جلوساً عند عمر رضي الله عنه فقال أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة ؟ قلت : أنا ، قال : انك عليه أو عليها لجريء . قلت : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي قال : ليس هذا أريد ، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر ؟ قال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ان بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال أيكسر أم يفتح ؟ قال : يكسر . قال : إذاً لا يغلق أبداً ، قلنا : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم كما أن دون غد الليلة اني حدثته بحديث ليس بالأغاليط ، فَهَبْنَا أن نسأل حذيفة فأمرنا مسروقاً فسأله فقال الباب عمر»[2] .

وقد وقع ما أخبر به ﷺ فإن الفتن لم تظهر في عهد عمر رضي اللّه عنه كما حدث ما أخبر به من أن الباب سيكسر اشارة الى مقتل عمر ، وقد قتل فعلاً على يد أبي لؤلؤة المجوسي .

---

(١) فتح الباري جـ ١٢ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة كفارة جـ ١ ص ١٣٣ .

١٥ ـ اخباره بدوام وجود طائفة قائمة على الحق الى قيام الساعة .

عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[1] .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة »[2] .

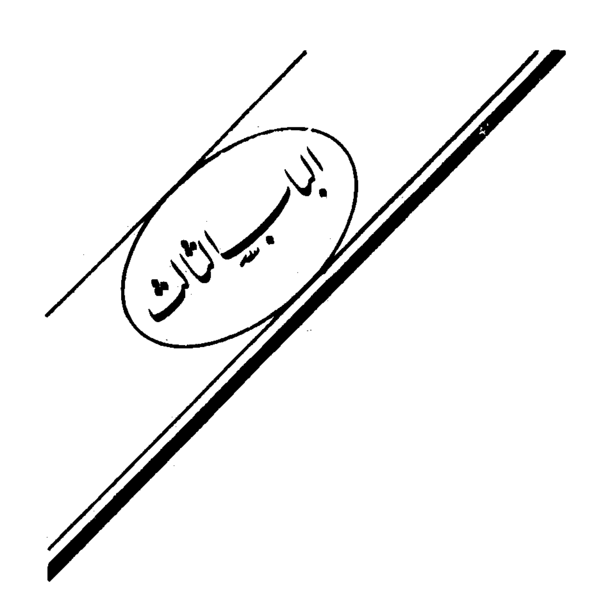
وهذا الخبر حقيقة وواقع يلمسه المسلم في كل زمان .

وبعد هذه الجولة مع هذه الطائفة العطرة من أخبار المصطفى الأمين والتي جاء الواقع مطابقاً لها وكانت الحوادث والوقائع وفقاً لما أخبر به ، يتبين لنا أنه رسول رب العالمين حقاً وصدقاً لأن هذه الغيوب التي أخبر بها لا يمكن أن تصدر عن انسان عادي ليس له علاقة بوحي السماء ، وبهذا فإن هذا الجانب من الأخبار من أقوى الأدلة على نبوته وصدق دعوته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق جـ ٣ ص ١٥٢٣ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب لا تزال طائفة من أمتي جـ ٣ ص ١٥٢٤ .



قرائن أحواله صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : قرائن أحواله قبل البعثة .

الفصل الثاني : قرائن أحواله بعد البعثة .

الفصل الثالث : الدلالة الموضوعية للرسالة المحمدية على صدقه ﷺ .

الفصل الأول

قرائن أحواله قبل البعثة

تـدل أحوال رسـول الله ﷺ وسيرتـه الشريفـة على صـدقـه في دعـواه النبـوة . وسأتكلم ان شـاء الله في مـواقف وفصـول من سيـرتـه قبـل البعثـة وبعـدها ، مبتـدئة الكـلام في سيرتـه قبـل البعثـة . وسـأتحـدث على نسبـه الشريف ، وولادته ، وما رافقها من آيـات ، ثم رضاعتـه والبركـة التي حلت بقوم مرضعته وهو بينهم ، ونشـأته وطهـره في شبابـه ، وأخلاقـه وابتعاده عن أقذار الجاهلية ، ثم تحنثه في غار حراء .

وهذه الفصول وغيرها من سيرته تشهد على صدقه وثبوت نبوته .

وأشرع بالحديث عن كل منها بالتفصيل :

١ ـ نسبه الشريف ﷺ :

جـرت سنة الله فيمن يصـطفيهم من الرسـل والأنبياء أن يكـونـوا ذوي نسب رفيع في أقوامهم ، فما بعث الله نبياً الا في أشرف نسب وأكرم بيت ، فهم صلوات الله وسلامه عليهم خيار من خيار .

يقول الامام الماوردي : «لَمَّا كان أنبياء الله صفوة عباده وخير خلقه لِمـا كلفهم من القيـام بحقـه ، استخلصهم من أكـرم العنـاصـر وأمـدهم بـأوكـد الأواصر حفظاً لنسبهم من قدح ولمنصبهم من جرح لتكون النفوس لهم أوطـأ

والقلوب لهم أصفى ، فيكون الناس الى اجابتهم أسرع ولأوامرهم أطوع »[1] .

ولما كان محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام ، أكرمه الله بشرف نسبه وطيب أصله ، فكان من أشرف الناس نسباً وحسباً ، كل أجداده أشراف وسادة ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وينتهي نسب عدنان الى سيدنا اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام[2] .

فهو من سلاسة اسماعيل عليه السلام ولد ابراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، ثم من قريش صفوة ولد ابراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة قريش .

يقول رسول الله ﷺ منوها بشرف نسبه ، فيما رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع : « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم »[3] .

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت في القرن الذي كنت فيه »[4] .

وروى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول الله ان قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم ، فجعلوا مَثَلَكَ كَمَثَلِ نخلة في كَبْوَةٍ من الأرض فقال النبي ﷺ : « ان الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم

---

(١) اعلام النبوة للماوردي ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣ ـ ٥ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ، جـ ٤ ص ١٧٨٢ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي جـ ٤ ص ١٦٦ .

من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً »[1] .

وبهذا يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى اختار رسوله ﷺ من أزكى القبائل وأفضل البطون من لدن آدم عليه السلام حتى خرج منه نور النبوة المحمدية .

ثم ان أصوله كلها طاهرة ، فولد ﷺ من نكاح من لدن آدم عليه السلام ، ولم يعرف أحد من أجداده السفاح ، ولم يزل الله تعالى ينقله من الأصلاب الطاهرة الحسيبة الى الأرحام الطاهرة النظيفة ، وما تسلل شيء من أدران الجاهلية الى شيء من نسبه ، فقد جاء ﷺ من نكاح صحيح يشبه نكاح الاسلام ولم يأت من سفاح .

يقول رسول الله ﷺ : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم الى أن ولدني أبي وأمي لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء »[2] .

ويقول في حديث آخر: « لم يلتق أبواي في سفاح ، لم يزل الله عز وجل ينقلني من أصلاب طيبة الى أرحام طاهرة صافياً مهذباً لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما »[3] .

وفي هذا دلالة على أن الله قد اختاره واصطفاه من بين خلقه وخصه بشرف النسب وطهارة المولد مثل سائر الأنبياء حتى تكون النفوس لهم مطيعة ، متبعة لما جاؤوا به ، وحتى لا يجد الكفار سبيلاً يطعنون به في نبوتهم .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب في فضل النبي جـ ٥ ص ٥٨٤ .

(٢ ، ٣) دلائل النبوة للأصبهاني ص ٢٤ ، الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٩٣ ، والحديث كما يقول الاستاذ محمد خليل هراس في هامش الخصائص الكبرى ضعيف ولكن طرقه قد اجتمعت يقوي بعضها بعضاً .

٢ ـ ولادته والآيات التي رافقت ذلك :

ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل[١] ، ذلك العام الذي أراد فيه أبرهة الأشرم ومن معه من الأحباش غزو الكعبة ، فرده الله عنها بالمعجزة الباهرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيْلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[٢] .

وحادثة الفيل هذه التي ثبتت بالقرآن الكريم وبالأخبار المتواترة التي تناقلتها كتب السيرة تدل على حكمة الله البالغة في حفظ البيت الحرام والبلد الأمين الذي هو موطن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، الذي ولد فيه في ذلك العام ، فكانت تلك الحادثة آية من الآيات البينة بين يدي النبوة وارهاصاً لمبعث الرسول ﷺ .

لقد كان هذا الحدث اكراماً من الله لبيته الحرام ، الذي سيكون قبلة للناس ومحجاً لهم ، واكراماً لنبيه الذي ولد ذلك العام عند البيت ، ولم يكن اهلاك أبرهة وجيشه من أجل قريش التي كانت تعبد الأصنام .

يقول الامام ابن تيمية رحمه الله : « ان هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ ، بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي ﷺ الذي ولد في ذلك العام عند البيت أو لمجموعهما وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته ، فإن قيل : إنما كان آية للبيت وحفظاً له وذباً عنه لأنه بيت الله الذي بناه ابراهيم خليل الله ، فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج الى هذا البيت ويصلي اليه الا أمة محمد ﷺ »[٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٦ .

(٢) سورة الفيل .

(٣) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

ويقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب في شأن هـذه الحادثـة : « ولعلك تسأل ما شأن قصة الفيل في المعجزات التي تضاف الى الرسـول ؟ والجواب على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد دفع عن البيت الحـرام هذا السـوء الذي كان يراد به ليظل هذا البيت قائماً يستقبل نبي الاسـلام ، وليكون قبلة صـلاة المسلمين ومنسكاً يؤدى عنده ركن من أركان الاسلام الخمسـة وهو الحج ، فالمعركة اذن لم تكن لحساب قريش ولا كان هذا الطيـر المحمل بـالصواعق نجـدة من السماء لهـا وإنما كـان ذلك لحسـاب الدين الجـديد الـذي تنفس صبحه بمولد النبي في هذا العام »[1] .

ثم ان آمنــة بنت وهب أم النبي ﷺ حَـدَّثَت أنهـا عنـدمـا حملت بـه ووضعته رأت من الآيات والعلامات ما يدل على أن الـوليد لـه شأن عـظيم ، فقد روت كتب السيرة والدلائل طائفة من الأخبـار عن آمنة تُحَـدِّثُ فيها عمـا رأت في منامها عندما حملت به ، وفي يقظتها عندما وضعته .

روى البيهقي في الدلائل عن ابن اسحق قال : «كانت آمنـة بنت وهب أم رسـول الله ﷺ تحدث أنهـا أتيت حين حملت بمحمد فقيـل لهـا : انـك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع الى الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حـاسد ، في كـل بر عـاهد ، وكـل عبد رايـد ، يردد غيـر رايد ، فـإنه عبـد الحميد الماجد ، حتى أراه قد أتى المشاهد ، قال : فإن آية ذلك أن يخـرج معه نور يملأ قصور بصـرى من أرض الشام ، فـإذا وقع فسميـه محمداً فـإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض واسمه في الانجيـل أحمد يحمده أهـل السماء وأهـل الأرض ، واسمه في القـرآن محمد فسمتـه بذلك »[2] .

وروى ابن الجـوزي وابن كثير : « لمـا حملت آمنـة بنت وهب كـانت تقول ما شعرت أني حملت به ولا وجـدت له ثقـلاً كما تجـد النساء الا أنني

(١) النبي محمد ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٢) دلائل النبوة للبيهقي جـ ١ ص ٧٠ .

أنكرت رفع حيضتي فأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأني أقول ما أدري ، فقال : انك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وتقول : ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال : قولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد . قالت : كيف أقول ذلك ؟ فذكرت ذلك للنساء فقلن : تعلقي حديداً في عضديك وفي عنقك ، فَفَعَلَت . فلم يكُن يُترك عَلَيَّ إلا أياماً فأَجِدُهُ قد قُطِعَ فكنت لا أتعلقه ، ولقد قالت آمنة : لقد علقت به فما وجدت مشقة حين وضعته »(١) .

فهذه من تباشير النبوة وبركاتها الفياضة التي أكرم الله بها نبيه عليه الصلاة والسلام بين يدي بعثته .

وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ أخبر أصحابه حين سألوه عن نفسه أنه رؤيا أمه التي رأت ، وهذا يؤيد الأخبار الواردة عن آمنة في كتب الدلائل والسير .

روى الامام أحمد عن العرباض بن سارية أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اني عبد الله وخاتم النبيين وان آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبي ابراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين ، وزاد فيه ، وان أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام»(٢) .

وهكذا فإن حادثة الفيل التي وقعت في نفس السنة التي ولد فيها ﷺ ، ورؤيا آمنة بنت وهب من الإمارات الواضحة والارهاصات الصادقة التي تبشر بأن لهذا الوليد شأناً عظيماً ، ألا وهو النبوة .

٣ ـ رضاعته ﷺ :

بعد أن وضعته آمنة بنت وهب دفعته إلى ثويبة مولاة أبي لهب

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨٦ .

(٢) مسند أحمد جـ ٤ ص ١٢٧ .

لترضعه ، ريثما يأتي موكب المراضع من البادية جرياً على عادة العرب في ذلك الزمن ، فقد كانوا يلتمسون المراضع لأطفالهم من نساء البادية حرصاً على سلامتهم وفصاحتهم .

ولما حضرت المراضع من بادية بني سعد ، التمس عبد المطلب لحفيده الحبيب مرضعاً ، إلَّا أن جميع المراضع عزفن عن رسول اللَّه ﷺ لكونه لا أب له ، لما يرتجينه من النفع والخير من والد الرضيع ، ولكن العناية الإلٓهية التي أحاطت بالنبي منذ اللحظة الأولى دفعت السيدة حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية إلى الموافقة على إرضاعه وذلك عندما لم تجد سواه . فكان ذلك رحمة ساقها اللَّه لها من حيث لا تدري .

فلما حملته ورجعت به إلى رحلها رأت من آيات بركته الشيء الكثير ، لأنها ما أن وضعته في حجرها وألقمته ثديها حتى رأت من البركة في اللبن ما لم تعهده من قبل ، فقد بارك اللَّه لها في حليبها حتى شبع عليه السلام وشبع معه أخوه ببركته ، ثم ان الناقة المسنة حلت فيها البركة ، فحلبت وشبعت حليمة وزوجها من لبنها ، حينئذ قال زوجها : يا حليمة لقد أخذتَ نسمة مباركة ، ولم تزل حليمة تنعم ببركة هذا الرضيع يوماً بعد يوم طيلة مكثه في ديارها .

وتروي لنا كتب السيرة رضاع النبي ﷺ في بني سعد ، والبركة التي حلت على ديارهم بسببه عليه السلام ، من ذلك ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق ، يقول : « كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول اللَّه ﷺ التي أرضعته تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً ، قالت : فخرجت على أتان لي قمراء ، معنا شارف لنا ، واللَّه ما تَبِضُّ بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يُغَذِّيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك ، فلقد أَدَمْتُ بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة

إلَّا وقد عرض عليها رسول اللَّه ﷺ فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم ، وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلَّا أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : واللَّه إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً ، واللَّه لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال : لا عليك أن تفعلي عسى اللَّه أن يجعل لنا فيه بركة. قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلَّا أني لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا انها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي واللَّه يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت : واللَّه أني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فواللَّه لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى أن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ويحك ! اربعي علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى واللَّه ، انها لهي هي ، فيقلن : واللَّه ان لها لشأناً ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض اللَّه أجدب منها ، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعاً لُبّناً فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جياعاً ما تَبِضُ بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لبناً ، فلم نزل نتعرف من اللَّه الزيادة من الخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً »[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٠ ـ ١٥٢ .

يدل هذا الخبر على أن لهذا الطفل شأناً عظيماً في المستقبل ، يعده اللّٰه سبحانه وتعالى من أجله ، ظهرت البركات والخيرات أينما حل ، فهو ليس كغيره من الصبيان .

إن البركة الوافرة ، والخير العميم الذي أصاب حليمة وشارفها وأتانها وديارها ليؤكد كرامة هذا الصغير على ربه ورعايته له وحفظه إياه ، وان اللّٰه سيحقق على يديه الخير والنور والإيمان والعدل في قابل الأيام ، فكان ما حدث إرهاصاً بمستقبل كريم فاضل للحياة البشرية بمبعثه عليه الصلاة والسلام .

يقول الدكتور عماد الدين خليل : « ان تدفق الخير على مضارب القبيلة التي احتضنت محمداً طفلاً بعد أيام العسر والمجاعة والجفاف توحي فيما توحي إلى أن مجاعة العالم كله وجفاف الروح الإنسانية جميعاً وعسر الحضارة البشرية في تمخضها الدائم تنتظر من يعيد توجيهها وصياغتها من جديد فيحيل الجوع شبعاً وريّاً وجفاف الروح امتلاء وانطلاقاً وعسر الحركة تدفقاً وإبداعاً ، وان هذا الطفل الذي تفجرت بميلاده ينابيع الخير ، سيكون هذا الرجل ، وأنه قد آن الأوان »[1] .

ثم ان ما ذكرته السيدة حليمة من سرعة نموه ، وأنه كان يشب شباباً لا يشبه الغلمان يدل على مدى عناية اللّٰه ورعايته لهذا الطفل الرضيع الذي سيختاره لحمل رسالة السماء إلى البشرية .

شق ه

ومن الد ما حدث له وهو في ديار بني سعد من شق صدره وتطهير قلبه لمان وذلك باستخراج حظ الشيطان من قلبه .

---

(١) دراسة في السيرة ص ٥١ .

فقد ذكرت السيدة حليمة ما جرى لرسول اللّه ﷺ قالت : « فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لِمَا كنا نرى من بركته فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا . قالت: فرجعنا به ، فواللّه أنه بعد مقدمنا بشهر مع أخيه لفي بَهم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه . فقالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه ، قالت : فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : ما لك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا شيئاً لا أدري ما هو . قالت : فرجعنا إلى خبائنا »(١) .

ويؤكد هذه الحادثة إخباره ﷺ أصحابه بشق صدره وهو صغير في بادية بني سعد حين سأله بعضهم عن نفسه .

روى ابن إسحاق عن خالد بن معدان الكلاعي أن نفراً من أصحاب رسول اللّه ﷺ قالوا له: أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً ، ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال : زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم فقال : دعه عنك فواللّه لو وزنته بأمته لوزنها»(٢) .

وعملية التنقية هذه التي حدثت لرسول اللّه ﷺ وهو صغير تدل على

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

عصمة اللّه لنبيه من وساوس الشيطان حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى نفسه وذلك اعداد له لبلوغ المنزلة الرفيعة التي تؤهله للتلقي عن اللّه عز وجل في المستقبل ، وهذا من رحمة اللّه ورعايته لعبده ورسوله الذي اصطفاه .

يقول الاستاذ محمد الغزالي في هذه الحادثة : «وشيء واحد يمكن استنتاجه من هذه الآثار أن بشراً ممتازاً كمحمد ﷺ لا تدعه العناية عرضاً للوساوس الصغيرة التي تتناوش غيره من سائر الناس فإذا كانت هناك موجات تملأ الآفاق وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين بتولي اللّه لها لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقي لا في مقاومة التدني وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه ، فقد عافاهم اللّه من لوثاته »[١] .

ويشير العلامة السبكي إلى الحكمة البالغة منن هذه الحادثة بقوله : «لو خلق سليماً منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته فأظهره اللّه على يد جبريل ليتحققوا اكمال باطنه كما برز لهم مكمل ظاهره »[٢] .

وبهذا فقد أنعم اللّه على عبده ورسوله بعصمته من الشيطان حتى أصبح المثل الكامل للنقاء والصفاء وهذا من تباشير النبوة وعلاماتها الواضحة التي سبقت مبعثه عليه الصلاة والسلام .

٤ ـ نشأته ﷺ :

نشأ رسول اللّه ﷺ يتيماً فقيراً ، توفي والده وهو في بطن أمه ، وتوفيت والدته بعد أن بلغ السادسة من عمره وتوفي جده عبد المطلب الذي كان بمنزلة والده عندما بلغ الثامنة من عمره ، حينئذ كفله عمه أبو طالب[٣] .

---

(١) فقه السيرة ص ٦٥ .

(٢) بشائر النبوة الخاتمة ١٧١ نقلاً عن المذاهب اللدنية جـ ١ ص ١٥٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ص ١٤٦ ـ ١٥٥ .

وهكذا تجرع عليه السلام مرارة اليتم والفقر ، وحرم من عطف الأبوين وحنانهما من صغره ، وذلك لحكمة ربانية بالغة ، أرادها اللّه سبحانه وتعالى لحبيبه المصطفى ليصنعه على عينه ، يربيه وينشؤه تربية خاصة لا تخضع لمؤثرات البيئة ، ثم لتكوين الشخصية الفذة التي ستحمل العبء الثقيل وهو الدعوة إلى اللّه ، ولا بد من ذلك حتى لا يركن إلى المال والجاه .

وكذلك لقطع السبيل على المبطلين الحاقدين حتى لا يجدوا منفذاً للتشكيك في نبوته ﷺ وذلك بإيهام الناس أن محمداً ﷺ رضع لبان دعوته من آبائه وخاصة أن جده عبد المطلب كان من السادة المشهورين في قريش .

لقد نشأ عليه الصلاة والسلام نشأة طاهرة نقية متحلياً بالأخلاق الفاضلة الرفيعة متصفاً بالصفات الكريمة الحميدة مترفعاً عن ضلالات الجاهلية التي يتخبط بها قومه بالرغم من اليتم المبكر الذي أصابه إذ لم يؤثر ذلك في سلوكه تأثيراً سلبياً ، فلم يكن اليتم والفقر له مضياعاً كما هي العادة في أغلب ظروف اليتامى والفقراء ولم يؤد به إلى الفساد والانحراف ، مما يؤكد أن العناية الإلّهية قد لازمته منذ صغره توجهه وتربيه وتحفظه من الضياع والانحراف اعداداً له للمهمة العظمى ، وقد أشار القرآن الكريم إلى حفظ اللّه لرسوله من آفات اليتم والفقر بقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْماً فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾[1] .

فقد وجده اللّه يتيماً فآواه وحفظه من الانحراف والضياع ، ووجده ضالاً فهداه ، ووجده فقيراً فأغناه بالقناعة والرضى ، يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : « لو جرت الحياة به على طبيعتها لكان مصيره إلى الضياع في دنيا الضائعين من اليتامى والفقراء في عالم البادية وفي كنف الصحراء ،

---

(١) سورة الضحى ، الآيات ٦ ـ ٨ .

ولو أَحْسَنَّا الظن بالحياة في شأن الوليد اليتيم الفقير لما بلغ بنا الظن فيه إلى أكثر من أن يكون فتى من فتيان قريش يقطع أيامه في معاقرة الخمر ولعب الميسر ومغازلة النساء ومخاللة القيان ، ثم ينتهي به الأمر في شيخوخته إلى أن يكون شيخاً من شيوخ قريش يأخذ مكانه بين رواد الندوة يستمع إلى ما يدور من أحاديث الجد والهزل فيها ، ثم تطويه الأيام فيما طوت من سادات قريش وصعاليكها . ولكن الذي جاء من هذا اليتيم الفقير كان غير ذلك كله ، كان شيئاً لم يقع في حسبان أحد ولم يدر في خلد انسان »[1] .

فهذا اليتم المبكر والنشأة الكريمة دليل واضح على استبعاد أن يكون محمد ﷺ قد أخذ عن أب أو أم أو جد ، فليس له معلم إلَّا وحي السماء .

٥ ـ اشتهاره بالصدق والأمانة

اشتهر رسول اللَّه ﷺ في قومه بمكارم الأخلاق وجميل الصفات منذ الصبا ، حيث كان نمطاً فريداً متميزاً في بيئة تعج بالفساد والانحراف ، فقد كان من أحسن الناس أخلاقاً وأفضلهم مروءة وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة ، فلم يؤثر عنه كذبة واحدة ، ولم يخن الأمانة في يوم من الأيام ، شهد بذلك العدو قبل الصديق ، فلذا لقب بالصادق الأمين ، لالتزامه بالصدق والأمانة دائماً دون تكلف أو تصنع ، لأنها أصبحت جزءاً من ذاته كملامح وجهه ولون بشرته ، وهذا من فضل اللَّه على رسوله الذي أدبه ورباه حتى بلغ هذه الدرجة الرفيعة في صفاته وأخلاقه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن

---

(١) النبي محمد ص ١٤ .

آمن بـه وكفر بعـد النبوة ، لا يعـرف له شيء يعـاب به لا في أقـوالـه ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرت عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة »[1] .

ومن أجل هذه الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة التي عرف بها عليه الصلاة والسلام ، أحبه قومه ، وكان موضع احترامهم وثقتهم المطلقـة ، فقد كانوا يأتمنونه على ما عندهم من أشياء قيمة ، ويَقبلون حكمه في مدلهمات الأمور كحادثة اختلاف القبائل في وضـع الحجر الأسـود في مكانـه عند بنـاء الكعبة ، ونظراً لاشتهاره عليه الصلاة والسلام بالأمانة فيهم نزلـوا على حكمه بنفوس راضية مطمئنة .

روى ابن إسحـاق قال : « ثم إن القبـائل من قـريش جمعت الحجـارة لبنـائها كـل قبيلة تجمع على حـدة ثم بنوهـا حتى بلغ البنيان مـوضع الـركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعـاقدوا هم وبنـو عـدي بن كعب بن لؤي على المـوت وأدخلوا أيـديهم في تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم انهم اجتمعـوا في المسجد وتشـاوروا وتناصفـوا فـزعم أهـل الـروايـة أن أبـا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان عـامئذ أسن قـريش كلها قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم ـ فيما تختلفون فيـه ـ أول من يدخـل من بـاب هـذا المسجـد يقضي بينكم فيـه ففعلوا ، فكـان أول داخـل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : هَلُمَّ ، إلَيَّ ثوباً ، فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيـه بيده ثم قـال : لتأخـذ كل قبيلة بنـاحيـة من الثـوب ، ثم ارفعـوه جميعـاً ففعلوا ، حتى إذا بلغـوا به مـوضعه وضعـه هـو بيـده ثم بنى عليـه . وكـانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين »[2] .

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٨٠ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

وهذه الحادثة تدل على رجاحة عقله وحسن سيرته في قومه ، ثم انه عليه الصلاة والسلام عرف بالصدق في الأمور كلها وفي جميع أحواله مما جعل قومه يقرون ويعترفون بصدقه حين سألهم عن مدى تصديقهم له فيما يخبرهم به عندما أمره الله بإعلان دعوته وانذار قومه .

روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرتكَ الأَقْرَبين ﴾[1] صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلّا صدقاً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿ تبّتْ يدا أَبِي لَهَبٍ وَّتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾[2] .

وهكذا شهد قومه بصدقه المطلق ، وبأنهم لم يسبق لهم أن جربوا عليه كذباً .

ثم ان السيدة خديجة بنت خويلد المرأة الحكيمة العاقلة لما سمعت بكرم أخلاقه عليه الصلاة والسلام وصدق حديثه وعظم أمانته ، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام متاجراً على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من الأجر ، وهذا يدل على كياستها ورجاحة عقلها لأن رجلاً أميناً صدوقاً مثل محمد يُطمَعُ به ليشرف على التجارة والأمور المالية .

روى ابن هشام قال : قال ابن إسحاق : « وكانت خديجة بنت خويلد

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٢١٤ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب تفسير القرآن ، تفسير سورة الشعراء جـ ٦ ص ١٦ .

امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً ، فلما بلغها عن رسول اللّه ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول اللّه ﷺ منها وخرج في مالها وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام »(١) .

وفي هذه الرحلة عرف الغلام ميسرة نبل محمد ﷺ وكريم خلقه عن قرب ، وعرف أنه نمط جديد يختلف عن سائر التجار الذين تعامل معهم في أسفاره السابقة ، ثم انه اطلع على بركته عليه الصلاة والسلام في الربح العظيم الذي حققه في هذه الرحلة .

فلما عاد عليه الصلاة والسلام من هذه الرحلة بالأرباح العظيمة أَدَّاها إلى خديجة رضي اللّه عنها بأمانة تامة ، فلم يفتنه الدرهم والدينار كما يفتن أغلب الناس ، عندئذ رغبت به زوجاً لها ، وهي العاقلة الراشدة ، فلما عرضت عليه نفسها وافق عليه الصلاة والسلام .

يقول ابن هشام في السيرة : « وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد اللّه بها من كرامة ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول اللّه ﷺ فقالت له فيما يزعمون : يا ابن عم أني قد رغبت فيك لقرابتك وَسِطَتِكَ في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها »(٢) .

وهذا الخلق الرفيع الذي تحلى به المصطفى عليه الصلاة والسلام وخاصة الصدق من أعظم الدلائل على صدق نبوته ، فكيف يصدق مع الناس ويكذب على اللّه ، حاشاه ذلك .

---

(١) سيره ابن هشام جـ ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

٦ - حفظ اللّه له من أقذار الجاهلية

نشأ رسول اللّه ﷺ في مجتمع جاهلي يعج بالمفاسد والانحرافات ، تُعبد فيه الأوثان وتُشرب فيه الخمور وينتشر فيه الظلم وما إلى ذلك من المفاسد التي اعتاد العرب ممارستها في جاهليتهم . إلَّا أن رسول اللّه ﷺ انسلخ عن هذا المجتمع انسلاخاً تاماً وإن كان يعيش فيه ، فلم ينغمس في هذه المفاسد ، ولم يشارك قومه في عاداتهم السيئة ، بل سما وارتفع عن ذلك كله لأنه كان محفوفاً بعناية إلّهية خاصة تحفظه وتحميه من هذه الأقذار منذ صغره ، لم يَهِمّ بعمل شيء مما عليه أهل الجاهلية إلَّا وصرفه اللّه عنه ، وهذا من رحمة اللّه بعبده ورسوله الذي اصطفاه حتى تكون سيرته بيضاء نقية لا غبار عليها تهيئة له لحمل الأمانة العظمى .

ومن الأمثلة على حفظ اللّه لنبيه من عادات الجاهلية السيئة ومعتقداتها الفاسدة :

أولاً : حفظ اللّه له من اللهو والعبث الذي يقع فيه الشباب عادة. روى أبو نعيم في الدلائل عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلَّا مرتين الدهر ، كلتاهما يعصمني اللّه عز وجل منها ، قلت ليلة لفتى من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهلنا نرعاها : انظر غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان ، قال : نعم ، فخرجت فجئت أدنى دار من دور مكة ، سمعت غناء وضرب دفوف وزمراً فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان تزوج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلَّا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ففعل ، فخرجت فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلَّا مس الشمس ثم رجعت إلى

صاحبي فقال لي : ما فعلت ؟ فقلت : ما فعلت شيئاً . قال رسول الله ﷺ : فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته »[1] .

يفيد هذا الخبر أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كان متمتعاً بجميع الخصائص البشرية ، فهو يجد في نفسه ما يجده كل شاب من الميول الفطرية إلَّا أن الله كان يحفظه ويرعاه ، فلم يدعه عرضة للانحراف أو الخطأ أو أي تصرف يمكن أن يؤثر سلباً على دعوته في المستقبل ، وهذا من إكرام الله لنبيه عليه الصلاة والسلام حيث عصمه من الوقوع في الخطأ كما عصم سائر الأنبياء .

ثانياً : حفظ الله له من التعري وكشف العورة .

ومن حفظ الله تعالى لنبيه من المنكرات قبل البعثة ما رواه البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي ﷺ : اجعل ازارك على رقبتك فخر إلى الأرض وَطَمَحَت عيناه إلى السماء فقال : أرني ازاري فشده عليه »[2] .

وروى ابن هشام قال : « وكان رسول الله ﷺ يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : لقد رأيتني في غُلْمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك ، قال : فأخذته وشددته علي ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وازاري علي من بين أصحابي »[3] .

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٤٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب فضل مكة وبنياتها جـ ٢ ص ١٥٥ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

تفيد هاتان الروايتان أن رسول اللّٰه ﷺ كان محفوظاً من الوقوع في المنكرات ، ومنها كشف العورة مخالفاً بذلك عادة قومه في كشف عوراتهم دون تحرج فقد حفظه اللّٰه من ذلك في صغره وهو يلعب مع الغلمان ، وفي كبره عند بناء الكعبة حيث كان يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين على الصحيح[1] .

ثالثاً : حفظ اللّٰه لرسوله من عبادة الأصنام وتقديسها .

كانت عبادة الأصنام شائعة في العرب قبل بعثة رسول اللّٰه ﷺ ، وكان الناس يتقربون إليها بأنواع من النسك ، وقد حفظ اللّٰه رسوله ﷺ من تعظيم الأصنام ، وحماه من التقرب لها ، فقد اشتهر عنه ﷺ مخالفة قومه في تعظيمهم لها ، فلم يعبد صنماً قط .

روى أبو نعيم عن ابن عباس قال : حدثتني أم أيمن قالت : كان بُوَانَةَ صنم تحضره قريش وتعظمه وتنسك له النسائك ويحلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده يوماً إلى الليل ، وذلك يوم في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم رسول اللّٰه ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول اللّٰه ﷺ حتى رأيت أبا طالب غضب عليه أسوأ الغضب ، فيقول : انا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا وجعلنا نقول : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً . قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء اللّٰه ، ثم رجع الينا مرعوباً ، فقلن عماته : ما دهاك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لمم ، فقلن : ما كان اللّٰه عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت ؟ قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه . قالت أم أيمن : فما عاد إلى عيد لهم ﷺ »[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٨ .
(٢) دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٤٤ .

وهكـذا عصم اللّه نبيه من ضـلالات الجاهليـة ومن عبـادة الأصنـام ، اعداداً له للنبوة ؛ وفي هذا دليل على صدقه .

٧ ـ تحنثه في غار حراء

ولمـا كان واقـع قومـه سيئاً منحـطاً كما أسلفت ، عـاش عليه الصـلاة والسـلام بينهم في غربـة روحية وهجـرة نفسية ، وكـره شديـد لمـا هم عليـه فاجتنبهم وما يعملون ولجأ إلى الخالق جل وعلا يناجيه ويعبده في مكان بعيد عن ذلـك الجو المـوبوء الفـاسد ، فقـد ثبت أنه لمـا أخذت سنـه تـدنـو من الأربعين حبب إليـه الخلاء ، فلم يكن شيء أحب إليـه من أن يخلو وحده ، وكان يذهب إلى غـار حراء فيمكث فيـه الأيام والليـالي متحنثاً عـابداً للّه عـز وجل .

روى البخاري عن عائشة قالت: «ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حـراء فيتحنث فيه وهـو التعبـد الليـالي ذوات العـدد قبـل أن ينـزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجـة فيتزود لمثلهـا حتى جاءه الحق وهـو في غار حراء »[1] .

وهذا العمل العظيم الجليل الـذي كان يمـارسه ﷺ يـدل على سلامـة فـطرته التي فـطره اللّه عليها التي رفضت البـاطل وأهله وسعت جـاهدة وراء الحق الذي تغلغل في كيانه .

كما يدل على حفظ اللّه لرسوله وتربيته له وتوجيهه إيـاه إلى ما تكتمـل به شخصيته حتى يصبح أهلاً للتلقي عنه عز وجل ، وهذا من أهم المؤشرات وأصدق الإرهاصات على أنه نبي هذه الأمة في آن أوانه .

يقول الذكتور عماد الدين خليل [illegible] عـزلة [illegible] وانقـطاعه واتسـاع

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي جـ ١ ص ٣ .

مساحات هذه العزلة والانقطاع عَكْساً ازاء طغيان الجاهلية وَطَرْداً تجاه يوم الوحي كانت بمثابة الإرهاص الأكبر والأخطر والأخير في الوقت نفسه إلى أن موعد القطاف قد حان وأن هذه الشخصية التي ربتها عناية اللّٰه في مدى أربعين سنة قد غدت على استعداد تام للتلقي والاتصال المباشر بمبعوث اللّٰه في آخر حلقة من حلقات تعاليم السموات والأرض »[1] .

وبعد هذا العرض لبعض الفصول من حياته قبل البعثة ، يتبين أن جميع أحواله ، وكل ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام قبل اتصاله بالسماء يؤكد أنه الرسول المبعوث بحق ، والنبي المرسل بصدق الذي اختاره اللّٰه رحمة للعالمين .

---

(١) دراسة في السيرة ص ٥٠ .

الفصل الثاني
قرائن أحواله ﷺ بعد البعثة

أولاً : ثباته على الدعوة رغم الإيذاء والإغراء

أمر اللَّه سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالدعوة إلى اللَّه سبحانه وتعالى وبإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهداية ، وأمره أن يبدأ أولاً بدعوة أهله وعشيرته والقوم الذين بعث فيهم ، فامتثل ﷺ أمر ربه وجمع قومه وأخبرهم بأنه رسول اللَّه إليهم بشيراً ونذيراً ، وأمرهم بعبادة اللَّه وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر ، ونهاهم عن اتباع الآباء والأجداد وتقليدهم في معتقداتهم الباطلة .

فلما سمعوا ما جاء به عليه الصلاة والسلام طار صوابهم ، واستعظموا عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وأجدادهم فناصبوه العداء الشديد ، وتنكروا لدعوته ، وسعوا جاهدين لصده وصرفه عنها بكل الطرق وشتى الوسائل ، بالإيذاء والسخرية تارة ، وبالمفاوضات والاغراء تارة أخرى ، ورسول اللَّه ﷺ ثابت على دعوته ، متمسك بها ، مُضَحٍّ في سبيلها ، صابر على صلف قريش وبذاءتها مستعل على كل العروض والاغراءات ، لم تلن له قناة ، ولم ينثن له عزم ، بل استمر على إظهار دعوته بخطى ثابتة وعزيمة ماضية وهمة عالية ، لم يَهِن ولم يتردد في يوم من الأيام حتى ظهر الحق وخسر هنالك المبطلون .

لقد أصر النبي ﷺ على الثبات على دعوته رغم العنت والمشقة من

قومه منذ اللحظة الأولى لإعلان الدعوة . وهذا من الدلائل الواضحة على صدقه في نبوته ، وإلَّا فما الدافع لتحمل هذه المشقة العظيمة والأذى الشديد ، بل رفض كل العروض والاغراءات إلَّا ثقته التامة بالحق الذي يدعو إليه .

والأمثلة على ثباته كثيرة ومشهورة ، أذكر منها :

١ ـ موقفه الحازم مع عمه أبي طالب :

حين أعلن رسول اللَّه ﷺ دعوته بين قومه ، ناصبه قومه العداء إلَّا عمه أبا طالب الذي وقف بجانبه يدافع عنه وينصره ، فلما رأت قريش أن الدعوة الجديدة تستفحل يوماً بعد يوم ، وأن التحدي يزداد أيضاً ، عزمت على مفاوضة عمه الذي يناصره ويحميه من أجل أن يكفه عن الدعوة أو يتخلى عن نصرته أو يسلمه إليهم .

وحين أحس ﷺ أن عمه ضعف عن نصرته عندما قال له بعد مفاوضة قريش له : «يا ابن أخي ابقِ عَلَيَّ وَعَلَى نفسك ولا تُحَمِّلني من الأمر ما لا أطيق » ، أعلن عن موقفه الثابت على رؤوس الأشهاد أنه لن يتراجع عن دعوته مهما كلفته من مشاق ومتاعب وقال لعمه : « يا عم واللَّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه أو أهلك فيه ما تركته »[١] .

٢ ـ صبره على الاذى :

وقفت قريش في وجه الدعوة الجديدة ، ولم تمنعها قرابة الرَحِم من رسول اللَّه ﷺ من الحاق الأذى به وبأتباعه الذين دخلوا معه في دينه ، وقد تفنن رؤساء قريش وسفهاؤها على السواء في إيذائه وإلحاق الضرر به وبأصحابه ، بالسخرية والاستهزاء ، وبوضع الشوك في طريقه ، وبإلقاء

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٠ .

النجاسة عليه وبالتهديد بقتله ، وبالضرب والتعذيب لأصحابه ، كل هذا ورسول اللّه ثابت الخطى ، صادق اللهجة ، قوي العزيمة .

ومن الأخبار في إيذائه ما رواه يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : « قلت ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول اللّه ﷺ فيما كانوا يظهرون من عدائه ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر فذكروا رسول اللّه ﷺ ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سَفَّهَ أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، لقد صبرنا عنه على أمر عظيم أو كما قالوا ، فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول اللّه ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك في وجه رسول اللّه ﷺ ، قال : ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجه رسول اللّه ﷺ ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح ، قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلاّ كأنما على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم فواللّه ما كنت جهولاً ، قال : فانصرف رسول اللّه ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول اللّه ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول اللّه ﷺ : نعم أنا الذي أقول ذلك ، قال : فلقد رأيت رجلاً منهم آخذاً بمجمع ردائه ، قال : فقام أبو بكر رضي اللّه عنه دونه وهو يبكي ويقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي اللّه ، ثم انصرفوا عنه »[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٩ .

ومن ذلك أيضاً ما روي عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه قال : بينا النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش ، جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر النبي ﷺ فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة رضي اللّه عنها فأخذته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك .

ومنه أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب فنثرها على رأسه وهو يسير في بعض سكك مكة وعاد إلى بيته والتراب على رأسه فقامت إليه احدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول اللّه ﷺ يقول لها : يا بنية لا تبكي فإن اللّه مانع أباك .

٣ ـ استعلاؤه على جميع العروض والاغراءات :

سعت قريش جاهدة لصد رسول اللّه ﷺ عن دعوته بمختلف الأساليب ، ومن ذلك اغراؤه بالمال والجاه والسلطان ، ولكنه لم يلق بالاً لشيء من ذلك في يوم من الأيام ، فغايته التي يسعى إليها أسمى من هذا كله وهي إعلاء كلمة اللّه وإنقاذ البشرية من الانحراف والضلال .

روى ابن هشام عن ابن إسحاق قال : « حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول اللّه ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة رضي اللّه عنه ورأوا أصحاب رسول اللّه يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول اللّه ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِطَةِ في العشيرة والمكان في النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفَّرتَ به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول اللّه ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من

هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مـالاً ، وإن كنت تريـد به شرفـاً سودنـاك علينا حتى لا نقـطع أمراً دونـك ، وإن كنت تريـد به ملكـاً ملكناك علينا وإن كان هذا الـذي يأتيـك رئياً تـراه لا تستطيـع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنـه ربما غلب التابع على الـرجل حتى يـداوى منه أو كمـا قال لـه حتى إذا فرغ عتبـة ورسـول اللّه ﷺ يستمع منه قال : قد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمـع مني ، قـال : أفعل ، فقـال : ﴿ بسم اللّه الرحمن الـرحيم حمٓ تَنزِيـلٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنَاً عَرَبِيَّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيـراً وَنَذِيـراً فَأَعْـرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَـا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّـا تَدْعُـونَا إِلَيْـهِ ﴾[1] ، ثم مضى رسـول اللّه ﷺ إلى السجدة منهـا فسجد ثم قـال : قد سمعت يـا أبـا الوليد ما سمعت فأنت وذاك »[2] .

ومـرة ثانيـة يجتمع أشـراف قريش وسـادتها ويـديـرون الحـديث بينهم ويرسلون لرسـول اللّه ﷺ فيأتيهم ، فيعـرضون عليـه المال والشـرف والملك والـطب فيجيبهم رسول اللّه ﷺ فيقـول : « مـا جئت بمـا جئتكم بـه أطلب أمـوالكم ولا الشـرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن اللّه بعثني إليكم رسـولاً وأنزل عَلَيَّ كتابـاً وأمرني أن أكـون لكم بشيراً ونـذيراً فبلغتكم رسـالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيـا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر اللّه حتى يحكم بيني وبينكم أو كما قال ﷺ »[3] .

وهكذا وبكل صراحة ووضوح أعلن رسول اللّه ﷺ رفضه للمال والجاه والسلطان واستعلاءه عليها واصراره على الحق الذي بعثه اللّه به والأمانة التي ائتمنـه عليها ، بـل وفي نفس الموقف عـرض الإسلام عليهم مؤكـداً لهم أن الدعوة إلى اللّه هي واجبه الذي كلفه اللّه به ، وهو لا يريد بهذه الدعوة شيئاً

---

(١) سورة فصلت الآيات ١ ـ ٥ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦١ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

من عرض الدنيا كما توهموا ، بل يريد الخير والهداية للناس .

٤ ـ موقفه الثابت أيام الحصار الاقتصادي :

أعلنت قريش الحصار الاقتصادي والمقاطعة على رسول اللّه ومن معه من المسلمين وغير المسلمين من أهله وعشيرته وكل من يؤيده ويؤازره ، وذلك حين أحست أن الإسلام ينتشر في القبائل وأن المسلمين يزدادون يوماً بعد يوم ، فلم يتأثر ﷺ لا هو ولا أصحابه ، بل ثبتوا على دين اللّه وصبروا على الجوع والأذى حتى أذن اللّه بالفرج .

روى ابن هشام عن ابن إسحاق قال: « فلما رأت قريش أن أصحاب رسول اللّه ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليهم منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول اللّه ﷺ وأصحابه وجعل الإسلام يفشو في القبائل اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم »[١] .

وهكذا تمت المقاطعة الظالمة الآثمة، ولقي رسول اللّه ﷺ والمسلمون من الضنك والمشقة ما أجهدهم حتى أنهم ليأكلون أوراق الشجر من شدة الجوع الذي أصابهم ، ولكن ذلك لم يوهن عزيمة المصطفى ﷺ واتباعه بل استمر في الدعوة إلى اللّه ليلاً ونهاراً حتى جعل اللّه له مخرجاً ، فقام نفر من قريش وطالبوا بنقض الصحيفة وإبطال ما جاء فيها من الظلم والإجحاف .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣ .

٥ ـ موقفه من أذى ثقيف وصبره على ما لحقه منهم :

ومن الأمثلة على ثباته على الدعوة وشدة تمسكه بها صبره وقوة تحمله لأذى ثقيف عندما ذهب إلى الطائف وذلك حين اشتد إيذاء قريش له بعد فقد ناصريه زوجته وعمه حيث نالت قريش منه ما لم تنله في حياتهما ، لذا توجه صوب الطائف يعرض أمره على أعظم قبيلتين بعد قريش هما هوزان وثقيف لعله يجد الحماية والنصرة منهم ، فلما عرض عليهم أمره تنكروا له ، وأظهروا العداوة والبغضاء لما دعاهم إليه حتى انهم أغروا سفهاءهم لإيذائه ، فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه ورسول اللّٰه صابر محتسب لم يتزعزع ولم ينثن عن دعوته بل استمر عليها بخطى ثابتة ورباطة جأش .

روى ابن هشام قال : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول اللّٰه ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول اللّٰه ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من اللّٰه عز وجل فخرج إليهم وحده . . . . . ولما انتهى رسول اللّٰه ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة عبدياليل بن عمرو بن عمير ومسعود بن عمرو وحبيب بن عمرو بن عمير ، فجلس إليهم رسول اللّٰه ﷺ فدعاهم إلى اللّٰه وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة ان كان اللّٰه أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد اللّٰه أحداً يرسله غيرك ، وقال الثالث: واللّٰه لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من اللّٰه كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على اللّٰه ما ينبغي لي أن أكلمك ، فقام رسول اللّٰه ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقال لهم فيما ذكر لي : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني ، وكره رسول اللّٰه أن يبلغ قومه عنه فَيُذْئِرَهُم ذلك عليه ، فلم يفعلوا وأغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة . . . . . فلما اطمأن رسول اللّٰه ﷺ قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة

حيلتي وهـواني على الناس يـا أرحم الـراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بـك عليَّ غضب فلا أبـالي ولكن عافيتـك هي أوسع لي أعـوذ بنـور وجهـك الذي أشرقت بـه الظلمـات وصلح عليه أمـر الدنيـا والآخرة من أن تُنـزل بي غضبك أو يَحِلَّ عَلَيَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قـوة إلَّا بك »[1] .

وهكذا قابل ﷺ أذى ثقيف ، بالصبر والدعاء إلى اللّٰه ، وتفويض الأمر إليـه ، وما لاقـاه من العنت لا يهم إن لم يكن من اللّٰه غضب عليـه ، وهـذا الموقف منه تجاه موقف ثقيف فيه أمارة على صدقه في الـدعوة وثبـاته عليهـا وتصميمـه على المضي بها ، ولـو لم يكن مرسـلاً من ربه لمـا كان منـه هذا الصبـر العجيب والاحتمـال الشـديـد ، واللجـوء إلى اللّٰه ، وعـدم الشكـوى لغيره ، واقتصاره في دعائه على مناجاة ربه وطلب رحمته وعفوه ورضاه .

هـذه بعض الأمثلة التي تصور لنـا مدى ثبـات المصطفى عليـه الصلاة والسلام على الدعوة إلى اللّٰه التي كلفه بحملها ومدى تحمله لكثير من الأذى والعذاب في سبيلها ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثقتـه التامـة أنه رسـول اللّٰه حقاً ، وأن مـا جاء بـه هو الحق المبين الـذي يجب التمسك بـه والتضحية في سبيله .

يقول الشيخ أبو الحسن الزيدي : « ومن المعلوم أن العاقل الحازم إذا عرف من نفسه أنه مخترص في أمر يدعيه ومتحيل فيه وعلم أنه لا حقيقـة لما يذكره ودفع مع ذلك إلى مدافعـة أعدائـه له ، وامتحـانهم إياه ، وبحثهم عن أحواله ، وتنقيرهم عن أسراره ، يلين بعض اللين ويستعمل بعض التملق في كثير من أوقاته ، بل عامة أحواله ، وان خَشَّنَ جانِبَهُ في وقتِ تَجَلُّدٍ ألانـه في آخـر ، وإن أبدى الثبـات وقوة النفس في حـالـة ، راوغ وداهن في أخـرى ، وأحواله ﷺ جرت على خلافه ، فدل ذلـك على أنه كـان صادقـاً في قولـه ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٧ ـ ٤٨ .

واثقاً بربه ، نافذاً في بصيرته ، ماضياً على المنهاج الواضح »[١] .

ثم إن في ثبات أتباعه على الدين الجديد الذي جاء به وشدة تمسكهم به وتحملهم الشيء الكثير في سبيله دليلاً آخر على صدق نبوته ﷺ .

لقد عانى أتباعه من صلف قريش وطغيانها كثيراً ، وحين لم تفلح في صد رسول اللّه عن دعوته بالإيذاء والاغراء ، قامت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يسومونهم سوء العذاب ، لفتنتهم عن دينهم وإبعادهم عن اتباع المصطفى ﷺ والالتفاف حوله . وفشلت قريش فيما أرادت وثبت أولئك الأتباع ثباتاً عجيباً وصبروا على شدة الإيذاء والعذاب الواقع عليهم ، وكانوا بذلك نماذج فريدة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . وهذا الموقف الرائع من قبل تلك الفئة القليلة التي سرى نور الإيمان في كيانها يؤكد صدقه ﷺ وإلَّا فما الذي دفعهم إلى تحمل هذا العذاب بنفوس شامخة أبيَّة ، انها الثقة التامة بأن ما جاء به ﷺ هو الحق الواضح الذي لا مراء فيه .

ثانياً : طبيعة عيشه

من قرائن أحواله الدالة على نبوته ﷺ تلك الحياة البسيطة التي ارتضاها لنفسه ، واشتهر بها طوال عمره ، في حال الفقر وحال الرخاء ، إلى أن التحق بالرفيق الأعلى .

لقد كان ﷺ نموذجاً فريداً في حياته العامة والخاصة حيث عاش عيشة البساطة والكفاف والبعد عن كل مظاهر البذخ والترف ، يلبس المرقع من الثياب ، ويأكل ما خشن من الطعام ، ينام على الحصير ، ويسكن البيوت البسيطة المبنية من الطين وجريد النخل .

وقد آمنت به الجموع ودانت له العرب قاطبة وسيقت له الأموال ، فلم يفتتن بها بل استعلى عليها وعلى الدنيا ومتعها ، وهكذا ضرب أروع الأمثلة

---

(١) اثبات نبوة النبي ص ١٧٥ .

في زهده في الدنيا واستعلائه عليها في العسر واليسر ، لم يتطلع إلى شيء من زخرفها وزينتها في يوم من الأيام ، وحث أهله وصحبه على الزهد في الدنيا والاكتفاء بالقليل منها وان لا يكون لها مكانة في قلوبهم وأن يكون جل اهتمامهم العمل للحياة الآخرة ، حياة البقاء والخلود .

والناظر في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام يقف على معالم تلك الحياة العظيمة التي عاشها عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء في الخبر الصحيح عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض »(١) وفي رواية أخرى : « من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول اللّه ﷺ »(٢) .

وتقول رضي اللّه عنها : « إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد بنار ان هو إلّا التمر والماء »(٣) .

وعن أنس رضي اللّه عنه قال : « ما أكل رسول اللّه ﷺ على خُوَانٍ ولا في سُكُرُّجَةٍ ولا خُبِزَ له مرقق ولا رأى شاة سميطاً قط »(٤) .

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه قال : « كان رسول اللّه ﷺ يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجد عشاء »(٥) .

وتصف لنا السيدة عائشة فراش الرسول ﷺ الذي كان ينام عليه فتقول : « إنما كان فراشه الذي ينام عليه أدماً حشوه ليف »(٦) .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأطعمة ، باب ما كان النبي وأصحابه يأكلون ، جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق جـ ٤ ص ٢٢٨٢ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق جـ ٤ ص ٢٢٨٢ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأطعمة ، باب الخبز المرقق جـ ٦ ص ١٩٩ ، والخوان : ما يؤكل عليه الطعام ، والسكرجة : قصاع صغار ، الشاة السميط : التي ازيل شعرها بعد الذبح بالماء المسخن ، وانما يصنع ذلك في الصغيرة الطرية غالباً وهو فعل المترفين .

(٥) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في معيشة النبي وأهله جـ ٤ ص ٥٨٠ .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب كيف كان عيش النبي وأصحابه جـ ٧ ص ١٨١ .

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه لما ذكر له اعتزال رسول اللّه ﷺ نساءه قال : «فدخلت على رسول اللَّه ﷺ وهو مضطجع على حصير ، فجلست ، فأدنى عليه ازاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثَّر في جنبه فنظرت ببصري إلى خزانة رسول اللَّه ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، ومثلها قَرَظَاً في ناحية الغرفة ، وإذ أفيق معلق قال : فابتدرت عيناي . قال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قلت : يا نبي اللَّه وما لي لا أبكي ؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلَّا ما أرى وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول اللَّه ﷺ وصفوته وهذه خزانتك فقال : يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ قلت : بلى »[1] .

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثر في جلده فقلت : بأبي وأمي يا رسول اللَّه ، لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئاً يقيك منه فقال رسول اللَّه ﷺ : « ما أنا والدنيا ! إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »[2] .

وروى حميد بن هلال عن أبي بردة قال : « أخرجت إلينا عائشة رضي للَّه عنها كساء ملبداً وقالت : في هذا نزع روح النبي ﷺ وزاد سليمان عن حميد عن أبي بردة قال : أخرجت إلينا عائشة إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن وكساء من هذه التي يدعونها الملبَّدة »[3] .

وخطب النعمان بن بشير فقال : ذكر عمر ما أصاب الناس من الدنيا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الطلاق ، باب في الأيلاء واعتزال النساء وتخييرهن ، جـ ٢ ص ١١٠٧ . والقرظ : ورق السلم يدبغ به ، والأفيق : الجلد الذي لم يتم دبغه ، فابتدرت عيناي : أي سالت دموعي .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا ، جـ ٢ ص ١٣٧٦ ، سنن الترمذي ، الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ٤٤ جـ ٤ ص ٥٨٨ قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

صحيح البخاري ، كتاب فرض الخمس ، باب ما ذكر من ورع النبي وعصاه جـ ٤ ص ٤٧ ، والملبَّد : المرقع ، فتح الباري ٢١٤/٦ .

فقال : لقد رأيت رسول اللّه ﷺ يظل اليوم يتلوى ما يجد دَقَلاً يملأ به بطنه »[1].

تبين لنا هذه الأخبار طبيعة عيشه ﷺ في مأكله وملبسه وفراشه ، فلم يأكل لذيذ الطعام ولم يلبس الطيلسان ، ولم ينم على الفراش الناعم ، بل رفض ذلك كله ، واستعلى على الدنيا وما فيها من زينة وزخارف ، وأقبل على اللّه يرجو رضاه ويعمل للدار الآخرة دون فتور أو ملل ، وقد أُثِرَ عنه أنه كان يقول : « اللهم لا عيش إلَّا عيش الآخرة »[2] .

واستمر ﷺ في ترفعه عن لذائذ الدنيا طيلة حياته ، حتى بعد أن فتح اللّه عليه الفتوح وسيقت إليه الخيرات ، فلم يشيد القصور ، ولم يجعل لنفسه من مظاهر العظمة والأبهة كملوك الأعاجم ، بل استمر في زهده وتقشفه ، حتى انه توفي ولم يترك لأهله ميراثاً يذكر ، فلم يخلف الدراهم ولا الدنانير ، ولا العبيد ولا الملك الراسخ ، بل لحق بربه ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام لأهله .

عن عمر بن الحارث ، قال : « ما ترك رسول اللّه ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلَّا بغلته وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة »[3] .

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت : « توفي رسول اللّه ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير »[4] .

وقالت رضي اللّه عنها: « ما ترك رسول اللّه ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، جـ ٤ ص ٢٢٨٥ ، والدقل : التمر الرديء .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الصحة والفراغ ، جـ٣ ص ١٧٠ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الوصايا ، باب الوصايا وقول النبي وصية الرجل مكتوبة عنده ، جـ ٣ ص ١٨٦ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما قيل في درع النبي جـ٣ ص ٣٢١ .

شاة ولا بعيراً »(١) .

وقالت : « لقد توفي النبي ﷺ وما في رَفِّي من شيء يأكله ذو كبد إلَّا شطر شعير في رَفٍّ لي فأكلت منه حتى طال عليَّ فَكِلتُهُ فَفَنِيَ »(٢) .

والمتأمل في طبيعة عيشه ﷺ والميراث الذي تركه لأهله وذريته يستدل به على صدقه في نبوته ، وأنه رسول اللَّه حقاً ، عاش لتبليغ الرسالة التي كلفه اللَّه بحملها ، ولم يقصد من وراء دعوته ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً ، وإنما أعرض عن ذلك كله وعاش فقيراً قانعاً متعففاً عن متع الدنيا وزخارفها ، هَمُّهُ اعلاء كلمة اللَّه وحملها للناس كافة ، باذلاً كل غال ونفيس في سبيل ذلك حتى لقي اللَّه عز وجل ، وقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة وجاهد في اللَّه حق جهاده صلوات اللَّه وسلامه عليه .

وقد لفت نظر المستشرق بودلي طبيعة حياته ﷺ وخشونة عيشه ، فاستدل بذلك على نبوته .

يقول : « كانت حياته بسيطة كحياة السيد المسيح فكان طعامه الثريد والتمر واللبن وكان يتناول أحياناً حساء ضأن وخضر ، وربما شرب بعض العسل ، وكان غالباً ما يقتصر على التمر واللبن ، وأياً كان الطعام فقد كان يتناوله على حصير فوق الأرض وكانت ثيابه بسيطة كطعامه ، فكان يرتدي فوق جسمه مباشرة قميصاً له أكمام من الصوف الخشن والقطن وفوقه بردة . . . . . وكان في يده أن تساق له الدنيا جميعاً لو أرادها ولكنه كان يكتفي من كل شيء بالكفاف وقد أصغر في عينيه الحياة لأنه كان أكبر من كل ما في الحياة ، هذه البساطة لا تحتاج إلى أدنى دليل على أن صاحبها ليس إلَّا من اللَّه »(٣) .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الوصية ، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه جـ ٣ ص ١٢٥٦ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر ، جـ ٧ ص ١٧٩

(٣) نبوة محمد في القرآن ص ١٤١ .

ويقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : « وعلى الذين في ريب من رسول اللّه ﷺ ومن رسالته أن يقفوا عند هذه الأحوال منه ليروا ماذا كان يطلب بدعوى النبوة والرسالة إن لم يكن نبياً مرسلاً وما المآرب التي قصد إليها وما الغايات التي حققها أين المال الذي جمع ، وأين التاج الذي وضع على رأسه ، وأين متع الحياة التي تحف به وهل يدخل إنسان في مثل هذه التجربة ويدعي مثل هذه الدعوى ويحتمل فيها ألوان الضُّرِ والأذى ، ثم إذا استجاب الناس لدعوته وداروا حول مشيئته وساقوا إليه مغانم النصر نفض يديه من هذا كله وعاش على الكفاف من كل شيء . . . . . » .

إنه نبي صاحب دعوة وليس طالب ملك ولا صاحب دنيا فلقد سيقت إليه الدنيا بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها إلى أن توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله وكان يدعو ويقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً »[1] .

ثالثاً : كمال أخلاقه ﷺ

ومن قرائن أحواله الدالة على صدق نبوته ﷺ تلك الأخلاق الرفيعة والخصال الكريمة التي تحلى بها وجبل عليها برحمة من اللّه وفضل كسائر الأنبياء والمرسلين .

يقول القاضي عياض : « وكان فيما ذكر المحققون مجبولاً عليها (أي الأخلاق الحميدة) في أصل خلقته وأول فطرته ، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلَّا بجود إلَهي وخصوصية ربانية وهكذا لسائر الأنبياء »[2] .

لقد اشتهر عليه الصلاة والسلام بالأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة قبل البعثة وبعدها شهد بذلك العدو قبل الصديق ، والكافر قبل المؤمن وقد بلغ في ذلك القمة السامقة والغاية القصوى من الجلال والكمال ، ما لم

---

(١) النبي محمد ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ .
(٢) الشفا جـ ١ ص ٢٠٧ .

يبلغه أحد من الناس لا في زمانه ولا بعد زمانه ولذا وصفه الباري عز وجل بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]، كيف لا وهو الذي تكفل اللّٰه عز وجل بتربيته وإعداده لحمل الأمانة الكبرى رسالة اللّٰه للعالمين .

وهذا الخلق العظيم الذي شهد اللّٰه سبحانه وتعالى به لنبيه ﷺ ، يؤكد نبوته وصدق دعوته ، لأن الأخلاق الحميدة والخصال الرفيعة على صلة قوية بدعوى النبوة ، إذ النبوة تتطلب من صاحبها أن يتصف بكل خلق كريم رفيع وأن يتنزه عن كل وصف مشين ، فالأنبياء هم خيرة البشر ، وصفوة الخلق ، بلغوا القمة العالية من الكمال الخلقي لذا اختارتهم العناية الإلٰهية للقيام بمهمة عظيمة ، مهمة السفارة بين اللّٰه في السماء والعباد في الأرض .

والإستدلال بمكارم الأخلاق على صدق النبوة طريق يأنس به العقل السليم ويرتضيه ، وقد وجدنا عدداً من الناس يستدل بمكارم أخلاقه ﷺ على صدق نبوته ، فها هي السيدة الحكيمة العاقلة خديجة زوج النبي ﷺ تؤكد أن ما جاءه من النور في حراء إنما هو الحق المبين وأن الأخلاق الحميدة التي عرف بها جعلته أهلاً لتلقي ذلك النور الرباني ولذا قالت له حين رجع من غار حراء خائفاً يرتجف فؤاده لما سمع ورأى : « كلا واللّٰه ما يخزيك اللّٰه أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق »[2].

ثم ان هرقل ملك الروم استدل بخلقه العظيم على صدقه ﷺ ، وذلك حين سأل أبا سفيان عن صفات الرسول وأخلاقه أثر وصول كتاب رسول اللّٰه إليه يدعوه فيه إلى الإسلام ، يقول هرقل بعد أن سأل أبا سفيان : « وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت ، أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّٰه ، وسألتك بما يأمركم

---

(١) سورة القلم ، آية ٤ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ، جـ ١ ص ٣ .

فـذكرت أنـه يأمـركم أن تعبدوا اللّه ولا تشـركوا بـه شيئاً وينهـاكم عن عبـادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والعفاف ، فـإن كان مـا تقول حقـاً فسيملك موضـع قَدَميَّ هاتين »[١].

وهكذا استدل هرقل بصدقه وعفافه على صحة نبوته .

وقـد جعل الإمـام الماوردي كمـاله الخلقي دليـلاً على نبوتـه ، يقـول رحمـه اللّه : « فإن قيـل : فليست فضائله دليـلاً على نبـوتـه ولم يسمـع نبي احتج بها على أمته ولا عول عليها في قبول رسالته لأنـه قد يشـارك فيها حتى يـأتي بمعجز يخـرق العادة ، فيعلم بـالمعجز أنـه نبي لا بـالفضـل ؟ قيـل : الفضل من اماراتها وان لم يكن من معجزاتها ولأن تكامل الفضل معوز فصار كالمعجز ولأن من كمـال الفضل اجتنـاب الكذب وليس من كـذب في ادعاء النبوة بكامل الفضل ، فصار كمال الفضل موجبـاً للصدق ، والصـدق موجبـاً لقبول القول فجاز أن يكون من دلائل الرسل »[٢] .

وهـذا الخلق الذي اكتسى بـه ﷺ صورة عمليـة للقرآن الكـريم الـذي تضمن جميع مكارم الأخلاق ، فلذا قالت السيدة عائشة رضي اللّه عنها حين سئلت عن خلق الرسول ﷺ : « كان خلقه القرآن »[٣] وبهذا كـان من أفضل الناس خَلْقَاً وَخُلُقَاً عرف ذلك كل من عاشره وعاش معه .

وعن أنس قال : « كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقاً »[٤] ، وعنـه أيضاً قال : « لم يكن النبي ﷺ سَبّاباً ولا فَحّاشاً ولا لعَّاناً ، كان يقول لأحدنـا عند المعتبة ما له ترب جبينه »[٥] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي باب كيف كان بدء الـوحي الى رسول الله ، جـ ١ ص ٦ .
(٢) علام النبوة للماوردي ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٣) سحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، جـ ١ ص ٥١٣ .
(٤) سحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب الكنية للصبي ، جـ ٧ ص ١١٩ .
(٥) سحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب لم يكن النبي فاحشاً ولا متفحشاً ، جـ ٧ ص ٨١ .

وقد وُصف في التوراة بأنه ليس بفظٍ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح »[١] .

وقد كشف رسول اللّٰه ﷺ أن اللّٰه تعالى بعثه ليتمم محاسن الأخلاق ، ذلك أن العرب كان قد بقي عندهم بقية من شريعة إبراهيم عليه السلام وكانوا ضلوا عن كثير منها فبعثه اللّٰه ليدلهم على ما ضلوا عنه وليتمم مكارم الأخلاق ، يقول ﷺ : « بعثت لأتمم حسن الأخلاق »[٢] .

وأخص الآن الحديث بأمثلة من أخلاقه ﷺ :

١ ـ الرحمة والرأفة :

من الأخلاق السامية التي اتصف بها رسول اللّٰه ﷺ الرحمة والرأفة التي وسعت الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، بل جاوزت الجنس البشري إلى الحيوانات العجماء ، فهو نبي الرحمة الذي بعثه اللّٰه رحمة للعالمين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٣] .

وهذا الجانب العظيم من شخصيته الفذة لا يدانيه فيه أحد من الناس ، فهو من أعظم الناس رحمة وأشدهم رأفة ، وخاصة بمن تبعه من المؤمنين . وقد وصفه اللّٰه عز وجل بهذه الصفة العظيمة بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤] .

ولقد عاش المسلمون تحت ظلال هذه الرحمة الوارفة ، ينعمون

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الفتح ، باب انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، جـ ٦ ص ٤٤ .

(٢) موطأ مالك ، كتاب حسن الخلق ، باب ما جاء في حسن الخلق ، جـ ٢ ص ٩٠٤ .

(٣) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧ .

(٤) سورة التوبة ، آية ١٢٨ .

بالمودة والمحبة التي يفيض بها قلب المصطفى الكبير ، فكان لهم كالأب يحنو عليهم ويرأف بهم ويراعي أحوالهم ، يتجوز في صلاته إذا سمع بكاء الطفل الصغير حتى لا تُفتَن أمه في صلاتها . يقول ﷺ : « اني لأقوم في الصلاة أريد أن أُطَوِّلَ فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه »[١] .

وكان ﷺ إذا ما خُيِّرَ بين أمرين يختار السهل البسيط ، قليل المشقة ، رحمة بهم وتيسيراً عليهم ، تقول عائشة رضي اللَّه عنها : « ما خير رسول اللَّه ﷺ بين أمرين قط إلَّا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول اللَّه ﷺ لنفسه في شيء قط إلَّا أن تنتهك حرمة للَّه فينتقم بها للَّه »[٢] .

ولما أرسل ﷺ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن أمرهما بالتيسير على الناس وعدم الاثقال والتبشير وعدم التنفير ، يقول ﷺ : « يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا »[٣] .

ولما بال الأعرابي في المسجد هَمَّ الناس بضربه فقال ﷺ : « دعوه وأهريقوا على بوله ذَنوباً من ماء أو سجلاً من ماء فإنما بعثتم مُيَسِّرِين ولم تبعثوا مُعَسِّرين »[٤] .

ومن رحمته بأصحابه وبره بهم ورأفته عليهم أنه سأل اللَّه أن يجعل كل دعاء أو لعنة أو سبة خرجت منه على أحد منهم رحمة وصلاة وطهوراً ، عن سلمان رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أيما رجل من أمتي سببته سبة أو لعنته لعنة في غضبي فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي جـ ١ ص ١٧٣ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول النبي يسروا ولا تعسروا جـ ٧ ص ١٠١ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول النبي يسروا ولا تعسروا جـ ٧ ص ١٠١ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول النبي يسروا ولا تعسروا جـ ٧ ص ١٠٢ .

بعثني رحمة للعالمين فاجعلها عليهم صلاة يوم القيامة »(١) .

وكان ﷺ يتفقد الفقراء والمساكين ويجالسهم ويعطف عليهم ، ولم يكن بينه وبين أصحابه حجاب ، ولا كان له مواكب ومراسم كملوك الأعاجم ، وكان الرجل يأتي فيجده جالساً بين أصحابه لا يعرف أيهم هو حتى يسأل عنه .

وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يحث أصحابه على التأدب بهذا الخلق العظيم ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٢) ، ويقول : « لا يرحَمِ اللَّه من لَا يَرحَمِ الناس »(٣) . ويقول : « الراحمون يرحمهم الرحمن »(٤) ، ويقول : « لا تنزع الرحمة إلَّا من شقي »(٥) ، ويقول : « إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء »(٦) .

وروي أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يُقَبِّلُ الحسن ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال رسول اللَّه ﷺ : « إنه من لا يَرحَم لا يُرحَم »(٧) ، وفي حديث آخر أن أعراباً قدموا على رسول اللَّه ﷺ فقالوا : أتقبلون الصبيان ؟ فقالوا : نعم ، فقالوا : لكنّا واللَّه ما نقبل فقال رسول اللَّه ﷺ : « وأملك ان كان اللَّه نزع منكم الرحمة »(٨) .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والادب ، باب من لعنه النبي أو سبه جـ ٤ ص ٢٠٠٧ ، سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله جـ ٤ ص ٢١٤ .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في رحمة المسلمين جـ ٤ ص ٣٢٤ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى قل ادعوا لله وادعوا الرحمن جـ ٨ ص ١٦٥ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في الرحمة جـ ٤ ص ٢٨٥ .

(٥) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في رحمة المسلمين جـ ٤ ص ٣٢٣ .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن جـ ٨ ص ١٦٥ .

(٧) ، (٨) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال جـ ٤ ص ١٨٠٨ .

وهـذا الخلق الرفيـع شمل غيـر المسلمين الذين أعـرضوا عن دعـوتـه وأذاقـوه من صنـوف العـذاب الشيء الكثيـر ، فقـد كـان ﷺ يقـابـل طيشهم وصلفهم بـالاحسان إليهم والـدعاء لهم رحمـة ورأفـة منـه عليهم ، فهـا هي قريش تشتد في ايذائه وتعذيبه فيأتيه جبـريل عليـه السلام قـائلاً لـه : ان اللَّه سمع قول قـومك لـك ، وما ردوا عليـك ، وقد أمـر مَلَك الجبال لتـأمره بمـا شئت فيهم ، فناداه ملكِ الجبال وسلم وقال : مرني بما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فيقـول نبي الـرحمـة : « بـل أرجــو أن يخـرج من أصلابهم من يعبد اللَّه وحده ولا يشرك به شيئاً »[1] .

ومن ذلك رحمته التي شملت زعيم المنافقين عبد اللَّه بن أُبَيّ الذي لم يأل جهداً في ايذاء رسول اللَّه ، وقد أثر عنـه ﷺ أنه حين تـوفي عبد اللَّه بن أبي وضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه »[2] .

وشملت رحمتـه الحيوان الأعجم ، فكـان من أرحم الناس بهـا ، وقد حثّ أصحابه على الرحمة بها ، ونهى عن كثير من العادات السيئة المتفشيـة في المجتمـع الجاهلي والتي فيهـا اضرار بـالحيـوانـات ، كقـطع اللحم من الحيوان وهو حي ، أو جعل الحيوان هدفاً للرماية أو التحريش بين الدواب ، إلى غيـر ذلك من العـادات القاسيـة والتي تتنافى مـع الرحمـة ، ذلك الخلق العظيم الذي عرف به المصطفى ﷺ .

وقد أمر رسول اللَّه ﷺ أصحابه برد فراخ الطائر الملهوف على أولاده ، روى عبد اللَّه بن عبد الرحمن قال : « كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرةً معها فَرخان ، فأخذنا فَرخيها ، فجاءت الحُمَّـرَّةُ فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولـدها إليهـا»[1] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب اذا قال احـدكم آمين والملائكـة في السماء آمين غفر له جـ ٤ ص ٨٣ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين ، جـ ٤ ص ٢١٤٠ .

(٣) سنن أبي داود ، كتـاب الأدب ، باب في قتـل الذر ، جـ ٤ ص ٤٦٧ ، والحمـرة : عصفور صغير .

هذا غيض من فيض من رحمة رسول اللّه ﷺ ورفقه بالعباد والدواب ، فهناك الكثير من المواقف التي تجلى فيها هذا الخلق عند نبي الرحمة .

٢ ـ التواضع وخفض الجناح :

من أخلاقه السامية التي تحلى بها ﷺ التواضع وخفض الجناح لمن تبعه من المؤمنين ، فقد كان ﷺ من أكثر الناس تواضعاً ، ومن أشدهم كراهية للكِبْرِ والتعالي على الأصحاب ، فلذا ذم الكبر والمتكبرين في كثير من أقواله ، بل وتوعد بالعذاب هذا الصنف من الناس ، حيث قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »(١) .

وهذا الخلق السامي الذي اتصف به عليه الصلاة والسلام عرفه كل من عاصره وعاشره ، فقد عاش مع أصحابه كواحد منهم ، لم يتميز عنهم في شيء من الأشياء ، يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون ، ويجلس معهم على الأرض كما يجلسون ، حيثما انتهى به المجلس جلس ، لا يستنكف أن يجالس الفقراء والمساكين ، يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، يأكل مع الخادم ، ويركب الحمار ، إلى غير ذلك من مظاهر التواضع وخفض الجناح الذي اشتهر به عليه الصلاة والسلام .

وكان ﷺ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد اللّه ورسوله »(٢) .

ودخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيبته فقال له : « هَوِّن عليك فإني لست بملك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة »(٣) . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظمة نفسه التي تَشَرَّبَت هذا الخلق بشكل لا نظير له .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الأيمان ، باب تحريم الكبر جـ ١ ص ٩٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها جـ ٤ ص ١٤٢ .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب القديد ، جـ ٢ ص ١٠١ .

ثم انه ﷺ كان يكره التميز على أصحابه في شيء ، يشاركهم العمل ويشرب من نفس الإناء الذي يشربون منه ، روي أنه كان عليه الصلاة والسلام في سفر مع صحبه فأرادوا أن يهيئوا طعاماً فقسموا العمل بينهم فقام يجمع الحطب ، فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى فقال : « علمت أنكم تكفونني ولكني أكره أن أتميز عليكم وان اللّه سبحانه يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » .

وروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ طاف بالبيت وهو على بعيره واستلم الحجر بمحجن كان معه ، قال : وأتى السقاية ، فقال : اسقوني ، فقالوا : ان هذا يخوضه الناس ولكنا نأتيك به من البيت ، فقال : لا حاجة لي فيه اسقوني مما يشرب منه الناس »[1] .

وكان ﷺ يمشي في الأسواق ، يقضي حوائجه بنفسه ، دون موكب ولا زينات وكان يقوم بقضاء حوائج الضعفاء والمساكين .

عن أنس بن مالك قال : « كانت الأمة من اماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول اللّه ﷺ فتنطلق به حيث شاءت »[2] .

وعن عبد اللّه بن أبي أوفى قال : « كان النبي ﷺ لا يستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما حاجتهما »[3] .

فأي خلق عظيم هذا الذي عرف به ﷺ ، لم يحتجب عن الناس ، ولم يترفع عليهم ولم تمنعه النبوة من الجلوس إلى الصغير والكبير والرجل والمرأة والأمة والعبد .

ولما دخل رسول اللّه ﷺ مكة فاتحاً منتصراً ، لم تفسد نشوة النصر وفرحة الغلبة عليه تواضعه الذي جبل عليه ، فقد أثر عنه أنه دخل مكة مطأطأ

---

(١) مسند أحمد جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب الكبر ، جـ ٧ ص ٩٠ .

(٣) سنن الدارمي ، المقدمة ، باب في تواضع رسول الله جـ ١ ص ٣٧ .

الرأس حتى كادت لحيته تلامس ظهر الدابة التي يركب عليها[1] . كل ذلك تواضعاً للّه الذي منّ عليه وعلى المسلمين بهذا النصر العظيم .

وهذا الجانب العظيم من شخصيته جعله يرفض كل مظاهر التعظيم والتفخيم من القيام وتقبيل الأيدي والاطراء والألقاب وغير ذلك من الأمور التي يلهث خلفها مرضى النفوس في كل الأزمنة .

عن أبي أمامة رضي اللّه عنه قال : « خرج علينا رسول اللّه ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا إليه فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً »[2] ، وكان ﷺ أحب الناس إلى أصحابه ، غير أنهم لم يكونوا يقومون له لكراهيته ذلك .

وقدم على رسول اللّه ﷺ وفد بني عامر ، فلما كانوا عنده قالوا : أنت سيدنا فقال : السيد اللّه تبارك وتعالى . فقالوا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً . فقال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشيطان »[3] وهذا كراهية منه للإطراء والألقاب .

ثم انه ﷺ رفض تقبيل يديه عندما أراد بعض أصحابه أن يقبلها .

وكان ﷺ يعمل في بيته في مهنة أهله يحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ، ويعلف البعير ويحمل بضاعته من السوق .

٣ ـ الحلم والعفو :

ومما اشتهر به ﷺ من الخصال الكريمة الحلم والعفو عن المسيء ، فقد كان من أوسع الناس صدراً وأكرمهم عفواً ، لم يكن يكافىء بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، وسع حلمه جفوة الأعراب وقسوتهم ، ولم يزده اسراف الجاهلين إلاّ حلماً وعفواً .

---

(١) الشفا جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في قيام الرجل للرجل جـ ٤ ص ٣٥٥ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في كراهية التمادح جـ ٤ ص ٢٥٤ .

وهذا الأدب الرفيع أدبه به ربه عز وجل حتى بلغ درجة لا تداني تخور دونها عزائم الرجال ، من هنا نجد القرآن يخاطب النبي الكريم : ﴿ **خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ** ﴾[1] .

أخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي ، قال : لما أنزل اللّٰه ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال رسول اللّٰه ﷺ : « ما هذا يا جبريل ؟ قال : لا أدري حتى أسأل العالم ، فذهب ثم رجع فقال : إن اللّٰه أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك »[2] فامتثل عليه الصلاة والسلام لأمر اللّٰه ، فكان من أكثر الناس عفواً وصفحاً عمن أساء إليه ، وقد تواترت الأخبار عن اتصافه بهذا الخلق الرفيع في صِلاته ، من هذه الأخبار :

عن أنس بن مالك رضي اللّٰه عنه قال : « كنت أمشي مع رسول اللّٰه ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائة جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول اللّٰه ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال اللّٰه الذي عندك فالتفت إليه رسول اللّٰه ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء »[3] . وفي رواية أخرى قال له الأعرابي : « يا محمد أحمل لي على بعيرَيَّ هذين فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : لا وأستغفر اللّٰه ، لا أحمل لك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني ، فقال الأعرابي : لا واللّٰه لا أقيدك ، فقال رسول اللّٰه ﷺ ثلاث مرات كل ذلك يقول الأعرابي : لا واللّٰه لا أقيدك ، فلما سمعنا قول الأعرابي أقبلنا إليه سراعاً فالتفت إلينا رسول اللّٰه ﷺ فقال : عزمت على من سمع كلامي أن لا يبرح مكانه حتى آذن له فقال رسول اللّٰه ﷺ لرجل من القوم : يا فلان احمل له على بعير شعيراً وعلى

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٩٩ .

(٢) فتح القدير للشوكاني جـ ١ ص ٢٨١ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب اللباس ، باب البرود والحبرة والشملة جـ ٧ ص ٤٠ .

بعير تمراً ثم قال رسول اللّه ﷺ : انصرفوا »[١] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه فاشتد عليه ، حتى قال له : أُحَرِّجُ عليكَ إلاَّ قضيتني فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك ، تدري من تكلم ؟ قال : إني أطلب حقي ، فقال النبي ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم ..... فقضى الأعرابي وأطعمه فقال : أوفيتَ أو أوفى اللّه لك ، فقال : أولئك خيار الناس انه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَعتَع »[٢]

ومن ذلك ما روي أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول اللّه ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم »[٣] .

ومن عظيم حلمه وكريم عفوه : « ما روي أنه ﷺ لما كُسِرت رباعيته وشُجَّ وَجهُه يوم أحد شَقَّ ذلك على أصحابه رضي اللّه عنهم شقاً شديداً ، وقالوا : لو دعوت عليهم فقال : اني لم أبعث لَعَّاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون »[٤] .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال حينئذ : « بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه لقد دعا نوح على قومه فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾[٥] ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا ، فلقد وُطِىءَ ظهرُك وأُدمِيَ وجهُك وكُسِرَت رَباعِيَتُك فأَبيتَ أن تقول إلاَّ خيراً فقلت : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

---

(١) سنن النسائي ، كتاب القسامة ، باب القود من الجبذة، جـ ٨ ص ٣٤ ، سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في الحلم وأخلاق النبي جـ ٤ ص ٢٤٧ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الصدقات ، باب لصاحب الحق سلطان، جـ ٢ ص ٨١٠ ، وقوله غير متعتع : أي من غير أن يصيبه أذى يزعجه .

(٣) فتح القدير جـ ٥ ص ٥٢ .

(٤) الشفا جـ ١ ص ٢٢١ .

(٥) سورة نوح ، آية ٢٦ .

قال القاضي أبو الفضل : انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الاحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال : « اغفر واهد » ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله : « لقومي » ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال : « فإنهم لا يعلمون »[1] .

ومن ذلك ما روي عن عبد اللّه بن عمر « أن ذا الخويصرة قال بعد قسمة قسمها رسول اللّه ﷺ إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه اللّه ، فقلت : واللّه لأخبرن النبي ﷺ فأتيته فأخبرته : فقال : فمن يعدل إذا لم يعدل اللّه ورسوله ، رحم اللّه موسى قد أوذي أكثر من هذا فصبر »[2] .

وليس أدل على حلمه وسعة صدره وعفوه عمن أساء إليه من موقفه النبيل مع قومه الذين ساموه سوء العذاب وأخرجوه من مكة ولحقوا به لمحاربته فما كان منه حين مكّنه اللّه منهم وأظفره عليهم إلَّا أن عفا وصفح عنهم وقال لهم : ما تقولون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم إن موقفه مع أبي سفيان وزوجته هند بنت عتبة التي بقرت بطن حمزة عمه ﷺ ومضغت شيئاً من كبده لأعظم دليل على تحليه بهذا الخلق الرفيع ، وبهذا بلغ المرتبة العالية من الجلال والكمال مما جعله أهلاً للاصطفاء والاختيار وحمل الرسالة الإلّهية وتبليغها للناس كافة .

٤ ـ لين الجانب وحسن العشرة :

ومما اشتهر به عليه الصلاة والسلام لين جانبه وحسن عشرته ، فقد

---

(١) الشفا جـ ١ ص ٢٢٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم ، جـ ٤ ص ٦٠ .

كان من أحسن الناس عشرة وألينهم عريكة في تعامله مع الناس ، وقد أحبه كل من عاشره وعاش معه ، وكان أحب إليهم من الأهل والمال والولد ، بل ومن أنفسهم لطيب معشره ولين جانبه .

يقول علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه يصف رسول اللّه ﷺ : « كان أوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله »[1] .

وكان ﷺ إلفاً مألوفاً ، يحسن عشرة أصحابه ، يؤلفهم ولا ينفرهم ، يكرم كريم كل قوم ، بشوش الوجه ، كثير التبسم ، رحب الصدر ، بعيداً عن الغلظة والفظاظة ، نفى اللّه سبحانه وتعالى عنه هاتين الخصلتين بقوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّاً غَلِيْظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2] .

وكان ﷺ يخالط أصحابه ويمازحهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ، ويعود مرضاهم ويشيع موتاهم ، يبدؤهم بالسلام والمصافحة ، يسمع لقولهم ، ولا يعرض عن أحد منهم ، يعطي سائلهم إن كان عنده ما يعطيه وإلَّا رده بكلمة طيبة ، يقبل الهدية ولو كانت شيئاً يسيراً ، يعطي كل جليس نصيبه من الاهتمام حتى يظن جليسه أن لا أحد أكرم عليه منه .

وصفه ابن أبي هالة بقوله : كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما يشتهي ولا يؤيس منه[3] .

ويقول أنس بن مالك رضي اللّه عنه في وصف معاملته ﷺ لأصحابه : « ما التقم أحد اذن رسول اللّه فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي

---

(١) الشفا جـ ١ ص ٢٤٤ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .
(٣) الشفا جـ ١ ص ٢٤٦ .

رأسه ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر[1] ، ولم يُرَ مُقَدِّماً ركبتيه بين يدي جليس له ، وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة لم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى يُضَيِّقَ بهما على أحد ، يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى ، ويكني أصحابه ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي أوقيام »[2].

ويقول أنس أيضاً : « خدمت رسول اللّه ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لِمَ صنعته ولا لشيء تركته لِمَ تركته »[3] .

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : « ما ضرب رسول اللّه ﷺ خادماً ولا امرأة قط »[4] .

وعن جابر بن سمرة قال : « جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت فربما تبسم معهم »[5] .

فَأَيُّ خلق رفيع بلغه المصطفى ﷺ في تعامله مع الناس ، ما أحوج البشرية اليوم ، والمسلمين خاصة إلى أخلاقه لتستقيم الحياة وتتحقق السعادة .

ثم ان أهل بيته نالوا من حسن عشرته ولين جانبه الشيء الكثير فقد كان يلاطفهم ويمازحهم ويساعدهم في أعمال البيت ، كيف ولا وهو القائل : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[6] .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب التجاوز في الأمر ، جـ ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) الشفا جـ ١ ص ٢٤٩ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب كان رسول الله أحسن الناس خلقاً جـ ٤ ص ١٨٠٤ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الادب ، باب التجاوز في الأمر جـ ٤ ص ٢٥٠ .

(٥) سنن الترمذي ، كتاب الأدب ، باب ما جاء في انشاد العشر جـ ٥ ص ١٤٠ .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب حسن معاشرة النساء جـ ١ ص ٦٣٦ .

وكذلك الصبيان شملهم بهذا الخلق الرفيع فكان يداعبهم ويلاطفهم ويسلم عليهم إذا مر بهم .

روى أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : « كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس خلقاً ، وكان لي أخ يقال له أبو عمير وهو فطيم كان إذا جاء قال ﷺ : يا أبا عمير ما فعل النفير[1] لطائر كان عنده » .

وهكذا لمس الكبير والصغير ، والمرأة والخادم ، وكل من خالطه ، حسن عشرته ولين جانبه ، فقد وسع الجميع بأخلاقه السامية التي فطره اللّه عليها .

٥ ـ حفظه للعهد ووفاؤه بالوعد :

خلق رفيع من أخلاقه الحميدة التي اشتهر بها عليه الصلاة والسلام ، فقد كان من أحفظ الناس للعهود والمواثيق ، ومن أشدهم وفاء للوعود ، فلم يؤثر عنه أنه نقض عهداً أو خالف وعداً لأحد من الناس سواء كان من أتباعه أو من اعدائه ، وسيرته العطرة خير شاهد على ذلك . كيف لا وشريعة الإسلام التي بعث بها تحث على احترام العهود والمواثيق وتؤكد على المحافظة عليها وتعتبر نقض العهد ومخالفة الوعد من كبائر الذنوب ومساوىء الشيم ، قال تعالى في وصف عباده المؤمنين : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾[2] فعَدَّ حفظ العهد من جملة الأخلاق الحميدة التي يتصف بها المؤمنون ، وقد حرم اللّه سبحانه وتعالى نصرة المسلمين لاخوانهم في الدين إذا كانوا يقيمون بين قوم مشركين ، بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق ، يقول تعالى : ﴿ **وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ** ﴾[3] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الآداب ، باب استحباب تحنيك المولود جـ٣ ص ١٦٩٢ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية ٨ .
(٣) سورة الأنفال ، آية ٧٢ .

ومن وفائه بالعهد بِرُّهُ لزوجته خديجة بعد موتها فقد أثر عنه أنه كان يتفقد صويحباتها ويبرهن وفاء منه لمن آزرته وأيدته في أيام الدعوة الأولى .

روى أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أُتِيَ بهدية قال : « اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة أنها كانت تحب خديجة »[1] .

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت : « ما غِرْتَ على امرأة ما غِرْتَ على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها ، وان كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها »[2] .

وكان يبر ثويبة مولاة أبي لهب وفاء منه لِلَّبَنِ الذي رضعه منها ، فقد أثر عنه أنه كان يبعث إليها بصلة وكسوة ، فلما ماتت سأل من بقي من قرابتها فقيل : لا أحد »[3] .

ومن وفائه ﷺ وصيته للمهاجرين أن يحسنوا إلى الأنصار ، الذين نصروا اللّه ورسوله وقد أثر عنه : أنه لما كان في مرض الموت خرج إلى أصحابه وصعد المنبر ، فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إليَّ ، فثابوا إليه ثم قال : أما بعد فإن هذا الحي من الأنصار يَقِلُّونَ ويكثُرُ الناس فمن ولي شيئاً من أمة محمد ﷺ فاستطاع أن يضر فيه أحداً أو ينفع فيه أحداً فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم »[4] .

وكان ﷺ لا يقتصر في وفائه على المسلمين ، بل كان من أشد الناس محافظة للعهود والمواثيق مع أعدائه ، حتى ولو كان فيها اعنات له ، حتى اذا نقض أعداؤه الميثاق جعل الله له بذلك مخرجاً ، كما حصل من يهود

---

(١) المستدرك جـ ٤ ص ١٧٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة ، جـ ٤ ص ١٨٨٨ .

(٣) الشفا جـ ١ ص ٢٦١ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد ، جـ ١ ص ٢٢٣ .

بني النضير وبني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، وكما حصل من مشركي قريش حيث نقضوا شروط صلح الحديبية بينه وبين سهيل ابن عمرو ممثل المشركين ، وكان من شروط الصلح أن من جاء محمداً من المشركين مسلماً رده اليهم ، فما كان منه ﷺ الا أن رد أبا جندل مع أبيه سهيل بن عمرو وفاء منه لما اتفقوا عليه وإن لم يكن قد كتب بعد ، وهذا غاية في الكمال الخلقي الذي بلغه ﷺ .

٦ ـ الجود والكرم :

ومما اشتهر به ﷺ الجود والكرم ، فقد كان أجود الناس وأكرمهم على الاطلاق شهد بهذا من عرفه قبل البعثة وبعدها ، وقد وصفته السيدة خديجة رضي الله عنها فقالت : « إنّكَ تَحمل الكلَّ وَتُكْسِبُ المعدومَ » .

لقد كان ﷺ جواداً كريماً معطاء يفيض بالخير على كل سائل ، لم يعرف عنه أنه رد سائلاً ، إن كان عنده ما يعطيه أعطاه وألا يرده بكلمة طيبة ويعده بالعطاء اذا تمكن من ذلك ، بل ربما قال له اشتر ما تريد واجعل ثمنه ديناً علي .

عن عمر رضي الله عنه قال : « جاء رجل فسأل النبي ﷺ فقال ما عندي شيء ولكن ابتع علي فاذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال له عمر رضي الله عنه : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله انفق ولا تخشى من ذي العرش اقلالا فتبسم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت »[١] .

وهذا غاية الجود ، ونهاية الكرم ، لم يصل اليه أحد من الناس ، وكان ﷺ بكرمه الواسع وجوده العميم يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « ما سئل رسول الله ﷺ على الاسلام شيئاً الا أعطاه ، قال : فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع الى قومه

---

(١) الشفا جـ ١ ص ٢٣٣

فقال : يا قوم أسلموا فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»[1] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : « ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا »[2] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: «أتي النبي ﷺ بمال من البحرين فقال انثروه في المسجد ، فكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ ، اذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله أعطني اني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً قال خذ فحثا في ثوبه ثم ذهب يُقِلّه فلم يستطع فقال أمر بعضهم يرفعه عليَّ ، قال لا ، قال : فارفعه أنت علي . قال : لا ، فنثر ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه ، فما قام رسول الله وَثَمَّ منها درهم »[3] .

وهكذا استعلى على المال ، ولم يلتفت اليه ، وأعطاه الناس ، دون أن يترك لنفسه وأهله منه شيئاً .

وكان يسابق الريح المرسلة بالخير ، سريع الجود ، كثير العطاء ، يقول ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فَلَرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة »[4] .

وأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية يوم حنين مائة من النعم ثم مائة ثم مائة[5] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ما سئل رسول الله شيئاً قط فقال لا جـ ٤ ص ١٨٠٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ما سئل رسول الله شيئاً قط فقال لا جـ ٤ ص ١٨٠٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجزية ، باب ما أقطع النبي من البحرين جـ ٤ ص ٦٥ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي جـ ١ ص ٤ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ما سئل رسول الله شيئاً قط فقال لا جـ ٤ ص ١٨٠٦ .

وعن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَرَّة المدينة فاستقبلنا أحد فقال : « يا أبا ذر ، قلت : لبيك يا رسول الله . قال : ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي علي ثالثة وعندي منه دينار الا شيئاً أرصده لدين الا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه »[1] .

وهكذا فقد كان ﷺ لا يبارى ولا يجارى أبداً ، ينفق مما آتاه الله ، دون خوف من قلة أو جوع ، وكان لا يبقي لنفسه وعياله شيئاً .

٧ ـ الشجاعة :

من الأخلاق العظيمة التي اشتهر بها عليه الصلاة والسلام الشجاعة والاقدام ورباطة الجأش في حروبه مع أعدائه ، فقد كان من أشجع الناس وأكثرهم اقداماً ، يواجه العدو بنفسه دون خوف أو وجل شهد بهذا صحابته الذين رأوا ذلك في حروبه ، فها هو فارس من فرسان المسلمين ، علي بن أبي طالب رضي الله عنه يصور لنا مدى شجاعة المصطفى عليه الصلاة والسلام واقدامه لمجابهة العدو حيث يقول : « لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»[2] .

والشواهد على شجاعته ورباطة جأشه كثيرة من ذلك موقفه يوم أحد اذ ثبت ﷺ في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش[3] .

ويوم حنين ثبت رسول الله ﷺ في ساحة المعركة حين تفرق عنه الأصحاب ، وفروا أمام العدو عندما باغتهم ، ولم يبق معه الا القليل من أصحابه ، يقول العباس في وصف يوم حنين : «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب المكثرون هم المقلون جـ ٧ ص ١٧٧ .

(٢) مسند أحمد جـ ١ ص ٨٦ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة أحد جـ ٣ ص ١٤١٥ .

فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء ، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله ﷺ يَركُضُ بغلته قِبَلَ الكفار ، قال عبّاس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها ارادة أنْ لا تسْرِع »[1] .

وقد غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة قاتل في ثمان منهن[2] .

ومن شجاعته ، أن أهل المدينة فزعوا ذات ليلة من صوت سمعوه ، فكان رسول الله ﷺ أول من ذهب نحو الصوت لاستطلاع الأمر ، روى أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم الى الصوت وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول : لن تراعوا وقال : وجدناه بحراً ، وكان الفرس بطيئاً فعاد لا يجاري »[3] .

وفي ثباته على الدعوة مع الايذاء والتعذيب الشديد في مرحلة الدعوة الأولى خير شاهد على شجاعته وجرأته ، فلم يضعف ولم يتردد في يوم من الأيام ، بل مضى في سبيله شجاعاً مقداماً لا تثنيه عداوة قريش ولا غيرها .

ثم من أخلاقه الحميدة التي اشتهر بها أيضاً الصبر والحياء والوقار والعدل والعفة وصلة الرحم وقلة الكلام وصدق اللهجة ، وغير ذلك من الأخلاق العالية الكريمة التي اجتمعت فيه دون سائر البشر .

وهكذا فقد كان ﷺ نموذجاً فريداً في أخلاقه التي بلغت درجة الكمال ووصف الجمال ، والتي لم يصل اليها أحد من الناس الا الأنبياء والمرسلون الذين رباهم الله عز وجل ونشأهم على هذه الأخلاق الفاضلة ليكونوا أهلاً للنبوة والرسالة .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين جـ ٣ ص ١٣٩٨ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب عدد غزوات النبي جـ ٣ ص ١٤٤٧ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق والسخاء جـ ٧ ص ٨٢ .

وهذه الأخلاق التي عُرف بها ﷺ هي الأخلاق السامية التي وعى عليها الاسلام والتي سأتحدث عنها في الفصل القادم .

رابعاً : حسن سياسته وتدبيره للأمور

ومن قرائن أحواله الدالة على صدقه تلك السياسة الواعية الحكيمة التي عرف بها عليه الصلاة والسلام رغم نشأته في بيئة بسيطة يتيماً فقيراً أمياً ، فقد كان مثالاً رائعاً لرجل الدولة الحكيم ، والسياسي البارع والقائد الناجح المتبصر بدقائق الأمور القادر على معالجة الحوادث بالحكمة ، وهذا يدل على مدى ما كان يتمتع به عليه الصلاة والسلام من رجاحة العقل وكمال الفكر وسلامة المنطق المنقطع النظير.

يقول الامام الماوردي : « وقد دل على وفور ذلك فيه ـ رجاحة العقل ـ صحة رأيه وصواب تدبيره وحسن تألفه وأنه ما استفعل في مكيدة ولا استعجز في شديدة ، بل كان يلحظ الاعجاز في المبادىء فيكشف عيوبها ويحل خطوبها ، وهذا لا ينتظم الا بأصدق وهم وأوضح جزم »[1] .

وهذا الجانب العظيم من شخصيته الفذة ﷺ برز بصورة واضحة جلية في المدينة المنورة بعد هجرته اليها حيث كانت مقراً للدولة الاسلامية الناشئة والتي كان هو زعيمها وقائدها .

والشواهد على حسن سياسته وحكمته في تدبير الأمور كثيرة ومتعددة ، من ذلك بناؤه للمسجد منذ الأيام الأولى من وصوله للمدينة المنورة اذ أحس بثاقب بصره أنه لا بد من ايجاد القاعدة الأساسية للدعوة الى الله وأداء العبادة فشرع ببناء المسجد ليكون مكاناً للعبادة ومركزاً للدعوة ومقراً للسلطة التنفيذية والقيادة العليا ، حيث يلتقي القائد فيه مع أتباعه ينصحهم ويشرع لهم ويشاورهم في مهام الأمور ، كما يلتقي مع الوفود القادمة اليه ويدعوهم

---

(١) اعلام النبوه للماوردي ص ٢٠٣ .

الى الاسلام ، وكان أيضاً المدرسة التي يتلقى فيها الناس العلم النافع ، وكان كذلك منطلقاً للجيوش التي تتوجه للغزو والفتوح .

ومن حسن سياسته ذلك الدستور العظيم الذي وضعه عليه الصلاة والسلام للمجتمع الجديد في المدينة المنورة لتحقيق الأمن والسلام الداخلي والخارجي ، لقد ضم المجتمع الجديد عناصر شتى ، الأوس والخزرج الذين كانوا يعيشون فيها ، منهم من دخل في الاسلام ، ومنهم من بقي على عبادة الأوثان ، ثم اليهود أصحاب الفتن والقلاقل ، ثم المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم ، وكان الأعداء يحيطون بها من كل جانب ، فرأى عليه الصلاة والسلام بثاقب بصره أنه لا بد من وضع دستور واضح المعالم يبين لكل فئة من هذا المجتمع ما لها وما عليها لمصلحة الوطن الذي يعيشون فيه ولحمايته من الأعداء المحيطين به من كل جانب ، فلذا أخذ العهود والمواثيق على اليهود لاحترام ما جاء في الدستور الجديد ، والالتزام به ، ضامناً لهم الحرية الدينية ، ومما جاء في هذا الدستور: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس . . . »[1] فنظم فيها حقوق كل طائفة وواجباتها .

ومن أعماله التي تدل على حسن سياسته المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، حرصاً منه على وحدة صف المسلمين وتلاحمه بعضه مع بعض وطمساً لدعوى العصبية التي كانت متفشية بين القبائل العربية لاقتلاعها من نفوس الجماعة المسلمة .

وقد جعل عليه الصلاة والسلام للرجل من قريش أخاً له من الأوس وللآخر من الخزرج ، ولم يزل يؤاخي بين هؤلاء وهؤلاء ويوثق الأواصر ، حتى لم يبق أحد من المهاجرين الا وله أخ في الله من الأنصار ، ثم غرس

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٦ .

في نفوس الجميع معنى الأخوة في الله ، الذي هو أسمى من كل الروابط ، أسمى من رابطة الدم واللحم والنسب والعصبية للبلد ، حتى قَدَّم رباط العقيدة على رباط الدم في الميراث في المرحلة الأولى لقيام الدولة الاسلامية ونُسخ فيما بعد ، وهذا من أعظم الأسس التي أقيم عليها صرح الدولة الاسلامية الناشئة .

وهذا العمل الجليل الذي قام به عليه الصلاة والسلام يدل على بعد نظره ورجاحة عقله وخبرته في أمور السياسة لأن قوة الصف من وحدته ، وليس أوثق من رباط الأخوة في الله الذي يؤلف بين النفوس من شتى البقاع والأصقاع ويصهرها في بوتقة واحدة قوية مرهوبة الجانب .

ومن حسن سياسته موقفه الحازم من مسجد الضرار الذي شيده المنافقون ليكون مركزاً لبث الفتن في صفوف المسلمين فسارع عليه الصلاة والسلام الى اقتلاع الداء من جذوره ، فأمر باحراق المسجد وازالته عن وجه الأرض ، ولم تمنعه رقته ورحمته من اجتثاث هذا المنكر من أصوله ،وهذا يدل على حكمته البالغة وتدبيره السديد .

ومن ذلك أيضاً مصالحة أهل مكة وكتابة معاهدة بينه وبينهم ، وذلك عندما توجه هو وأصحابه الى مكة يريدون أداء العمرة ، فحالت قريش بينهم وبين ما يريدون ، فكتب الكتاب الذي عرف بصلح الحديبية . وقد تضمن هذا الصلح شروطاً ظاهرها ليس في مصلحة المسلمين ، وخاصة ذلك الشرط الذي أملته قريش الذي يقول أن من يلجأ الى محمد خلال مدة الصلح من غير اذن وليه ، من قريش ، يرده اليها ، وألا ترد قريش من يلجأ اليها من أصحاب محمد، فشق ذلك على المسلمين ، وكادوا أن يهلكوا مما دخل عليهم من أمر ذلك الصلح حتى أن عمر بن الخطاب وثب الى رسول الله ﷺ قائلاً ألست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني .

ومرت الأيام وأثبتت أن الخير كان في هـذا الصلح ، وكشفت عن كياسة رسول الله ﷺ ورجاحة عقله ، اذ أسفر هذا الصلح عن فتح مكة بعد مضي سنتين عليه ، فكان بركة على الاسلام حتى ذلك الشرط البغيض الذي شق على المسلمين قبوله ، تحول بعد سنة من المعاهدة الى حَربَـةٍ في صدر قريش ، حينئذ لجأت الى رسول الله ﷺ مستغيثة مستصرخة لالغائه لأن المسلمين الفارين بدينهم من قريش لجأوا الى الجبال في ساحل البحر وقطعوا الطريق على تجارة قريش وهكذا تبين للناس حسن سياسته وبالغ حكمته في تصريف الأمور .

وتبدو حكمة السياسي البارع ، وحنكة القائد الحكيم في موقفه حين اجتمع الأحزاب لحربه واستئصال المسلمين ، وحين نقضت بنو قريظة عهدها المبرم معه ، فما كان منه حين سمع ذلك الخبر الا أن أرسل من يستطلع الخبر ، وأمرهم أن يلحنوا له بلحن اذا كان ما سمعه حقاً حتى لا يوهنوا عزائم المسلمين ، وإن كان ما سمعه غير صحيح وأنهم لم يزالوا على عهدهم فليهجروا بذلك بين الناس فلما رجع القوم لحنوا اليه بأن ما سمعه كان حقاً حينئذ قال عليه الصلاة والسلام : « الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين » .

وبهذا تتجلى حكمة القائد الناجح في الكشف عن الأحداث والتكتم عليها للمحافظة على الروح المعنوية لدى جنده .

هذه بعض مواقفه العظيمة التي تكشف عن مدى حكمته البالغة في تصريف الأمور ومعالجة الأحداث .

وبعد هذا العرض لفصول من أحواله ﷺ قبل البعثة وبعدها ، يتبين لنا المستوى الرفيع الذي بلغه عليه السلام في كل أحواله ، وظهرت لنا عظمته في كل جوانب شخصيته ، فهو عظيم في ذاته ، عظيم في صفاته وأخلاقه ، عظيم في أفعاله ، ومصدر كل هذا نبوته وعناية الله به ، وأنوار السماء عليه .

وكلمة أخيرة أختم بها الكلام على سيرته فأقول : لقد توفر في رسول الله ﷺ عدد من الصفات والخصال لم تجتمع لأحد غيره على مر التاريخ ، وكان رسول الله في كل خصلة منها غاية الكمال بحيث يفوق الرجل المتخصص فيها ، وكانت هذه الصفات فيه مجتمعة بتوازن بحيث لا يطغى جانب على آخر .

لقد كان رسول الله ﷺ مؤمناً بربه ، شديد الصلة به ، كثير العبادة له ، وكان بإيمانه وعبادته يفوق العُبَّاد الذين انقطعوا عن الدنيا ومشاغلها .

وكان ﷺ زاهداً في حياته ، لم يبحث عن لذائذ الطعام وألوان الشراب ، إن وجد أكل وإن لم يجد صبر ، وكان لباسه خشناً ، وفراشه خشناً ، وبيته بسيطاً ، وأثاثه قليلاً وكان في زهده أشد من أشهر الزهاد الذين يتناقل الناس أخبارهم .

وكان قائداً ناجحاً يحسن تدبير الأمور ، ويجيد تصريفها ، ويختار من الأمور أحكمها وأسلمها وكانت رعيته مُحِبَّةً له ، واثقة به ، راضية بقيادته ، مستسلمة لأمره ، وكان في قيادته أعظم من مشاهير الحكام وعظماء الأكاسرة والقياصرة .

وكان ﷺ عسكرياً شجاعاً ، لا يهاب الموت ولا يُلقي في نفس الوقت جنوده في المهالك ، وحسنَ التخطيط للمعارك ، ويقود الجند الى النصر ، وقد بَزَّ كبار القادة في هذا الجانب .

وكان قمة في أدبه وأخلاقه ومعاملته للغير وتربيته لأصحابه ، وتنشئتهم على الطريق المستقيم وتعليمهم الخير من الشر بحكمة وصبر ، وكان في ذلك أعظم المربين .

وكان ﷺ الزوج القريب من أزواجه ، لم تشغله أعماله الكثيرة عن بيته ، ولم يجنح لزوجة دون أخرى ، يقسم لهن في العطاء والنوم وجميع المستلزمات ، وكان على قلة ذات يده وشظف عيشه ، أكرم الأزواج وأبرهم

بأهله وأعطفهم عليهم وأحبهم اليهم .

كل هذا دون أن يطغى فيه جانب على آخر ، ودون أن ينسيه واجب واجباً غيره ، فكان قمة ورأساً وعلماً في جميع الجوانب .

ولئن اشتهر بعض الناس بحسن سياسته أو بعبقريته العسكرية أو بكثرة عبادته أو بشدة زهده ، أو جمال خلقه ، أو بحسن عشرته ، الا أنه لم يكن ليحوز الكمال في بقية الجوانب ، ولكن رسول الله كان كاملاً بأخلاقه الشاملة لكل جانب من جوانب الحياة مما جعله مثلاً أعلى وأسوة حسنة وقدوة خَيّرة لأصحابه وأتباعه الى يوم الدين .

إن سيرة رسول الله مكشوفة معروفة بكل دقائقها وتفصيلاتها وهي في كل جزئية منها شاهد عظيم على صدقه وعظمته وكمال أخلاقه ، وأهليته لتحمل الأمانة وتبليغ الرسالة .

الفصل الثالث

الدلالة الموضوعية للرسالة المحمدية على صدقه

المقصود بهذا الفصل هو : دلالة ما تضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية من موضوعات مختلفة سواء ما كان منها في جانب العقيدة أو الأخلاق أو التشريع ، على صدقه ﷺ .

وبالمقارنة بين موضوعات القرآن الكريم وأشعار العرب في الجاهلية ، يظهر لنا أن هناك انعطافاً شديداً من حيث المسائل التي تحدث عنها القرآن ، فالشعر العربي في الجاهلية والنثر أيضاً تحدث عن الفخر والرثاء والغزل والهجاء والمدح وأيام العرب ووصف الناقة وغيرها ، بينما تحدث القرآن عن عقيدة التوحيد والأنبياء والقيامة وعبادة اللّٰه والتمسك بالفضائل والأخلاق الكريمة وتنظيم جوانب الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية .

إذن لم يكن مضمون القرآن الكريم امتداداً لمضمون الشعر العربي ، وليس هو وليد تلك البيئة ، ولم يكن نهاية تطور معين ، فما هو إلَّا هبة السماء إلى أهل الأرض لإخراجهم من ظلام الجهل إلى نور الوحي .

وسأتكلم إن شاء اللّٰه في هذا الفصل مفردة الحديث في جانب العقيدة بمبحث وفي جانب الأخلاق بمبحث آخر ، وفي جانب التشريع بمبحث ثالث ، ممهدة لكل هذا بمقدمة عن مزايا الرسالة المحمدية بمعناها الواسع الذي يتضمن الجوانب الثلاثة .

ختم اللّٰه سبحانه وتعالى الشرائع السماوية بشريعة الإسلام ، تلك الشريعة العظيمة التي بعث بها المصطفى ﷺ لإسعاد البشرية وتحقيق الخير لها في الدنيا والآخرة وانقاذها من مهاوي الضلال ومستنقعات الفساد الذي تخبطت به ولا زالت تتخبط به كلما بعدت عن منهج اللّٰه ، وهذا من رحمة اللّٰه الواسعة بعباده الضعفاء القاصرين عن الإحاطة بما فيه خيرهم في دنياهم وأخراهم .

والشريعة الإسلامية هي وحدها الكفيلة بتحقيق السعادة الكاملة للبشرية ، إذا ما التزمت بها دستوراً ومنهاج حياة ، لما تمتاز به عن غيرها من الشرائع السماوية الأخرى والنظم الوضعية . فهي الشريعة الشاملة الكاملة ، التي أكمل اللّٰه بها الشرائع السماوية السابقة ، وصحح بها ما طرأ عليها من التحريف والتبديل .

والمتأمل في هذه الشريعة يقف على مزاياها الفريدة وخصائصها المتميزة والتي من أهمها :

أولًا : انها شريعة إلٰهية

الشريعة الإسلامية منزلة عن اللّٰه سبحانه وتعالى ، المتصف بصفات الكمال والجلال ، العليم الخبير بما فيه مصلحة العباد في العاجل والآجل ، قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾(١) .

وبهذا فهي تختلف عن غيرها من الشرائع الوضعية اختلافاً جوهرياً لأن مصدر تلك الشرائع البشر الضعفاء المتصفون بالعجز والنقص والجهل ، وبهذا فهي شريعة عادلة لا ظلم فيها ، كاملة لا نقص يشوبها . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَومٍ يُوْقِنُونَ ﴾(٢) ، والنظم الصادرة عن البشر ناقصة جائرة كأصحابها .

---

(١) سورة الملك ، آية ١٤ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٥٠ .

إن الشريعة الإسلامية هي دين الله الخالد الذي ارتضاه سبحانه وتعالى لعباده وأوجب عليهم الالتزام به والسير على نهجه ، ولا يقبل منهم ديناً غيره ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾[1] وقال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[2] .

ولهذه الشريعة باعتبار صدورها عن الله سبحانه وتعالى أثر كبير وسلطان عظيم على نفوس المؤمنين بها في كل زمان ومكان ، يحترمونها ويلتزمون بما فيها عن طواعية ورضى بخلاف النظم الوضعية فليس لها ذلك السلطان وتلك الهيبة ، مما يجعل الناس يتجرأون عليها بالمخالفة كلما استطاعوا الإفلات من رقابة الدولة وسلطة القضاء ، أما الشريعة الإسلامية فحظيت باحترام الجميع وخوفهم من مخالفتها لما تغرسه في النفوس من الوازع الديني الذي يربي النفوس من الداخل ويوقظها لتكون رقيباً على صاحبها في السر والعلن .

ومن الأمثلة الواضحة التي تؤكد سلطان الشريعة العظيم على نفوس أتباعها بخلاف النظم الوضعية تحريم الخمر ، فقد جاء الإسلام والعرب في الجاهلية مولعون بشرب الخمر ، يحبونها حباً شديداً ، ولا تكاد تفارق مجالسهم فما أن نزل القرآن بتحريمها في نهاية المطاف حتى سارعوا إلى امتثال الأمر وطاعة الله وبادر الجميع إلى إراقة ما عندهم منها حتى سالت بها أزقة المدينة ، وبهذه الطريقة من الشارع الحكيم اقتلعت عادة مستحكمة من المجتمع العربي الذي عرف نور الإسلام آنذاك .

ولنَرَ في المقابل تجربة الولايات المتحدة في القرن العشرين عندما أرادت منع شعبها من تعاطي الخمور ، لما لها من أضرار كثيرة ، فشرعت سنة ١٩٣٠م قانوناً يقضي بمنع الخمر ومهدت له بدعاية واسعة عن طريق

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٨٥ .

وسائل الإعلام المختلفة ، وقامت بطبع العديد من الكتب والنشرات التي تبين مضار الخمر ، مَوَثَّقَةً بالاحصائيات والبحوث العلمية والطبية وقد بذلت الأموال الطائلة من أجل ذلك ، إذ بلغت تكاليف الدعاية (٦٥) مليوناً من الدولارات .

ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ لقد دلت الاحصائيات للفترة الواقعة بين تاريخ تشريع القانون سنة ١٩٣٠م والغائه سنة ١٩٣٣م أنه قتل في سبيل الغائه مئتا شخص وسجن نصف مليون ، وغرم المخالفون الملايين من الدولارات وصودرت أموال بسبب المخالفة تقدر بأربعمائة مليون ، وكان آخر المطاف أن اضطرت الحكومة إلى إلغاء القانون في أواخر سنة ١٩٣٣م[١] .

وهذا يدل على ضعف سلطان القانون الوضعي وقوة سلطان النظام الرباني .

ثانياً : انها شريعة عالمية

أرسل اللّه نبيه محمداً ﷺ بالقرآن ليكون منهاج حياة للبشرية جمعاء ، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾[٢] وقال : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** ﴾[٣] ، وقال : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[٤] .

فليست هذه الشريعة لقريش خاصة ، ولا للعرب ، بل لكل البشر ، بخلاف سابقاتها من الشرائع التي كانت تختص بزمان معين ومكان معين

---

(١) المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية ص ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) سورة سبأ ، آية ٢٨ .
(٣) سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧ .

وأقوام معينين ، وبخلاف النظم الوضعية التي توضع لتنظيم شؤون دولة معينة ، تحد باقليم معين .

ولما كانت هذه الشريعة عالمية جاءت مبادئها وقواعدها عامة كلية صالحة لكل زمان ومكان .

ثالثاً : أنها شريعة خالدة ثابتة

شريعة الإسلام ، شريعة خالدة ثابتة ، كتب اللّه لها البقاء أبد الدهر ، فلم يلحقها النسخ ، ولا تقبل التغيير أو التبديل مطلقاً ، بخلاف الشرائع السماوية السابقة والتشريعات الوضعية ، فقد نسخت الشرائع السابقة بشريعة الإسلام ، ولحق بها أيضاً التبديل والتغيير من قبل رجال الدين الذين وكل اللّه لهم حفظها ، وكذلك النظم الوضعية غير ثابتة ، بل دائمة التغيير والتبديل بحسب أهواء واضعيها ومصالح الطبقة الحاكمة المترفة .

وقد تكفل اللّه بحفظ كتابه بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

ولما كانت الشريعة الإسلامية متميزة بثباتها وعدم تغيرها جاءت أحكامها قطعية في العقائد والمبادىء العامة وأصول التشريع . وجاءت مرنة في أحكامها الشرعية تستوعب كل جديد وتواكب كل تطور وتتلاءم مع مختلف الظروف وتساير الزمان والمكان .

رابعاً : أنها شريعة ملائمة للفطر السليمة

جاءت أحكام الشريعة الإسلامية ملائمة للفطر السليمة بكل رغباتها وأشواقها ، فهي تعترف بحاجات الإنسان الروحية والمادية ، وتنظر إليه على

---

(١) سورة الحجر ، آية ٩ .

أنه روح ومادة ، وتبني أحكامها على الموازنة بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد دون تنمية لأحدهما على حساب الآخر ، يقول تعالى : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ** ﴾(١) ، ولهذا جاءت أحكامها واقعية ، وهذا ما أخفقت به التشريعات الوضعية ، إذ انها تهمل الجانب الروحي في الإنسان ، بينما تعاليم الكنيسة تهتم بالجانب الروحي على حساب الجانب المادي ، وفي كلتا الحالتين تحدث الفوضى والاضطراب ولا يجد الإنسان طعم السعادة ولذة العيش وهذا سر الجنوح الذي تحياه البشرية وخاصة المجتمع الغربي .

خامساً : أنها شريعة أخلاقية

تتضمن الشريعة الإسلامية مبادىء أخلاقية رفيعة غاية في الكمال والجمال ترتكز على الوازع الديني من رقابة للّه سبحانه ورجاء في ثوابه وخوف من عقابه .

لقد حثت الشريعة الإسلامية كثيراً على مكارم الأخلاق ودعت إليها ليرتقي الإنسان بها ويسمو ويستقيم سلوكه ، وليست الأخلاق أدباً نظرياً يتحلى به صاحبه ، بل هي التزامات عملية يوجبها الدين وتستلزمها العقيدة السليمة ، وهي غاية تربوية وثمرة للعبادات تنعكس لتكون ترجمة عملية في حياة الأفراد والأمم . وبهذا تختلف عن النظم الوضعية التي لا اعتبار فيها للأخلاق مطلقاً ، لأن الأخلاق من محاسن العادات في حياة الأفراد ، والقانون نظام يقضى به فيما يكون بين الناس من الخصومات، لذا فهو يهمل المبادىء الأخلاقية ولا يعاقب إلاَّ على ما فيه ضرر مباشر للأفراد أو إخلال بالأمن . فلا يعاقب مثلاً على الزنا إلاَّ إذا كان فيه إكراه لأنه لا يعتبر الزنا في

(١) سورة القصص ، آية ٧٧ .

حد ذاته جريمة ، كما لا يعاقب على شرب الخمر إلَّا إذا وجد السكران في الطريق العام ، لأن القانون لا يعتبر شرب الخمر رذيلة في حد ذاته حتى يعاقب عليه ، فالقانون لا يقوم على الأخلاق بخلاف الشريعة الإسلامية التي تعتبر الأخلاق جزءاً من نظامها وتبني أحكامها عليها وتدعو إليها وتعاقب على مخالفتها .

سادساً : أنها شريعة كاملة شاملة

تتصف شريعة الإسلام بالكمال ، لأنها منزلة عمن يتصف بالكمال المطلق ، وقد كملت قبل وفاة الرسول ﷺ وانتهت إلى الغاية التي أرادها اللَّه عز وجل ، يقول تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيْناً ﴾[1] .

وهي شريعة شاملة ، تعنى بتنظيم جوانب الحياة المختلفة ، وتقيم أحكامها على أصول عقدية سليمة ، ثم تنظم صلة الإنسان بخالقه وصلته بنفسه وبالمجتمع من حوله ، سواء في الجوانب الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدولية أو العسكرية أو الجنائية أو القضائية .

وتنقسم أحكام الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأحكام الاعتقادية : وتتضمن قضايا الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من اللَّه تعالى .

القسم الثاني : الأحكام الخلقية : وهي التي تتعلق بمكارم الأخلاق كالصدق والأمانة وصلة الرحم والأخوة .

القسم الثالث : الأحكام العملية : وهي التي تتصل بالأقوال والأفعال الصادرة عن الإنسان في علاقاته مع خالقه ومع غيره ، وهي قسمان : العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج ونذر ويمين واعتكاف والمعاملات

---

(١) سورة المائدة ، آية ٣ .

كالأحكام المتعلقة بالأسرة والمعاملات المالية والقضاء وموارد الدولة ومصارفها ونظام الحكم وقواعده وعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول إلى غير ذلك من الأحكام .

إن الشريعة الإسلامية نظام حياة متكامل الجوانب انبثق منه مجتمع إسلامي نظيف تربطه أواصر المحبة والأخوة والمساواة بين أفراده والتعاون بينهم على الخير ذلك المجتمع الذي يتلقى شريعة اللّٰه بالقبول والرضى ويتقيد بتعاليمها .

هذه أهم مزايا الرسالة المحمدية التي ارتضاها اللّٰه لعباده ، وأشرع الآن في الحديث عن جوانبها الثلاثة العقيدة والأخلاق والشريعة ، مفردة الكلام في كل واحدة منها بمبحث خاص .

المبحث الأول
العقيدة الإسلامية

جاءت الشريعة الإسلامية بعقيدة واضحة بسيطة لا لبس فيها ولا غموض ولا تعقيد ، قوامها توحيد الباري عز وجل وافراده بالخلق والتدبير والتصرف ، فهو وحده الخالق المالك المتصرف في هذا الكون ، يحيي ويميت ، يعطي ويمنع ، يعز ويذل ، بيده الأمر كله ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ﴾(١) . وقال : ﴿ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ ﴾(٢) وإرادته مهيمنة مسيطرة على الكون كله ، يفعل ما يشاء ، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾(٣) . وقال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤) .

وكذلك افراده تعالى وحده بالعبادة والخضوع ، فهو وحده الإله المعبود بحق ، لا إله غيره ولا معبود سواه ، قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٥) . وقال : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾(٦) . وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾(٧) ، فهو رب الناس ، خالقهم ورازقهم والمتصرف في شؤونهم ،

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٥٤ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٢٦ .
(٣) سورة القصص ، آية ٦٨ .
(٤) سورة البقرة ، آية ٢٨٤ .
(٥) سورة محمد ، آية ١٩ .
(٦) سورة البقرة ، آية ١٦٣ .
(٧) سورة الناس ، الآيات ١ ـ ٣ .

الإله المستحق لعبادتهم ، الذي لا يجوز إشراك غيره معه بأي نـوع من أنواع العبادة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١] . وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ ﴾[٢] .

ثم افراده سبحانه وتعالى بكل صفات الكمال والجلال وتنزيهه عن كل صفات النقص والمشابهة ، فله سبحانه المثل الأعلى ، لا يشاركه أحد في أسمائه وصفاته ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[٣] ، وقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدُ ﴾[٤] ، فهو يتصف بالصفات العليا والأسماء الحسنى من العلم الواسع والقدرة المطلقة والإرادة الشاملة والرحمة الواسعة والعلو وغير ذلك من صفات الجلال والكمال ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[٥] .

والإيمان باللّه وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل هو الركن الأصيل والقاعدة الأساسية في العقيدة الإسلامية التي ينبثق منها سائر مقومات العقيدة .

ومن مقوماتها الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وأهوال

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) سورة الأنعام ، الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٣) سورة الشورى ، آية ١١ .
(٤) سورة الاخلاص .
(٥) سورة الأعراف ، آية ١٨٠ .

وحساب ، ذلك اليوم الذي يجمع اللّه فيه الأوّلين والآخِرين ويحاسبهم على أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (١) .

ولأهمية هذا الركن في العقيدة الإسلامية نجد القرآن الكريم يؤكده عليه كثيراً ، حتى انه لا يكاد يذكر الإيمان باللّه إلاَّ ويقرن به الإيمان باليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ البِرّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (٢) . ولكن مشركي العرب استعظموا هذا الأمر ، وأنكروا البعث والحساب بعد الموت والبِلى ، فرد اللّه عليهم إنكارهم وأقام الأدلة القاطعة على ذلك مبيناً لهم أنه سبحانه لم يخلق الناس عبثاً وأن حكمته البالغة وعدله المطلق يقتضي أن يكون هناك يوم آخر يحاسب فيه الجميع على أعمالهم ، قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللّهُ المَلِكُ الحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ ﴾ (٣) .

ومن مقومات العقيدة الإسلامية الإيمان بالملائكة ، ذلك العالم الغيبي ، الذي خلقه اللّه عز وجل من نور قبل أن يخلق آدم أبا البشرية عليه السلام . والملائكة مفطورة على الطاعة ، مجبولة على الخير ، منزهة عن الشهوات الحيوانية ، لا يعصون اللّه ، قال تعالى في وصفهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيات ٦ ـ ٨ .
(٢) سورة البقرة ، آية ١٧٧ .
(٣) سورة « المؤمنون » ، الآيتان ١١٥ ـ ١١٦ .
(٤) سورة النحل ، آية ٥٠ .
(٥) سورة التحريم ، آية ٦ .

وللملائكة أعمال مختلفة كَلَّفهم اللَّهِ بها ، منهم سفراء الوحي بين اللَّه ورسله، ومنهم الموكلون بالجنة والنار ، ومنهم الموكلون بـأمر الخلق من الحفظ وتسجيل الأعمال والدعاء والاستغفار للمؤمنين وغير ذلـك من الأعمال التي يؤدونها دون عصيان أو مخـالفة ، قـال تعالى : ﴿ بَـلْ عِبَادٌ مُّكْـرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾(١) .

ومن مقوماتها أيضاً الإيمان بالرسل ، اعلام الهدى في الأرض ، الذين اصطفاهم اللَّه واختارهم ليكونوا مشاعل النور ، وهداة الخير ، من لـدن نوح عليه السلام وحتى نبينا محمد ﷺ .

والإيمـان برسـل اللَّه جميعـاً دون تفـريق بينهم واجب على كـل مسلم يؤمن باللَّه تعالى ، ولا يجوز الإيمان ببعضهم دون الآخـرين ، ومن لم يؤمن بـواحد منهم فقـد كفـر ، قـال تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ يَكْفُـرُونَ بِـاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُـرِيْدُونَ أَنْ يُفَـرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُـولُـونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُـرُ بِبَعْضٍ وَيُـرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِـذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيـلاً أُولَئِكَ هُمُ الكَـافِـرُونَ حَقـاً وَأَعْتَـدْنَـا لِلكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾(٢) .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يؤكد على الإيمان بـرسل اللَّه جميعـاً دون تفريق ، قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَـا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْمَـاعِيْلَ وَإِسْحَـاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَـاطِ وَمَا أُوتِيَ مُـوْسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٣) .

ومن مقوماتهـا الإيمان بـالكتب المنزلـة من لدنـه سبحانـه وتعالى على

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٣٦ .

رسله الكرام عليهم صلوات اللّه وسلامه كالتوراة المنزلة على موسى، والانجيل المنزل على عيسى والزَبُور المنزل على داود وصحف إبراهيم، والقرآن المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، تلك الكتب التي كانت تبين الخير من الشر، والحق من الباطل، لتهتدي البشرية بهديها، وتنعم بالخير والسعادة في اتّبَاعها.

ومما جاء في القرآن الكريم يؤكد نزول الكتب السماوية من لدنه سبحانه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ ﴾[1]. وقوله: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾[3]، وقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾[5].

ولكن رجال الدين في اليهودية والنصرانية قاموا بتحريف التوراة والانجيل، بالتبديل والتغيير والزيادة والنقص. يقول تعالى: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ ﴾[6]، ويقول: ﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾[7]، ولم يسلم من هذه الكتب من التحريف والتبديل إلَّا القرآن الكريم الذي تعهد اللّه بحفظه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[8].

ومن مقوماتها الإيمان الجازم بالقضاء والقدر خيره وشره من اللّه تعالى، ومعناه الإيمان بأن كل ما حدث ويحدث في هذا الكون بشكل عام

---

(1) سورة المائدة، آية ٤٤.
(2) سورة المائدة، آية ٤٦.
(3) سورة النساء، آية ١٦٣.
(4) سورة النجم، الآيتان ٣٦ - ٣٧.
(5) سورة المائدة، آية ٤٨.
(6) سورة النساء، آية ٤٦.
(7) سورة المائدة، آية ٤١.
(8) سورة الحجر، آية ٩.

الإنسان بشكل خاص قد عَلِمَهُ اللَّه عز وجل قبل حدوثه وكتبه عنده في للوح المحفوظ ، لأن من صفات اللَّه العلم المطلق .

فالقَدَر إذن هو ما قَدَّرَهُ اللَّه عز وجل قبل خلق السموات والأرض وَعَلِمَ أنه سيحدث في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة ، وكتب ذلك عنده في اللوح المحفوظ ، والقضاء هو حدوث الوقائع طبقاً لما كتب تماماً .

فقدر اللَّه مهيمن ومسيطر على الكون ، شامل لكل موجود خلقه اللَّه تعالى ، فكل شيء قدر اللَّه سبحانه وتعالى مقاديره وأحواله وعلم ما بسيكون له وما سيكون منه ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾[١] ، وقال : ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾[٢] ، وقال : ﴿ **وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[٣] .

والإنسان من ضمن ما في الكون ، قدّر اللَّه مقاديره وأحواله ، رِزقَه وأَجَلَه وعملَه وشقي أو سعيد . قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾[٤] . ويجب على المسلم أن يؤمن بأن كل ما يحدث له في هذه الحياة معلوم ومكتوب عند اللَّه قبل حدوثه .

هذه هي مقومات العقيدة الإسلامية التي جاء بها المصطفى عليه الصلاة والسلام ودعا إليها وعمل على ترسيخها في قلوب أصحابه ، وخاصة في مرحلة الدعوة المكية .

وهي ميراث رسل اللَّه جميعاً ، فما من رسول إلَّا ودعا قومه إلى توحيد

---

(١) سورة القمر ، آية ٤٩ .
(٢) سورة الرعد ، آية ٨ .
(٣) سورة الحجر ، آية ٢١ .
(٤) سورة الحديد ، آية ٢٢ .

اللَّه عز وجل وافراده بالعبودية الخالصة ، ها هو نبي اللَّه هود يدعو قومه إلى توحيد اللَّه وعبادته ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾[1] ، وهذا نبي اللَّه صالح دعا قومه إلى عبادة اللَّه وحده ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ ﴾[2] ، ونبي اللَّه شعيب دعا قومه لتوحيد اللَّه ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[3] . وهكذا سائر الأنبياء والرسل بعثوا بعقيدة التوحيد التي لا تتغير ولا تتبدل ، فأصول الإسلام هي نفسها أصول الديانات السماوية السابقة التي بُعث بها الرسل الأولون ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[4] .

وهذه العقيدة تقوم على مخاطبة العقل ، وتدعوه إلى التأمل والتفكر في ملكوت اللَّه ، في السموات والأرض ، وما بُثَّ فيهما من الآيات الكثيرة الدالة على وجود اللَّه وقدرته سبحانه وتعالى . يقول اللَّه تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[5] ، ويقول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾[6] ، ويقول : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾[7] ، ويقول : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[8] ، ويقول : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٦٥ .
(٢) سورة الأعراف ، آية ٧٣ .
(٣) سورة الأعراف ، آية ٨٥ .
(٤) سورة الشورى ، آية ١٣ .
(٥) سورة يونس ، آية ١٠١ .
(٦) سورة سبأ ، آية ٤٦ .
(٧) سورة الأعراف ، آية ١٨٥ .
(٨) سورة الذاريات ، الآيتان ٢٠ ـ ٢١ .

﴿وَإِلَىٰ الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَىٰ الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

وهكذا يدعو الإسلام الإنسان إلى النظر في هذا الكون وكل ما فيه ليصل من خلال تفكيره وتأمله إلى خالق هذا الكون ولا يقبل التقليد في هذه المسألة ، وقديماً قال الأعرابي ، البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، أرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج أفلا تدل على العليم الخبير .

والإيمان بالله سبحانه وتعالى وبسائر أركان الإيمان ، ليس اعتقاداً نظرياً ينتهي عند حد التصديق بل يترتب على هذا الإيمان عمل بَنّاء وسلوك سليم ، فللإيمان آثار كثيرة وثمرات عديدة من أهمها[2] :

١ ـ العمل الصالح :

للعقيدة الإسلامية أثر بَيّن واضح في حياة الأفراد والجماعات ، فما أن تستقر في قلب المرء حتى تظهر عليه ثمارها الطيبة في كل حركاته وسكناته . فالتوحيد الذي تقوم عليه هذه العقيدة توحيد فاعلية وتأثير وليس مجرد توحيد نظري ، ويبدو هذا واضحاً جلياً عند كل من غمر الإيمان قلوبهم وَعَمَرَ صدورهم ، وخاصة أولئك النفر الذين تربوا على يد رسول الله ﷺ وعاشوا لله في كل حركاتهم وسكناتهم يحسون بوجوده في نفوسهم وفي حياتهم ، وبهذا كانوا نموذجاً فريداً ، ومثلاً صادقاً ، وترجمة حية وثمرة دانية القطوف لهذه العقيدة الصافية .

والعقيدة المؤثرة مَثَلُها مثل الشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ

---

(١) سورة الغاشية ، الآيات ١٧ ـ ٢٠ .

(٢) اسس في التصور الاسلامي ص ٦١ وما بعدها .

الْأَمْثَال لِلنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتذكرُون ﴾[1] . فالإيمان إذا تحقق وجوده يتحول إلى قوة فاعلة في الحياة ، فهو يُحَوِّلُ الضعف إلى قوة ، والهزيمة إلى نصر .

وكثيراً ما اقترن الإيمان في كتاب اللّه سبحانه وتعالى بالعمل الصالح ليؤكد أنه ليس عبارة عن مشاعر وتصورات فقط ، بل حياة حافلة بأعمال الخير لا تنقطع ما دام الإيمان يعمر القلوب ، يقول تعالى : ﴿ وَالعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ ﴾[2] ، ويقول : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[3] ، ويقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾[4] .

فالعمل الصالح ثمرة من ثمرات الإيمان وأثر من آثاره ، قال تعالى مبيناً لأثر الإيمان في نفوس الناس وأحوالهم : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُم إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقاً ﴾[5] .

٢ ـ تصحيح تصورات الناس ومعتقداتهم :

عاش الناس فترة من الزمن قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال وانحراف وفساد في التصور والاعتقاد ، تسيطر على عقولهم الأوهام والخرافات ،

---

(١) سورة ابراهيم ، الايتان ٢٤ ـ ٢٥

(٢) سورة العصر .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٥ .

(٤) سورة الكهف ، آية ١٠٧ .

(٥) سورة الأنفال ، الآيات ٢ ـ ٤ .

يعبدون الحجارة الصمَّاء ، ويقدسون الجنَّ ويستجيرون بهم ويعتقدون أنهم يعلمون الغيب وأن لهم سلطاناً على الأرض ، وكانوا يلجأون إلى الكهنة والسحرة والعَرَّافين يستفتونهم في كل شأن من شؤون حياتهم .

ولقد انحرف تصورهم نحو الإِلَه وصفاته وعلاقته بالكون ، وانحرف تصورهم نحو الإِنسان ذاته ، منشؤه ومصيره والغاية التي من أجلها وجد ، ومركزه في هذا الكون الفسيح وطبيعة صلته باللَّه .

لقد كان منهم من يصف اللَّه بصفات لا تليق به سبحانه ، كاليهود الذين يصفون الخالق جل وعلا بالتعب والإِعياء بعد خلقه للسموات والأرض، وهو عندهم يصارع نبي اللَّه يعقوب فيصرعه يعقوب عليه السلام ، كما وصفوه بالفقر والبخل : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾(١) ، ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾(٢) . وادَّعوا أن للَّه ولداً ، ونسبوا له عزيراً تعالى اللَّه عن ذلك .

وادعى النصارى أيضاً الولد للَّه فنسبوا له المسيح عليه السلام : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾(٣) .

وادعى مشركو العرب أن الملائكة بنات اللَّه : ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ** ﴾(٤) . إلى غير ذلك من الضلال والانحراف الذي كان يتخبط به الناس .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٦٤ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٨١ .
(٣) سورة التوبة ، آية ٣٠ .
(٤) سورة النحل ، آية ٥٧ .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه اللّه «جاء الإسلام وفي العالم ركام هائل من العقائد والتصورات والفلسفات والأساطير والأفكار والأوهام والشعائر والتقاليد والأوضاع والأحوال يختلط فيها الحق بالباطل والصحيح بالزائف والدين بالخرافة والفلسفة بالأسطورة ، والضمير البشري تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون لا يستقر منها على يقين»[1] .

فلما جاء الإسلام بعقيدته الواضحة النقية أيقظ البشرية من هذا الضلال والانحراف وصحح معتقداتها وتصوراتها في اللّه والكون والحياة والإنسان ، وحرر العقول من الأوهام والخرافات وانشأ تصوراً جديداً ينسجم مع العقل السليم والفطرة السليمة ، فهو التصور الكامل المبرأ من النقص والجهل والهوى لأن مصدره هو اللّه عز وجل ، وهو تصور ثابت لا يقبل التغيير ولا التبديل ، وهو شامل لوحدانية اللّه وصفاته ولحقيقة الكون والحياة ، والإنسان طبيعته وخصائصه ومركزه في الوجود وعبوديته للّه ، وهو تصور متوازن إيجابي واقعي ، يتعامل مع حقائق موضوعية ذات وجود حقيقي متيقن لا مع تصورات عقلية مجردة ولا مع مثاليات لا وجود لها في عالم الواقع .

٣ ـ تحرير الانسان من الخضوع لغير الله تعالى :

هذه العقيدة السامية متى استقرت في النفس ، فانها تحررها من الخضوع والتذلل لغير الله سبحانه وتعالى لأنها تقوم على الاعتقاد بأن الله هو المحيي والمميت والخافض والرافع والمعطي والمانع ، وأنه لا يملك أحد من البشر أن ينفع أو يضرَّ الا باذن الله ، فالخضوع والعبادة حق لله دون سواه ، وبهذا يتحرر المؤمن من عبودية الأهواء والشهوات ، ومن سيطرة المستبدين والطغاة الذين يسعون جاهدين لاخضاع الناس واذلالهم لجاههم وسلطانهم ، فالمؤمن حر طليق لا يطأطيء رأسه ولا يحني هامته لغير الله

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ص ٢٦ .

تعالى ولا يستجير الا بالله ولا يرتجي نفعاً الا منه سبحانه ، وهذا هو غاية التحرر الكامل الكفيل باسعاد البشرية .

٤ ـ يقظة الضمير :

المؤمن بهذه العقيدة صاحب ضمير حي يقظ يوجهه الى الخير ويصرفه عن الشر ، وهو دائم المحاسبة لنفسه على ما يبدر منه من التصرفات والأفعال .

وهذه اليقظة ناشئة من اعتقاده أن الله عز وجل يعلم السر وأخفى وأنه سبحانه يراقبه في جميع أحواله ، وأنه وكَّل به مَلَكَيْنِ لتسجيل كل ما يصدر عنه من خير وشر ، وأنه سيحاسبه على كل صغيرة وكبيرة في يوم لا ينفع الانسان سوى عمله ، يوم يفر المرء فيه من أمه وأبيه وصاحبته وأخيه .

وهذه اليقظة تؤدي حتماً الى الاستقامة في السلوك واجتناب ما حرم الله واتيان ما أمر به ، لأن صاحب الضمير الحي يشعر دائماً برقابة الله المطبقة على جميع أحواله وأفعاله ، فاذا انتابته لحظة ضعف ووقع في المعصية ، استيقظ ضميره وثاب الى رشده فيسارع الى التوبة والاستغفار . يقول تعالى : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ** ﴾[١] .

٥ ـ تحرير الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين :

الأيمان بهذه العقيدة يحرر ولاء المنتمي اليها الى الله ورسوله والمؤمنين ، ولا يترك ولاء لغير الله ولو كان أبا أو أخاً أو عشيرة . فالمؤمن بالله لا يوالي أحداً الا في الله ، ولا يحب ولا يبغض الا لله سبحانه ، يحب المؤمن التقي ولو لم يكن له منه نفع ولا تربطه به أي رابطة من الدم أو النسب ، ويبغض الكافر الفاجر ولو كان من أقرب الناس اليه، ذلك لأن أخوة

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٢٠١ .

الدين أقوى عنده من أخوة الدم ، وصلة العقيدة أوثق من صلة النسب ، قال تعالى في وصف العلاقة بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، ومع غيرهم من الكفار : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود . . . ﴾[1] فعلاقة المسلم مع أخيه المسلم صلة مودة ومحبة ورحمة ، وأما علاقته بالكافر فهي البغض لله والشدة والحزم وعدم الموالاة .

وقد حذر القرآن الكريم المؤمنين من موالاة الكافرين حتى ولو كانوا أولي قربى ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آباءَهُم . . . ﴾[2] . فولاء المؤمن لله ولرسوله وللمؤمنين ، ورباط العقيدة مقدم على جميع الروابط الأرضية فمن قدم شيئاً من هذه الروابط على رباط العقيدة فأيمانه ضعيف وعقيدته مهزوزة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آباؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُم وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَون كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾[3] . وهكذا ينذر الله عباده بالهلاك والدمار اذا هم قدَّموا احدى الروابط من الدم والنسب والأرض والمصالح المشتركة وغير ذلك على حب الله ورسوله ، وبهذا يتحرر ولاء المؤمن لله ولرسوله وللمؤمنين .

٦ - طمأنينة القلب وسكينة النفس :

من يعش في ظلال هذه العقيدة يشعر بالطمأنينة في قلبه والسكينة في نفسه والسعادة الغامرة في حياته ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ

---

(١) سورة الفتح ، آية ٢٩ .
(٢) سورة المجادلة ، آية ٢٢ .
(٣) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

قُلوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلوبُ ﴾[1] . فالمؤمن يشعر بطمأنينة القلب وراحة الضمير وحلاوة اليقين، لا ييأس ولا يجزع أمام الخطوب لعلمه أن الله معه يمده بالعون والمساعدة ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2] .

وبهذه العقيدة يعيش المؤمن حياة آمنة مطمئنة لا قلق فيها ولا اضطراب ، ولا أمراض نفسية ولا انهيارات عصبية ، هادىء البال ، طيب النفس ، قرير العين ، وهذا ما وعد الله به عباده المؤمنين حيث قال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3] .

٧ ـ تحرير النفس الانسانية من الخوف على الرزق والأجل :

تغرس هذه العقيدة في نفس المؤمن بها عدم الخوف على الرزق والأجل لأن الله عز وجل قد تكفل بهما . فالرزق بيد الله تعالى ، ولا يملك أحد من البشر مهما كانت منزلته أن يُنقص من رزق مخلوق شيئاً ، ولا أن يزيد في رزقِ أحد من الناس شيئاً ، فالله وحده هو الرازق ، قال تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾[4] ، وقال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزقُكُمْ

---

(١) سورة الرعد ، آية ٢٨ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٥٧

(٣) سورة النحل ، آية ٩٧ .

(٤) سورة الذاريات ، آية ٥٨ .

وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[2] .

فإذا استقرت هذه العقيدة في نفس المؤمن فانها تطهره من الحرص الذميم على الرزق وتعلمه القناعة بما قسم الله له ، وتطهره من الشح والبخل والطمع ، وهذه الأمور لا تزيد في الرزق شيئاً ، اذ المؤمن جواد كريم .

وكذلك الأجل بيده سبحانه وتعالى ، وهو موقوت محدود المدة ، غير قابل للزيادة أو النقصان ولا يملك أحد من الناس أن يزيد أو ينقص من أجله أو أجل غيره من الناس ، ولا يموت أحد قبل موعده الذي قضى به الله سبحانه وتعالى ، ولا يتأخر عن هذا الوقت المحدد . قال تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسَاً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾[3] . والحرص على الحياة والخوف من الموت لا يزيد في أجل الانسان ، والشجاعة والإقدام وخوض المعارك لا تنقص من العمر، والجبن واتقاء المشاركة في الحرب لا يزيد في العمر، فكم من إنسان مات على فراشه ، وكم من إنسان نجا من الموت وهو يخوض المعارك ويقارع الأعداء . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابَاً مُؤَجَّلاً ﴾[4] ، وقال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوتُ وَلَو كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[5] .

ومن أيقن بهذه الحقيقة فانه يصبح قوياً شجاعاً عزيزاً يأبى الضيم ويرفض الخنوع ، جريئاً في قول الحق لا يخشى في الله أحداً .

---

(١) سورة الذاريات ، الأيتان ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة هود ، آية ٦ .

(٣) سورة المنافقون ، آية ١١ .

(٤) سورة آل عمران ، آية ١٤٥ .

(٥) سورة النساء ، آية ٧٨ .

ولقد ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة في الشجاعة والاقدام والجراة والكرم والجود حتى أصبحوا سادة الدنيا وقادة البشرية .

٨ ـ تهذيب النفوس وتربيتها على الفضائل :

إذا تغلغلت هذه العقيدة في نفوس أصحابها ، صقلتها وهذبتها وربتها على الفضائل الكريمة لأنها منبع هذه الفضائل ومصدر فعل الخير وأساس الاستقامة .

فالمؤمن بهذه العقيدة انسان سوي ، متزن مستقيم السلوك ، يتحلى بالفضائل من الايثار وحب الخير للناس والصبر عند الملمات والمصائب التي تنزل به لعلمه أن الأمر كله بيد الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلم أمره لله ويصبر ويحتسب ويتوكل على الله في كل شأن من شؤونه الى غير ذلك من الفضائل العظيمة التي ترسخها هذه العقيدة في نفوس أتباعها .

هذه بعض ثمار العقيدة التي أنارت الدنيا وعادت على البشرية بالخير العميم ، وهي التي صنعت الجيل الأول الذي تربى على يد رسول الله ﷺ ، فكانوا بها خير أمة أخرجت للناس ، شهد بذلك الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **كُنتُم خَيرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾[١] .

لقد عمل ﷺ على ترسية قواعد العقيدة الصافية في نفوس أصحابه من اليوم الأول لنزول القرآن عليه ، وبقي في مكة يرعاها ، وينمي غرسها لأنها الأساس لما جاء بعدها من أحكام شرعية ، ولأن صلاح الأمة مرهون بصلاح عقيدتها وثباتها في النفوس ، فإذا كانت عقيدة قوية كان النصر والنجاح حليفها ، وإذا كانت عقيدة الأمة ضعيفة كانت الهزيمة والخذلان نصيبها

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١١٠

ولذلك ظل ﷺ يعمل على بناء النفوس على عقيدة التوحيد ويربي الأصحاب على الايمان بالله حتى بلغ الغاية التي تجعل هؤلاء الأتباع يبحثون عن حكم الله ويعملون به ، فها هي امرأة يظاهر منها زوجها ، فتتركه وتمشي الى رسول الله ﷺ تعرض الأمر عليه وتسأله عن حكم ما سمعت من هذا الزوج ، فينزل فيها قوله تعالى : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ** . . . ﴾[1] .

وها هو ماعز يأتي رسول الله ﷺ ويقول له : يا رسول الله طهرني ، فيعرض عنه فيكرر ماعز رضي الله عنه الطلب منه ، ولو ستر ماعز على نفسه ولم يكشف لرسول الله عما بدر منه لما تعرض للرجم بالحجارة ، ولكن خوف الله والرغبة في التطهر مما وقع فيه دفعه لهذا الطلب . والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد كان مجتمع الصحابة رضي الله عنهم ، مجتمعاً ربانياً قرآنياً ، تقول عائشة رضي الله عنها : أول ما نزل من القرآن آيات من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل لا تزنوا ولا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الزنا ولا نترك شرب الخمر[2] . وهكذا فالايمان بالله أساس العمل وأوله والسابق عليه ، والمقدمة له .

هذه العقيدة الواضحة بهذه الآثار والثمار ، تؤكد صدق نبوة محمد ﷺ ، والا فمن أين جاء بها ، وقد نشأ في بيئة جاهلية يسيطر عليها الشرك والوثنية والأوهام والخرافات وعبادة الأصنام حتى من كانوا يسمون أنفسهم بالموحدين من العرب كانوا يتخبطون في تصورات وأفكار منحرفة بعيدة كل البعد عن التوحيد الخالص الذي جاء به عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سورة المجادلة ، الآيتان ١ ـ ٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن ، جـ ٦ ص ١٠١ .

وكذلك اليهود والنصارى لم يكونوا على عقيدة التوحيد ، بل انحرفوا عما جاء به أنبياؤهم وشوهوا صورته ومسخوه ، فاليهود قالوا أن عزيراً ابن الله، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن لله أبناء تزوجوا من بنات الأرض فأنجبوا الجبابرة ، وأن الله يتعب ويحتاج الى الراحة ويبكي ويحزن ويندم على خراب الهيكل الى غير ذلك من الخرافات والضلالات التي مسخت عقيدة التوحيد ، فأين هذا من التوحيد الخالص الذي جاء به رسول الله ، والذي ينزه فيه الله سبحانه وتعالى عن كل هذه النقائص التي لا تليق به سبحانه .

والنصارى أيضاً جاءهم عيسى عليه السلام بعقيدة التوحيد ولكنهم حرفوا هذه العقيدة واستبدلوا بها عقيدة التثليث « الآب والابن والروح القدس » ثلاثة أقانيم أرباب في الكون ، فجعلوا عيسى ابن مريم الرسول البشر إلّهاً وابن إلّه وعبدوه، وهكذا أشركوا باللّه وإن كانوا يحاولون اضفاء صبغة التوحيد على هذه العقيدة الملتوية بقولهم إنهم ثلاثة في واحد ، وواحد في ثلاثة، وهذا مما لا يقبله عقل سليم ، وأين هذا من عقيدة التوحيد التي جاء بها محمد ﷺ .

وكذلك المجوس يعتقدون بوجود الهين ، اله للخير واله للشر[1] .

هذه العقيدة الكاملة النقية التي جاء بها محمد ﷺ تغاير كل العقائد التي كانت موجودة في زمن البعثة وتتميز عليها بالتوحيد الخالص ، فمن أين أتى بها وكل ما في الأرض عقائد فاسدة ؟ سواء ما كان عند قومه أو عند اليهود والنصارى والمجوس ، وبهذا يتأكد لنا أنها من عند الله العزيز الحكيم .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ص ٣٣ - ٤٦ .

المبحث الثاني
الأخلاق الحميدة

للأخلاق الحميدة مكانة رفيعة في الشريعة الاسلامية ، وهي من أعظم الأسس التي قام عليها صرح هذا الدين العظيم ، وما من صغيرة ولا كبيرة فيه الا وربطت بالخلق الكريم ، وقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق ويبين حَسَنَها من قبيحها ، يقول ﷺ : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] .

واصلاح النفوس ، وتربيتها على الفضيلة هدف أساسي من بعثة رسل الله جميعاً ، فما من رسول الا ودعا قومه الى الأخلاق الكريمة وحثهم عليها ونهاهم عن الأخلاق الرذيلة وحذرهم منها ليعيشوا حياة كريمة مشرقة .

لقد تواكبت دعوة الاسلام الى الأخلاق والفضائل مع دعوته الى التوحيد ، فكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ بمكة يهدم عقائد القوم وعاداتهم السيئة وأخلاقهم القبيحة ، ويدعو الى عبادة الله وحده والى التحلي بمكارم الأخلاق وجميل الصفات كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد والعدل والاحسان والصبر والتواضع وغير ذلك من طرق الخير .

وقد ربط الاسلام بين الأخلاق وبين الجزاء ، فوعد بحسن الجزاء وبجزيل الثواب على الخلق الحسن ، وتوعد بسوء العاقبة على الانحراف والفساد وسوء الأخلاق ، قال تعالى ﴿ وَيلٌ لِكُلّ ِ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[2] ، والمتأمل في كتاب الله وسنة نبيه يجد العديد من النصوص تدعو الى حسن

---

(١) موطأ مالك ، كتاب حسن الخلق ، باب ما جاء في حسن الخلق ، جـ ٢ ص ٩٠٤ .

(٢) سورة الهمزة ، آية ١ .

الخلق وتنهى عن سوء الخلق ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وعِباد الرحمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإذَا خاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً ﴾[1] ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾[3] ، ومن ذلك وصايا لقمان لابنه ، قال تعالى : ﴿ وَإذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ[4] . . . . يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ ﴾[5] .

ومن السنة قول النبي ﷺ : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وأن الله ليبغض الفاحش البذيء ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة »[6] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »[7] .

---

(١) سورة الفرقان ، آية ٦٣ .
(٢) سورة التوبة ، آية ١١٩ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيات ١ ـ ٥ .
(٤) سورة لقمان ، الآيتان ١٣ ـ ١٤ .
(٥) سورة لقمان ، الآيات ١٧ ـ ١٩ .
(٦) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في حسن الخلق جـ ٤ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .
(٧) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن الخلق ، جـ ٤ ص ٢٥٢ .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم اليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً »(١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وأنه كان يقول : « إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً »(٢) .

وعن أبي ذر أنه لما بلغه مبعث النبي ﷺ قال لأخيه : « اركب الى هذا الوادي فاسمع من قوله ، فرجع فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق »(٣) ، وغير هذا كثير .

ولم يقف الاسلام عند حد الدعوة الى مكارم الأخلاق والترغيب فيها ، بل أرسى قواعدها وحدد معالمها وضبط مقاييسها الكلية ووضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك ، ثم أنه ربطها بجميع جوانب الحياة الانسانية ، فلم يبق جانب منها الا وقد صيغ صياغة أخلاقية ، الجانب النظري والجانب العملي ، العقائد والعبادات ، الجانب الاقتصادي والجانب السياسي وغير ذلك ، حتى يبقى الانسان في جميع أقواله وأفعاله في دائرة مكارم الأخلاق .

فالعقيدة الاسلامية هي الأساس المتين الذي ينبثق منه حسن الخلق ، والايمان القوي الراسخ يُوَلِّدُ الخلق الرفيع قطعاً ، وكمال الايمان مرهون بحسن الخلق ، وسوء الخلق مرده الى ضعف الايمان ، فالايمان وحسن الخلق أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وقد دعا ﷺ ربه فقال : « اللهم اني أسألك ايماناً في حسن خلق »(٤) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكمل

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معالي الأخلاق جـ ٤ ص ٣٧٠ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق ، جـ ٧ ص ٨٢ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق، جـ ٧ ص ٨٢ .
(٤) مسند أحمد جـ ٢ ص ٣٢١ .

المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً »[١] .

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يعظ أخاه في الحياء فقال : « الحياء من الايمان »[٢] .

وعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، قيل : ومن يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه »[٣] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[٤] .

من هذه الأحاديث يتبين لنا مدى ارتباط الايمان بالله بالأخلاق الكريمة ، حتى أنه نفى الايمان عمن يسيء معاملة جيرانه ، وجعل الحياء والاحسان للجار واكرام الضيف والقول الحسن من الايمان بالله واليوم الآخر .

« إن وقوع المرء في الرذيلة واستمراءه الأخلاق الفاسدة تجعله ينسلخ من ايمانه وان ادَّعاه ، والا فما قيمة الايمان بدون أخلاق ، وها هو رسول الله ﷺ توصف له امرأة بكثرة الصيام والصلاة ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فيقول هي في النار »[٥] .

والعبادات التي هي أركان الاسلام ربطت أيضاً بالأخلاق[٦] ، وهي من أسمى الوسائل لتحقيق مكارم الأخلاق لأنها تزكي النفوس وتطهر القلوب

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الأيمان ونقصانه جـ ٤ ص ٢٢٠ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الأيمان ، باب بيان عدد شعب الأيمان جـ ١ ص ٦٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب اثم من لا يأمن جاره بوائقه جـ ١ ص ٧٨ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره جـ ١ ص ٧٩ .

(٥) مسند أحمد جـ ٢ ص ٤٤٠ .

(٦) خلق المسلم ص ٧ .

وتربيها على الفضائل ، وهي مدارج الكمال والسمو ، وروافد التطهر ، فالفرائض التي كلف بها كل مسلم ما هي الا أعمال متكررة لتعويد فاعلها أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل محافظاً على هذه الأخلاق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، لذا قال تعالى عن الصلاة : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[1] ، وقال عن الزكاة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[2] ، وقال عن الصوم : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3] ، ويقول ﷺ مبيناً لحقيقة الصيام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »[4].

ويقول تعالى في الحج : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[5]

وهكذا تقوم العبادات بعصمة مؤديها من الانحراف الخلقي وتحفظه من اتباع الشهوات وتباعد بينه وبين نفسه الأمارة بالسوء وتبعث عنده الرغبة في التسامي نحو المثل الأعلى ، فهي تصرفه عن الرذائل وتطهره وتزكيه وتربيه على الأخلاق الكريمة، ومن لم ينتفع من عبادته في تربية نفسه وتهذيب سلوكه فقد خاب وخسر . والعبادة التي لا خلق معها تؤدي بصاحبها الى النار ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٤٥ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٨٣ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم ، جـ ٢ ص ٢٢٨

(٥) سورة البقرة ، آية ١٩٧ .

المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[١] .

وهكذا يمضي الاسلام في غرس الفضائل معتمداً على صدق الايمان وأداء العبادات .

ومن تمام ارساء قواعد الأخلاق في المجتمع ربط المخالفة والعصيان بالعقوبة في الدنيا والآخرة . أما في الآخرة فقد توعد الله صاحب الأخلاق الرذيلة بالعقاب في الجحيم ، وأما في الدنيا فقد شرع الحدود على من ارتكب جريمة خلقية كبيرة كالزنا والسرقة والقذف ، وشرع عقوبة تعزيرية على مخالفة الجرائم الخلقية الصغرى . وكل هذا لتطهير المجتمع من الفواحش ولتوفير الحياة الكريمة الفاضلة لكل فرد من أفراده وليأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

إن الأخلاق الكريمة ذات أهمية بالغة في حياة الفرد والمجتمع فهي من أسباب الحياة الكريمة الفاضلة التي يتطلع إليها كل إنسان عاقل، وليست من كماليات الحياة التي يمكن الاستغناء عنها ، إنها ضرورية للفرد لاستقامة سلوكه وتربيته وتهذيب نفسه حتى يصبح انساناً فاضلاً ، مصدر خير ونفع لمجتمعه .

والمجتمع الفاضل الذي تسوده الفضيلة ، يحس الانسان فيه بالسعادة والأمن ، ويعين الفرد على تغليب نوازع الخير على نوازع الشر ، ويؤمِّنُ لجميع أفراده القسط الضروري من مستلزمات العيش الكريم .

ومن سنة الله في المجتمعات أن بقاء الأمم والحضارات مرهون بقيام

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم الظلم ، جـ ٤ ص ١٩٩٧ .

الأخـلاق ، فـإذا تفسخت أخـلاق النـاس وانهـارت قيمهم سقـطت الأمم وانهدمت المجتمعات وزالت الحضارات ، ذلك أن الأخلاق الحميدة والبعـد عن السقوط في الرذيلة هو الضمان الخالد لكل حضارة ، ولا حياة لأمة بدون أخلاق ، وما أصدق قول الشاعر :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقول آخر :

واذا أصيب القوم في أخلاقهم   فـأقم عليهم مـأتماً وعـويـلا

والمبادىء الأخلاقيـة ضروريـة لتطبيق القـانون ، وبـدونها لا يمكن أن يسود قانـون ، وذلك لأن الانسـان ينقاد من بـاطنه لا من ظـاهره ، والقـوانين وحدها لا تكفي لاقـامة المجتمـع الفاضـل الذي تحتـرم فيه الحقـوق وتؤدى الواجبات ولا تنتهك الحرمات ، لأن من يقوم بـواجبه أو يمتنـع عن المحظور خوفاً من عقوبة القانون لا يلبث أن يهمله اذا اطمأن أن لا رقيب عليه .

يقول القاضي البريطاني دينبج : «بدون الدين لا يمكن أن يكون هناك أخلاق ، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانـون ، الدين هـو المصدر الفذ المعصوم الـذي يُعرَف منـه حَسَن الأخلاق من قبيحهـا وهو الـذي يربط الانسان بمثل أعلى يـرنو اليـه ويعمل لـه ، وهو الـذي يحد من أنـانية الفـرد ويكفكف من طغيان غرائزه وسيطرة عاداته ويخضعها لأهدافه ومثله ويربي فيه الضمير الحي الذي على أساسه يرتفع صرح الأخلاق »[١] .

والاسـلام وهـو يعمـل على اصـلاح أحـوال النـاس ينـظر الى النفس البشرية أن فيها الاستعداد لفعل الخير وكذلك الاستعـداد لفعل الشـر ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وركب في طبعه الميل نحو الخير ونحـو الشر ، يقول تعالى : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُـورَهَا وَتَقْـوَاهَا** ﴾[٢] ،

---

(١) نقلاً عن الايمان والحياة للاستاذ القرضاوي ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

(٢) سورة الشمس ، الآيتان ٧ ـ ٨ .

ويقول : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[1] أي طريق الخير وطريق الشر ، فالإنسان في نظر الاسلام ليس ملاكاً وليس شيطاناً وهو قابل بطبيعته للهبوط والصعود ، وغاية الاسلام هو إيجاد التوازن بين نوازع الانسان الفطرية[2] . ومن أجل ذلك يعمل على تنمية بذرة الخير فيه ورعايتها وتغذيتها بالصلة القوية بالله سبحانه وتعالى ليشب الفرد على فضائل الأعمال وكرائم الأخلاق .

ويعمل أيضاً على تهذيب النوازع المادية في الانسان ، فهو يعترف بها ولا يكبتها وينظم طريقة اشباعها دون افراط ولا تفريط ، فأباح شهوة الطعام وشهوة الجنس وشهوة الاستمتاع بالطيبات فقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[3] ، وقال : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[4] ، وقال : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾[5] ، ولكنه لمصلحة الفرد ولمصلحة المجتمع حرم الفجور والزنا والسرقة والغضب .

وعمل أيضاً على كبت طبائع المرء الشريرة ونهى الانسان عن اتباع الهوى وأمره بالاحتكام الى العقل الرشيد ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[6] .

ولم يغفل الاسلام أثر البيئة العميق في سلوك الفرد وتوجيهه نحو الخير أو الشر ، فحرص على سلامتها من الأوبئة وحرص على مخالطة الصحبة الطيبة وحذر من قرناء السوء ، وثمة إشارة إلى هذا في قصة الرجل الذي قتل

---

(١) سورة البلد ، آية ١٠ .
(٢) الانسان بين المادية والاسلام ص ٨١ .
(٣) سورة الأعراف ، آية ٣٢ .
(٤) سورة البقرة ، آية ١٧٢ .
(٥) سورة النساء ، آية ٣ .
(٦) سورة الجاثية ، آية ٢٣ .

تسعة وتسعين نفساً وسأل هل له من توبة ، فقيل له : « نعم ولكن انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء »(١) .

والأخلاق منها الفطري الجبلي ومنها المكتسب ، والإسلام يعمل على تنمية الأخلاق الجبلية وعلى غرس الأخلاق المكتسبة ، والخلق الحسن لا يكون في النفس طفرة ولا يولد قوياً ناضجاً من اللحظة الأولى بل يتكون على مكث وينضج على مراحل وهذا سر ارتباطه بأعمال متكررة لترسيخه وتنميته .

وهناك وسائل كثيرة لاكتساب الأخلاق الحسنة والبعد عن الأخلاق السيئة منها :(٢)

١ - معرفة أنواع الأخلاق الحسنة التي حث عليها الاسلام وكذلك الأخلاق السيئة التي حذر منها حتى يسير الانسان على نور وهدى .
٢ - معرفة أهمية الأخلاق الحسنة بالنسبة للفرد المسلم لارتباطها بعقيدته ، وكذلك الأخلاق السيئة التي تؤثر على عقيدته تأثيراً سلبياً ، وهذه المعرفة ستدفعه حتماً الى التمسك بأهداب الفضيلة وتصرفه عن الرذيلة .
٣ - الاكثار من الخيرات وخاصة العبادات لأنها تزكي النفس وتطهر القلب .
٤ - مصاحبة ذوي الأخلاق الطيبة للتأثر والاقتداء بهم ، وترك مجالسة ذوي الأخلاق السيئة وقد قال ﷺ : « المرء على دين خليله فليحذر أحدكم من يخالل» .
٥ - أن يتكلف الأخلاق الطيبة حتى تألفها نفسه وتعتادها وتصبح كالطبع .

الى غير ذلك من الوسائل .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل جـ ٤ ص ٢١١٨ .
(٢) اصول الدعوة الاسلامية ص ٩٠ .

ان معرفة حَسَنِ الأخلاق من قبيحها يرجع الى الشرع الحكيم ، فهو المقياس الصحيح لذلك لأنه وحده المعصوم من الزلل بخلاف العقل فهو عرضة للخطأ لاعتماده فيما يصدر من أحكام على الحواس التي كثيراً ما تخدع ، وبخلاف الضمير فهو أيضاً غير معصوم عن الخطأ لأنه يتقلب ويتكون بحسب ما يتغذى به من فكر وثقافة .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « ان الانسان يستطيع معرفة الخير والشر ، الا أن القانون الأخلاقي الموجود في الانسان ناقص وغير كاف وأن الضمير هو الدعامة الأولى للأخلاق اذا اقتصر على مصادره الفطرية وحدها وجد نفسه عاجزاً في أغلب الأحيان عن أن يقدم قاعدة ذات طابع عام تستأثر باعتراف البشر وهذا هو السبب الذي من أجله بعث الله في الناس نفوساً متميزة ملهمة بالوحي الرباني وهكذا يجد النور الفطري ما يكمله من نور الوحي »(١) .

والأخلاق التي دعا اليها الاسلام تتسم بالسمو والكمال ، فما من خلق طلب الله تعالى من عباده التحلي به الا وهو غاية في الجمال والكمال ولا كمال سواه . وهذه الأخلاق ترفع من انسانية الفرد وترتقي به نحو المثل الأعلى ، وبمقدار ما يأخذ منها يسمو ويعلو ، وبمقدار ما يتخلى عن جزء منها يسفل ويهبط .

وهي أيضاً أخلاق مثالية تربط المسلم بالمثل الأعلى ، وقد تجلت بتمامها وكمالها بنبي الاسلام محمد ﷺ وهو في نظر المسلمين الأسوة والقدوة ، وقد كان خلقه القرآن .

وهي في نفس الوقت واقعية وليست فرضية لأن الانسان يستطيع التخلق بها بالمثابرة والمجاهدة .

ثم انها أخلاق الفطرة السليمة التي ترتاح لها النفوس وتتطلع اليها على

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٧ .

الدوام ، والانسان بفطرته السوية يحب الفضيلة ويقدرها لذاتها ويكره الرذيلة وينفر منها .

وهي أخلاق ملائمة للعقل الرشيد ، يحترمها ويقرها ولا يعارضها أبداً ، ولو أرادت العقول الناضجة السليمة تحديد الخلق الحسن من الخلق الرديء ما جاوزت بصغيرة ولا كبيرة ما جاءت به الشريعة الاسلامية من اخلاق وما نهت عنه من رذائل .

وهي اخلاق عامة شاملة ، تتصل بجميع أفعال الانسان الخاصة به أو المتعلقة بغيره من الأفراد ، فالقانون الأخلاقي في القرآن الكريم قانون عام شامل تتجه أوامره للناس عامة وعلى اختلاف مستوياتهم في جميع الظروف والمناسبات ، فالقاعدة الأخلاقية كقاعدة العدالة مثلاً يجب على كل فرد أن يطبقها على نمط واحد سواء أكان تطبيقه لها على نفسه أم على الآخرين ، حتى أن النص الذي نزل بخصوص ظرف فردي فإنه قابل للعموم والشمول .

فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بأخلاقه العالية التي استقاها من عقيدته ، فالصدق مثلاً واجب على كل مسلم في كل زمان ومكان سواء أكان يتعامل مع أخيه المسلم أو مع غيره ، وكذلك سائر الأخلاق من الوفاء والمروءة والصبر والعدل وغير ذلك ، فالاسلام أمر بالعدل وان كان الخصم من الاعداء ، وأمر ببر الوالدين وان كانا على الكفر .
واليك الآن الحديث عن نماذج من الأخلاق التي دعا اليها الاسلام :

أولاً : الأمانة :

أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين باداء الأمانة ، ونهاهم عن الخيانة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾[١]

---

(١) سورة النساء ، آية ٥٨ .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وكذلك أمر الرسول الكريم صحابته بهذا الخلق العظيم وأوصاهم به ، وبين لهم أنه دلالة على الايمان ، وأن من انتفت الأمانة من عنده انتفى ايمانه بقوله ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له »[2] .

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ كثيراً من الخيانة فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة »[3] .

والخيانة كما جاء في الخبر آية المنافق ، والأمانة صفة المؤمن يقول ﷺ : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان»[4] .

وأخبر عليه الصلاة والسلام أن ضياع الأمانة يدل على اقتراب الساعة ففي الحديث أن رجلاً جاء يسأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة ؟ فقال له : اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقال : وكيف اضاعتها ؟ قال : اذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[5] .

ثانياً : الصدق :

ومما حث الاسلام عليه من الأخلاق الصدق في القول والعمل ، وفي كل حال وشأن ، مع نفسه ومع غيره وقبل كل شيء مع خالقه ، قال تعالى :

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٢٧ .
(٢) مسند أحمد جـ ٣ ص ١٣٥ .
(٣) سنن النسائي ، كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من الخيانة جـ ٨ ص ٢٦٣ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأيمان ، باب علامات المنافق ، جـ ١ ص ١٤ .
(٥) صحيح البخاري ، كتاب فضل العلم ، باب من سئل علماً وهو مشتغل بحديثه ، جـ ١ ص ٢١

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[1] .

وقد جاء عن رسول الله ﷺ في بيان منزلة الصدق وأنه اساس البر وسبيل الى الجنة قوله : « ان الصدق يهدي الى البِرّ وان البِرَّ يهدي الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[2] .

فالكذب من أبشع ما يتصف به الانسان لذا حذر منه ﷺ ، بل كرهه كثيراً فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما كان من خلق أبغض الى الرسول ﷺ من الكذب ، ما اطلع على أحد من ذلك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة »[3] .

وحذر من الظن لما يترتب عليه من الكذب ، فعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة »[4] .

والصدق من ألزم صفات المؤمن ، ولا يمكن أن يتصف بضده ، والكذب يدل على ضعف الايمان ، سئل رسول الله ﷺ : « أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، قيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم قيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا »[5] .

والكذب محرم في شريعة الاسلام ولو بالمزاح ، قال ﷺ : « لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة ويترك المراء وإن كان صادقاً[6]

---

(١) سورة التوبة ، آية ١١٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ جـ ٨ ص ٩٥ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الصدق والكذب ، جـ ٤ ص ٣٤٧ .

(٤) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة ، باب (٦٠) ، جـ ٤ ص ٦٦٨ .

(٥) موطأ مالك ، كتاب الكلام ، باب ما جاء في الصدق والكذب ، جـ ٢ ص ٩٠٠ .

(٦) مسند أحمد ، جـ ٢ ص ٣٥٢ .

ثالثاً : الحلم والأناة :

من القواعد الأخلاقية التي أرسى الاسلام قواعدها سعة الصدر وكظم الغيظ والعفو عن المسيء ، والآيات والأحاديث التي تحث المسلم على هذه الأخلاق كثيرة ، قال تعالى : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[1] ، وهكذا عد الله هذا الخلق الطيب من أسباب الفلاح التي تقود صاحبها الى الجنة ، ويقول أيضاً : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾[2] ويقول : ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾[3] .

ويقول الرسول الكريم ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله »[4] ويقول أيضاً : « ان الرفق لا يكون في شيء الا زانه ولا ينزع من شيء الا شانه »[5] .

وكان ﷺ ينهى أصحابه عن الغضب اذا ما استغضبوا ويحثهم على التحلي بضبط النفس وكظم الغيظ وسعة الصدر ، جاء رجل الى رسول الله ﷺ وقال له : « يا رسول الله أوصني قال : لا تغضب ، فردد مراراً ، قال : لا تغضب »[6] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ١٣٣ ـ ١٣٤ .
(٢) سورة الأعراف ، آية ١٩٩ .
(٣) سورة فصلت ، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين ، باب اذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ولم يصرح، جـ ٨ ص ٥١ .
(٥) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب فضل الرفق ، جـ ٤ ص ٢٠٠٤ .
(٦) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب . جـ ٧ ص ١٠٠ .

وقال ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1] .

وقال أيضاً : « من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء »[2] .

رابعاً : الوفاء :

أوجب الإسلام على أتباعه الوفاء بالعهود والوعود ، فقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾[3] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾[4] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[5] .

ويعتبر عدم الوفاء بالعهد علامة من علامات النفاق ، يقول ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، اذا أؤتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر»[6] .

ومن الوفاء البر باليمين ، وطاعة ولي الأمر ، وقوة الصلة بالله وتوحيده بالعبادة ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[7] .

ولا يقتصر الوفاء بالعهد على معاملة المسلمين بعضهم بعضاً ، بل

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب ، جـ ٧ ص ٩٩ .
(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب من كظم غيظاً ، جـ ٤ ص ٢٤٨ .
(٣) سورة الاسراء ، آية ٣٤ .
(٤) سورة النحل ، آية ٩١ .
(٥) سورة المائدة ، آية ١ .
(٦) صحيح البخاري ، كتاب الأيمان ، باب علامات المنافق ، جـ ١ ص ١٤ .
(٧) سورة يس ، الآيتان ٦٠ ـ ٦١ .

يلزم أن يتعاملوا مع غيرهم كما يتعاملون بعضهم مع بعض ، وهكذا عرفوا على مر التاريخ .

خامساً : الرحمة :

من الأخلاق الجميلة التي جاء بها الاسلام الرحمة والمودة ، فيجب أن يسود هذا الخلق علاقاتهم الاجتماعية ، والاتصاف بالرحمة يستوجب رحمة الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ، الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله »(١) . وانتفاء الرحمة من قلب المؤمن يؤدي الى انتفاء رحمة الله عنه لقوله ﷺ : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس »(٢) .

وقد بين لنا ﷺ أن الرحمة لا تنزع الا من قلوب الأشقياء ، يقول عليه الصلاة والسلام : « لا تنزع الرحمة الا من شقي »(٣) .

والرحمة واجبة ومطلوبة من المسلم في كل شيء حتى مع الدواب ، يقول ﷺ : « ان الله كتب الاحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »(٤) .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى مجتمع الصحابة بقوله : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾(٥) ، وشبه رسول الله ﷺ الأمة الإسلامية فقال ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(٦)

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في رحمة المسلمين جـ ٤ ص ٣٢٤ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ ، جـ ٨ ص ١٦٥ .
(٣) مسند أحمد جـ ٢ ص ٣٠١ .
(٤) سنن الترمذي ، كتاب الديات ، باب ما جاء في النهي عن المثلة جـ ٤ ص ٢٢ .
(٥) سورة الفتح ، آية ٢٩ .
(٦) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تراحم المسلمين وتعاطفهم ، جـ ٤ ص ١٩٩٩ .

إلى غير ذلك من الأخلاق الرفيعة والصفات الكـريمة التي أمـر بها الله ورسوله وتمثلها الصحابة الكرام ومن جاء بعدهم ممن سار على نهجهم .

وهـذه الأخلاق التي جـاء بها الإسـلام والتي تمثلها الـرسـول الكـريم ﷺ ، هي الأسـاس المتين لبناء الفـرد الصالـح والمجتمع الصـالح والـدولـة الصالحة ، وهي توجه الفرد الى خالقـه وتبرز فيـه جوانب الخيـر وتجعل فيـه الحرص والمحافظة على اخوانه ومجتمعه ، فـلا كراهيـة ولا شحناء ولا ظلم ولا عدوان .

والأخلاق الكريمة دليل على صدق صاحبها ، وهي من لوازم الرجولـة الحقة ، فكيف بالنبوة والرسالة ، قد يكون الرجل صاحب خلق وليس بنبي ، ولكن لا يمكن أن يكـون نبياً بـلا خلق ، أو رسالـة بدون آداب ، فـالأخـلاق وحـدها ليست دليـلاً على النبـوة ، ولكن النبـوة لا تنفصـل عن الأخـلاق ولا تنفك عنها .

ولم يكن العرب في جاهليتهم يتمتعون بالكثير من الخصال الحميدة ، لقد كان فيهم الشجاعة والكرم والمروءة واكرام الضيـف ، ولكنهم كانـوا قساة غلاظاً ، يغيرون ويسلبون وينهبـون ويقتلون ويظلمـون ويقطعـون الطريق الى غير ذلك من المنكرات .

ولما جاء رسول الله ﷺ بما ليس عند قومه من المبادىء الخلقيـة ، لم يبق الا أنه تلقى هذا عن ربه سبحانه وتعالى .

المبحث الثالث
التشريع الإسلامي

إن أي جماعة من الناس بحاجة إلى قانون ينظم أمورهم ويحفظ مصالحهم ويرتب علاقاتهم مع أنفسهم ومع غيرهم ، وقد يكون هذا القانون عادلاً وقد يكون جائراً ، وقد يُنصَف فيه صاحب الحق وقد تكون الغلبة فيه للقوي ، ومن هنا كان لا بد للبشرية من تشريع إلّهي كامل عادل شامل ، واقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تكون شريعة الإسلام هي الأخيرة والخاتمة التي ارتضاها الحق سبحانه وتعالى لعباده .

بعث رسول اللّه ﷺ ، ولم يكن بين العرب نظام عام شامل يجمعهم ، بل كان لديهم شيء من الأعراف والتقاليد يتحاكمون إليها وكان على رأسها شيخ القبيلة الذي كان بمثابة رئيس الدولة ، فأفراد القبيلة يدينون له بالطاعة وينفذون أوامره ، وهو الذي يعلن حالة الحرب أو السلم مع القبائل الأخرى ، وهو الذي يفض المنازعات ويحكم في الخصومات التي تقع بين أتباعه .

وكان العرب قد استمرأوا كثيراً من الأفعال القبيحة كالغارات والقتل والسلب والنهب والزنا والربا وشرب الخمر ووأد البنات والنصرة للقريب ولو كان ظالماً والنسيء وغير ذلك .

وقد بدأ الوحي يعالج في أول تنزله قضية توحيد اللّه وتصحيح تصوراتهم عن الخالق والملائكة واليوم الآخر وغير ذلك من أمور العقيدة ، ولم يتكلم في الأحكام الشرعية بمكة إلّا في النزر اليسير

وبعد هجرة المسلمين وعلى رأسهم الرسول الكريم إلى المدينة

المنورة ، بدأ رسول اللّه ﷺ في تنظيم شؤون المسلمين وفي بناء الدولة الجديدة ، وأخذ القرآن يتنزل على رسول اللّه ﷺ بحسب الوقائع والحوادث مبيناً حكم اللّه فيها ، وظل القرآن يتنزل ورسول اللّه ﷺ يبلغ ويعلم ويبين ويفسر تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1] ، حتى اكتمل الدين وتمت النعمة ، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيْناً** ﴾[2] .

وقد شملت أحكام هذا التشريع جميع جوانب الحياة من عبادات ومعاملات[3] .

أما العبادات ففيها تنظيم علاقة الإنسان بخالقه من صلاة وصيام وزكاة وحج ونذر ويمين ، وقد فصل فيها الكتاب والسنة تفصيلاً كاملاً ، وبها تزكو النفوس وتتهذب الطباع وتطهر القلوب وتسمو الأرواح .

أما المعاملات ففيها تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض سواء أكانوا أفراداً أم جماعات وهي تنتظم أحكام الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجنائية والقضائية .

ففي الجانب الاجتماعي ، ربط بين أفراد المجتمع بعلاقة تقوم على الأخوة في اللّه وعلى المودة والمحبة فيما بينهم ، يقول تعالى ﴿ **إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[4] ، ويقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له

---

(١) سورة النحل ، آية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٣ .

(٣) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص ٣٢ .

(٤) سورة الحجرات ، آية ١٠ .

سائر الجسد بالسهر والحمى »[1] ، وجعل ولاء الجميع لله ولرسوله وللمؤمنين لا لجنس ولا لقبيلة ولا للون ، وأرسى فيما بين الأفراد حقوقاً كثيرة منها ما جاء في سورة الحجرات من الآداب في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُم وَلاَ نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾[2] .

ومن هذه الحقوق ما جاء في قوله ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[3] .

وبهذا يكون المجتمع طاهراً طهر ماء السماء ، نقياً نقاء حبات الثلج ، يحس فيه الجميع بالسعادة والأمان .

وقد أقام الإسلام نظامه الاجتماعي على أساس تكوين الأسرة ، فبين الأحكام الخاصة بها من زواج وحقوق متبادلة بين الزوجين وبين الآباء والأبناء وطلاق وعدة ونفقة وميراث وما إلى ذلك من الأحكام .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تراحم المسلمين وتعاطفهم جـ ٤ ص ١٩٩٩ .

(٢) سورة الحجرات ، الآيتان ١١ ـ ١٢ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم ظلم المسلم جـ ٤ ص ١٩٨٦

فقد دعا الإسلام إلى الزواج بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] ، وبقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] ، وهو من سنن الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾[3] .

وقد عني باختيار الزوجة الصالحة لأنها أهم ركن من أركان الأسرة ، وجعلها خير متاع الدنيا بقوله ﷺ : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »[4] ، والزوجة الصالحة هي ذات الدين ، يقول ﷺ : « تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »[5] .

وقد شرع الخطبة قبل الزواج وأباح النظر إلى المخطوبة ليتعرف كل من الرجل والمرأة إلى الآخر ، فعن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما »[6] .

وقد حدد الإسلام من يجوز للإنسان أن يتزوج منها ممن لا يجوز ، فحرم الأمهات والأخوات والبنات وغيرهن ممن ورد في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ

---

(١) سورة النور ، آية ٣٢ .

(٢) سورة الروم ، آية ٢١ .

(٣) سورة الرعد ، آية ٣٨ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة جـ ٢ ص ١٠٩٠ .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين جـ ٥ ص ١٢٣ .

(٦) سنن الترمذي ، كتاب النكاح ، باب ما جاء في النظر الى المخطوبة جـ ٣ ص ٣٩٧ .

الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّلاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ الّلاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[1] .

وفرض المهر للزوجة وجعله حقاً على الرجل تكريماً لها بقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[2] . وأوجب عليه النفقة من طعام ولباس ومسكن ودواء ، يقول تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ ﴾[3] . وأوجب حسن العشرة والمعاملة بالمعروف ، يقول تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ ﴾[4] ، وأوجب صيانة الزوجة وحفظها من كل ما يسيء إليها ويمتهن كرامتها ، ومن حقه عليها طاعته في غير معصية والقرار في بيته وحفظ نفسها وولده وماله ، يقول تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾[5] .

وأوجب على الآباء حفظ الأبناء والعناية بهم وتأديبهم والنفقة عليهم ، وأوجب على الأبناء الإحسان للوالدين ، وجعل لهما عليهم حقاً كبيراً ، ونهاهم عن أي شيء يؤذيهما بقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[6] .

---

(١) سورة النساء ، آية ٢٣ .
(٢) سورة النساء ، آية ٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية ٢٣٣ .
(٤) سورة النساء ، آية ١٩ .
(٥) سورة النساء ، آية ٣٤ .
(٦) سورة الاسراء ، الأيتان ٢٣ ـ ٢٤ .

وسئـل ﷺ : من أحقُّ بحسن صحـابتي ؟ قـال : « أمُّـكَ ، قـال : ثم من ؟ قـالَ : أمُّـك ، قـال : ثمَّ من ؟ قـال : أمـك ، ثم من ؟ قـال : أبوك »[1] .

وأباح الإسلام الطلاق والتفريق بين الـزوجين إذا لم يمكنهما استمـرار الحيـاة الزوجيـة حتى لا تنقلب إلى جحيم لا يطاق ، ومـع إباحتـه لـه إلاَّ أنـه جعله أكره الحلال إلى اللَّه ، يقول ﷺ : « أبغض الحلال إلى اللَّه الطلاق » وجعله من حق الرجل لأنه أصبر من المرأة على تحمل الأذى وأقل غضباً منها فـلا يسارع إليـه وخاصـة أنه هـو الذي أنفق المـال ودفـع المهـر وجهـز بيت الزوجية .

وأوجب على المرأة العدة ، وهي أيـام تمكثها لا يجـوز لها أن تتـزوج بها براءة للرحم وإتاحة لمراجعة الزوجين نفسيهما لعلهمـا يعودان إلى الحيـاة الزوجية ، وأوجب النفقة على الزوجة في العدة .

ونـظم أحكـام الميـراث وفصـل من يستحق شيئـاً من التـركـة ممن لا يستحق من الأقـارب ، وبين نصيب كـل وارث بشكـل يصيب عـدد كبيـر من الأقارب فيه حظاً من مال مورثهم .

إلى غيـر ذلـك من الأحكـام التي تنـظم جـوانب الحيـاة الاجتمـاعيـة المختلفـة والتي تؤدي في النهـايـة إلى مجتمـع فـاضـل كـريم ، يحيـا حيـاة سعيدة .

أمـا في الجـانب الاقتصـادي ، فقـد بين الإسـلام البيـوع والعقــود والتصرفات المبـاحة والمحظورة أيضاً ، وأهم مـا يميز البنـاء الاقتصادي في الإسلام هو تحريمه للربا ، يقول اللَّه سبحـانه وتعـالى : ﴿ **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** ﴾[2] ، ويقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ**

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، جـ ٧ ص ٦٩ .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٧٥ .

الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾[1] . ويقول : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[2] ، والربا كما جاء عن رسول اللّه ﷺ من السبع الموبقات[3] ، وقد لعن فيه آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء[4] .

وقد حرمه الإسلام لأنه يفضي إلى البغضاء والعداوة ويخلق طبقة مترفة وأخرى فقيرة ، ولأن الفقير يحب أن تمد إليه يد العون والاحسان فَيُقْرَضُ بدون ربا .

ومن المعاملات التي أباحها الإسلام البيع والشركة والمزارعة والمساقاة والرهن والكفالة والاجارة والوكالة والحوالة ، ومما حرمه إضافة للربا بيع الغرر وبيع الملامسة والمنابذة والحصاة وبيع ما ليس عند الإنسان والبيع على البيع وتلقي الركبان وغير ذلك مما يسبب ضرراً على أحد المتبايعين .

وقد أوجب اللّه سبحانه وتعالى مساعدة الفقراء وسد عوزهم فأوجب الزكاة في أموال الأغنياء ، يقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[6] ، وهي من صفات المؤمنين ومن أسباب فلاحهم : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٧٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ جـ ٣ ص ١٩٥ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، باب لعن أكل الربا ومؤكله جـ ٣ ص ١٢١٩ .

(٥) سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

(٦) سورة المعارج ، الآيتان ٢٤ ـ ٢٥ .

مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾[1] ، وقد حذر الله سبحانه وتعالى من منعها بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[2] ويقول : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[3]، ويقول ﷺ : «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يُطوَّقُه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ يعني شِدقيه ـ ثم يقول أنا كنزك أنا مالك »[4] .

والزكاة ليست مِنَّةً من الغني على الفقير ، بل هي حق واجب ، والمال أمانة بيده ، وهو مأمور بإعطاء الفقراء حقوقهم ، وهي سبب في طهارة القلوب ونقاء الصدور .

وإذا لم تكف الزكاة لسد حاجة الفقراء والمساكين وجب في مال الأغنياء حق آخر سوى الزكاة ولا يتقيد بقيد إلَّا بحد الكفاية[5] .

وبهذا التنظيم وعلى وجه الخصوص وجوب الزكاة وحرمة الربا وإباحة ما لا ضرر فيه من البيوع يعيش المجتمع الإسلامي في رخاء ودعة وأمن وسلام ولا يجد الفقر والجوع إلى أحد منهم سبيلاً ، فالكل يجد ما يحتاج إليه وكل منهم لأخيه كما جاء في الخبر كالبنيان المرصوص .

أما في الجانب السياسي ، فانطلاقاً من ضرورة رعاية مصالح الأمة

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١ ـ ٤ .

(٢) سورة التوبة ، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٨٠ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، باب اثم مانع الزكاة جـ ٢ ص ١١١ .

(٥) فقه السنة جـ ٢ ص ٤١٦ .

وتجنيباً لها حياة الفوضى والاضطراب فقد أوجب الإسلام نصب خليفة للمسلمين ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾(١) ، وقوله ﷺ : « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »(٢)، وقد أقام ﷺ دولة الإسلام الأولى في المدينة واجتمعت فيه صفة الإمام (الرئاسة) مع صفة النبوة ، وقد بادر صحابة رسول اللّه إلى بيعة أبي بكر رضي اللّه عنه بعد وفاة الرسول ﷺ .

والخليفة يجب أن يكون من رجال المسلمين العلماء العدول .

ويجب على خليفة المسلمين الحكم بما أنزل اللّه ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾(٣) ، وهو خطاب لرسول اللّه ﷺ ولمن ولي أمر المسلمين بعده ، وقد خاطب اللّه داود فقال له : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِين يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ ﴾(٤) . وقد وصف اللّه المعرضين عن حكم اللّه بالكفر والفسق والظلم ، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾(٥) ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٦) ، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾(٧) .

---

(١) سورة النساء ، آية ٥٩ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن جـ ٣ ص ١٤٧٨ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٤٩ .

(٤) سورة ص ، آية ٢٦ .

(٥) سورة المائدة ، آية ٤٤

(٦) سورة المائدة ، آية ٤٥

(٧) سورة المائدة ، آية ٤٧ .

ويجب عليه العدل بين رعيته والمساواة بينهم ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، يقول تعالى : ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾[1] ، وقال ﷺ : « إن أحب الناس إلى اللّه يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى اللّه وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر »[2] .

وقد بين الرسول ﷺ معنى العدل والمساواة بين الرعية بشكل واضح في قصة المرأة المخزومية التي سرقت وأراد قطعها فأهم الناس أمرها وسألوا أسامة الحب بن الحب أن يكلم فيها رسول اللّه ﷺ فرد ﷺ بقوله : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد واللّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[3] .

ويجب على الخليفة مشاورة رعيته لقوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾[4] ولقوله : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾[5] .

وقد كان ﷺ يستشير المسلمين فيما يعرض له من أمور ، كما حصل في الخروج لملاقاة المشركين يوم أحد وفي النزول عن شيء من ثمار المدينة يوم الخندق وفي غنائم هوازن وغير ذلك .

ويجب عليه إشاعة الأمن والاستقرار في دار الإسلام ليأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ويكون ذلك بإعداد العدة وتهيئة الجيوش وإعداد الجند وإعلان الجهاد ، ويكون أيضاً بتنفيذ أحكام العقوبات على المجرمين .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤٢ .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب الأحكام ، باب ما جاء في الامام العادل جـ ٣ ص ٦١٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الحدود ، باب كراهية الشفاعة في الحد اذا رفع الى السلطان جـ ٧ ص ١٦ .

(٤) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

(٥) سورة الشورى ، آية ٣٨ .

وهو مكلف أيضاً بارسال الدعاة الى ديار غير المسلمين لتبشير الناس بدين الله واخراجهم من ظلمات العقائد الفاسدة ومن جور الأديان تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾[1] ، فاذا ما تعرض هؤلاء الدعاة للأذى أو منعوا من تبليغ دين الله كان جند الله بالمرصاد ، وكانت دعوة الجهاد لكسر الطوق الذي يمنع من وصول كلمة الله الي الناس واسقاط عروش الجبابرة الذين يستعبدون البشر ويتألهون عليهم[2] .

وهو أيضاً مكلف بسياسة مصالح الناس وأمور معاشهم في دنياهم من علوم وصناعات وحرف ، واستثمار خيرات البلاد وتوفير فرص العمل وكل ما يلزم الأمة في حياتها الدنيوية .

وعلى الرعية طاعة ولي الأمر فيما لا معصية فيه لقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾[3] ، وقد عد الرسول معصية الأمير معصية لله ولرسوله وطاعته طاعة لله ولرسوله يقول ﷺ : « من أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصى أميري فقد عصاني ومن عصاني فقد عصى الله »[4] .

وعلى الرعية النصح لولي الأمر ، وبيان الخير له من الشر، وتنبيهه الى ما يصلح الناس مما يفسدهم ، وقد قال ﷺ : « الدين النصيحة . قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[5] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

(٢) انظر مقدمة سورة الأنفال في تفسير في ظلال القرآن .

(٣) سورة النساء ، آية ٥٩ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ جـ ٨ ص ١٠٤ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الأيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة جـ ١ ص ٧٤ .

كما نظم الاسلام علاقة الدولة المسلمة مع غير المسلمين من رعاياها وضمن لهم الحرية الدينية ، ونظم أيضاً علاقة الدولة المسلمة مع غيرها من الدول في حالة السلم والحرب وبين أحكام الفيء والغنائم والأسرى .

أما في الجانب الجنائي ، فانطلاقاً من حرص الاسلام على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم وعقولهم وحرمة اعتداء أحد من الناس على غيره ، فقد قال ﷺ في خطبته في حجة الوداع : « أيها الناس ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا »[1] ، فقد حرم القتل العمد والعدوان والزنا والقذف والسرقة وشرب الخمر والردة والمحاربة، وجعل عقوبة محددة لمن يقترف عملاً منها.

والأدلة على حرمة القتل كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[3] . وقوله ﷺ : « لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة »[4] .

وعقوبة القاتل القصاص الا أن يعفو أولياء الدم لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب الخطبة أيام منى ، جـ ٢ ص ١٩١ .
(٢) سورة الأنعام ، آية ١٥١ .
(٣) سورة النساء ، آية ٩٣ .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى ﴿ أن النفس بالنفس ﴾ جـ ٧ ص ٣٨ .

وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حيَاةٌ يَا أُولِي الألْبَابِ لَعَلَكم تتقون ﴾(1) ، ولقوله : **﴿ وَكَتبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَفْسَ بالنَفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بالأُذُنِ وَالسِنَّ بالسِنّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾**(2) .

أما القتل الخطأ ففيه الدية والكفارة قال تعالى : **﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ إلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾**(3) .

وفي هذه التشريع الحكيم احياء للنفوس وقتل للفتنة في مهدها وايقاف لهدر سيلٍ من الدماء وما أبلغ قوله تعالى : **﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾**(4) .

وحرم الله تعالى الخمر بقوله : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾**(5) . وقد لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة اليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها والمشتري لها والمشترى له »(6) ، ويلحق بالخمر جميع أنواع المخدرات كالحشيش والأفيون وغيرهما .

---

(1) سورة البقرة ، الآيتان ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(2) سورة المائدة ، آية ٤٥ .

(3) سورة النساء ، آية ٩٢ .

(4) سورة البقرة ، آية ١٧٩ .

(5) سورة المائدة ، الآيتان ٩٠ ـ ٩١ .

(6) مسند أحمد جـ ٢ ص ٢٥ ، سنن ابن ماجه ، كتاب الأشربة ، باب لعنت الخمر على عشره أوجه جـ ٢ ص ١١٢٢

والفقهاء متفقون على وجوب حد شارب الخمر ، ولكن منهم من ذهب الى أنه ثمانون جلدة وآخرون أنه أربعون . وهذا الخلاف بسبب ما روى أن رسول الله ﷺ جلد أربعين وأبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكل سنة[١] .

وحرم الزنا بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[٢] ، وحرم كل ما يشجع عليه ويؤدي اليه من الأقوال والأفعال كالخلوة واللمس والمصافحة والنظر والتبرج وابداء العورات والغناء الفاحش والرقص ، والتمثيليات الهدامة والقصص الأدبية الغرامية والمجلات الجنسية وغير ذلك .

وحدُّ الزاني ان كان متزوجاً الرجم بالحجارة وحد البكر جلد مائة وتغريب عام ، دل على الرجم الآية المنسوخة لفظاً الثابتة حكماً وهي : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة »[٣] ، ودل على الجلد قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾[٤] ، وعن عبادة بن الصامت أنه ﷺ قال : « البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[٥] . وقد رجم ﷺ ماعزاً عندما أقر عنده بالزنا .

وهذه العقوبة الشديدة تتناسب مع ضخامة الجريمة اذ في الزنا ضياع النسب وهدم المجتمعات ودمار الأسر والبيوت وانتشار الأمراض ، وهي تعمل على زجر من يفكر بعمل الزنا وردعه وارهابه .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، باب حد الخمر ، جـ ٣ ص ١٣٣١ .
(٢) سورة الاسراء ، آية ٣٢ .
(٣) موطأ مالك ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في الرجم ، جـ ٢ ص ٨٢٤ .
(٤) سورة النور ، آية ٢ .
(٥) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، باب حد الزنا ، جـ ٣ ص ٣١٦

وحرم الاسلام قذف المحصنات الغافلات حماية لأعراض الناس وصيانة لكرامتهم وحفاظاً على نظافة المجتمع من قالة السوء يقول تعالى :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] .

وعقوبة القاذف الذي لا يأتي بأربعة شهود الجلد ثمانين وردُّ شهادته ووصفه بالفسق لقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[2] .

وحرم الاسلام الردة عن الايمان بالله الى الكفر وجعل عقوبته القتل ، يقول تعالى : ﴿ **وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[3] ويقول : ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[4] .

والدليل على قتل المرتد قوله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه »[5] ، وقوله : « لا يحل دم امرىء مسلم الا بإحدى ثلاث» وعد منها التارك لدينه المفارق للجماعة[6] .

---

(١) سورة النور ، آية ٢٣ .

(٢) سورة النور ، آية ٤ .

(٣) سورة النحل ، آية ١٠٦ .

(٤) سورة البقرة ، آية ٢١٧ .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب لا يعذب بعذاب الله جـ ٤ ص ٢١ .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى أن النفس بالنفس جـ ٧ ص ٣٨ .

وحرم خروج طائفة من المسلمين على الإمام ومحاربتهم له وهو ما يسمى بالحرابة أو قطع الطريق ، ويدخل في مفهوم الحرابة عصابات القتل والسرقة وخطف الأطفال أو النساء وتفجير القنابل وما الى ذلك من أعمال العدوان والتخريب[1] .

وقد بين الله سبحانه وتعالى عقوبته بقوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

وحرم السرقة حفظاً للأموال وصوناً للحقوق وجعل عقوبة السارق قطع اليد ردعاً وزجراً لمن تسول له نفسه بها ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾[3] .

هذه العقوبات المقدرة للجرائم الخطيرة يقصد بها الشارع المحافظة على ضرورات الدين والعقل والنفس والمال والنسل .

وهناك عقوبات أخرى غير مقدرة تسمى العقوبات التعزيرية وذلك لمن خالف وارتكب جريمة غير ما ذكرنا .

أما في الجانب القضائي ، فبعد أن أقر الاسلام المساواة والعدل بين الناس وعدم اعتداء بعضهم على حقوق بعض ، فقد نظم طريقة القضاء بينهم عند المنازعة والخصومة ، فأوجب تعيين القضاة ونظم طريقة الدعاوي

---

(١) فقه السنة جـ ٢ ص ٤٦٤ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٣٣ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٣٨ .

وبين ما يصلح بينه على الحقوق مما لا يصلح وحرم شهادة الزور وحرم اليمين الكاذبة ، ونبه الى شدة عقوبة من يأكل حق أخيه في الدنيا وأنه انما يقتطع بذلك قطعة من النار .

والتشريع الاسلامي تشريع مرن ومتطور[1] ، يعنى بجميع حاجات البشر المتجددة ومصالحهم المشروعة ولا يضيق بشيء من الأحداث وهو يناسب جميع المجتمعات مهما بلغت من الرقي والتقدم ، فهو صالح لكل زمان ومكان ، ولم ينزل للعرب خاصة، ولا يقتصر فقط على تنظيم المجتمع البدوي في الصحراء ، بل هو بمبادئه وقواعده وأصوله وأحكامه وتنظيماته مناسب لتنظيم أحوال الناس في الوقت الحاضر .

وأحكام التشريع الاسلامي على نوعين[2] :

النوع الأول : الأحكام التفصيلية : وهي الأحكام الفرعية التي نص الشارع فيها على حكم بعض الجزئيات كأحكام العبادات كوجوب الصلاة وحرمة الافطار في رمضان ، وأحكام العقوبات كجلد الشارب وقتل القاتل وغير ذلك من الأحكام المفصلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهذه الأحكام ثابتة غير قابلة للتغيير أو التبديل لاستمرار الحاجة اليها في جميع العصور ، وغيرها من الأحكام لا يمكن أن تقوم مقامها لعجزها عن تحقيق مصالح العباد ، فمهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال فانه لا يمكن الاستغناء عنها .

النوع الثاني : القواعد والمبادىء العامة التي تضمنها التشريع الحكيم وقام عليها مثل مبدأ العدالة والشورى والمساواة وكقاعدة لا ضرر ولا ضر ر ، وقاعدة درء المفاسد أولى من جلب المنافع وغير ذلك من القواعد العامة في التشريع ، وهذه القواعد والمبادىء بالاضافة الى ثباتها فهي من المرونة والعموم بحيث لا تضيق بأي جديد ، والشارع الحكيم وضع هذه المبادىء

---

(١) المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية ص ٤٥ .

(٢) المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية ص ٥٠ ـ ٥١

والقواعد بصورة عامة دون أن يحدد طريقة معينة لتحقيقها مما يوفر المرونة والصلاحية الدائمة لهذا النظام الالهي .

ومما يؤكد مرونة التشريع الاسلامي وصلاحيته لكل زمان خصوبة مصادره[1] وتعدد أنواعها وطبيعتها المتميزة التي تستجيب لجميع مطالب الحياة فتثري الفقه الاسلامي وتجعله يوفر الحكم لكل حادثة .

فالكتاب والسنة وهما المصدران الأساسيان للتشريع جاءت فيهما الأحكام عامة وثابتة بحيث تلائم جميع العصور ومختلف البيئات ، ويستند الى الكتاب والسنة بقية المصادر الشرعية وتستمد حجيتها منهما كالاجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح ، وكلها مصادر خصبة تمدنا بالأحكام اللازمة للوقائع المستجدة التي لم يأت بها نص صريح في الكتاب أو السنة .

ومن أعظم مقاصد التشريع الاسلامي رعاية مصالح العباد في العاجل والآجل ودرء المفاسد عنهم ، يقول الامام ابن قيم الجوزية : « الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَمِ ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة ومصالح كلها وحكمة كلها »[2] .

ولأن مبنى الأحكام الشرعية على تحقيق المصالح ودرء المفاسد[3] فهي تتغير بتغير المصالح ، فالنسخ والتدرج في التشريع ونزول الأحكام تبعاً للحوادث والمناسبات ، كل ذلك يؤكد ارتباط الأحكام الوثيق بمصالح العباد ، وهي تدور مع تلك المصالح ، فحيثما توجد المصلحة يوجد الحكم واذا تغيرت المصلحة وجب تغير الحكم .

ومن الأمثلة على ارتباط الأحكام بجلب المصالح للعباد ودرء المفاسد

---

(١) وجوب تحكيم الشريعة الاسلامية ص ٦٧ .

(٢) اعلام الموقعين جـ ١ ص ٣ .

(٣) الشريعة الاسلامية للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٤

عنهم[1] أن عمر رضي الله عنه عطل سهم المؤلفة قلوبهم من أموال الزكاة لأن المصلحة التي كانوا يعطون من أجلها وهي ضعف الاسلام والمسلمين في البداية قد انتهت ولهذا قال ان الله قد أعز الاسلام وأغنى عنهم .

ولم يقطع رضي الله عنه يد السارق في عام المجاعة ، حيث فهم أن الجزاء الشديد يكون عندما يسرق السارق لغير حاجة ، أما إذا حل به الجوع فمن العدل عدم استحقاقه لذلك الجزاء ، وبهذا تغير الحكم تبعاً للمصلحة الشرعية .

ثم إن الأحكام عللت بجلب المصالح ودرء المفاسد عن العباد لأنها لم تشرع الا لذلك ، قال تعالى في وجوب الصلاة : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾[2] ، وفي وجوب الزكاة : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** ﴾[3] ، وفي وجوب الحج : ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ** ﴾[4] ، وفي القصاص قال : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[5] ، وفي حرمة الخمر والميسر قال : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[6] ، وفي حرمة الزنا قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾[7] .

وهكذا فالأحكام معللة بما فيه مصلحة للعباد أو دفع مفسدة عنهم .

---

(١) الاسلام وموقف علماء المستشرقين ص ٢٢ .
(٢) سورة العنكبوت ، آية ٤٥ .
(٣) سورة التوبة ، آية ١٠٣ .
(٤) سورة الحج ، آية ٢٨ .
(٥) سورة البقرة ، آية ١٧٩ .
(٦) سورة المائدة ، آية ٩١ .
(٧) سورة الاسراء ، آية ٣٢ .

والمتأمل في مصالح العباد يجد أنها على ثلاثة مراتب : أمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية ، وأحكام التشريع جاءت لتحقيق هذه المصالح .

أما مصالح العباد الضرورية فهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال (١) وهذه المصالح لا يستغني عنها العباد أبداً ، ولا تستقيم حياتهم بدونها ، وإن عدم الحرص عليها يؤدي الى الفساد والفوضى واضطراب الأمور في حياة الناس .

فمن أجل حفظ الدين أوجب الشارع الحكيم العقائد الصحيحة من الايمان بالله وملائكته وكتبه . . . وشرع كذلك العبادات ، وفرض الجهاد لنشر الدين والدفاع عنه ، وشرع حد القتل عقوبة للمرتدين .

ومن أجل حفظ النفس شرع القصاص على من يعتدي على غيره ، وحرم على الانسان قتل نفسه، وأوجب عليه دفع الضرر عنها دائماً والحفاظ عليها وتوفير ما يلزمها من المأكل والمشرب .

ولحفظ العقل فقد حرم الخمر وكل ما يذهب العقل ووضع العقوبة الزاجرة لشاربها .

ولحفظ النسل وايجاده شرع الزواج وحرم الزنا والقذف ووضع عقوبة مناسبة لكل منهما .

ولحفظ المال وتحصيله شرع أنواع الكسب الحلال من بيع وشراء وغير ذلك وحرم أكل أموال الناس بالباطل وحرم السرقة والغصب والربا ونهى عن اتلاف المال وشرع الحجر على السفيه .

أما مصالح العباد الحاجية: فهي التي يحتاجها الناس لتحقيق اليسر والسعة في عيشهم وان فواتها لا يؤدي الى اختلال نظام الحياة وانما يوقع الناس في الضيق والحرج ، لذا شرع الرخص عند المشقة وشرع الطلاق

---

(٢) الموافقات جـ ٢ ص ٨ ، وجوب تحكيم الشريعة الاسلامية ص ٨١ ـ ٨٣ .

للخلاص من حياة زوجية أصبحت جحيماً ، وشرع الدية على عاقلة القاتل في القتل الخطأ .

وأما المصالح التحسينية فهي التي ترجع الى محاسن العادات ومكارم الاخلاق ، وإن فواتها يؤدي الى خروج الناس عن النهج السليم ، ومنها الطهارة للبدن والثوب وكذلك ستر العورة والنهي عن قتل الأطفال في الحروب وغير ذلك .

وهكذا نجد التشريع الاسلامي قد حرص حرصاً شديداً على تحقيق مصالح العباد ودفع الضرر عنهم في كل زمان ومكان ، وهكذا يؤكد مرونته وصلاحيته الدائمة ومناسبته لتنظيم حياة الناس وتوفير الراحة والسعادة والأمن والرخاء لهم ، وايجاد الفرد الصالح والمجتمع الصالح الذي يتوفر فيه كل عناصر الحياة السعيدة .

ثم ان التشريع الاسلامي سهل يسير ، راعى التخفيف عن العباد في كثير من أحكامه وهو ما يعبر عنه في الفقه الاسلامي برفع الحرج[1] ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾[2] ، ويقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[3] ، ويقول ﷺ : « عليكم من الأعمال ما تطيقون »[4] ، وأوصى ﷺ معاذاً وأبا موسى الأشعري حين بعثهما الى اليمن فقال لهما : « يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا »[5] ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه »[6] .

---

(١) صور من سماحة الاسلام ص ٠

(٢) سور النساء ، آية ٢٨ .

(٣) سورة الحج ، آية ٧٨ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الايمان ، باب قول النبي ﷺ أنا أعلمكم بالله جـ ١ ص ١٠ .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول النبي ﷺ يسروا ولا تعسروا جـ ٧ ص ١٠١ .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب توقيره ﷺ جـ ٤ ص ١٨٣٠ .

ومن مظاهر اليسر والسهولة في التشريع الاسلامي أنه لم يكلف البشر فوق طاقتهم وما يشق عليهم بل كلفهم بما يقدرون عليه ويطيقونه ، قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[1] .

ثم إنه نهى عن الغلو في الدين لما فيه من تكليف للنفس بما يشق عليها ويرهقها ، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق »[2] ، ولما أراد بعض أصحابه قيام الليل أبداً وبعضهم صيام النهار أبداً وبعضهم ترك الزواج أبداً وبلغه مقالتهم قال ﷺ : « أما أني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني »[3] .

ومن يسره وسهوله أنه لا يؤاخذ على الاكراه والخطأ والنسيان وقد قال ﷺ : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[4] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾[5] ، فلا اثم على المُكْرَهِ حتى ولو نطق بكلمة الكفر ، وكذلك المخطىء والناسي لا اثم عليهما فيما فعلا عن خطأ ونسيان وهذا منتهى اليسر والسهولة والرحمة بالعباد اذ راعى حالهم وما يعتريهم من نقص .

ومن يسره وسهولته إباحة الرخص رفعاً للحرج ودفعاً للمشقة وتيسيراً على العباد ، ومن أمثلتها إباحة الفطر للمريض والمسافر في رمضان ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَو عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٦ .

(٢) مسند أحمد ١٩٩/٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح جـ ٦ ص ١١٦ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق المكره والناسي جـ ١ ص ٦٥٩ ، والحديث ضعيف ، ولكن العمل عليه عند الفقهاء .

(٥) سورة النحل ، آية ١٠٦ .

﴿ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1] ، وكقصر الصلاة للمسافر ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[2] .

ومن ذلك أيضاً إباحة المحظور في حالة الضرورة رفعاً للحرج واحياء للنفوس ومثاله إباحة أكل الميتة ولحم الخنزير وغيرهما من المحرمات في حالة الاضطرار ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] ، وكإباحة النطق بكلمة الكفر في حالة الاكراه .

ومن يسره وسهولته أنه قرر قاعدة « الأصل في الأشياء والأعيان الاباحة » ما لم يرد نص صريح بالتحريم ، فالإباحة هي الأصل والتحريم مستثنى ، فما لا نص فيه بما فيه منفعة للعباد يكون معفواً عنه وهذا من رحمة الله بعباده وقد قال ﷺ : « الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه »[4] .

ومبدأ اليسر مهيمن على التشريع الاسلامي في شتى المجالات ، ففي المعاملات نجد اليسر والسهولة اذ تتم العقود ببساطة وبلا تعقيد متى توفرت الرغبة عند العاقدين دون التقيد بمراسم معينة وأمور شكلية كما كان معروفاً عند الرومان ، وأن بناء كثير من أحكام المعاملات على العرف الصحيح يؤكد يسر الاسلام وسماحته وتخفيفه على العباد .

ونلمس مبدأ اليسر والسماحة أيضاً في مجال العقوبات ، اذ يأمر بدرء الحدود بالشبهات ، قال ﷺ : « ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم فإن

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٨٥ .

(٢) سورة النساء ، آية ١٠١ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٧٣ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب أكل الجبن والسمن جـ ٢ ص ١١١٧ .

وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله فإن الإمام لأن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة »[1] ، وهذا لأن العقوبات ليست هدفاً في التشريع ، ولولا أن ضرورة الحياة اقتضتها لما شرعها ، فهي من أجل توفير حياة كريمة آمنة مطمئنة ، فإذا ما توفرت أدنى شبهة فإن الحد لا يقام على الفاعل .

ثم إن التشريع الاسلامي تشريع أخلاقي ، حيث ترتبط الأخلاق الرفيعة بكل جزئية من جزئياته سواء في المعاملات أو العبادات ، فهو في آن واحد في الصلاة مثلاً يحث على طهارة الظاهر في البدن والملبس والمكان ويحث على طهارة الباطن من الرياء والحقد والحسد ، وكذلك سائر العبادات .

وتقف الأخلاق الاسلامية في المعاملات للتوجيه[2] فتمنع الغش والاحتكار والتدليس والخداع واخفاء العيب في السلعة وتحث على التعامل بالقرض الحسن والسماحة في البيع والشراء والاقتضاء وتنهى عن التعامل بالربا ، كما تأمر بالوفاء بالعقود ورد الأمانات الى أهلها .

وفي مجال العلاقات الاجتماعية أمر الاسلام بمكارم الأخلاق في تعامل الناس بعضهم مع بعض فحث على الصدق والرفق وسعة الصدر والرحمة والحب والتواضع والكرم والتعاون على البر والتقوى والاحسان الى الوالدين وصلة الحرم ونهى عن الكذب والغلظة والبغضاء والتنافر والكبر والبخل وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وغير ذلك من الرذائل التي تؤدي الى تمزيق أواصر المجتمع .

وحرص على صيانة أعراض الناس من أن تنتهك فحرم الغيبة والنميمة والقذف ونهى عن التجسس والفحش في القول وحرم الزنا .

وهكذا سائر مجالات الحياة فانها ربطت بالأخلاق الفاضلة في كل

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد جـ ٤ ص ٣٢ .
(٢) وجوب تحكيم الشريعة الاسلامية ص ٩٩ .

صغيرة وكبيرة حتى في علاقة المسلمين بأعدائهم تظهر أخلاق الاسلام بصورة بارزة ومتميزة فينهى عن الغدر والخيانة ويحرم قتل الشيوخ والنساء والصبيان والتمثيل بالقتلى .

والتشريع الاسلامي يحظى باحترام الجميع وهيبتهم منه لاقترانه بالجزاء الدنيوي والأخروي ، بخلاف النظم الوضعية التي لم تقترن الا بالجزاء الدنيوي(١) .

فأحكام الشريعة تقترن بجزاء دنيوي يوقع على المخالف من أجل استقرار المجتمع وتنظيم علاقات الأفراد وضمان حقوقهم المشروعة ، فالقاتل يقتل والسارق تقطع يده والقاذف والزاني البكر يجلد والمحصن يرجم هكذا .

أما الجزاء الأخروي والذي هو الأصل في الأجزية فيترتب على كل مخالفة لأي حكم من أحكام التشريع سواء كانت من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح وسواء عوقب عليها المسيء في الدنيا أو لم يعاقب ، ولا يسقط هذا الجزاء إلا بالتوبة الصادقة وإعادة الحقوق الى أصحابها ، قال تعالى في عقوبة قاطع الطريق : ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا . . . . . ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِيْ الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾(٢) . فعقوبته دنيوية وأخروية . وقال في عقوبة آكل أموال اليتامى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمَاً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً** ﴾(٣) ، وقال في عقوبة القاتل : ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيْهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ**

---

(١) المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية ص ٤٣ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٣٣ .

(٣) سورة النساء ، آية ١٠ .

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[1] .

والجزاء الأخروي أعم من الجزاء الدنيوي فهو يشمل كل تصرف يصدر عن الانسان سواء أسره أو أظهره وسواء أكان صغيراً أو كبيراً ، فإن كان خيراً فثوابه كذلك وإن كان شراً وجد الشر قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرةٍ شَرَاً يَّرَهُ ﴾[2] .

وبناء على ذلك فإن للتشريع الاسلامي سلطاناً عظيماً على النفوس اذ يخضع المسلم خضوعاً اختيارياً في السر والعلن خوفاً من عقاب الله وطمعاً في رضاه حتى اذا ما اقترف جريمة خفية عن أعين الناس دفعه ضميره الموقن بعذاب الله في الآخرة الى الاعتراف بها وطلب بنفسه إقامة العقوبة عليه في الدنيا مهما كانت صعبة ، فهذا ماعز رضي الله عنه يقع في جريمة الزنا فيأتي رسول الله ﷺ طواعية واختياراً معترفاً بما وقع منه ، طالباً اقامة الحد عليه بقوله : يا رسول الله طهرني ، وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على مخالفته خوفاً من الجزاء الأخروي ، وبهذا تنزجر النفوس وتنتهي عن غيها وطغيانها ، وهذا أمر لا يتوفر للشرائع الوضعية لأن أجزيتها دنيوية فقط وطغيانها ، وهذا أمر لا يتوفر للشرائع الوضعية لأن أجزيتها دنيوية فقط وسلطانها ضعيف على النفوس ، فكل من يستطيع أن يخالف القانون سراً دون أن يراه أحد فإنه يفعل المحظور دون حرج فلا رقيب عليه ولا رادع له من داخله .

والتشريع الاسلامي تشريع مستقل قائم بذاته لم يتأثر بغيره من التشريعات قديماً وحديثاً ، مصدره الوحي الالهي ، وهو ليس صدى لما جاءت به الشرائع السماوية السابقة ولا ترديداً للنظم والقوانين الوضعية التي كانت معروفة قبل نزول الوحي على محمد ﷺ سواء ما كان معروفاً منه عند

---

(١) سورة النساء ، آية ٩٣ .

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان ٧ ـ ٨ .

العرب في جاهليتهم على قلته من عادات وتقاليد أو ما كان معروفاً عند الرومان من نظم وقوانين ، وإن اتفاق الشريعة الاسلامية مع الشرائع السابقة في بعض الأصول والمقاصد لا يدل على التأثر وإنما يدل على وحدة المصدر الالهي .

هذه هي الأحكام الأساسية في الشريعة الاسلامية ، وهذه هي خصائصها ، وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن كل ما عرفته البشرية من قوانين وضعية سواء ما عرف منها قبل البعثة أو بعدها ، حيث تتسم هذه القوانين بالأوصاف التالية :

١ - أنها قوانين قاصرة لا وفاء فيها لمعالجة مشاكل البشر ، وهذا القصور في القانون سببه القصور في واضعه ، اذ يعتري البشر مهما بلغوا من علم وحكمة عوارض الجهل والخطأ والنسيان واتباع الهوى .

٢ - إنها تصدر عن حاجات آنية لسدها ، ولذلك فهي ليست شاملة لجميع النشاط البشري ، ولا بد من استكمالها أو تغييرها كلما دعت الحاجة .

٣ - إنها قوانين بيئة خاصة ، ولمجتمع خاص ، لا تصلح لبيئة أخرى ولمجتمعات أخرى لأنه روعي فيها الأوضاع الخاصة للمجتمع بعكس الشريعة الاسلامية الصالحة لكل زمان ومكان .

٤ - إنها تخضع عند تشريعها لرغبة السلطة الحاكمة ، ولا تتحرر عن هوى القاعدين على كراسي الحكم فتأتي على الهيئة التي يريدون واللون الذي يرغبون ، وتحقق مصالحهم ورغباتهم وليس مصالح الشعب وحاجاته .

٥ - أنها لا تعتمد على الوازع النفسي ، ولا تربي في الناس الخوف من الله ومراقبته في السر والعلن ، وكل ما يحرص عليه الفرد هو أن لا يقع في يد السلطة الرسمية ، ولا شيء أبعد من ذلك ، بينما يربي الاسلام في الفرد رقابة الله والخوف منه ومن عقابه في الآخرة .

٦ - انها لا تقوم على أساس أخلاقي ، فالقانون لا يراعي الأخلاق ولا يحرص عليها فالزنا باتفاق الطرفين وشرب الخمر مثلاً لا يعاقب عليهما القانون ولا يحرم فعلهما ، على عكس الشريعة الاسلامية التي تقوم أحكامها على أسس أخلاقية .

٧ - انها تهتم بالجانب الدنيوي فقط وتنظم له دون الجانب الأخروي ، مما يسبب انحرافاً لتغليب الجانب المادي على الجانب الأخروي في حياة البشر ، بخلاف الاسلام الذي شرع أحكامه لتحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة .

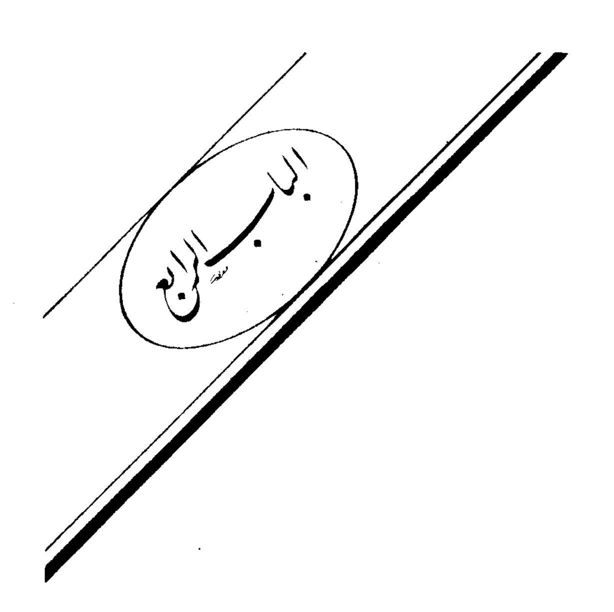
٨ - إن هذه القوانين ليس فيها مساواة مطلقة بين أفراد الشعب اذ تتمتع بعض الطبقات بامتيازات خاصة ليست لغيرها ، كأفراد السلطة الحاكمة أو أعضاء الحزب مثلاً ، على خلاف الاسلام الذي قرر المساواة المطلقة بين جميع الأفراد .

٩ - انها ليست مرنة ، ولا توافق جميع البيئات ومختلف الظروف ، مما يتطلب تغييراً دائماً بحسب الأحوال والمتغيرات .

هذه هي أهم سمات القوانين الوضعية قديمها وحديثها وهي كما رأيت تختلف عن شريعة الله اختلافاً بيناً ، والسؤال هو من أين لرسول الله ﷺ بهذه الشريعة لو لم يكن وحياً من الله .

لو كانت من عنده أو من انتاج بيئته لكانت مشابهة لغيرها من القوانين ، ولجاءت متصفة بما اتصف به غيرها من النظم ، ولكن اختلافها عن غيرها من النظم وتفردها بكثير من الخصائص وتلبيتها لمصالح الناس وتكوينها لمجتمع فاضل صالح يؤكد ربانية مصدرها وأنها وحي الله لرسوله وأنه ﷺ صادق في نبوته ، تلقى عن الله بواسطة جبريل عليه السلام .

إنها الشريعة المعجزة التي لم يقدر الناس على مثلها ، الشاهد الواضح والدليل الراسخ على نبوة محمد ﷺ .



شبهات حول صدق النبوّة المحمّدية وردّها

ويتضمن فصلين :

الفصل الأول : شبهات العرب قديماً .

الفصل الثاني : شبهات المستشرقين .

الفصل الأول

شبهات العرب قديماً وردها[1]

بعث اللّه رسوله محمداً ﷺ في قومه وأمره بإنذارهم بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾[2] ، وبقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[3] . فدعاهم ﷺ إلى الإيمان باللّه سبحانه وتعالى وتوحيده وتنزيهه وترك ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام ، وبين لهم أنه مرسل إليهم من ربه ، وهو سبحانه وتعالى الذي ينزل عليه القرآن بواسطة جبريل عليه السلام ، فاستجاب له فريق منهم وآمنوا به وكان من أوائل هؤلاء أبو بكر وخديجة وعلي وآل ياسر رضي اللّه عنهم جميعاً . وأعرض عنه آخرون وكذبوه ووقفوا في طريق دعوته يصدون عن سبيل اللّه ، بل أعلنوا الحرب بعد أن آذوه وآذوا أصحابه أشد الإيذاء ، يقول تعالى على لسانهم : ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[4] ، ولم ينفع معهم ما كان ينزل على رسول اللّه من آيات بينات وحجج ساطعات .

لقد استغرب هذا الفريق أن يُوحى إلى رجل منهم ، وتعجبوا أن يُختارَ

---

(١) استعرضت القرآن الكريم وقيدت الآيات الكريمة التي تناولت شبهات العرب والرد عليها ، وقد وجدت أن هذا الموضوع من موضوعات القرآن المكي دون القرآن المدني .

(٢) سورة المدثر ، الآيتان ١ ـ ٢ .

(٣) سورة الشعراء ، آية ٢١٤ .

(٤) سورة الملك ، آية ٩ .

محمد بن عبد الله من بينهم لحمل هذه الرسالة وأداء هذه الأمانة ، وقد سجل القرآن الكريم استغرابهم وتعجبهم واستهجانهم هذا في آيات عدة منها :

قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾[5] .

وقد أخذوا يثيرون الشُّبَهَ ويرمون رسول الله ﷺ بالافتراءات وبأنه مجنون وبأنه شاعر وبأنه ينقل ما يأتي به عن غيره وأن القرآن أساطير الأولين .

ومن الآيات التي ذكرت على لسانهم شبهة السحر :

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾[5] .

---

(١) سورة يونس ، آية ٢ .
(٢) سورة ص ، آية ٤ .
(٣) سورة ص ، آية ٨ .
(٤) سورة الزخرف ، آية ٣١ .
(٥) سورة ق ، الآيتان ١ ـ ٢ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يرِ دُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ اياتنا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[5] .

ومن الآيات التي أوردت على لسانهم شبهة الجنون :

ـوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ ـجْنُونٌ ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا

---

(١) سورة سبأ ، آية ٤٣ .
(٢) سورة الصافات ، الآيتان ١٤ ـ ١٥ .
(٣) سورة ص ، آية ٤ .
(٤) سورة الزخرف ، آية ٣٠ .
(٥) سورة الأحقاف ، آية ٧ .
(٦) سورة الحجر ، آية ٦ .

مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ والضَّلَالِ البَعِيدِ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾[2] .

ومن الآيات التي ذكرت على لسانهم أن القرآن أساطير الأولين :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[5] .

ومن الآيات التي ذكرت على لسانهم انه نقل عن غيره :

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَومٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[6] .

---

(١) سورة سبأ ، الآيتان ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة القلم ، آية ٥١ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ٢٥ .

(٤) سورة النحل ، آية ٢٤ .

(٥) سورة المطففين ، الآيتان ١٢ ـ ١٣ .

(٦) سورة الفرقان ، الآيتان ٤ ـ ٥ .

ومن الآيات التي نقلت على لسانهم تهمة أن القرآن شعر وأن الرسول شاعر:

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾(٢) .

هذه هي أبرز الشبه التي رددها المنكرون لنبوة رسول اللّه ﷺ ، والجاحدون بأن القرآن وحي من عند اللّه سبحانه وتعالى وأن رسول اللّه ليس إلّا مبلغاً أميناً من ربه .

موقف القرآن من هذه الشبهات

يلاحظ في معالجة القرآن الكريم للشبهات التي أثارها العرب قديماً والتي استندوا إليها في إنكار نبوة رسول اللّه وربانية كتاب اللّه أنه سلك منهجاً سديداً يتلخص في تثبيت رسول اللّه ﷺ وتذكيره أنه ما من أمة إلّا وكذبت رسولها ، وما من نبي إلّا وآذاه قومه ورموه بمثل ما قالت العرب له ، ثم أمره بالصبر على الأذى وتحمله والاكثار من الصلاة والتسبيح والذكر ، ثم أكد بصورة جازمة أن القرآن وحي من اللّه ، وتوعد وتهدد المكذبين الضالين وبين لهم مصيرهم وصوراً من العذاب الذي ينتظرهم ، ثم رد القرآن الافتراءات التي أطلقوها ونفاها عن رسول اللّه ﷺ وأقام الدليل على بطلانها وسأتحدث عن كل نقطة على حدة مستدلة على ذلك بشيء من القرآن الكريم .

أولاً : صرح القرآن الكريم بأن الأمم السابقة كذبت رسلها ، وأن الأنبياء

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٥ .

(٢) سورة الصافات ، آية ٣٦ .

جميعاً تعرضوا لمثل ما يلقاه رسول اللَّه ﷺ من القذف بمختلف التهم ، وفي هذا تسلية لرسول اللَّه وتسرية عنه .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ ﴾[3] .

ويقول تعالى : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾[4] .

ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المُنِيرِ ﴾[5] .

ويقول تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَىٰ العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[6] .

ويقول تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١٠ .

(٢) سورة « المؤمنون » آية ، ٤٤

(٣) سورة العنكبوت ، آية ١٨ .

(٤) سورة فاطر ، آية ٤ .

(٥) سورة فاطر ، آية ٢٥ .

(٦) سورة يس ، آية ٣٠ .

لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾[3] .

وهكذا فقد وقع التكذيب من جميع الأمم السابقة لأنبيائها ، فليس تكذيب قريش والعرب لرسول اللّه ﷺ أمراً جديداً ، بل انها سنة اللّه في أنبيائه ، يقول تعالى في تكذيب قوم نوح له : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[4] . وفي تكذيب قوم هود له يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾[5] ، وقوم صالح كذبوه : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾[6] ، وقوم لوط كذلك : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[7] ، وقوم شعيب كذلك : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[8] .

وكما رمت العرب رسول اللّه بأنواع التهم وصنوف الأكاذيب فقد رُمِيَ بعض من سبقه من الأنبياء بالسحر والجنون ، فموسى عليه السلام منذ اللحظة الأولى من دعوته قذفه فرعون وجنوده بالسحر ، يقول تعالى على لسان فرعون : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[9] ، وقال تعالى

---

(١) سورة فصلت ، آية ٤٣ .
(٢) سورة الحج ، الآيتان ٤٢ ـ ٤٤ .
(٣) سورة ص ١٢ ـ ١٣ .
(٤) سورة الشعراء ، آية ١٠٥ .
(٥) سورة الشعراء ، آية ١٢٣ .
(٦) سورة الشعراء ، آية ١٤١ .
(٧) سورة الشعراء ، آية ١٦٠
(٨) سورة الشعراء ، آية ١٧٦
(٩) سورة الشعراء ، آية ٣٤ .

عن فرعون وقومه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾[2] .

وكما اتهم موسى بالسحر فاتهم أيضاً بالجنون ، يقول تعالى على لسان فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[3] .

ورمي نوح عليه السلام بالجنون ، قال تعالى على لسان قومه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[4] .

ورمي هود عليه السلام بالجنون أيضاً قال تعالى على لسان قومه : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾[5] .

وهكذا فالأمر ليس بجديد بالنسبة لمحمد ﷺ ، بل قيل لإخوانه الأنبياء من قبله مثل ما يقال له من الكلام الباطل ، فلا بد من تحمل الأذى والصبر عليه .

ثانياً : أمر اللّٰه رسوله ﷺ بمواجهة افتراءات أعدائه بالصبر والتحمل وعدم التأثر بما يقولون والثبات على ما أوحى اللّٰه به إليه وتبليغ ما أمره به والاعراض عنهم والاستعانة على ذلك بالصلاة والتسبيح وذكر اللّٰه .

يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[6] .

---

(١) سورة النمل ، آية ١٣ .
(٢) سورة القصص ، آية ٣٦ .
(٣) سورة الشعراء ، آية ٢٧ .
(٤) سورة المؤمنون ، آية ٢٥ .
(٥) سورة هود ، آية ٥٤ .
(٦) سورة الروم ، آية ٦٠ .

ويقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[3] .

ويأمر اللّٰه رسوله بالصبر على تبليغ دعوته والاعراض عن الجاهلين ، فيقول تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[4] ، ويقول تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] .

ويقول تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[6] .

ولأهمية العبادة وتوثيق الصلة باللّٰه ودورها في تثبيت رسول اللّٰه أمام افتراءات المكذبين أمره اللّٰه تعالى بالصلاة والذكر والتسبيح مع الصبر ، يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[7] .

---

(١) سورة غافر ، آية ٧٧ .
(٢) سورة القلم ، آية ٤٨ .
(٣) سورة المعارج ، آية ٥ .
(٤) سورة الحجر ، آية ٩٤ .
(٥) سورة الذاريات ، الآيتان ٥٤ ـ ٥٥ .
(٦) سورة المزمل ، آية ١٠ .
(٧) سورة طه ، آية ١٣٠ .

ويقـول تعالى : ﴿ فَـاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّـكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمـاً أَوْ كَفُوراً وَاذْكُـرِ اسْمَ رَبِّـكَ بُكْــرَةً وَأَصِيـلاً وَمِنَ اللَّيْــلِ فَـاسْجُــدْ لَـهُ وَسَبِّحْــهُ لَيْـلاً طَوِيلاً ﴾(١) .

ويأمره تعالى بالتمسك بالقرآن بقوله : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢) .

ويأمره بعدم الحزن لما يقولون بقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّـا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(٣) .

ثالثاً : ويؤكد الحق سبحانه وتعالى أمـام افتراءات المكـذبين أن القرآن وحي من اللَّه أنزله على رسوله بواسطة جبريل عليه السلام ، وأن محمداً ما هـو إلَّا رسول أمين مبلغ عن اللَّه وحيـه لا يزيـد فيه ولا ينقص منـه ، فيجب الإيمان به .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّـهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾(٤) .

ويقول : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِـكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ ﴾(٥) .

ويقول : ﴿ الٓمٓ تَنْزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ ﴾(٦) .

---

(١) سورة الانسان ، الآيات ٢٤ ـ ٢٦ .
(٢) سورة الزخرف ، آية ٤٣ .
(٣) سورة يس ، آية ٧٦ .
(٤) سورة الفرقان ، آية ٦ .
(٥) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٢ ـ ١٩٤ .
(٦) سورة السجدة ، الآيات ١ ـ ٢ .

ويقول : ﴿ يس وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾(١) .

ويقول : ﴿ بَلْ جَاءَ بالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ ﴾(٢)

ويقول : ﴿ تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ إنَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾(٣) .

ويقول : ﴿ حمٓ عٓسٓقٓ كَذَلِكَ يُوحِي إلَيْكَ وَإلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾(٤) .

ويقول : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾(٥) .

ويقول : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ تَنْزِيلُ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾(٦) .

ويقول تعالى : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنْزِيْلاً ﴾(٧) .

وهكذا يقطع القرآن الكريم بأن ما ينزل على محمد ﷺ وحي من الله تعالى أنزله عليه لهداية الناس وهو حق لا مراء فيه .

---

(١) سورة يس ، الآيات ١ ـ ٣ .
(٢) سورة الصافات ، اية ٣٧ .
(٣) سورة الزمر ، الآيتان ١ ـ ٢ .
(٤) سورة الشورى ، الآيات ١ ـ ٣ .
(٥) سورة الجاثية ، اية ٦ .
(٦) سورة الواقعة ، الآيات ٧٥ ـ ٨٠ .
(٧) سورة الانسان ، اية ٢٣ .

رابعاً : ازاء تكذيب المنكرين لرسول الله ﷺ ، واجههم القرآن الكريم بالتهديد الشديد والوعيد العظيم والعذاب الأليم ، وبين لهم مصيرهم وجزاءهم في الدنيا والآخرة وتلا عليهم صوراً من العذاب الذي سيذوقونه اذا ما استمروا في تكذيبهم وعنادهم ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الحَمِيْمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾(١) .

ويقول تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِيْنٌ ﴾(٣) .

ويقول تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾(٤) .

وقال تعالى في الوليد بن المغيرة بعد رميه الرسول بالسحر : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة غافر ، الآيات ٦٩ ـ ٧٢ .
(٢) سورة الجاثية ، الآيات ٧ ـ ١٠ .
(٣) سورة القلم ، الآيتان ٤٤ ـ ٤٥ .
(٤) سورة المزمل ، الآيات ١١ ـ ١٤ .
(٥) سورة المدثر ، الآيات ٢٦ ـ ٣٠ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾(1) .

خامساً : رد القرآن الكريم الشبه التي أثارها المنكرون الجاحدون ، ودفع تهمة السحر والجنون والشعر والأخذ من الغير عن رسول الله ﷺ ، وبرَّأه من كل ما تفوه به مشركو العرب فقال تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾(2) .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾(3) .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾(4) .

ويقول تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾(5) .

ويقول تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا

---

(1) سورة المطففين ، الآيات ١٢ ـ ١٧ .
(2) سورة الشعراء ، الآيات ٢١٠ ـ ٢١٢
(3) سورة سبأ ، آية ٤٦ .
(4) سورة يس ، آية ٦٩ .
(5) سورة الطور ، آية ٢٩ .

يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَىٰ ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾[3] .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَىٰ الغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَولِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾[4] .

انه وحي اله لرسوله ، ليس بالشعر وليس بالسحر وليس بقول كاهن أو مجنون .

بطلان شبهات العرب

ما ادعاه العرب على رسول الله من الجنون والسحر والشعر والأخذ عن غيره باطل من عدة وجوه :

الأول : سيرته العطرة ﷺ ، فقد عاش بينهم أربعين سنة قبل أن ينبأ ، وكانوا يعرفونه معرفة دقيقة ويطلعون على أحواله ، وكان متميزاً بينهم بالصدق والأمانة وسائر الأخلاق الكريمة ، وكان مترفعاً عما كان يقع القوم فيه من مفاسد ، واشتهر بينهم برجاحة عقله وسلامة تفكيره ، ولم يؤثر عنه قول

---

(١) سورة النجم ، الآيات ١ ـ ٥ .

(٢) سورة القلم ، الآيتان ١ ـ ٢ .

(٣) سورة الحاقة ، الآيات ٣٨ ـ ٤٣ .

(٤) سورة التكوير ، الآيات ٢٢ ـ ٢٧

الشعـر ولا تعلم السحر ولا التلقي عن الكهـان ، لقد كـان ﷺ رجلاً كـامـلاً سليمـاً معافى صـاحب خلق وفضائـل وافر العقـل ، فليس من المعقول ممن هذه حاله وصفته أن يكذب على الله ، وقد شهد أبو سفيان له بهـذه الصفات الجميلة أمام قيصر فما كان من قيصر الا أن قال : ما كان ليـذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

الثاني : اضطراب العرب في موقفهم من رسول الله ، فهم الذين رموه بالجنون والسحر والشعر والكهـانة ، وهم أنفسهم نفـوا عنه هـذه الأكاذيب ، وقد روي عن كثير منهم نفيهم أن يكون ما جاء به رسـول الله ﷺ من الوحي يشبه شيئاً من الشعر أو السحر أو الكهانة أو الجنون .

روي أن الوليد بن المغيرة جاء الى النبي ﷺ فقـرأ عليه القـرآن فكأنـه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم ان قومك يـريدون أن يجمعـوا لك مـالاً ، قال : لِمَ ؟ قـال : ليعطوكـه فإنـك أتيت محمداً تتعـرض لمـا قبله ، قال : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له . فقال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبـه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله أن لقوله حـلاوة وأن عليه لـطلاوة وأنه لمثمـر أعلاه مغدق أسفله وأنه ليعلو وما يعلى وأنه ليحطم مـا تحته » . وهكـذا نفى أن يكون القرآن شعراً ، ولكنه بعد تفكير قال بأنه سحر يؤثر[١] .

وفي مؤتمر لقريش لبحث أمر رسول الله وما التهمة التي يجب الاتفـاق عليهـا لتوجيههـا له لالقـائها على العـرب في موسم الحـج سألـوا الوليـد بن المغيرة أن يقول « في القرآن رأياً ، فقـال بل أنتم فقـولوا لأسمـع . فقالـوا : كاهن ، فقال : مـا هو بكـاهن ، لقد رأيت الكهـان فما هـو بزمـزمة الكـاهن وسحره ، فقالوا نقول مجنـون ، فقال ومـا هو بمجنـون ، ولقد رأينـا الجنون

---

(١) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٠ .

وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا فنقول شاعر ، قال : فما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : فما هو بساحر ، قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده ، فقالوا ما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله أن لقوله لحلاوة وأن أصله لمعذق وأن فرعه لجنأ فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الا عرف أنه باطل وأن أقرب القول لأن تقولوا ساحر ، فتقولوا هذا ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه وبين المرء وبين أخيه وبين المرء وبين زوجته وبين المرء وعشيرته »[1]

وروي أن النضر بن الحارث قال : « يا معشر قريش أنه والله لقد نزل بكم ما ابتليتم بمثله ، لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وحالهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، لقد روينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه يا معشر قريش انظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم »[2] .

وروي مثل هذا عن عتبة بن ربيعة وأنيس أخي أبي ذر الغفاري .

ومن هذه الروايات نرى أن العرب لم يكونوا على اقتناع بما يرمون به رسول الله ﷺ من شبه باطلة ، بل كانوا على يقين من بطلانها وفسادها ، ولكنه الكبر والجحود والعناد .

الثالث : أن رسول الله ﷺ حمل على السحرة والكهنة والشعراء الا الذين آمنوا والشياطين ، فلو كان متصلاً بأحد منهم وناقلاً عنهم لما صدر عنه

---

(١) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨١ .

(٢) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٣ .

مهاجمتهم وتحقير عملهم .

الرابع : أن جبر الرومي ، الذي كان يعمل حداداً بمكة ، والذي اتهمت قريش رسول الله ﷺ أنه كان يأخذ عنه كان رجلاً عامياً ، ليس صاحب علم وكان أعجمي اللسان ، والقرآن عربي اللسان ، يقول تعالى : **﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾**[1] .

وهذه الشبهات التي أوردها العرب تناولها المستشرقون وتوسعوا فيها وألبسوها ثوب البحث العلمي ، وفي الفصل الثاني أعرض لشبهاتهم وأفصل في الرد عليها ، وفي الرد الذي سأقدمه عليها رد على شبهات العرب أيضاً.

---

(١) سورة النحل ، آية ١٠٣ .

الفصل الثاني

شبهات المستشرقين والرد عليها

أهداف حركة الاستشراق :

نشأت حركة الاستشراق في جو خانق من الحقد والكراهية للإسلام ونبي الاسلام وأهله ، حيث انبعثت من الكنيسة وعاشت في ظلها وارتبطت بأهداف المبشرين والمستعمرين ، لذا جاءت كتابات المستشرقين تطفح بالحقد الأعمى والسم الزعاف الا ما ندر منها ، فالتبشير والاستعمار والاستشراق ثلاث حلقات متداخلة ومتعاونة للطعن في الاسلام والنيل من النبي الكريم محمد ﷺ[1] .

يقول الاستاذ محمد البهي رحمه الله : « وينطوي عمل الدارسين للإسلام من المستشرقين على نزعتين رئيسيتين ، الأولى : تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الاسلامية وتمهيد النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الأوروبي والرضا بولايته ، والثانية : الروح الصليبية في دراسة الاسلام ، تلك النزعة لبست ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الانسانية المشتركة»[2] .

فالهدف الأساسي من كتابات المستشرقين عن الاسلام ونبيه عليه

---

(١) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١٥ .

(٢) الفكر الاسلامي الحديث ص ٤٨ .

أفضل الصلاة والسلام هو التشويه والطعن والتشكيك ، وان تستروا بقناع البحث العلمي لاخفاء هذه الأهداف المسمومة .

والمتتبع لحركة الاستشراق يجد أنها مرت بمرحلتين : عَقَدِيَّة حيث الهجوم الصريح والحقد البين والنيل المباشر من الإسلام وأهله ، والمرحلة الثانية : مرحلة التستر بالعلم والمراوغة باستعمال اسلوب المدح والثناء والتقدير والاحترام ، ومن خلال ذلك يتم بث السموم القاتلة ، وهذه المرحلة أشد خطراً من سابقتها لأنها تخدع القارىء وتغرر به[١] .

وهكذا كَتَب المستشرقون في الاسلام بروح عدائية مشبعة ، صليبية ويهودية ، ولم يفلت أغلبهم من أضغان الماضي والحقد التاريخي الطويل على مدى العصور ، ولم يستطيعوا بادعاءاتهم وأكاذيبهم أنهم سلكوا طريق البحث العلمي اخفاء ما يتصفون به من حقد أعمى وتعصب بغيض وكراهية شديدة .

يقول الاستاذ برنار لويس : « لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية »[٢] .

ويقول الاستاذ نورمان دانيل : « على رغم المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين عن الاسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاماً كما يتوهمون »[٣] .

---

(١) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١٣ .
(٢) التبشير والاستشراق ص ٤٥ .
(٣) التبشير والاستشراق ص ٤٦ .

موقف المستشرقين من نبوة محمد

تنكر الغالبية العظمى من المستشرقين نبوة رسول الله ﷺ ، وتشكك في أن منزل القرآن هو الله سبحانه وتعالى ، وتدعي أن هذا الكتاب من وضع محمد ﷺ ، والقلة منهم أقرت أقلامهم بنبوة رسول الله ﷺ واعترفت بأن أحداً من البشر لا يقدر على نظم القرآن الكريم .

والمنكرون لنبوته منهم انقسموا الى فئتين في موقفهم من رسول الله ومما جاء به :

الفئة الأولى : وهي التي لم تستطع أن تخفي حقدها وعداوتها ، فوصفوا نبينا عليه الصلاة والسلام بأقبح الصفات وطعنوا بما جاء به صراحة وبصورة مباشرة ، ومن هؤلاء الحاقدين :

١ - سينوبوس : يقول في كتابه « التاريخ السليم للأمة الفرنسية» : « ان صاحب الرسالة كان رجلاً جباناً وسوداوياً ، تنتابه عوارض من الحمى وتعروه نوبات عصبية»[١] .

٢ - المسيوكيمون : يقول في كتابه « ميثولوجيا الاسلام » : « ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هو مرض مروع وشلل عام وجنون ذهني يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك ويدمن معاقرة الخمور ...... وما قبر محمد في مكة الا عمود كهربائي يبث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجؤهم الى الاتيان بمظاهر الصرع (الهستيريا) والذهول العقلي »[٢] .

٣ - المونسينيور كولي : يقول في كتابه « البحث عن الدين الحق » : « برز

---

(١) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١٣١ .

(٢) المستشرقون والسيرة النبوية (مطبوع ضمن كتاب مناهج المستشرقين) جـ ١ ص ١٢٧ .

في الشرق عدو جديد هو الاسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب ، ولقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة . . . . ولكن انظر ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سداً في وجه سير الاسلام المنتصر عند بواتيه (٧٥٢م) ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ ـ ١٢٥٤) في سبيل الدين فتدجج أوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة »[١] .

٤ ـ وبارثولوميو الرهاوي ، يقول موجهاً الحديث الى مسلم : « إنك تقول ان نبيكم ظل اثنين وثلاثين عاماً لا يتكلم كلام الأنبياء ولا هو كان أثناءها رسولاً ولا معلماً ولا عرف شيئاً عن الله وانه عرفه بعد تلك الفترة . . . . إذا كنت تنكر بتمام الجد أن شيئاً قد حصل بوساطة محمد ابان تلك السنوات الاثنتين والثلاثين من حياته فكيف لا ينبغي لي أنا المسيحي أن أنكر أحداث تلك السنوات الخمس عشرة التالية » . ويقول أيضاً : « ولكن أخبرني أولاً ـ ناشدتك الله ـ كيف استطاع محمد ان يعرف الله وبأية وسيلة عرفه ، واذا كنتم تسمونه نبياً فأروني ماذا تنبأ به وبأي لفظ تنبأ وما هي وصاياه وما هي الآيات والعجائب التي صنع ؟ »[٢] .

٥ ـ وجاء في موسوعة لاروس الفرنسية خلال العرض لآراء كتاب المسيحيه الى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شر نيل ما يأتي : « بقي محمد مع ذلك ساحراً ممعناً في فساد الخلق ، لص

---

(١) المستشرقون والسيرة النبوية جـ ١ ص ١٢٧ .

(٢) النبي محمد ص ٨١ ـ ٨٢ .

نياق ، كردينالاً لم ينجح في الوصول الى كرسي البابـوية فـاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه »[1] .

ويقول درمنجم شاهـداً على سخافـات قومـه : « ولم يحارب الكتـاب والنظاميون مسلمي الأندلس الا بأسخف المثالب فقـد زعموا أن محمـداً لص نياق وزعموه متهـالكاً على اللهـو وزعموه سـاحراً وزعمـوه رئيس عصابـة من قـطاع الطرق ، بـل زعموه قسـاً رومانيـاً مغيظاً محنقـاً أن لم ينتخب لكـرسي البابوية »[2] .

إلى غير ذلك من السخافات والأحقاد التي كانت تطفح بها كتابات هذه الفئة من المستشرقين والتي تعتمد على الكذب والزور والبهتان على الاسلام ونبيه وأهله ، وهي لسقوطها وتفاهتها وبعدها عن الحقيقة ومجانبتها للصـواب لا تستحق المناقشة ، وسيرة رسول الله ﷺ وعظمة ما جاء بـه لا يرقى اليهمـا شك ولا ينال منهما حاقد بغيض .

الفئـة الثانيـة : فئـة المعتـدلين ، وهم الـذين عـدلـوا عن اسلوب من سبقهم من الكتاب من الفحش في القول والعـداء الصريـح ، بل لجـأوا الى اسلوب التقـديـر والاحتـرام لشخص رسـول الله ﷺ ، فـوصفـوه بـالعبقـريـة والعظمة والبطولة وغير ذلك من الصفات الجميلة ، وبعد ذلـك يجردونـه من النبـوة ، وينفـون عنـه التلقي عن الله سبحـانـه وتعـالى ، وهـذا الصنف من المستشـرقين يـدعي في أبحـاثـه المـوضـوعيـة والبحث العلمي المجـرد من التعصب ، والحقيقة أن هذا الكـلام غير صحيـح لأنهم لم يستطيعـوا التجرد من مرض التعصب وداء الحقد والكراهية .

ويكاد يكون معظم المستشرقين من هذا الصنف الذي استعمـل أخبث الأسـاليب وأمكرهـا ، وهم أشد خـطراً من الفئـة الأولى لأنهم لا يهـاجمـون

---

(١) حياة محمد ص ٩ .

(٢) حياة محمد ص ١٠ .

صراحة بل يستعملون الألفاظ المعسولة والعبارات الرقيقة فيوهمون القارىء وربما حازوا على شيء من ثقته ثم يدسون السم في الدسم ويثيرون الشبهات والشكوك ليقتلعوا عقيدته .

والنتيجة أنه لا فرق بين الفئتين من حيث عدواتهم للإسلام ونبي الاسلام الا من حيث الشكل فقط ، فكان أسلوب الفئة الأولى الهجوم المباشر واستعمال الألفاظ القبيحة بينما الفئة الثانية استعملت الألفاظ المهذبة ولكنها تخفي وراءها كل حقد .

ومن هذا الصنف :

١ - دينس سور ، حيث يقول : « ان محمداً رسول الإسلام يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسي الأديان اذ أن الخرافات لم تستطع أن تخفيه ، وان دين مواطنيه ابان ظهوره قد هوى الى أدنى الدركات »[١] .

٢ - هملتون جب ، يقول : « وهكذا سما الأفق الديني لدى العرب دفعة واحدة فوق مجال الأشياء المنظورة والأرضية والذاتية الى ذات إلٓهية لا تدركها الأبصار مجردة قادرةٍ على كل شيء ولم يكن هذا كافياً فلكي تبقى فكرة الألوهية على هذا السمو الجديد كان لا بد من تأييدها بجرم من الأفكار والأحوال الدينية المتجانسة وتلك هي المشكلة الكبرى التي واجهها محمد حقاً مثلما واجهها كل مفكر أصيل عظيم اذ كان ذلك يستدعي اعادة بناء الحياة الدينية والفكر كاملاً لدى الشعب ، ولم تكن اعادة البناء لازمة لسائر العرب فحسب بل كانت لازمة أيضاً لمحمد نفسه في المقام الأول وكان تجديد البناء في حال محمد يسير من أعلى نزولاً ، فبدأ من تصوره لله (أحكم الحاكمين) وأخذ يستنتج بقوة الحدس خطوة اثر خطوة المراحل التي يلزم العرب ان يبلغوها في

---

(١) محمد رسول الاسلام ص ٣٤ .

تدرجهم صعداً كي يشاركوه اعتقاده »[1] .

٣ - ومايكل هارت ، وضع الرسول ﷺ على رأس قائمة الخالدين المائة ، باعتباره أعظم الخالدين في التاريخ البشري ، يقول مايكل : « لقد اخترت محمداً في أول هذه القائمة ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك ولكن محمد هو الانسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدينوي »[2] .

٤ - ويقول تولستوي : « لا ريب أن هذا النبي من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها الى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا ، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به الا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً ورجل مثله جدير بالاحترام والاجلال»[3] .

٥ - وبندلي جوزي ، يرى أن الواقع صنع من محمد مصلحاً كبيراً ، يقول : « يكفينا أن نعرف أن النظام الاجتماعي في مكة أعد في أواخر العصر السادس محلاً اجتماعياً لشخص توافرت فيه القوى أو الصفات اللازمة كسرعة التأثر ولطف الطبيعة وبعد النظر وطيب القلب ومعرفة طبيعة الناس وحسن السياسة والاستعداد التام لتضحية مصالحه الشخصية بل روحه العزيزة في سبيل المصلحة العامة وتحقيق مبادئه السامية التي توصل لها بجهده وأصبحت جزءاً من نفسه اسم هذا الرجل هو محمد بن عبد الله »[4] .

٦ - ويقول البروفسور بو سورث سميث : « عندما ألقي نظرة اجمالية

---

(١) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٤٩ .
(٢) محمد رسول الاسلام ص ٦٧ .
(٣) التبشير والاستشراق ص ٦٢ .
(٤) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٣١ .

استعرض فيها صفاته وبطولاته ما كان منها في بدء نبوته وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة وكم من البطولات المعجزة أحدثوا أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى ان الانسانية لم تعرف له مثيلاً »[1] .

٧ - ويقول ول ديورانت : « وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا ان محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به دياجير الهمجية مرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه اي مصلح آخر في التاريخ كله وقل أن نجد انساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به وقد وصل الى ما كان يبغيه عن طريق الدين»[2] .

٨ - ويقول بلانيشه : « ان الفتى محمداً يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ فقد قام بثلاثة أفعال عظيمة دفعة واحدة وهي أنه أحيا شعباً وأنشأ امبراطورية وأسس ديناً »[3] .

٩ - ويقول الفريد غليوم استاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن : « علينا من المبدأ أن نقرر أن محمداً كان واحداً من أعلام التاريخ العظماء وكان يقينه الغالب أنه لا اله الا الله وأنه يدعو الى ملة واحدة وكانت قدرته على التدبير بين المشاكل المعقدة التي تواجهه قدرة خارقة بغير مراء »[4] .

١٠ - ويقول السير وليم سوبر في كتابه سيرة محمد : « امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه وأنه أتى من الأعمال ما أدهش الألباب ولم يشهد

---

(١) محمد رسول الله (علامات النبوة) ص ١٠٨ .

(٢) النبي محمد ص ٩٤ .

(٣) الاسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ص ١٣٣ .

(٤) الاسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ص ١٤٣ .

التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق الحسنة ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد »[1] .

وهكذا خلعوا على نبينا ﷺ تلك الصفات العظيمة لتجريده من النبوة حقداً وتعصباً حتى يذهب كما ذهب غيره من العظماء والمصلحين .

يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : « أبى كثير من هؤلاء أن يعترف لمحمد بأنه نبي تلقى شريعته من السماء ضناً منهم على شريعة الاسلام أن تفيض من هذا الينبوع العلوي وأن تتصل أسبابها بالسماء، وهم بهذا إنما يريدون أن تذهب هذه الشريعة مع ما ذهب من شرائع سنها المصلحون من الناس ممن كانت شرائعهم مستمدة من الهاماتهم الروحية دون ان تصلها بالسماء أسباب وبذلك يذهب محمد كما ذهب العظماء في متاحف التاريخ »[2] .

الفئة الثالثة : فئة المنصفين ، مما لا شك فيه أنه يوجد من بين المستشرقين بعض المنصفين الذين أقروا بنبوة رسولنا محمد ﷺ وان كانوا قلة ، منهم :

١ - ادوارد درمسي ، حيث يقول : « أتى الوحي من عند الله الى رسوله الكريم ففتحت حجبه العقلية السديدة أعين أمة جاهلية فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان الرذيلة المظلمة »[3] .

٢ - والقس لوزون الفرنسي ، يقول : « ان محمد بلا التباس ولا نكران لهو من النبيين والصديقين ، بل وانه نبي عظيم جليل القدر والشأن ، لقد أمكنه بارادة الله سبحانه تكوين الملة الاسلامية واخراجها من العدم الى الوجود حيث صار أهلها يزيدون على الثلاثمائة مليون من النفوس »[4] .

---

(١) الاسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ص ١٧٦ .

(٢) النبي محمد ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٣) محمد رسول الاسلام ص ١٤ .

(٤) محمد رسول الاسلام ص ٥٨ .

٣ ـ وكارليل، يقول: «لقد أصبح أكبر العار على كل فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي الى ما يشيع المغرضون من أن محمداً خَـدَّاعٌ وَمُزَوِّر وعلينا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فالرسالة التي دعا اليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وما الرسالة التي رواها محمد إلا الصدق والحق وما كلمته الا صوت الحق صادر من العالم المجهول، وما هو الا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

٤ ـ ويقول المسيو دوزي: «أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية وهذه الحالات بطَبيعتها كانت تتطلب بعثة النبي العربي محمد بن عبد الله ليقوم بوحي من عند الله سبحانه وتعالى بإصلاح العباد وتهذيبهم عن الفساد وارشادهم نحو التوحيد وهدايتهم الى الدين الصحيح والعقيدة الصحيحة والعبادة الصحيحة»[1].

هذه هي فئات المستشرقين ومواقفهم من نبوة رسول الله ﷺ.

ولما كان موقف المستشرقين المتعصبين انكار نبوة محمد ﷺ فقد أثاروا الشبهات حولَ شخص رسول الله ونبوته وما جاء به عن الله، فقالوا ببشرية القرآن وأنكروا قضية الوحي الإلّهي ورموه بالأمراض العصبية وغير ذلك من زيف الكلام وسقطه.

وكل ما قالوه حول نبوة رسول الله ﷺ يعود الى شبهتين:

الأولى: أنه أخذ عن اليهود والنصارى.

الثانية: ان القرآن الكريم من عند نفسه

---

(١) التبشير والاستشراق ص ٥٩.

الشبهة الأولى
القرآن نسخة عن التوراة والانجيل

يدعي عدد من المستشرقين أن القرآن الكريم من تأليف محمد ، استقى تعاليمه من الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ، وعلى حد زعمهم ما القرآن إلاّ تكرار لما جاء في التوراة والانجيل حيث عرفهما محمد عن طريق التعلم من الأحبار والرهبان .

يقول ريتشارد في كتابه مقدمة في القرآن : « أن الرسول استمد من الكتاب المقدس كثيراً مما جاء في القرآن وبخاصة القصص ، فالجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمّد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ومسيحية ، وإن كان بعض قصص العذاب كقصص عاد وثمود مستمدة من مصادر عربية وانه لما هاجر إلى المدينة حصل على أوسع فرصة للاستمداد من الكتاب المقدس ، فقد كان على اتصال بالجاليات اليهودية التي كانت دون شك تضم ربانيين ومثقفين »[1] .

ويقول دانييل : « ان القرآن تسطير للتعاليم التي تلقاها محمد من أحبار اليهود والرهبان خلال اتصاله واحتكاكه بهم في رحلاته وجولاته في حدود الشام وغيرها »[2] .

ويؤكد المستشرق س. جويتين : « ان القرآن الكريم ما هو إلاّ نسخة معربة مقتبسة من التوراة والانجيل » ، ثم ادعى أن محمداً نفسه أقر بهذا فيقول : « قد قرر محمد في بداية دعوته بكل إصرار ووضوح أن ما يتلو

---

(١) التبشير والاستشراق ص ٤٧ .

(٢)

عليهم ما هو إلاَّ نسخة عربية لكتاب اللّه الذي أنزل على الأمم السابقة وأكد أنه بعث إليهم ليبلغهم قرآناً عربياً أي كتاباً عربياً مماثلاً لما عند أهل الكتاب »[١] .

ويقول المستشرق أديسون : « محمد لم يستطع فهم النصرانية ، لذلك لم يكن في خياله منها إلاَّ صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به للعرب »[٢] .

ووصف المستشرق تايلور الإسلام بأنه يهودية مهذبة[٣] .

والمستشرق دلهلهم رودلف حاول جاهداً أن يرد معظم التشريعات القرآنية إلى أصول يهودية أو مسيحية مدعياً أن اليهودية والمسيحية لم تكونا مجهولتين في بلاد العرب وخاصة مكة موطن النبي ﷺ ، فالتجار هم الذين نقلوا الفكر المسيحي واليهودي إلى محمد لاطلاع العرب على معتقدات من يتعاملون معهم في التجارة في الشام والعراق واليمن ، وبهذا يلتقي مع المستشرق الفريد جيوم[٤] .

ويقول جورج سيل في مقدمته عن ترجمة القرآن : « أما أن محمداً كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل وإن كان من المرجح أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة »[٥] .

ويزعم بعض المستشرقين أن التعاليم اليهودية المسيحية برزت في القرآن المدني أكثر منه في القرآن المكي نظراً لاتصال النبي ﷺ بأحبار اليهود في المدينة ، فهم يعتقدون بوجود خلاف جذري بين تعاليم القرآن في

---

(١) دراسات في تاريخ الاسلام ونظمه ص ٤٣ .
(٢) الفكر الاسلامي الحديث ص ٤٦٨ .
(٣) الاسلام والمستشرقون ص ٦٩ .
(٤) صور استشراقية ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(٥) التبشير والاستشراق ص ٤٦ .

الفترة المكية وتعاليمه في الفترة المدنية ، ففي مكة مثلاً كانت الأساطير اليهودية والمسيحية في حالة تخطيط أولي ولما اتصل محمد في المدينة باليهود استطاع أن يؤلف قصص إبراهيم وعلاقات الأنساب بين إسماعيل والشعب العربي ، ولقد عاش في البداية وهو يسيطر عليه وهم جميل بأن دعوته أي القرآن تتفق تماماً مع كتب اليهود والمسيحيين المقدسة ولكن معارضة اليهود المريرة أثبتت له العكس .

وكانت الصلاة في البداية مرتين في اليوم والليلة ، أما في المدينة فقد أضيفت إليها صلاة ثالثة هي صلاة العصر وواضح أن القصد من ذلك كان محاكاة اليهود ، ولنفس السبب شرع يوم عاشوراء وتحولت القبلة إلى بيت المقدس ، ثم نسخ صيام عاشوراء والصلاة إلى بيت المقدس فيما بعد بسبب موقف اليهود العدائي من الإسلام ، وهكذا يتأثر التشريع التعبدي ـ على حد زعمهم ـ بالتقلبات السياسية[١] .

يقول المستشرق اليهودي جولدزيهر : « ما كان يبشر به خاصاً بالدار الأخرى ليس إلَّا مجموعة استقاها بصراحة من الخارج يقيناً وأقام عليها هذا التبشير ، لقد أفاد من تاريخ العهد القديم بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم . . . . وبهذا انضم محمد إلى سلسلة أولئك الأنبياء القدماء بوصفه آخرهم عهداً وخاتمهم »[٢] .

ويقول أيضاً : « والجدل ضد اليهود والمسيحيين شغل مكاناً كبيراً في الوحي المدني ، لقد كان فيما مضى يعترف بأن الصوامع والبيع والصلوات أمكنة عبادة حقيقية ولكن الأمر تغير بعد هذا ، كما صار الرهبان المسيحيون وأحبار اليهود موضع مهاجمة منه وقد كانوا في الواقع أساتذة له »[٣] .

---

(١) انظر مدخل الى القرآن الكريم ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٢) العقيدة والشريعة ص ١٥ .
(٣) العقيدة والشريعة ص ٢٠ .

أدلة المستشرقين على استمداد رسول اللّه القرآن من التوراة والانجيل

يستند من يذهب من المستشرقين إلى أن رسول اللّه ﷺ أخذ عن التوراة والانجيل في تأليفه للقرآن على طائفة من الأدلة الواهية من ذلك :

الدليل الأول : استشهادهم ببعض النصوص القرآنية خطأ وعن سوء فهم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً** ﴾[1] ، يقول المستشرق الفريد جيوم وغيره : « ان محمداً كان دارساً مبتدئاً للكتاب المقدس فظن أن مريم أم عيسى هي مريم أخت هارون مع أن بين عيسى وهارون زمناً طويلاً »[2] .

وهذا يدل على سوء فهم لهذه الآية الكريمة ، فليس معنى الآية أن مريم أم عيسى عليهما السلام هي أخت النبي هارون حقيقة وإنما مجازاً ، فهي أخته في العفة والطهارة والتقوى وليست اخته نسباً .

ومما استدلوا به قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾[3] ، ففهموا خطأ أن محمداً أمر أن يسأل الذين يقرأون الكتاب ، وهو قد سألهم فرسالته مستوحاة منهم[4] .

«هذا استنتاج باطل لا أساس له من الصحة فالخطاب في الآية للنبي ﷺ والمراد غيره ، أي قل يا محمد للكافر إن كنت في شك فأسأل الذين يقرأون الكتاب ، يعني مسلمي أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام وأمثاله ، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود ويقرون أنهم أعلم منهم فأمر اللّه نبيه أن يرشد الشاكّين فيما أنزله اللّه إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين

---

(١) سورة مريم ، آية ٢٨ .

(٢) الاسلام والمستشرقون ص ٢٩ .

(٣) سورة يونس ، آية ٩٤ .

(٤) الاسلام والمستشرقون ص ٣٠ .

أسلموا فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب اللّه حقاً وأن هذا رسوله وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به »[1] .

ثم ان السؤال معلق بالشك والرسول ﷺ لم يشك في يوم من الأيام حتى يسأل أهل الكتاب ، ولو حصل ذلك لكان المطلوب منه أن يسألهم عما يطمئنه ويثبت فؤاده من أنه نبي اللّه حقاً لما تضمنته كتبهم من البشارات الصريحة بنبوته ولا يفيد أن يسألهم عما تضمنته كتبهم من التعاليم والأحكام ، وبهذا يتبين لنا زيف ادعائهم وسوء فهمهم .

الدليل الثاني : التشابه بين القرآن والكتب المقدسة في بعض الأمور ، يقول المستشرق س . د . جوتيين : « وإن إمعان النظر في النصوص الدينية الموجودة في القرآن ليدل على التشابه المدهش بينها وبين الأدب اليهودي والمسيحي ولا يمكن أن يفسر هذا إلّا بالاتصالات الشخصية الطويلة والقريبة ، وكذلك على مدى الأثر ، البعيد المدى ، الذي تركه النشاط التبشيري على الأدب العربي حتى قبل الإسلام »[2] .

ويقول أيضاً : « ان الصلاة في الإسلام تنطوي على نفس الأفكار والأساليب الأدبية الموجودة في الطقوس الدينية لليهودية والمسيحية فمثلاً سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب والركن الأساسي لصلاة المسلمين اليومية لا تشمل على أية فقرة إلّا ولها أصل في التراتيل الدينية التي يرتلها أتباع اليهودية والمسيحية في صلواتهم وكذلك الحال بالنسبة إلى صلاة الجمعة والصوم والزكاة إذ نجد لها نظائر في المسيحية واليهودية » .

ويقول : « كيف نفسر هذا التشابه الواضح العجيب بين الإسلام واليهودية ، وغني عن البيان أن المدينة التي أخذت فيها الديانة القرآنية شكلها النهائي كانت مركزاً لعدد كبير من الطائفة اليهودية ، وكل صفحة من السور المدنية تحمل دليلاً شاهداً على الإلمام بالأمور اليهودية » .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) دراسات في تاريخ الاسلام ونظمه ص ٤٩ ـ ٥٠ .

وهـذا افتـراء واضـح وجهـل فـاضـح يتخبط بـه هـذا المستشـرق لأن الاختلاف بين القرآن الكريم والكتب المقدسة عند اليهـود والنصارى واضـح بَيّن ، وان البون بينهما شاسع ، ومواطن الخلاف أكثـر من مواطن التشـابه ، وان التشابه اليسير بينهما لا يـدل على الاقتباس وأخـذ أحدهمـا عن الآخر ، وإنما يدل على وحدة المصدر وهو اللّه رب العالمين الذي أنزل هـذه الكتب على رسله الكرام .

الدليل الثالث : موقف العرب من الرسول الكريم ﷺ ، وادعـاؤهم أن رجلًا روميًا كان يعمل حدادًا بمكة قد علم النبي ﷺ القرآن .

يقول المستشرق س . د. جوتيين : « من النزاع الـذي كان قـائمًا بين النبي وبين الـذين رفضوا الإيمـان بـرسـالتـه إشـارة إلى أن المصـدر الأصلي لمعلومات محمد هو بعض رجال بني إسرائيل كما هو واضـح من أقوال أهـل مكة »[1] .

ووافقه على ذلك أيضًا رودلف دلهلهم وألفريد جيوم .

وهذا استدلال عقيم يدل على خبث المحتجين به وسوء طويتهم ، وقد أثبت التاريخ أن هذا الرجل المشار إليه لم يكن صاحب علم وأنه كان رجـلًا بسيـطًا يعمل في الحـدادة وأنه أعجمي اللسـان ، والقرآن الكـريم جاء بلغـة العـرب ، ولم يقل مشـركو العـرب ما قـالوه عن تفكيـر عميق بـل عن تخبط وهـذيـان ، وهم يشعـرون في أعمـاقهم تـداعي مقـولتهم ، ولكن التكـذيب والعناد دفعهم إلى ذلك وهذا هو مـوقف الكفار من جميـع رسل اللّه على مـرّ الأزمنة .

أمية رسول اللّه

وتقـوم شبهة المستشـرقين هـذه على أن النبي ﷺ قـد تلقى العلم عن علماء أهل الكتـاب ، وأنه كـان دارسًا لكتـابهم المقدس حيث تم لـه الاتيان

(١) دراسات في تاريخ الاسلام ونظمه ص ٤٧ .

بالقرآن الكريم ، ومن أجل هـذا فهم يعملون جاهـدين على نفي الأمية عنـه ﷺ ويثبتون له التعلم والدرس مخالفين في ذلك الحقيقة الثابتة .

« يقول المستشرق الفريد جيوم نافيـاً للأميـة عن رسول اللّه ﷺ انـه كان تاجراً ولا بد للتاجر أن يقيد حساباته »[1] .

ويقول مونتغمـري واط : « ان الإسلام التقليـدي يقول بـأن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب ولكن هذا الزعم مما يرتاب فيه الباحث الغـربي الحديث لأنه يقال لتأكيد الاعتقاد بأن إخراجه للقرآن كان معجزاً ، وبالعكس لقـد كان كثير من المكيين يقرأون ويكتبون ولذلـك يفترض أن تـاجراً نـاجحاً لا بـد أن يكون قد عرف شيئاً من هذه الفنون »[2] .

والمستشرق بودلي يقول نافياً لأميته ﷺ : « وكان على محمد أن يتلقى نزراً يسيراً من التعلم المدرسي ولكنه كان يحصل أكثـر من أي طالب يمضي سحابة يومه في حجرة الدرس »[3] .

ويذهب بعضهم أمثال واط وفيليب حتي أن رسول اللّه ﷺ سأل الملك عندما جاءه في غار حراء وقال له اقرأ ، سأله ما أقرأ ، يذهبون إلى أن معناها ماذا اقرأ ؟ أي أنه ﷺ كان يحسن القراءة والكتابة فسأل جبـريل عن أي شيء يقرؤه من الكتاب الذي أتى به .

والصحيـح أن معنى (ما اقـرأ) أي لا أستطيـع القـراءة ، يؤيـد ذلـك الروايات الأخرى التي يقول فيهـا عليه الصـلاة والسلام : « مـا أنا بقـاريء » وان قـوله ﷺ في المـرة الثانيـة والثالثـة مـاذا اقـرأ بمعنى ماذا أتلو لأن كـل إنسان حتى ولو كـان أمياً وليس في لسـانه آفـة يستطيـع أن يتلو ما يسمـع من غيره ، وأن الرسول ﷺ ما قالها إلاّ افتداء لنفسه مما لحقها من العنت والشدة

(١) الاسلام والمستشرقون ص ٢٢ .

(٢) مناهج المستشرقين جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٣) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١٣٧ .

حين ضمه جبريل عليه السلام[١] .

إن أقوال المستشرقين هذه لا تغير من الحقيقة شيئاً ، ولا يستطيع أحد كائناً من كان أن يخالف حقائق التاريخ بكل هذه السهولة ، فمحمد بن عبد اللّه عرف واشتهر بهذه الصفة بين قومه الأميين ، ولم ترد أية دلالة تاريخية تدل على أن محمداً كان يقرأ أو يكتب شيئاً ما ، وقد تواترت الأخبار على ثبوت هذه الصفة له ﷺ ، وقد وصفه اللّه بها في كتابه العزيز بقوله : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾[٢] . وبقوله : ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾[٣] .

وفي السيرة أن قريشاً حين تجمعت لغزوة أحد أرسل العباس بن عبد المطلب كتاباً سرياً يخبر به رسول اللّه ﷺ بهذا التجمع فدفع النبي الخطاب إلى أبي ، فلما قرأه وعلم النبي بهذا الخطر الذي سيواجه المسلمين استكتم أبياً ما قرأ ، ولو كان هو يحسن القراءة لأبقى على هذا السر ولا احتاج أن يستكتم من قرأه .

ثم ان قومه الذين نشأ بينهم اشتهروا بهذه الصفة ، فلم يثبت أنه كان بمكة علماء أو مدارس لتلقي العلم كما يوهم بذلك المستشرق بودلي ، بل لم يكن لهم أي اهتمام بالعلم أو التعلم ، وأن الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة من قومه كانوا فئة قليلة ، لذا لم يجرؤ أحد من قومه على إثبات أنه كان كاتباً قارئاً للكتب ، وقد قالوا عن القرآن أنه أساطير كتبت له من قِبَل غيره ، ولم يقولوا أنه كتبها بنفسه لاطلاعهم على حاله .

أما تعليلهم بأنه كان تاجراً ناجحاً ، والتاجر لا بد أن يسجل حساباته . فهذا تعليل فاسد ، لأن هناك العشرات من التجار الناجحين الذين لا يقرأون ولا يكتبون حتى في عصرنا هذا[٤] .

---

(١) مناهج المستشرقين جـ ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٥٧ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤٨ .

(٤) الاسلام والمستشرقون ص ٣٢ ـ ٣٣ .

عمن تعلم رسول اللّه حسب زعم المستشرقين

أولاً : التعلم عن بحيرا الراهب :

يزعم بعض المستشرقين أن محمداً عليه الصلاة والسلام تلقى العلم عن راهب بالشام يقال له بحيرا ، وبذلك استطاع أن يؤلف القرآن نظراً لذلك التعلم ، فالقرآن ليس وحياً من اللّه لرسوله ، وإنما هو تعليم من بحيرا لمحمد ﷺ حسب زعمهم .

ويقول هؤلاء المستشرقون أن بحيرا كان نسطورياً من أتباع آريوس في التوحيد حيث ينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث ، وانه ـ بحيرا ـ يعتقد أن اللّه ظهر له وأنبأه بأنه سيكون هادياً لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي(١) .

ويذكر المستشرق بودلي أن الرسول كان يجالس بحيرا ويتعلم منه طويلاً . يقول بودلي : « فراح الراهب يحادث العربي الصغير وكأنما يحادث رفيقاً من رفقائه فأخبره بعقيدة عيسى وسفه عبادة الأصنام وأرهف محمد السمع إلى ما ينطق الرجل به »(٢) .

ويعتقد المستشرق شبرنجر «أن بحيرا هذا انتقل مع رسول اللّه ﷺ إلى مكة وصاحبه بعد رسالته ، يعمل من وراء ستار متخذاً من محمد وسيلة صالحة لدعوة الكفار إلى نبذ عبادة الأوثان »(٣) .

وهذا ليس له أساس من الصحة إذ لم يوجد مصدر مّا يذكر أن بحيرا انتقل إلى مكة وأنه لو حصل ذلك لنقل إلينا ولوجد الكافرون ضالتهم للطعن فيما جاء به عليه الصلاة والسلام .

وبالرجوع إلى كتب السيرة المشرفة نجد بعض الروايات تذكر أن

---

(١) الوحي المحمدي ص ٨٢ .

(٢) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١٣٧ .

(٣) صور استشراقية ص ٦٢ .

محمداً عليه الصلاة والسلام قد رافق عمه أبا طالب في رحلة تجارية إلى الشام وهو في سن صغيرة التقى خلالها براهب يقال له بحيرا بشر محمداً بالنبوة وحذر عمه من اليهود أن ينالوه بسوء .

وتفصيل القصة فيما ذكره ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق قال : « ان أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صَبَّ به رسول اللّه ﷺ - أي لزمه - فَرَقَّ له وقال : واللّه لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً أو كما قال فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك عن شيء رآه وهو في صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول اللّه ﷺ وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، قال : ثم اقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول اللّه حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال : اني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم فقال له رجل منهم : واللّه يا بحيرا ان لك لشأناً اليوم ! ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم ؟ فقال له بحيرا : صدقت . قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول اللّه من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي . قالوا له : يا بحيرا ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلَّا غلام وهو أحدث القوم سناً ، فتخلف في رحالهم ، فقال : لا تفعلوا ادعوه فليحضر

هذا الطعام معكم ، قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى انْ كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد اللّه بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم تفرقوا ، قام إليه بحيرا فقال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى ألا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال له : سلني عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره فجعل رسول اللّه ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته التي عنده فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني . قال له بحيرا : ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلدك واحذر عليه يهود فواللّه لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لَيَبْغُنَّهُ شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فاسرع به إلى بلاده »[١] .

بطلان دعوى التعلم عن بحيرا :

دعوى المستشرقين التعلم عن بحيرا باطل من عدة وجوه[٢] :

أولاً : أن طبيعة اللقاء بين النبي ﷺ وبحيرا تنفي أن يكون قد حصل تعليم لمحمد ﷺ من بحيرا ، لأنه لقاء قصير عابر لا يكفي للدرس والتحصيل وسن النبي ﷺ صغيرة لا تؤهله لذلك ، ولا توجد رواية من الروايات تذكر أنه ﷺ سمع من بحيرا أو تلقى منه دروساً أو حتى كلمة واحدة لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق ، ثم ان ذلك اللقاء لم يتم بين بحيرا ومحمد ﷺ وحدهما بل حضره رجال

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥ ـ ١٦٧ .

(٢) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٣١٧ .

القافلة من العرب فلو حصل شيء من التعليم لذكروا ذلك بعد أن أعلن دعوته لابطالها وهم الحريصون على تكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة .

ثانياً : أنه من المستحيل عقلاً أن يصبح الإنسان استاذاً للعالم لمجرد صدفة جمعت بينه وبين راهب مرة في عمره وأن يأتي بهذا الكتاب المعجز لمجرد تلك المصادفة .

ثالثاً : لو كان هذا الراهب هو مصدر القرآن الكريم لكان هو الأولى بهذا الشأن العظيم من محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولادعى لنفسه النبوة بدل أن يؤثر بها غيره ، ثم انه كيف يكون معلماً وتابعاً في آن واحد ، فهذا تناقض لا يقبله عاقل .

رابعاً : تتضمن الروايات التاريخية أن بحيرا أخبر أبا طالب بأنه سيكون لابن أخيه شأن عظيم ، فلا يعقل أن يبشر بالنبوة ثم ينصب نفسه استاذاً لهذا النبي .

خامساً : ان طبيعة الدين الذي ينتمي إليه هذا الراهب تجعل من المستحيل أن يكون مصدراً للقرآن للخلاف الواضح بين القرآن وبين ما ينتمي إليه هذا الراهب .

ثانياً : التعلم عن ورقة بن نوفل :

هناك نفر من المستشرقين وأذنابهم يوهمون القراء أن النبي ﷺ أخذ عن ورقة بن نوفل شيئاً من علم أهل الكتاب، أمثال درمنغم ومونتغمري واط والحداد .

يقول مونتغمري واط : « يبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد ﷺ بسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة ، ولا شك أن المقطع القرآني حين ردده محمد قد ذكره بما هو مدين به لورقة . . . . . ومن الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر

وتعلم أشياء كثيرة وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة »[1] .

والحداد يقول : « والسر الكبير في ثقافة محمد الكتابية والانجيلية وجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ، ابن عم السيدة خديجة في جوار النبي وهو الذي زوجه ابنة عمه ، فقد اجمعت الآثار على أن ورقة تنصر وكان يترجم التوراة والانجيل إلى العربية ، فهو إذن عالم مسيحي كبير ، وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه ، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد اللّه لكي يأخذ عنه شيئاً من علوم التوراة والانجيل »[2] .

وينقل الاستاذ عبد الكريم الخطيب عن بعضهم قولهم : « عندما شاهد ذلك الراهب الفاسق سذاجة القوم،رأى أن يمنحهم عقيدة وشريعة على غرار مذهب اريوس وغيره من ألوان الكفر والزندقة التي حرم من أجلها ، فراح يسطر كتاباً هو الذي يسمونه القرآن وهو شريعة اللّه ، ناثراً فيه كل ما أودع من مروق ، فعلم فيه أن اللّه لا كلمة ولا روح ، وأن المسيح لم يكن رباً وإنما هو نبي كبير وحسب وجمع فيه شتات قديم ضخم من أمثال هذه الترهات وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه محمد وأبلغ أولئك البلهاء أن ذلك الكتاب أنزل على محمد من السماء حيث كان في حفظ جبريل الملك فصدقوه بما قال ، وبذلك مكن الراهب لذلك القانون الجديد »[3] .

وقبل الشروع في الرد على هذه الافتراءات والمغالطات التي صدرت عن هؤلاء المستشرقين الحاقدين لا بد من الوقوف على ما صح في شأن ورقة مع رسول اللّه ﷺ .

روى البخاري في صحيحه في باب كيف كان بدء الوحي عن عائشة

---

(١) مناهج المستشرقين جـ ١ ص ١٦٤ .
(٢) مناهج المستشرقين جـ ١ ص ٣٧ .
(٣) النبي محمد ص ٩٠ ـ ٩١ .

أم المؤمنين قالت : « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء اللّه أن يكتب ، وكانْ شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول اللّه ﷺ ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل اللّه على موسى يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول اللّه ﷺ : أَوَ مُخْرِجَيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلَّا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي »[١] .

هذا ما حصل مع رسول اللّه ﷺ وورقة ، فعلام بنى هؤلاء المستشرقون دعواهم من اتصالات مستمرة طويلة ، تلقى فيها رسول اللّه ﷺ علماً أو ألّف له فيها القرآن .

إنَّ كل هذه الافتراءات لا أساس لها من الصحة ولا يوجد سند تاريخي صحيح يدعمها وإنما هي نفثات الحقد والتعصب التي تطفح بها قلوب المستشرقين .

بطلان دعوى التعلم عن ورقة :

أولاً : لم يثبت أن ورقة كان في يوم من الأيام داعية إلى النصرانية أو اليهودية وقد قام المحدثون بدراسة جميع الروايات المتعلقة بورقة فلم يصح انه كان داعية إلى النصرانية[٢] .

ثانياً : ان جميع الروايات الصحيحة تؤكد أن رسول اللّه ﷺ لم يتصل بورقة إلَّا بعد أن جاءه الوحي في غار حراء للسؤال عما رأى وسمع ، وقد

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب كيف كان بدء الوحي ، ج ١ ص ٣ ـ ٤ .
(٢) الوحي المحمدي ص ٨٣ .

حضر ذلك اللقاء السيدة خديجة ، فأين التعليم والتلقي .

ثالثاً : أن موقف ورقة في تلك الحادثة يؤكد أنه لا يمكن أن يكون معلماً لرسول اللّه ﷺ في يوم من الأيام ، فقد كان موقفه موقف المستفسر المستطلع لما حصل مع رسول اللّه ﷺ في غار حراء ، فلما أخبره كان موقفه التبشير والتصديق والإيمان بنبوته المتطلع للتضحية والمناصرة ، فلو كان ورقة هو مصدر العلم لرسول اللّه ﷺ لم يقف منه موقف التابع المؤيد المناصر .

رابعاً : ان ورقة لم يلبث زمناً طويلاً بعد هذه المقابلة على قيد الحياة إذ توفي بعد ذلك بوقت قصير ، فلو كان هو مصدر العلوم والمعارف لرسول اللّه ، فمن أين له ﷺ بهذه العلوم التي جاء بها بعد موته .

إن دعوى بعض المستشرقين أنه كتب له القرآن الكريم جملة واحدة قبل موته وأعطاه لمحمد ﷺ لا أساس لها من الصحة[1] ، ولا يقول ذلك عاقل ، والقرآن نفسه يكذب ذلك لأنه نزل متفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث والوقائع التي كانت تقع لرسول اللّه ﷺ والجماعة المؤمنة ، فمن أين لورقة معرفة هذه الحوادث حتى يكتب فيها مسبقاً قبل أن تحدث ، هناك آيات تتحدث عن غزوة بدر وأخرى عن أُحد وأخرى عن حادثة الافك ، فهل عرف ورقة هذه الحوادث قبل أن تحدث حتى يؤلف فيها قرآناً ، ثم ان القرآن الكريم تضمن كثيراً من العلوم والمعارف لم يصل البشر إلى معرفتها إلّا في زمن قريب ، فمن أين لورقة بهذا ؟ إن كل هذا يبطل تلك الدعوى ويؤكد أن القرآن مصدره الوحيد هو اللّه رب العالمين وأن محمداً لم يتلق عن أحد من البشر وإنما مصدر علمه وما جاء به هو اللّه الحكيم العليم .

---

(١) النبي محمد ص ٩١ ـ ٩٢ .

ثالثاً : تلقيه من اليهود والنصارى المنتشرين في جزيرة العرب :

يزعم بعض المستشرقين أن النبي محمداً ﷺ قد أفاد كثيراً من اليهود والنصارى المنتشرين في جزيرة العرب ، ويدَّعون أن بعض الأفراد من المغامرين الرومان أو الزنوج الأحباش (بائعي النبيذ) الذين كانوا يقطنون الأحياء المنزوية قاموا بتدريس الانجيل في الحانات لعقليات خام[١] .

ويزعم المستشرق س . د . جوتيني أن محمداً عليه الصلاة والسلام ما هو إلَّا داعية لتعاليم اليهودية والنصرانية إذ وقع الاختيار عليه من قبل اليهود والنصارى المنبشرين في أنحاء الجزيرة العربية ، يقول في كتابه دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه : « ان دعاة اليهودية والمسيحية كانوا منتشرين في شتى أنحاء جزيرة العرب لنشر دعوة التوحيد بين المشركين العرب وكان عليهم أن يترجموا آيات من التوراة والانجيل إلى اللغة العربية ، وكذلك نشروا بعض المقتبسات منها في صحائف مكتوبة ، ولمّا أدركوا أن كل هذا أو ذاك لا يؤدي إلى النتيجة المرجوة ألا وهي تحويل المشركين العرب إلى اليهودية والمسيحية قرر جماعة من دعاة اليهودية والمسيحية المنتشرين في جزيرة العرب أن أحسن وسيلة لنشر رسالة التوحيد بين الأمة العربية هو أن يقوم بهذه المهمة دعاة من بينهم وبلغتهم الخاصة مباشرة كما كانت الحال كذلك في الأمم السابقة، فوقع اختيارهم على محمد ورتبوه على ذلك بطرق مختلفة وشجعوه على القيام بهذه المهمة وَرَغَّبُوا القوم في الاستماع إليه بنشر فكرة : « ان اللَّه كان يبعث في كل أمة رسولاً منهم ، وفي لغتهم ، فكان عليهم أن يستجيبوا له ، وإلا ينزل عليهم عذاب اللَّه » ، فوقع اختيارهم على محمد بالذات لأنهم لمحوا فيه صفات الزعامة والاهتمام بشؤون قومه ، وفضلاً عن ذلك فإنه كان عاقلاً ومحبوباً بين قومه ، وكان يعيش في مدينة مكة مركز

---

(١) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣٤ .

العرب الرئيسي والسوق الدولية وكان له أيضاً إلمام بالكتب السماوية بحكم احتكاكه بالأحبار والرهبان المتجولين في جزيرة العرب وبتنقلاته التجارية وغيرها »[1] .

بطلان دعوى التلقي عن اليهود والنصارى المنتشرين في جزيرة العرب :

وهذا الهراء لم يقله أحد غيره ، فمن هم هؤلاء الدعاة المزعومون ؟ ومتى تم الاجتماع برسول الله ﷺ حتى يُختار من قبلهم للدعوة إلى مبادئهم ؟ هل وجد رسول الله ﷺ في كوكب غير هذا الكوكب حتى يتم هذا الأمر دون أن يعلم به أحد إلَّا هذا المستشرق الحاقد .

إن التاريخ يكذب كل هذه الترهات التي جاء بها هذا المستشرق فقد ثبت أنه لم يكن لأي من الديانتين مركز في مكة حيث نشأ محمد ﷺ وأعلن دعوته[2] .

ولم يثبت أنه اتصل بأحد من اليهود أو النصارى قبل البعثة إلَّا بحيرا الراهب ، وقد بينت بالدليل القاطع فيما مضى بطلان تلقيه عنه أي شيء مما عنده من علم .

أما دعوى الاتصال بالمغامرين الرومان أو الزنوج الأحباش والتلقي عنهم شيئاً من الانجيل فهذا ما لا يقوله عاقل ، ولا يوجد سند تاريخي يدعمه ، فرسول الله ﷺ بأخلاقه العالية التي عرف بها منذ نعومة أظفاره تنفي أن يكون له أي اتصال بأمثال هؤلاء المنحرفين .

ثم ان هؤلاء الأشخاص كانوا يجهلون دينهم ولم يكونوا دعاة مبشرين ، بل كانوا منهمكين في صنعتهم وان لغتهم الأجنبية تشكل حاجزاً

---

(١) دراسات في تاريخ الاسلام ونظمه ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) صور استشراقية ص ٣٧ .

طبيعياً بينهم وبين النبي ﷺ ، ثم لو حصل أي اتصال بأمثال هؤلاء لعلمه قومه ولوجدوا في ذلك ضالتهم لتحطيم دعوته عليه الصلاة والسلام بدل المواجهة المسلحة بينهم وبينه[1] .

رابعاً : الأخذ عمن أسلم من اليهود والنصارى :

ذهب بعض المستشرقين وتابعهم فيليب حتي إلى « أن محمداً ﷺ استقى الكثير من المعلومات عمن أسلم من اليهود والنصارى أمثال سلمان الفارسي وعبد اللّه بن سلّام ومارية القبطية وغيرهم »[2] .

فقد زعم درمنغم «أن سلمان الفارسي استفاد من اليهودية والمسيحية والفارسية وأنه كان ذا نفوذ حتى استطاع أن يتدخل في حرب بين المسلمين وقريش ومعنى ذلك أن هذا النفوذ يسوغ له أن يؤثر في أفكار محمد ﷺ »[3] .

بطلان دعوى الأخذ عمن أسلم من اليهود والنصارى :

إن ما ذهب إليه بعض المستشرقين من التلقي عمن أسلم من اليهود والنصارى باطل ، يشهد التاريخ ببطلانه ، فسلمان الفارسي رضي اللّه عنه لم يتصل بالنبي ﷺ إلّا بعد الهجرة ومارية القبطية التي أهديت لرسول اللّه ﷺ من قِبَل المقوقس كانت أمة بسيطة لا ثقافة لها ، أما عبد اللّه بن سلّام فلم يتصل بالرسول الكريم ﷺ إلّا بعد الهجرة وكان تلميذاً لرسول اللّه يتعلم منه ويتلقى عنه فكان تابعاً وليس متبوعاً ، متعلماً وليس معلماً ، وفي مقولتهم هذه قلب لحقائق التاريخ .

يقول الدكتور محمد عبد اللّه دراز : « أما الادعاء بأن محمداً ﷺ تلقى علمه من ابن سلّام هذا ، فلا ينطوي ذلك على تحريف الحقائق التاريخية

---

(١) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣٥ .
(٢) الاسلام والمستشرقون ص ٣١ .
(٣) صورة استشراقية ص ٣٩ .

فحسب بالخلط بين دور التابع والمتبوع وإنما ينطوي أيضا على قلب في ترتيب الأحداث التاريخية المعروفة لأن جوهر حقائق التوراة كله كان قد أعلن بدقة في مكة وقبل أن تتاح الفرصة لأمثال عبد اللّه بن سلام أن يروا وجه الرسول ﷺ ، والجدير بالملاحظة أن الآيات القليلة التي نزلت بالمدينة تتعلق في أغلبها بالحقائق الدينية المسيحية التي ينكرها اليهود تماماً »[١] .

ويقول الدكتور التهامي نقرة في بحثه القرآن والمستشرقون : « ان ما يدعيه المستشرقون من إفادة الرسول ﷺ من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا وكانوا في صحبته هو محض افتراء لأن اسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به من الوحي الإلّهي ولو تبين لهم أنه كان يتتلمذ لهم في خفاء ليتلقى عنهم ما كان يدعو إليه لانفضوا من حوله ولعادوا إلى دينهم ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام »[٢] .

ونخلص بعد استعراض أقوال المستشرقين في أمية رسول اللّه ﷺ ودعوى تلقيه عن غيره والأجوبة على ذلك : أن رسول اللّه ﷺ كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة بشهادة القرآن التي تصدقها شهادة الروايات التاريخية ، وأنه لم يتلق علماً من أحد من الناس ولم يطَّلِع على المدون في الكتب ولم يجلس إلى عالم قط ليتلقى منه شيئاً مما عنده قبل البعثة ولا بعدها ، وأن ما حصل من الاجتماع القصير ببحيرا إن صح ذلك قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام لا يكفي للدرس والتحصيل ، ولم يؤثر أنه تلقى عنه علماً ما في ذلك اللقاء ، وان اجتماعه بورقة أيضاً لم يكن للتعلم كما أشرت آنفاً ، أما الذين التقى بهم بعد النبوة كوفد نصارى نجران وعبد اللّه بن سلام فقد تم ذلك بعد الهجرة وكانوا له سائلين وعنه آخذين وكان لهم معلماً وواعظاً .

---

(١) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢) مناهج المستشرقين جـ ١ ص ٣٥ .

الرد على شبهة أن القرآن الكريم نسخة عن التوراة والانجيل :

ان ادعاء المستشرقين أن القرآن الكريم ما هو الا تسطير للتعاليم التي استقاها رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى الذين التقى بهم قبل البعثة وبعدها ، ومما قرأه في كتبهم افتراء واضح وكذب فاضح يدل على الحقد الدفين الذي يملأ قلوبهم يريدون بذلك أن يطفئوا نور الله ، ومزاعمهم باطلة من عدة وجوه :

أولاً : اختلاف القرآن الكريم عن الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى :

والمتأمل في كتاب الله يجد البون الشاسع والاختلاف الكبير بينه وبين الانجيل والتوراة سواء من حيث الأسلوب والنظم أو من حيث ما تضمن من معان رفيعة في العقيدة والأخلاق والتشريع ، يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب مبيناً الاختلاف الكبير بين القرآن والتوراة من جهة الأسلوب : « اقرأ فصلاً أو فصولاً من التوراة ، ثم اقرأ سورة أو سوراً من القرآن فإنك تجد طعماً غير الطعم ومذاقاً غير المذاق ، فإذا حاولت أن تجمع هذا بذاك أو ذاك بهذا وأن تزاوج بينهما وجدت أمراً غير مستقيم لك ولا مطاوع لصنيعك كمن يؤلف بين أنغام تخرج على غير اتفاق أو ترتيب .... على فرض صحة التوراة وأنها والقرآن يخرجان من مشكاة واحدة فإن أسلوب الأداء مختلف أشد الاختلاف كاختلاف اللغة العامية الدارجة ولغة الشعر في أعلى طبقاته أو هو أشد»(١) .

وهذا الاسلوب الفريد المتميز من أوضح الدلائل على أن القرآن الكريم كتاب الله العظيم أنزل على المصطفى عليه الصلاة والسلام عن

---

(١) النبي محمد ص ٨٧ . ليس القرآن بالنسبة للتوراة كلغة الشعر في أعلى طبقاته بالنسبة للغة العامية ، بل هو أشد فصاحة وأعظم بياناً ، وهو الكلام المعجز الذي لم يقدر أحد من البشر على مثله .

طريق الوحي الأمين جبريل عليه السلام ، ثم ان القرآن الكريم بما تضمنه من عقيدة واضحة صافية قوامها التوحيد المطلق والكمال المطلق مغايرة لعقيدة التوراة والانجيل لا يمكن أن يكون نسخة عنهما ، فالتوراة تصف الله عز وجل بصفات تنافي كماله وجلاله كالتعب والبخل وعدم العلم وغير ذلك.

وكذلك الانجيل يتضمن عقيدة التثليث ، الاب والابن والروح القدس ثلاثة آلهة ، فأين هذا من عقيدة التوحيد الخالص ، ويخالف القرآن الانجيل أيضاً في قضية صلب المسيح وعقيدة الفداء ، فكيف يكون مستقى منه أو من التوراة .

يقول الكونت هنري دي كاستري في كتابه الاسلام سوانح وخواطر : « أما فكرة التوحيد فيستحيل إن يكون هذا الاعتقاد وصل النبي ﷺ من مطالعته التوراة والانجيل ، اذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقه ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته »(١) .

والفروق بين القرآن من جهة والتوراة والانجيل من جهة أخرى كثيرة جداً ، وان وجود تشابه بينهما في بعض القضايا كقصص الأنبياء يدل على وحدة المصدر وأن كلاً منهما أصله من وحي الله الى أنبيائه ، ولا يفيد أبداً أن اللاحق منهما قد استمد من السابق .

ثانياً : موقفه ﷺ من الأحبار والرهبان :

يشهد موقف رسول الله ﷺ الواضح من أحبار اليهود ورهبان النصارى ببطلان مزاعم المستشرقين ، لقد سفه عقائدهم وفضح أسرارهم وبين انحرافهم ، فهم الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وكذبوا على الله ، يقول تعالى : ﴿ **وَقَد كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ**

---

(١) الرسول في كتابات المستشرقين ص ٣٥ .

مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[١] ، ويقول : **﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾**[٢] .

ولو كانوا مُعَلِّمين له ﷺ لما وقف منهم هذا الموقف العدائي بل لمدحهم وأثنى عليهم وجاملهم حتى لا يفتضح أمره ، فلما لم يحدث شيء من ذلك دل على أنه بريء مما ألصقه به المستشرقون من التلقي عن هؤلاء الأحبار والرهبان .

ثالثاً : ثم ان موقف الأحبار والرهبان من تبكيت الرسول ﷺ لهم والتشنيع عليهم دون أن يدعي أحد منهم أنه قد علمه حتى جاء بهذا القرآن ، يؤكد زيف دعوى المستشرقين .

ومن هؤلاء من قاده علمه الى الايمان برسول الله ﷺ وتصديقه فيما جاء به دون أن يدعي أحد منهم أنه معلم له ، لذا قال تعالى : **﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾**[٣] ولو أن واحداً منهم علَّمه شيئاً مما عنده حتى جاء بالقرآن ، لما آمن به على أنه نبي يوحى اليه ولآمن بنفسه .

رابعاً : ثم ان ما عرف به أهل الكتاب من البخل بعلمهم وكتمانه عن غيرهم يؤكد بطلان دعوى المستشرقين هذه ، فقد كان علماء أهل الكتاب شديدي الحرص على ما عندهم من علم حتى انهم ليضنون به على أبنائهم حباً للرئاسة وطمعاً في النبوة[٤] .

لذا قال الله تعالى عنهم : **﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى**

---

(١) سورة البقرة ، آية ٧٥ .
(٢) سورة المائدة ، آية ١٣ .
(٣) سورة الرعد ، آية ٤٣ .
(٤) النبأ العظيم ص ٦١ .

نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾[1] . وقال منـدداً بما عُـرفوا بـه من التلبيس والكتمان : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] . وقال أيضاً : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ ﴾[3]

فـإذا كان هـذا هو حـالهم ، فليس من المعقول أن يجـودوا بكل هـذا الخير على محمد ﷺ حتى استطاع أن يأتي بما جاء به .

ان هذه الدعوى لا يقبلها عقل سليم ولا دليل على حصولها ، والا فما الفـائدة المـرجوة من تعليمهم لـرسـول الله ﷺ ، أليسـوا هم الـذين حسـدوا العرب عندما ظهرت فيهم النبوة وأعلنوا العداوة لرسول الله ﷺ حقداً وحسداً على ذهاب النبوة منهم ، بلى والتاريخ خير شاهد على ذلك .

خـامساً : لا خـلاف بين القرآن المكي والمـدني كما يـزعم المستشرقـون ، والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنه وحـدة واحدة متكـاملة ومترابـطة الأجزاء من بدايته الى نهايته وان كل آية منه تدل على مصـدرها الإلَهي ، فـلا صحة لما يزعمه المستشرقون من وجود اختلاف بين القرآن المكي والمدني .

لا شك أن القرآن المكي ركز على قضايا العقيدة لأنهـا أساس صـلاح النفوس واستقامتها أما القرآن المدني فقد اهتم بالجـانب التشريعي ، الا أنـه رغم اهتمامه بهذا الجانب لم يغفل العقيدة أبداً ، بل انه ربط جميع الأحكام الشرعية بالعقيدة وجعلها أساساً لهذه الأحكام .

أما ادعاء المستشرقين أن بعض الأحكام الشرعيه قد تغيرت في المدينة محاكاة لليهـود فهذا غيـر صحيح ، فـالصلاة منـذ أن فرضهـا الله على عباده

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٩١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٧١ .

(٣) سورة المائدة ، آية ١٥ .

كانت خمس مرات في اليوم والليلة وليس كما يزعمون أنها كانت مرتين ثم صارت ثلاثاً تشبهاً باليهود .

«أما مسألة القبلة وتحولها الى المسجد الحرام فقد حصل ذلك تلبية لرغبة الرسول ﷺ وتطلعه لذلك وليس كما يزعمون أنه نظرا لمعاداة اليهود للإسلام علماً بأن تحول القبلة حصل قبل وقوع العداوة بعامين تقريباً»[1] .

أما موقف القرآن من أهل الكتاب فهو ثابت لم يتغير في يوم من الأيام وليس كما يزعم بعضهم أن موقف القرآن المدني يختلف عن موقف القرآن المكي نظراً لما وقع بين الرسول ﷺ واليهود من عداوة وحرب ، فالقرآن في مكة وصف اليهود بأنهم قوم لا يتبعون ما أنزل الله اليهم وأنهم يتبعون الشياطين قال تعالى : ﴿ **تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[1] . وفي المدينة نزل قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً** ﴾[2] فأين هو الاختلاف في الموقف كما يزعم جولدزيهر .

وبعد عرض أقوال المستشرقين واتهاماتهم بتلقي الرسول ﷺ عن علماء اليهود والنصارى وتأثر القرآن بالتوراة والانجيل ، واختبار أقوالهم وتزييف حججهم ونقض أدلتهم يظهر لنا سقوط دعواهم ووهن كلامهم ، وتحريفهم لحقائق التاريخ وخطؤهم في الفهم والاستنباط من النصوص .

وان ادعاءهم سلوك منهج البحث العلمي لا يجردهم من اتباع الهوى فيما يصدر عنهم من أحكام ولا يخلصهم من عنصر الحقد والكراهية للاسلام ونبيه وأهله .

---

(١) مدخل الى القرآن ص ١٥٩

(٢) سورة النحل ، آية ٦٣ .

(٣) سورة الجمعة ، آية ٥ .

الشبهة الثانية
القرآن الكريم من ابداع محمد ﷺ

ذهب بعض المستشرقين الى أن محمداً عليه الصلاة والسلام بعبقريته الفذة ، ونفسه السامية ، وفطرته السليمة هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم ، جاء به من عند نفسه بطريق الالهام ، فهو فيض عقله الباطن وليس من عند الله ، وبهذا الأسلوب الخبيث ينفون عنه ﷺ صفة النبوة ويخدعون الآخرين بمعسول القول من العبقرية والعظمة وما الى ذلك من الألفاظ المنمقة ، لذا فهم من أشد الناس خطراً على عقول الناشئة ، يقول الاستاذ أنور الجندي : « وأخطر ما يقول هؤلاء أن القرآن انطباع في نفس محمد نشأ عن تأثير البيئة التي عاش فيها أو أن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحياً إلّهياً اعتماداً على القول بعبقريته وألمعيته وصفاء نفسه»[1] .

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا ملخصاً لشبهتهم هذه : « ان الوحي الهام كان يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج وذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة وقوة ايمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية وتقاليد وراثية رديئة يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه ارشاداً إلّهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ويعتقد أنه ملك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء . . . .

---

(١) انظر الرسول في كتاب المستشرقين ص ١١ نقلاً عن كتاب شبهات التغريب ص ٣٨٤

ويقولون أيضاً : نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع وإنما نقول ان منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء من عالم الغيب»[1] .

ومن القائلين بالوحي النفسي من المستشرقين درمنغم وجب وجولدزيهر وجوستاف لوبون ومونتغمري واط وغيرهم .

يقول مونتغمري واط في كتابه محمد بمكة : «لا يلزم من صدق الانسان أن يكون مصيباً فيما يقول بل يمكن أن يكون صادقاً ومع ذلك مخطئاً اذن فمحمد مخطىء في ظنه أن القرآن وحي يأتيه من الخارج بوساطة ملك واذن فالقرآن صدر من جهة من جهات نفسه وتلك الجهة هي اللاشعور الجماعي »[2] .

ويدعي هؤلاء المستشرقون أن محمداً عليه الصلاة والسلام استطاع أن يأتي بالقرآن الكريم من عند نفسه نتيجة عدة مؤشرات بالاضافة الى نبوغه وعبقريته كظروف البيئة التي كان يعيش فيها سواء من الناحية الدينية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وكذلك الأديان المنتشرة في جزيرة العرب وبلاد الشام كاليهودية والمسيحية والصابئة وغير ذلك . كل هذه الأمور أثرت في نفسه وانطبعت في ذهنه فلجأ الى الخلوة بعيداً عن الناس للتفكير والتأمل فيما يدور في نفسه بحثاً عن دين جديد لاصلاح حال قومه وبهذا استطاع أن يؤلف القرآن من خواطره والهاماته .

يقول مونتغمري واط « ان محمداً كان شديد الاخلاص لدعوته شديد الثقة في نفسه فكان اذا حدثت حادثة في حياته أو اعتقد أن شيئاً ما صالح انفعلت نفسه بما حدث او اعتقد فيصوغه في كلام قرآني ثم يعتقد هو أن هذا كلام الله أوحي اليه فيقدمه على أنه كلام الله »[3] .

---

(١) الوحي المحمدي ص ٧٥ .
(٢) مناهج المستشرقين جـ ١ ص ٢١١ .
(٣) الإسلام والمستشرقون ص ٣٤ .

ويقول اميل درمنغم : « حقاً ان في السماء لشارات للمدركين وفي العالم غيب بل العالم غيب كله ، لكن ألا يكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى وأن يرهف أذنه ليسمع ؟ ليرى حقاً وليسمع الكلم الخالد ، ولكن للناس عيوناً لا ترى وآذاناً لا تسمع ، أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى ، وهل يحتاج لكي يسمع ما وراء السماء من أصوات الا الى قلب خالص ونفس مخلصة وفؤاد مليء ايماناً . ويقول أيضاً : « محمد في ريب من حكمة الناس فهو لا يريد أن يعرف الا الحق الخالص الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل وهو لا يستطيع العيش الا بالحق والحق ليس فيما يرى حوله ، فحياة القرشيين ليست حقاً وربا المرابين ونهب السيد ولهو الخلعاء وكل ما الى ذلك لا شيء من الحق فيه والأصنام المحيطة بالكعبة ليست حقاً ، وهبل الإله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس الهاً حقاً ، اذن فأين الحق وما هو ؟

ويقول عن تحنثه في غار حراء : « وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف وأن كان يجد فيها الوسيلة الى ما برح شوفه يشتد اليه من نشدان المعرفة واستلهام ما في الكون من أسبابها فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل اليه ليمضي أياماً طويلة في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة» .

ويقول أيضاً : « وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متوالية وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى ما في الحياة لأن هذا الذي يرى في الحياة ليس حقاً وهناك كان يقلب في صحائف ذهنه كل ما وعي فيزداد عما يزاول الناس من الوان الظن رغبة وازوراراً وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد بل في هذا الكون المحيط به في السماء ونجومها وقمرها وشمسها وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء وساعات صفوها البديع اذ تكسوها أشعة القمر

أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي ، وفي البحر وموجه وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء ادراكها ، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب الى مكنون سره » .

ويقول أيضاً : « فلما كانت سنة ٦١٠ أو نحوها كانت الحالة النفسية التي يعانيها محمد على أشدها فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن امراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه وأن الناس نسوا هذا الأمر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته وخشي الناس الجن والانس والاشباح والبوارح وأهملوا الحقيقة العليا ، ولعلهم لم ينكروها ولكنهم نسوها نسياناً هو موت الروح ، وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد ولقد عرف أن المسيحيين في الشام ومكة لهم دين أوحي به وأن أقواماً غيرهم نزلت عليهم كلمة الله وأنهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من أنبياء أوحي اليهم به وكلما ضل الناس بعثت السماء اليهم نبياً يهديهم الى الصراط المستقيم ويذكرهم بالحقيقة الخالدة وهذا الدين الذي جاء به الأنبياء في كل الأزمان دين واحد وكلما أفسده الناس جاءهم رسول من السماء يُقَوِّمَ عِوَجَهُم وقد كان الشعب العربي يومئذ في أشد تيهاء الضلال ، أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم الى الحق؟ »[1] .

وهكذا يصور هذا المستشرق بأسلوب شعري أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يبحث عن النبوة ويرهق نفسه في طلبها لاصلاح حال قومه وأنه كان يفكر ويتأمل بكل ما وعى ذهنه وكذلك في آيات الكون الكثيرة ، وهذا التفكير العميق هو الأساس فيما جاء به من القرآن .

والمستشرق بودلي يقول : « إنه لما زال دافع العمل للقوت اليومي

---

(١) انظر أقوال درمنغم هذه في الوحي المحمدي ص ٩٠ ـ ٩٣ .

وجد محمد فسحة من الوقت ليتأمل فيما اجتمع في رأسه ورأته عيناه »[1] .

ويتحدث المستشرق جب في كتابه المذهب المحمدي عن تأثير البيئة على محمد ﷺ بما فيها من عيوب اجتماعية واقتصادية وغير ذلك فيقول : « ان محمداً ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية عنه المحيطة به من جهة ، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه والدائرة في المكان الذي نشأ فيه . . . . وانطباع هذا الماضي الممتاز لمكة يمكن أن نقف على اثره واضحاً في كل أدوار حياة محمد . . . . وبتعبير انساني ان محمداً نجح لأنه كان واحداً من المكيين ، ولكن بجانب هذا الازدهار في مكة كان هناك ناحية أخرى مظلمة خلفتها تلك الشرور المعروفة لجماعة اقتصادية ثرية فيها فجوات واسعة الغنى والفقر ، هذه الناحية هي ناحية الاجرام الانساني الذي تمثل في الأرقاء والخدم ، وفي الحواجز الاجتماعية . . . . وواضح من دعوة محمد الصارخة الى مكافحة الظلم الاجتماعي أن هذه الناحية كانت سبباً من الاسباب العميقة لثورته الداخلية النفسية .

ولكن نواة هذه الثورة النفسية لم تظهر في صورة اصلاح اجتماعي ، بل بدلاً من ذلك دفعته الى اتجاه ديني أعلنه في اعتقاد ثابت لا يتأرجح بأنه رسول من الله لينذر أتباعه انذار الرسل الساميين » .

ويقول أيضاً : « ويبدو أن معارضة المكيين له لم تكن بسبب محافظتهم وتمسكهم بالقديم أو بسبب عدم رغبنهم في الايمان . . . . بل ترجع الى أسباب سياسية واقتصادية . . . . . . لقد تملكهم الخوف من آثار دعوته التي يؤثر على ازدهارهم الاقتصادي بالأخص تلك الآثار التي يجوز أن تلحق ضرراً بالقيمة الاقتصادية لمقدساتهم» .

ويقول : « ومعروف من القرآن نفسه أن فكرة الوحدانية كانت معروفة

---

(١) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١٦٠ .

في غربي الجزيرة العربية»[1] .

ويدعي المستشرق بندلي جوزي أن الواقع الاقتصادي في مكة له أكثر الأثر على النبي ﷺ وعباراته وفحوى كلامه ، يقول : « وما عليك الا ان تقرأ القرآن لتقف على حركة التجارة في مكة ودرجة انهماك سكانها بها وبسائر الأعمال المالية لتدرك ما كان لهذه السوق الدائمة من التأثير على النبي الكريم وعباراته وفحوى كلامه في أول دعوته بل في جميع أدوار حياته» .

ويقول أيضاً : « ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته أنه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في أيامه في مكة عاصمة الحجاز وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية دينية كانت أو اجتماعية»[2] .

ويدعي أيضاً أن سبب تحريم الربا في القرآن يرجع الى انتشاره في عرب الجاهلية بكثرة ، يقول : « ولولا ذلك لما حمل صاحب القرآن حملاته المعروفة على المرابين والربا ، بل لما منع الربا ولعن المرابين على كل صفحة من صفحات سورة المكية »[3] .

ويقول عن تأثير الناحية الاجتماعية على محمد ﷺ : « يكفينا أن نعرف أن النظام الاجتماعي في مكة أعد في اواخر العصر السادس محلاً اجتماعياً لشخص توافرت فيه القوى أو الصفات اللازمة كسرعة التأثر ولطف الطبيعة وبعد النظر وطيب القلب ومعرفة طبيعة الناس وحسن السياسة والاستعداد التام لتضحية مصالحه الشخصية بل روحه العزيزة في سبيل المصلحة العامة وتحقيق مبادئه السامية التي توصل اليها بجهده وأصبحت جزءاً من نفسه ، اسم هذا الرجل هو محمد بن عبد الله »[4] .

---

(١) انظر أقوال جب في الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥ .
(٢) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٨ ـ ٢١ .
(٣) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٢٥ .
(٤) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٣١ .

وأخيراً يقول : « فأنت ترى مما ذكرناه أنه كان لمنشأ النبي ووسطه الاجتماعي تأثير قوي على ظهوره ودعوته ومضمون أقواله في بادىء الأمر بل في جميع أدوار حياته .... ان حالة النبي الاجتماعية في المدينة تغيرت كما هو معلوم تغيراً ظاهراً أدى إلى تغير نفسيته فكان من نتائج هذا التغير أن بعض اصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة وفيها شيء مما يدعوه الأوروبيون بالتساهل»[1] .

أما عن تأثير الناحية الدينية في نفسية محمد ﷺ وما جاء به فيقول هنري دي كاستري : « وكان مذهب توحيد الله يخطر في الأذهان رويداً رويداً وكان المشخصون لهذا الاعتقاد فريقاً يقال لهم الحنفيون بقوا على مذهب ابراهيم عليه السلام .... وتلقى محمد مذهب أولئك الأحناف بحالة سطحية ، ولكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبع بالدين تكيف هذا المذهب في وجدانه حتى صار اعتقاداً لم تصل اليه نفس قبله وهو ذلك الاعتقاد المتين الذي أحدث انقلاباً كلياً في النوع البشري»[2] .

ويصور الـ ستشرق ارنست رينان في مقال له عن محمد ومصادر الاسلام ، يصور المجتمع الجاهلي الذي نشأ فيه محمد عليه الصلاة والسلام أنه مجتمع مؤمن بالاله الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، فلم يعرف أي تعدد أو تنوع عن الله ، ويرسم لنا هذا المجتمع في أوج حماسه الديني ، التقت فيه جميع الديانات وجميع الحضارات بالاضافة الى أن الدين كان شغله الشاغل ، فرسالة محمد ليست الا امتداداً للحركة الدينية التي سادت عصره دون أن يسبقها عليه السلام بأي جديد[3] .

ويقول المستشرق اميل درمنغم عن تأثير الأحناف والديانات الأخرى

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٣٥ .
(٢) الاسلام والرسول ص ٤٩ ـ ٥١ .
(٣) مدخل الى القرآن ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

على محمد عليه السلام : « قد اتصل محمد بهؤلاء الحنفاء وسمعت أذنه المرهفة ووعى قلبه الذكي عن هذه الديانات كثيراً ثم كان اختلاؤه بنفسه وعمله في الصحراء مما زاده رهافة حس ودقة تأمل وشغل محمد نفسه بالبحث عن دين يخلو من متناقضات هذه الأديان كلها فلجأ الى غار حراء يفكر ويتأمل حتى هداه تفكيره الى مبدأ التوحيد المطلق»[1] .

ويقول المستشرق جولدزيهر عن تأثير الأديان على محمد ﷺ : « فمحمد مؤسسه لم يبشر بجديد من الأفكار ، كما لم يمدنا بجديد فيما يتصل بعلاقة الانسان فيما فوق حسه وشعوره وباللانهاية . . . . فتبشير النبي العربي ليس الا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه ، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الارادة الالهية ، لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل الى أعماق نفسه وأدركها بأيحاء قَوَّتْهُ التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً الهياً فأصبح باخلاص على يقين بأنه أداة لهذا الوحي» .

ويقول أيضاً : « وفي خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجترها في قرارة نفسه وهو منطو في تأملاته أثناء عزلته ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتي يلمح فيها أثر حالته المرضية نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين » .

ويقول عن خلوة النبي ﷺ : « وكان قد بلغ الأربعين من عمره وأخذ يقضي وقته على ما تعود في الخلوة في الغيران المجاورة للمدينة حيث كان

---

(١) صور استشراقية ص ٤١ .

نهباً للأحلام القوية والرؤى الدينية ، وتملكه شعور بأن اللّه يدعوه بقوة تزداد شيئاً فشيئاً ليذهب إلى قومه منذراً إياهم بما يؤدي بهم ضلالهم من الخسران المبين وبكلمة واحدة أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربياً لشعبه أي (منذره ومبشره) »[١] .

ويقول درمنغم في تأثير الرحلات التجارية على شخصية محمد : « فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد المتنائية وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وما في نبئها . . . . . وفي الشام عرف محمد أخبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عُبّاد النار لهم وانتظار الوقيعة بهم »[٢] .

تفسير المستشرقين لظاهرة الوحي

أما موقفهم من ظاهرة الوحي ، وما كان يظهر على رسول اللّه ﷺ من الأحوال حين كان يأتيه الوحي ، فيزعمون أن ما كان يعتري الرسول ﷺ حين كان يتصل بالوحي ما هو إلاَّ أعراض مرضية ونوبات عصبية ، لذا فهم يتهمونه بالصرع ويلتقون بهذا مع من سبقهم من مشركي العرب الذين رموه بالجنون والسحر والكهانة .

يقول المستشرق جوستاف لوبون : « ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر مؤسسي الديانات ، ولا أهمية لذلك فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ويقومون الناس وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وأثاروا الجموع وقادوا البشر ، ولو كان العقل لا الهوس هو

---

(١) انظر أقوال جولدزيهر في كتابه الشريعة والعقيدة ص ١١ ـ ١٤ .
(٢) الوحي المحمدي ص ٨٦ .

الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر »[1] .

ويقـول المؤرخ تيوفـانيز : « وأصيب كـذلك ـ محمـد ـ بمرض عصبي فلما علمت زوجته بأمره حز في نفسها أن قد أصبحت اليوم مرتبطة بإنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير بل هو أيضاً مريض ، فراح يهدئها بقولـه : اني تلم بي رؤية ملك من الملائكة اسمه جبريل ولما كنت لا أقوى على تحمـل مرآه فإني تخور قواي وأقع على الأرض »[2] .

ويقول المستشرق بودلي : « وقد انتابه على مرّ الأيام حـالة عصبيـة في تفكيـره وقد أثـر الصيام والسهـر في صحة محمـد الذي كـان قد اعتـاد على الأكل والحركة والحياة الطليقة فكان يرى أثناء نومه الخفيف رؤى غريبـة كان يتذكرها جيداً حين يصحو »[3] .

والمستشرق درمنغم يتهم النبي ﷺ بفقدان الوعي واختلال التـوازن من طـول الفكر والتـأمل فيقـول : « وأصبح لـه الصوم والسهـر وامعان النـظر في الفكـرة الواحـدة ما تهيم بـه روحه وأضحى لا يفـرق جيداً بين تعـاقب الليل والنهار وبين اليقظة والمنام وغدا يقضي طويل الساعات جـاثياً في الـظلام أو مستلقياً تحت أشعة الشمس أو سـائراً بخـطى واسعة في الشعـاب الصخريـة وكان كلما سار خيل إليه أن أصواتـاً تخرج من الحجـارة فإذا مـا تعثر بحجـر ارتد والحجارة كثيرة تحت وهج الشمس والحجارة تحييه برسول اللّه »[4] .

ويقـول أيضاً : « وأصبـح بعد ستـة أشهر نحيفـاً مهزولاً خـائـر القـوى مضـطرب الخـطى أشعث الشعـر واللحيـة . . . . . وكــان يهيم بين شعـاب الجبال ويخر مغشياً عليه »[5] .

---

(١) مناهج المستشرقين ص ٢٩ .
(٢) النبي محمد ص ٨٩ .
(٣) الرسول في كتابات المستشرقين ص ٤٨ .
(٤) الرسول في كتابات المستشرقين ص ٥٠ .
(٥) صور استشراقية ص ٤٢ .

والمستشرق شبرنجر يقول : « إن الحالات العصبية التي كانت تنتاب النبي قد ورثها عن أمه بسبب الرؤى التي كانت تراها آمنة أثناء حملها وما هي إلاَّ من قبيل الحرافات »[1] .

وجولدزيهر هو الآخر كان يتهم النبي ﷺ بالمرض .

وبناء على زعم المستشرقين أن النبي ﷺ كان مصاباً بالصرع ، فالقرآن الكريم ما هو إلاَّ هذيان محموم مصروع .

وقد فصل الدكتور هيكل الحديث في هذه النقطة وهو يصور تأثر بعض المخدوعين بما كتبه المستشرقون ، يقول : « ان مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبي كان يصاب بالصرع وأن اعراضه كانت تبدو عليه إذ كان يغيب عن صوابه ويسيل منه العرق وتعتريه التشنجات وتخرج من فمه الرغوة حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول أنه وحي اللّه إليه في حين لم يكن هذا الوحي إلاَّ أثراً من نوبات الصرع »[2] .

وهكذا تبدو أحقاد المستشرقين من خلال هذه النصوص التي تزدحم بسيل من الأفكار الدنيئة الخبيثة والتي خلاصتها أن محمداً نفسه هو مصدر القرآن ، نظمه بعبقريته الفذة وإلهاماته الخارقة ، وليس مصدره ومنزله اللّه سبحانه وتعالى ، مروجين بأن معلوماته وأفكاره ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو من نفسه الروحانية على مخيلته وانعكس اعتقاده على بصره وسمعه فخيل إليه أنه رأى ملكاً يخاطبه .

وهذا افك مبين وبهتان عظيم وحقد دفين وتجن على الحقيقة وعلى البحث العلمي المزعومين .

---

(١) الرسول في كتابات المستشرقين ص ١١٢ .

(٢) حياة محمد ص ٤٠ .

بطلان هذه الشبهة

الناظر في مزاعم المستشرقين هذه ، وفي حال الرسول الكريم ﷺ ، وفي كتاب اللّٰه تعالى الذي أوحى به إليه يتبين له بطلان هذه المزاعم من عدة وجوه :

الوجه الأول : ان القرآن الكريم نفسه ينفي أن يكون من صنع البشر وتأليفهم وإنما هو كلام اللّٰه المنزل على رسوله محمد ﷺ لهداية الناس وإصلاح حالهم وذلك من عدة نواح :

١ - من ناحية أسلوبه البليغ المعجز المغاير لأسلوب النبي ﷺ فيما صدر عنه من الأقوال غير القرآن[1] ، فالحديث يختلف اختلافاً كبيراً عن القرآن الكريم من جهة الأسلوب ، وكل قارىء يفهم العربية يدرك ما بين الأسلوبين من فرق كبير ، فلو كان القرآن صادراً عن محمد نتيجة انفعالاته بما يحدث في حياته وما يجري في مخيلته من أفكار لكان أسلوبه هو نفس أسلوب الأحاديث لأنه لا يمكن أن يكون لكاتب واحد مهما بلغ من الذكاء والعبقرية أسلوبان يختلفان هذا الاختلاف الكبير ، وبهذا يتبين لنا بطلان دعوى المستشرقين أن القرآن الكريم صادر عن النبي ﷺ .

٢ - من ناحية ما تضمنه من إشارات علمية دقيقة ونبوءات غيبية وأخبار القرون الماضية والتشريع العظيم وغير ذلك من العلوم والمعارف التي يزخر بها هذا السفر العظيم ، كل ذلك ينفي أن يكون القرآن بشرياً وإلَّا فمن أين لمحمد ﷺ الرجل الأمي هذه الحقائق العلمية التي لم يُتوَصل إلى معرفتها إلَّا في العصر الحاضر ، ومن أين له معرفة أخبار الأولين من الأنبياء والمرسلين ومن أين له معرفة دقائق التاريخ وأحوال الأمم السابقة ، هل عاصرها واطلع على أخبارها ، ان إخبار القرآن الكريم بقصص الأمم السابقة وما حل بهم بدقة وتفصيل يؤكد أنه من عند اللّٰه وليس من عند محمد ﷺ

---

(١) مناهج المستشرقين ص ٣٢ .

الذي لم يقرأ كتاباً ولم يدرس علماً أبدا .

وهذه النبوءات الغيبية الموجودة في القرآن من أين لمحمد ﷺ بها ، ان الانسان مهما بلغ من العبقرية والذكاء لا يستطيع أن يكشف حجب الغيب المكنون بعبقريته وذكائه ، ان كل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من عند محمد ﷺ ، وإنما هو من عند اللّه الذي أحاط بكل شيء علماً .

تقول المستشرقة لورافيشيا فاغليري في كتابها دفاع عن الإسلام : « ان القرآن الكريم بما تضمنه من العلوم والمعارف والأخبار لا يمكن أن يكون من عند محمد فنحن نقرأ فيه إلى جانب أشياء أخرى كثيرة تنبوءاً ببعض أحداث المستقبل ووصفاً لوقائع حدثت منذ قرون ولكنها كانت مجهولة على وجه عام ، أن ثمة إشارات كثيرة إلى نواميس الطبيعة وإلى علوم مختلفة دينية ودنيوية ، اننا نقع ثمة على ذخائر واسعة من المعرفة تُعجز أكبر الناس ذكاء وأعظم الفلاسفة وأقدر رجال السياسة ولهذه الأسباب كلها لا يمكن للقرآن أن يكون من عمل رجل غير مثقف قضى حياته كلها وسط مجتمع جاف بعيد عن العلم والدين ، رجل أصر دائماً على أنه ليس إلَّا رجلاً مثل سائر الرجال فهو بوصفه هذا عاجز عن اختراع المعجزات ما لم يساعده على ذلك ربه الكلي القدرة ، ان القرآن لا يعقل أن ينبثق عن غير الذات التي وسع علمها كل شيء في السماء والأرض »[1] .

٣ ـ إن القرآن الكريم لا يعكس شخصية الرسول ﷺ في أفراحه وأحزانه ، لقد توفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة في عام واحد وحزن عليهما حزناً شديداً حتى سمي ذلك العام بعام الحزن ، فهل يوجد في القرآن أي إشارة لكل هذا ، فلو كان القرآن كما يزعمون نابعاً من ذاته لظهرت تلك المشاعر في سور القرآن .

---

(١) محمد رسول الله (علامات النبوة) ص ٥١ .

ثم ان القرآن في بعض المواقف كان يخالف رأي الرسول ﷺ ، بل كان يعاتبه ويلومه على أفعاله كعتابه في موقفه من الرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حيث قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَىٰ . . . ﴾[1] .

وكعتابه له في مسألة أسرى بدر حيث قال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

وكعتابه له ﷺ في مسألة الإذن للمنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك حيث قال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ ﴾[3] .

فلو كان القرآن الكريم نابعاً من ذاته لما ظهر فيه مثل ذلك والعتاب على تلك التصرفات لأن طبع البشر أن يخفوا أخطاءهم وتقصيرهم ولا يذكروها في مؤلفاتهم ، وبهذا يظهر أن القرآن الكريم ليس من صنعه وإنما هو خارج عن ذاته ﷺ .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « وليس صحيحاً أن القرآن يعكس شخصية رسول الله ﷺ ففي أكثر الأوقات لا يذكر شيئاً عنه ويتجرد تماماً من الإشارة إليه وعندما يورد شيئاً عنه فلكي يحكم عليه أو يضبط سلوكه أو يسيطر عليه ، وفيما يتعلق بأفراحه وأحزانه نعلم كم كان حزنه لوفاة أبنائه وأصدقائه حتى أطلق اسم (عام الحداد) على العام الذي فقد فيه زوجته

---

(١) سورة عبس ، الآيتان ١ ـ ٢ .
(٢) سورة الأنفال ، الآيتان ٦٧ ـ ٦٨ .
(٣) سورة التوبة ، آية ٤٣ .

وعمه وفقد معهما العون المعنوي الذي كان يسانده أمام الصعوبات التي كانت تقابله في سبيل نشر دعوته ، فهل نجد في القرآن أقل صدى لهذا ؟ ولكن بمجرد أن يتعلق الموضوع بسلوك أخلاقي نرى التعارض جلياً بين السلطة التشريعية والنفس الخاضعة المستسلمة كما يتعارض التشدد مع التساهل والصراحة القصوى مع الحياد »[١] .

وليس أدل على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ من اشتداد حاجة الرسول إلى شيء منه ، فلا يجده إلَّا بعد فترة من الزمن فقد كان عليه الصلاة والسلام تمر به بعض المواقف المحرجة يحتاج فيها إلى القرآن لحسم الموقف فلا يجد مثال ذلك ما حلّ به ﷺ من الضيق والحرج عندما رماه المنافقون في أهل بيته السيدة عائشة رضي اللّٰه عنها فلم يستطع عليه الصلاة والسلام أن يفعل شيئاً حتى جاءه الوحي ببراءة أهله وقطع بذلك ألسنة المروجين والخائضين فلو كان القرآن من عنده لأعلن منذ اللحظة الأولى براءتها وحسم الموقف .

الوجه الثاني : حال النبي ﷺ قبل البعثة يؤكد بطلان مزاعم المستشرقين في أن القرآن الكريم من وحي نفسه ﷺ ، وذلك من عدة نواح :

١ ـ اشتهاره ﷺ في قومه بالصدق والأمانة حتى كانوا يلقبونه (بالصادق الأمين) وهذا الأمر اعترف به بعض المستشرقين ، فإذا كان كذلك فكيف لا يصدق في نسبة القرآن إلى اللّٰه تعالى وأنه ليس من عند نفسه .

لقد أعلن ﷺ منذ اللحظة الأولى إنما هو بشر يوحى إليه بهذا الكتاب من اللّٰه عز وجل ، وهو يبلغ عن اللّٰه سبحانه وتعالى ما يأتيه به الوحي .

ولو كان القرآن من عنده وأنه ليس نبياً مختاراً من رب العالمين ثم ادعى النبوة ونسب القرآن إلى اللّٰه لكان كاذباً في دعواه ، وهذا ما يخالف

---

(١) مدخل الى القران الكريم ص ١٧٠ .

سيرته الشريفة ﷺ إذ لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّه عز وجل كما شهد بذلك هرقل ، وبداية الإنسان تدل على نهايته .

ثم ما الذي يمنعه من نسبة القرآن إلى نفسه ، وما الهدف من نسبته إلى اللّه لو كان ما يدعونه صحيحاً ؟ علماً لو نسبه إلى نفسه لازداد بذلك رفعة وعلو شأن في نفوس أتباعه ، وأنه لا يوجد أحد من الناس ينسب لغيره أنفس آثار عقله ، وأغلى ما تجود به قريحته .

إن افتراض بعض الجهلة في نسبة القرآن إلى اللّه من أجل إصلاح الناس بإيجاب طاعته عليهم ، لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه فهذا افتراض فاسد في ذاته وأساسه لأنه ﷺ صدر عنه كلام ونسبه إلى نفسه وان نسبته إلى نفسه لم تنقص من لزوم طاعته شيئاً ، بل استحق طاعة الناس فيما صدر عنه من كلام وفيما جاء به عن اللّه على حد سواء ، فلو كان الأمر كما يظنون لنسب كل ما يصدر عنه إلى اللّه أيضاً .

ثم ان افتراضهم مبني على أن النبي ﷺ يريد الوصول إلى غايته الإصلاحية بأي طريق ولو بالكذب والتمويه وهذا ما يخالف السيرة الشريفة التي عاشها ﷺ طوال حياته فلم يؤثر عنه الكذب في أي شأن من شؤون حياته ، بل كان الصدق رائده في كل أمر[١] .

٢ ـ ان طبيعة الحياة التي عاشها ﷺ قبل أن يأتيه الوحي تؤكد أنه من المستحيل أن يصدر عنه شيء مما جاء به، فقد عاش ﷺ في قومه كأي واحد منهم مشغولاً في تحصيل الرزق ، يرعى الغنم بالأجر أو يتاجر بالأجر ، أمياً لم يؤثر عنه علم ما ولا حتى شعر أو خطابة ، وقد أمضى أربعين سنة من عمره وهو على هذه الحال ، فمن أين له أن يقدر على الإتيان بهذا الكتاب

---

(١) النبأ العظيم ص ٢٢ ـ ٢٣

العظيم من عند نفسه وفيض خاطره وهو على هذه الحال من البساطة والأمية .

يقول الدكتور محمد عبد اللّه دراز : « نعم انها لعجيبة حقاً ، رجل أمي بين أظهر قوم أميين ، يحضر مشاهدهم - في غير الباطل والفجور - ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده راعياً بالأجر ، أو تاجراً بالأجر ، لا صلة له بالعلم والعلماء ، يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له في سابق حياته وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطيرهم ، أفي مثل هذا يقول الجاهلون انه استوحى عقله واستلهم ضميره ؟

أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية انه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يلتمس خارجاً عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة ، وان ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة وأقرب فهماً لهذا السر من ملاحدة هذا العصر إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء انه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه ، بل قالوا انه لا بد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة فدرس منها ما لم يكن قد درس وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾[1] ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[2] ولقد صدقوا فإنه درسها ولكن على استاذه الروح الأمين. واكتتبها ولكن من صحف مكرمة ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١٠٥ .

(٢) سورة الفرقان ، آية ٥ .

عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[1] »[2] .

٣ ـ انه مما لا شك فيه أن محمداً عليه الصلاة والسلام عاش في قومه سليم الفطرة مستقيم السلوك ، مترفعاً عما كان عليه قومه من عبادة للأوثان وتقديس للأصنام ، وكان حزيناً لما عليه قومه فاعتزلهم وما يعبدون ولجأ إلى عبادة اللّه الواحد خالق السموات والأرض .

نعم ان الفطرة السليمة والعقل النير قد يؤديان إلى معرفة اللّه سبحانه وتعالى وبطلان عبادة الأوثان ، أما أن يستطيع معرفة شيء عن هذا الإلّه وكيفية عبادته وعلاقته بالكون المنظور وغير المنظور ، والحياة بعد الموت فأمر متعذر ، فالعقل البشري مهما بلغ من الصفاء والقوة لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في هذا السبيل ما لم يكن له مدد من تعاليم إيجابية خارج نطاق البشر[3] .

وبهذا يتبين لنا بطلان مزاعم المستشرقين من أن محمداً عليه الصلاة والسلام بفطرته السليمة وعبقريته الفذة استطاع أن يأتي بالقرآن من عند نفسه .

٤ ـ عدم تطلعه ﷺ للنبوة قبل أن يوحى إليه كما يزعم المستشرقون ، فلم يرد في الأخبار الصحيحة أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد تطلع إلى النبوة في يوم من الأيام قبل أن يختاره اللّه سبحانه وتعالى إذ لو حصل ذلك لنقل إلينا وتحدث به المخبرون ، كما تحدثوا عن أُمَيَّةَ بن أبي الصلت الذي كان يرجو أن يكون النبي المنتظر وصدق اللّه العظيم حين قال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنْ رَّبِّكَ ﴾[4] ، فرحمة اللّه الواسعة

---

(١) سورة يونس ، آية ١٦ .

(٢) النبأ العظيم ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٣) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٤٦ .

(٤) سورة القصص ، آية ٨٦ .

هي التي حلت عليه باصطفائه وإنزال القرآن عليه ولم ينل ذلك باجتهاده في العلم والعمل .

ثم إن ظهور النبي المفاجىء وتحدثه بما لم يتحدث به من قبل يدل على أن القرآن ليس من عند نفسيه وإنما جاءه من خارجها ، إذ لو كان من عند نفسه لظهر شيء من ذلك في كلامه في ريعان شبابه قبل أن يبلغ سن الأربعين ، تلك الفترة التي يكون فيها الإنسان في أوج حماسه وقوته وقدرته على مواجهة الصعاب ، فلماذا إذن لم يبد أي فكرة من أفكاره الإصلاحية في تلك الفترة ، فهذا دليل قاطع على أن ما جاء به ﷺ خارج عن ذاته وليس نابعاً من داخله كما زعم المستشرقون . انه وحي اللّٰه الكريم لعبده محمد ﷺ لهداية البشريه .

وانه ﷺ لم يلجأ للخلوة طلباً لنبوة كما يوهم بذلك المستشرقون وإنما لجأ لذلك نظراً للوحشة من سوء حال الناس ، ولو كان يطلب النبوة ويقصدها لاعتقد حين رأى الملك حصول ما كان يرجو .

الوجه الثالث : حال الأديان وأهلها التي يزعم المستشرقون أن النبي محمد ﷺ قد تأثر بها واستفاد منها فألف قرآنه من خواطره وإلهاماته الذاتية .

يزعم بعض المستشرقين أن النبي ﷺ تأثر بما سمع من اليهود والنصارى عن أديانهم وذلك أثناء رحلاته التجارية إلى الشام واليمن مما جعله يطيل التفكير في ذلك حتى استطاع أن يأتي بالقرآن .

ومن المعلوم الثابت أن النبي لم يذهب للتجارة إلى بلاد الشام إلاَّ مرتين فقط ، الأولى وهو صغير لم يبلغ الحلم حيث كان برفقة عمه أبي طالب ، والثانية وهو في سن الخامسة والعشرين حين ذهب بأموال خديجة ، ولم يثبت أنه اتصل بأحد من علماء أهل الكتاب حتى يسمع منهم ويتأثر بهم سوى بحيرا الذي أشرت إليه سابقاً وبينت بطلان دعوى المستشرقين التعلم عنه بل والتأثر به نظراً لصغر سنه ﷺ .

ثم انه في رحلتيه لم يجاوز سوق مدينة بصرى الشام ولم يفارق رفاقه في القافلة ليجالس علماء أهل الكتاب ، ولو حصل ذلك لنقل إلينا ولاحتج به قومه لابطال دعوته .

ثم انه لو سمع شيئاً من أهل الكتاب وتأثر به وانفعلت به نفسه كما يزعمون ، فلماذا لم يظهر ذلك في حينه وهو في سن الخامسة والعشرين ؟ وان سكوته هذه الفترة الطويلة كفيل بأن تخبو جذوة الحماس في نفسه وأن تنسيه كل شيء سمعه .

والمتأمل في حال هذه الأديان وأهلها لا يجد ما يسره ، ولا يجد فيها ما يصلح لإقامة نظام اصلاحي كالذي جاء به محمد ﷺ .

وها هو أحد الكتّاب المسيحيين (ج . سال) يصور لنا حال العالم المسيحي في ذلك الوقت يقول : « إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم والخلافات على أتفه المسائل والمشاجرات التي لا تنتهي والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء شهواتهم واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود بفعل جدالهم المستمر حول طريقة فهمها ، وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد »[١] .

ويقول تايلور في كتابه المسيحية القديمة : « ان ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلَّا خرافات منفرة ووثنية منحطة مخجلة ومذاهب كنسية مغرورة وطقوساً دينية منحلة وصبيانية بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة بأنهم رسل من قبل اللّه مكلفين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد »[٢] .

---

(١) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣٦ .

(٢) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣٧ .

ونظراً لهذه الحال المتردية التي كان عليها العالم المسيحي والدين المسيحي زمن بعثة النبي ﷺ فإن المستشرق هوارت يقرر عدم تأثر النبي بالديانة المسيحية فيقول : « مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب محمد قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا فإنه يتحتم استبعادها نظراً لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة »[١] .

أما بالنسبة لليهود وديانتهم فلم يكونوا أحسن حالاً من المسيحيين علماً بأن النبي ﷺ لم يتصل بأحد منهم قبل البعثة كما هو ثابت لأنهم كانوا يسكنون يثرب وخيبر ولم يذكر أنه كان لهم مركز في مكة ، لذا لم يتصل بهم إلّا بعد الهجرة من مكة إلى المدينة ، ومنذ أن اتصل بهم ناصبوه العداء حقداً وحسداً لذهاب النبوة منهم وليس أدل على حقدهم وحسدهم من المكائد المتلاحقة التي دبروها لإيذاء النبي ﷺ والطعن فيما جاء به وتمزيق صف الجماعة المؤمنة باستقطاب بعض ضعاف النفوس والإيمان وهم المنافقون كما هو ثابت ومعلوم .

ثم ان علماء اليهود كانوا من أبخل الناس بعلمهم وتكفي شهادة اللّه العليم الخبير عليهم بذلك ، فأنى لمحمد ﷺ أن يسمع منهم أو يتأثر بما عندهم .

يقول المستشرق درمنغم عن اليهود : « كان في استطاعه اليهود الموحدين أن يؤثروا في عرب يثرب تأثيراً دينياً كبيراً ـ ولم يعقلوا ما عابهم به القرآن من كتم التوراة ـ لو لم يعدوا الوحي أمراً خاصاً بأمتهم ، ولو لم يستَخِفُّوا بالعرب المشركين الأميين الذين لم ينزل فيهم كتاب »[٢] .

«أما دعوى التأثر بمن تنصر من العرب أمثال أمية بن أبي الصلت وغيره

---

(١) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣٨ .

(٢) صور استشراقية ص ٣٧ .

فهي زيف وهراء لا يعتد به لأنه لم يثبت أن النبي ﷺ التقى بـه لا قبل النبـوة ولا بعدها »[1] .

«وعلى فرض صحة زعم المستشرقين أن النبي ﷺ قد اجتمعت لـديه بعض المعلومات من خلال احتكاكه بأهل الديانـات في رحلاتـه التجاريـة أو في بلده ، فهل تكفي هذه المعلومـات لأن تكون مصـدراً للقرآن العـظيم بما فيه من حقائق عظيمة علمية وأخلاقية وتشريعية أو اخبار تـاريخية وأمـور غيبية وغير ذلك ، ان القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثـل بحيرا ونسطورا وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها »[2] .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : « أيها المفتـاتون الـذين يقولـون ما لا يعلمون ، ان وحي القرآن أعلى مما تزعمون وأكثر ممـا تتصورون وتصـورون وأن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون وأكمل استعـداداً لتلقي كلام اللَّه عن الروح القدس مما تستكبرون »[2] .

الوجه الرابع : طبيعة البيئة التي نشأ فيها عليه الصلاة والسلام :

زعم المستشـرقـون أن النبي ﷺ قـد تـأثـر بـالبيئـة التي نشأ فيهـا ، وصـوروها بيئـة متحضرة ذات دين ، تعـرف اللَّه ، وأن الأوضاع الاجتمـاعية والاقتصادية السـائدة قـد أثرت فيـه ﷺ وبما جـاء به ، وهـذا من مغالـطاتهم المكشوفة التي لا تخفى على أحد من الناس .

ومن المعلوم أن البيئة التي نشأ فيها رسول اللَّه ﷺ بيئـة جاهليـة كانت تتخبط في مهـاوي الفساد والـرذيلة وتتيه في بحـر من الأوهام والخـرافـات ، تعبد الحجارة الصمـاء التي لا تضر ولا تنفـع ، فأين هي الحضـارة وأين هي معرفة اللَّه الواحد التي يدعيها المستشرقون .

---

(١) الوحي المحمدي ص ١٠٩ .
(٢) الوحي المحمدي ص ١٠٩ .
(٣) الوحي المحمدي ص ١١١ .

وليس أصدق من قول اللّه في تلك الأمة التي نشأ فيها ﷺ حيث قال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1] ، لذا فقد كانت هذه الأمة في أمسّ الحاجة إلى الرسالة الإلٰهية لإيقاظها من هذا الضلال المحدق بها في جميع مجالات الحياة .

ومما لا شك فيه أنه كان في وسط هذه البيئة الجاهلية عدد قليل من الأفراد اسمهم الحنفاء امتازوا بسلامة الفطرة فعزفوا عما كان عليه قومهم من فساد وضلال وأيقنوا أنه لا بد من عبادة اللّه خالق السموات والأرض لكنهم كانوا في حيرة من أمرهم فلم يستطيعوا معرفة الطريقة الصحيحة للعبادة ، لذا فإن زعم المستشرقين أن النبي ﷺ قد تأثر بهذه الفئة زعم فاسد لأن ما كانوا عليه لا يصلح لأن يكون أساساً لما جاء به عليه الصلاة والسلام .

فأما دعواهم التأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية في بيئته فلا أساس له من الصحة لأن معرفة النبي ﷺ بفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بيئته لا يكفي لتأليف القرآن الكريم بما فيه من تشريعات عظيمة فاقت كل ما عرفه البشر .

إن القرآن الكريم أعظم بكثير من أن يكون وليد بيئة وثنية كل ما فيها فساد وانحراف ، وإن كل ما فيه يشهد على عظمة مصدره وأنه لا يمكن أن يكون من عند بشر مهما عظم عقله وسمت روحه وتأثرت وانفعلت نفسه بما يدور حوله وصدق اللّه العظيم حين قال لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[2] .

الوجه الخامس : انتفاء أن يكون الوحي من داخل نفسه عليه الصلاة والسلام :

---

(١) سورة الجمعة ، آية ٢ .

(٢) سورة النمل ، آية ٦ .

إن أعراض الوحي الظاهرة على النبي ﷺ والتي لا دخل له بها تؤكد أن الوحي خارج عن ذاته ﷺ ، فهذه الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه الشريف تنفي أن تكون ظاهرة الوحي صناعة وتكلفاً من قبله ﷺ ، إذ لو كان الأمر كذلك لكانت طوع بنانه ، يأتي بشيء جديد من الوحي في أي وقت يشاء بهذه الطريقة ، والكل يعلم أنه ﷺ كان يمر بظروف معينة أحوج ما يكون فيها إلى شيء من الوحي فلا يأتيه .

ثم ان هذه الظاهرة كانت تحل به ﷺ فجأة دون سابق انذار أو استعداد لذلك ، فقد يكون جالساً مع أصدقائه أو أعدائه يحادثهم فيأتيه الوحي فجأة ويقطع عليه حديثه ، وقد يكون راكباً على دابته أو ماشياً على رجليه فيفاجئه الوحي ، ولو كان الوحي من عند نفسه لاستعد لذلك ولحدد أوقاتاً معينة لإظهار ما عنده من الوحي .

إن موقف النبي ﷺ عند تلقي القرآن عن أمين الوحي جبريل يؤكد أن الوحي خارج عن ذاته الشريفة وأن القرآن لم يصدر عنه ﷺ ، لقد كان يتلقى القرآن من أمين الوحي على عجل ، يحرك لسانه وشفتيه طلباً لحفظه وعدم نسيان شيء منه لتبليغه للناس كاملاً كما أنزل ، فأمره اللّه سبحانه وتعالى بترك ذلك لأنه جل وعلا هو الكفيل بتعليمه وترسيخ ذلك في نفسه ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[1] . وقال : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾[2] .

فلو كان القرآن الكريم نابعاً من تفكيره لجرى على سنته في كلامه العادي لأنه لا يتكلم إلاّ بعد تفكير عميق وتمحيص دقيق ، ولكن هول المفاجأة بالوحي الخارج عن ذاته هي التي تدفعه إلى التعجل والترديد

---

(١) سورة طه ، آية ١١٤ .

(٢) سورة القيامة ، الآيات ١٦ ـ ١٩ .

باللسان والشفتين كما أخبرنا اللّٰه سبحانه في كتابه الكريم .

وكذلك موقفه المليء بالخشية والتقديس للقرآن الكريم يؤكد أنه ليس من عند نفسه كما يزعم الحاقدون .

الوجه السادس : انتفاء فرية الصرع عن النبي ﷺ : إن اتهام المستشرقين للنبي ﷺ الإصابة بالصرع أمر يكذبه الواقع ويدحضه ، وان زعم درمنغم أنه ﷺ نسي الليل والنهار والحلم واليقظة وأنه كان يهيم بين شعاب الجبال ويخر مغشياً عليه ما هو إلاّ نسيج خيال لا أساس له من الصحة ، فلم يثبت عنه ﷺ أنه بلغ به الجهد في خلوته مثلما يصور هذا الكاتب الفرنسي ، وان الروايات الصحيحة ترد كل هذه المزاعم والأقاويل الباطلة .

لقد عاش النبي ﷺ طيلة حياته في صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة ، لم يطرأ عليه أي خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام ، بل كان كمال عقله مضرب الأمثال .

وليس أدل على انتفاء هذه الفرية وبطلانها من كفاحه المرير في سبيل نشر دعوته ، ومن سياسته الحكيمة وخططه الحربية وتنظيماته الاجتماعية ، فلو كان مصاباً بالإنهيار العصبي كما يزعمون فهل يقوى على مثل هذا النضال الطويل وهل يؤثر عنه تلك السياسة البارعة والتنظيمات الدقيقة .

يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : « امجنون مصروع يبني دولة وينشىء نظاماً ويقيم ديناً ويعيش في أجيال الناس منذ قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكسة أو خلل ؟ أمجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزمجرة وحيداً في وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عليلة وريح رخاء »[١] .

---

(١) النبي محمد ص ١٣٩ .

ألا ما أبعد هذا الكمال الإنساني عما يتخبط به الحاقدون من المستشرقين وغيرهم .

ولقد شهد بعض المنصفين من المستشرقين على انتفاء هذه الفرية عنه ﷺ مستدلين بحياته المشرفة وما أثر عنه من أمور عظيمة على ذلك ، يقول ماركس مايرهوف : « أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي أو بداء الصرع ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول »[1] .

أما ادعاؤهم بأن ما كان يظهر على النبي من أعراض حين كان يتصل بالوحي انها أعراض صرع فادعاء باطل يدل على جهلهم المستحكم بحقيقة الوحي لأن وحي اللّه لأنبيائه لا يمكن إخضاعه لقوانين البحث العلمي لأنه فوق العقل وفوق العلم البشري ، وأعراض الصرع تختلف تمام الاختلاف عما كان يعتري النبي ﷺ عند اتصاله بالوحي ، فهي اعراض مرضية مصحوبة باصفرار في الوجه وبرودة في الأطراف واصطكاك في الاسنان وغيبوبة كاملة إذ يحتجب نور العقل ويخيم الجهل فلا يذكر من يصاب بذلك أي شيء مما حدث له ، بل ينسى هذه الفترة من حياته نسياناً تاماً .

«أما ظاهرة الوحي فتكون مصحوبة بإشراق في الوجه وارتفاع في درجة الحرارة ، وهي مبعث للنور الهادي الذيّ لا ظلمة فيه ومصدر للعالم المشرق الذي لا جهل فيه »[2] .

ثم ان نزول الوحي لم يقترن بالغيبوبة دائماً ، إذ كان يأتيه أمين الوحي أحياناً في صورة رجل فيحادثه ويوحي إليه بما شاء اللّه أن يوحي به إليه .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل في الرد على هذه الفرية :

---

(١) الاسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ص ١٦٢ .
(٢) النبأ العظيم ص ٧٢ .

« وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو خاطىء من الناحية العلمية أفحش الخطأ ، فنوبة الصرع لا تذر عند من يصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل ، هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم ولم يكن ذلك مما يصيب النبي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تتنبه حواسه والمدارك في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه هذا ثم أن نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه ، بل كان كثيراً ما يحدث والنبي في تمام اليقظة العادية . . . . . فالصرع يعطل الإدراك الإنساني وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس ، أما الوحي فسمو روحي اختص اللّه به أنبياءه ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس ، وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها »[1] .

وبعد هذا العرض لشبهات المستشرقين نجد أنها ترديد مقيت لشبهات العرب في الجاهلية ألبسوها ثوباً جديداً وعرضوها في حلة مزركشة من القول المزوق والكلام المنمق مدعين الموضوعية والبحث العلمي ، وقد بينت بالدليل القاطع زيف تلك الشبهات وبطلانها من الأساس سائلين اللّه أن يلهمنا الصواب في القول والعمل .

---

(١) حياة محمد ص ٤٠ ـ ٤١ .

الخاتمة
في أهم نتائج البحث

حمداً للّه تعالى وشكراً له على منه وكرمه وعونه لإنهاء هذا البحث ، وتوفيقه بإخراجه على هذه الصورة الطيبة إن شاء اللّه تعالى ، ومن أهم النتائج التي خرجت بها من البحث :

١ - ان الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ كثيرة ومتنوعة ، تقود الإنسان إلى الإيمان به نبياً ورسولاً من اللّه تعالى لهداية الناس ، وكثرة هذه الأدلة وتنوعها يتناسب مع كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، إذ لا نبي بعده ، ومع كون رسالته خاتمة الرسالات وناسخة لبقية الشرائع ، والتي يجب على بني آدم لصلاح دنياهم وأخراهم العمل بها والاحتكام إليها إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .

٢ - ان الأحبار والرهبان والملوك قبل بعثة رسول اللّه كانوا على معرفة بنبوته ﷺ ووقت مبعثه وصفته وصفة بلده وقومه ، وأنهم شهدوا بذلك قبل مبعثه .

٣ - ان التوراة والانجيل قد بشرتا برسول اللّه ﷺ ، وبالرغم من تحريفهما إلَّا أنه لا يزال فيهما إشارات وإيماءات يفهم منها البشارة برسول اللّه ﷺ ، مع العلم أن ما نقله علماء سلفنا الصالح أمثال الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من بشارات عن التوراة والانجيل أشد صراحة مما

نجده الآن فيهما ، مما يدل على أنهما قد دخلهما تحريف جديد من زمنهم إلى يومنا هذا ، وقد شهد القرآن بهذه البشارات ، وشهد بتحريف التوراة والانجيل .

٤ ـ إن القرآن الكريم معجزة رسول اللّٰه الكبرى كان له أثر بليغ على العرب ، وقد عجزوا عن الاتيان بمثله مع أنهم فرسان البلاغة وأعلام الفصاحة ، وقد تعددت وجوه إعجازه ، ومنها الإعجاز اللغوي والاعجاز العلمي والاعجاز التشريعي والاخبار بالغيب .

٥ ـ ان العلم الحديث قد وافق ما جاء في كتاب اللّٰه من حديث عن السنن الكونية ، ولم يختلف القرآن مع العلم ولو في موطن واحد ، مما يدل على أنه وحي من مدبر الكون خالق السموات والأرض .

٦ ـ وان التاريخ صَدَّق ما أخبر به القرآن الكريم من وقائع وأحداث ، ولم يحدث قط أمر بخلاف ما أخبر كتاب اللّٰه .

٧ ـ ان كتاب اللّٰه جاء بشريعة صالحة لاسعاد البشرية وانقاذها من الضلال إلى الهدى وأن هذه الشريعة تختلف بخصائصها ومميزاتها عن كل ما عرفته البشرية من قوانين أرضية .

٨ ـ ان معجزات رسول اللّٰه ﷺ لم تقتصر على القرآن الكريم ، بل له معجزات حسية كثيرة نقل كثير منها إلينا عن طريق التواتر ، وهي ليست في قدرة البشر العاديين ، وقد أيّد اللّٰه بها نبيه ﷺ .

٩ ـ ان ما أخبر به ﷺ من وقائع مستقبلية ، وثبتت بالخبر الصحيح ، جاءت الأيام تصدقه بوقوعها على الوجه الذي أخبر به ، ولم يقع أمر قط على خلاف ما أخبر .

١٠ ـ ان رسول اللّٰه ﷺ عاش حياة نظيفة بعيدة عن رجس الجاهلية قبل أن يوحى إليه ، وأنه كان يتصف بأكمل الصفات وأجل الأخلاق وتدل سيرته على أن اللّٰه تعالى يهيئه لأمر عظيم جليل .

١١ ـ أن سيرة رسول اللّه ﷺ بعد البعثة تدل على نبوته ، لما فيها من مواقف وشدائد لا يثبت أمامها الرجل العادي ، ولما فيها من استعلاء على الدنيا وما فيها ، ولما فيها من حسن معاملة وطيب عشرة وأخلاق رفيعة وسياسة حكيمة .

١٢ ـ أن ما جاء به رسول اللّه ﷺ من مبادىء وتعاليم سواء كان في العقيدة أو الأخلاق أو التشريع يدل دلالة واضحة على أنه أوحي إليه بهذا من عند اللّه تعالى ، إذ البشر أعجز من أن يأتوا بمثل ما جاء به .

١٣ ـ ان العرب كانوا في حيرة واضطراب من أمرهم ، وكانوا يلقون الشبهة على رسول اللّه ﷺ ويتراجعون عنها ويكذبون أنفسهم ، وشبهاتهم سخيفة ضعيفة لا سند لها ولا حجة عليها .

١٤ ـ ان المستشرقين بما يحملون من أحقاد وضغائن على الإسلام ونبيه وأهله ما تركوا منفذاً للطعن في الإسلام إلّا وصوبوا سهامهم من خلاله ، والشبهات التي أثاروها هي شبهات العرب مضافاً إليها الخبث والدهاء والمكر ، مدعين اتباع منهج البحث العلمي ، وهم من الحقيقة العلمية براء .

١٥ ـ ثبت بالوجه القطعي بالنقل والعقل بطلان شبهات العرب وشبهات المستشرقين ، وقام الدليل القطعي على نبوة المصطفى ﷺ ، وأن اللّه بعثه بالقرآن بشيراً ونذيراً لهداية الناس إلى الخير والرشاد ، وكل ما جاء به أو نقل عنه فهو حق لا مجال للشك فيه .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

فهرس المراجع

ـ اتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة . تأليف : حمود بن عبد الله التويجري .
ط ١ ، مطابع الرياض . ١٣٩٤ هـ .

ـ اثبات نبوة النبي ﷺ ، تأليف : أبي الحسن أحمد بن الحسين الزيدي . تحقيق : خليل أحمد ابراهيم الحاج .
المكتبة العلمية .

ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب . تأليف : ابن عبد البر النمري القرطبي .
ط ١ ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٢٨ هـ .

ـ أسس في التصور الاسلامي . تأليف : د . محمد عبد القادر أبو فارس .
ط ١ ، مطابع دار الشعب ، عمان ، ١٤٠٢ هـ .

ـ الاسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب . تأليف : أحمد بن حجر آل بوطامي .
ط ٢ ، مطابع قطر الوطنية ، ١٣٩٨ هـ .

ـ الاسلام والمستشرقون . تأليف د . عبد الجليل شلبي
مطابع دار الشعب . القاهرة ، ١٩٧٧م .

ـ الاسلام وموقف علماء المستشرقين . تأليف : د . عبد الحميد متولي .
ط ١ ، مطابع النصر ، جدة ، ١٤٠٣ هـ .

ـ الاسـلام يتحدى (مـدخل علمي الى الايمـان) . تـأليف : وحيـد الـدين خان . تعريب : ظفر الاسلام خان . تحقيق : عبد الصبور شاهين .
ط ٢ ، دار البحوث العلمية ، ١٣٩٣ هـ .
ـ أصول الدعوة . تأليف د . عبد الكريم زيدان .
مكتبة المنار الاسلامية . ١٤٠١ هـ .
ـ اظهار الحق . تأليف : رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي . تحقيق عمر الدسوقي .
مطبعة الرسالة ، القاهرة .
ـ اعجـاز القرآن . تـأليف : أبي بكـر بن محمـد الـطيب . تحقيق : السيـد أحمد صقر .
ط ٤ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ م .
ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية . تأليف : مصطفى صادق الرافعي .
ط ٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
ـ اعجاز القرآن . تأليف : عبد الكريم الخطيب .
ط ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٥ هـ .
ـ اعلام النبوة . تأليف : أبي الحسن علي بن محمد الماوردي .
ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠١ هـ .
ـ انجيل برنابا ، تحقيق سيف الله أحمد فاضل .
ط ٢ ، دار القلم ، الكويت ، ١٣٩٣ هـ .
ـ الانسان بين العلم والدين . تأليف : شوقي أبو خليل .
ط ٣ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٩ هـ .
ـ الانسان بين المادية والاسلام . تأليف : الأستاذ محمد قطب .
ط ٤ ، بيروت ، ١٩٦٥ م .
ـ الايمان والحياة . تأليف : د . يوسف القرضاوي .
ط ٣ ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ .
ـ بشائر النبوة الخاتمة ، تأليف : د . رؤوف شلبي .
المكتبة العصرية ، بيروت .

ـ البداية والنهاية في التاريخ . تأليف : اسماعيل بن عمر بن كثير .
تحقيق : محمد عبد العزيز النجار .
مطبعة الفجالة الجديدة ، القاهرة .
ـ التبشير والاستشراق . تأليف : محمد عزت اسماعيل الطهطاوي
المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٣٩٧ هـ .
ـ تثبيت دلائل النبوة . تأليف : القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني .
تحقيق : عبد الكريم عثمان .
دار العربية للطباعة والنشر ، بيروت .
ـ التصوير الفني في القرآن . تأليف : الأستاذ سيد قطب .
ط ٤ ، مطابع دار الشروق ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
ـ تفسير ابن كثير . تأليف : أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي .
دار احياء الكتب العربية . القاهرة .
ـ تفسير أبي السعود . تأليف : أبي السعود محمد بن محمد العمادي .
دار احياء التراث العربي . بيروت .
ـ تفسير البيضاوي . تأليف : أبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي .
مطبعة دار الكتب العربية الكبرى . القاهرة .
ـ تفسير الطبري . تأليف : أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
ط ٣ ، القاهرة .
ـ تفسير القرطبي . تأليف : أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .
دار الكتاب العربي ، بيروت .
ـ التفسير الكبير . تأليف : الامام فخر الدين الرازي .
ط ٢ ، طهران.
ـ تفسير المنار . تأليف : محمد رشيد رضا .
ط ٤ ، دار المنار ، القاهرة .
ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن . تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد

الخطابي ، وأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ، وعبد القاهر الجرجاني .
ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . تأليف : شيخ الاسلام ابن تيمية .
مطابع المجد .
ـ حياة محمد . تأليف : محمد حسين هيكل .
ط ١٣ ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
ـ خصائص التصوير الاسلامي . تأليف : الأستاذ سيد قطب .
ط ٤ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
ـ الخصائص الكبرى . تأليف : جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : د . محمد خليل هراس .
مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ .
ـ خلق الانسان بين الطب والقرآن . تأليف : د . محمد علي البار .
ط ٥ ، الدار السعودية للنشر ، جدة ، ١٤٠٤ هـ .
ـ خلق المسلم . تأليف : الأستاذ محمد الغزالي .
ط ٤ ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٣ هـ .
ـ دراسات في تاريخ الاسلام ونظمه . تأليف : س . د . جويتين .
ـ دراسات في حضارة الاسلام . تأليف : هاملتون جب ، ترجمه : احسان عباس ورفاقه .
ط ٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت . ١٩٧٩ م .
ـ دراسة في السيرة . تأليف : د . عماد الدين خليل .
ط ٦ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ .
ـ دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة . تأليف : موريس بوكاي .
ط ٤ ، دار المعارف لبنان ، ١٩٧٧ م .
ـ دلائل الاعجاز . تأليف : الامام عبد القاهر الجرجاني .
دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .

ـ دلائل النبوة . تأليف : أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني .
بدون ، ١٣٩٧ هـ .
ـ دلائل النبوة . تأليف : الامام البيهقي . تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان .
ط ١ ، دار النصر للطباعة ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ .
ـ الرسل والرسالات . تأليف : د . عمر سليمان الأشقر .
ط ٢ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٤٠٣ هـ .
ـ الرسول في كتابات المستشرقين . تأليف : نذير حمدان .
مطبعة رابطة العالم الاسلامي ، مكة المكرمة ، ١٤٠١ هـ .
ـ سنن ابن ماجه . تأليف : أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني .
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
ـ سنن أبي داود . تأليف : أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .
دار احياء السنة النبوية .
ـ سنن الترمذي . تأليف : أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة .
تحقيق : أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وابراهيم عطوة .
دار احياء التراث العربي .
ـ سنن الدارمي . تأليف : أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي .
تحقيق : عبد الله هاشم المدني .
حديث أكادمي ، فيصل آباد . الباكستان ، ١٤٠٤ هـ .
ـ سنن النسائي . تأليف : أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي .
المطبعة المصرية بالأزهر . القاهرة .
ـ السيرة النبوية . تأليف : أبي محمد عبد الملك بن هشام .
دار الجيل . بيروت .
ـ سيرة عمر بن عبد العزيز . تأليف : أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .
دار الفكر ، بيروت .

- شرح النووي على صحيح مسلم . تأليف : الامام النووي .
المطبعة المصرية . القاهرة .
- الشريعة الاسلامية . تأليف : مناع القطان .
ط ١ ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جده ، ١٤٠٠ هـ .
- الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان . تأليف محمد الخضر حسين .
طباعة علي رضا التونسي ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ .
- شريعة القرآن من دلائل اعجازه . تأليف : محمد أبي زهرة .
دار الثقافة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ .
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى . تأليف : القاضي عياض بن موسى اليحصبي . تحقيق اسامة الرفاعي ورفاقه .
دار الوفاء للطباعة ، دمشق .
- صحيح البخاري . تأليف : أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري .
المكتبة الاسلامية ، استانبول ، ١٩٧٩ م .
- صحيح مسلم . تأليف : أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري .
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، الرياض ، ١٤٠٠ هـ .
- صور استشراقية . تأليف : د . عبد الجليل عبده شلبي .
المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
- صور من سماحة الاسلام . تأليف : د . عبد العزيز الربيعة .
ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ .
- الطب محراب الايمان . تأليف : د . خالص جلبي .
ط ١ ، جـ ١ طباعة دار المعارف ، دمشق ١٣٩٤ هـ ، جـ ٢ طباعة دار النفائس دمشق ١٣٩١ هـ .
- العسل فيه شفاء للناس . تأليف : د . محمد نزار الدقر .
ط ٣ ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ .

ـ العقيدة والشريعة في الاسلام . تأليف : جولدتسيهر . ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى ورفاقه .

ط ٢ ، دار الكتاب العربي ، ١٣٧٨ هـ .

ـ علم أصول الفقه ، تأليف : عبد الوهاب خلاف .

ط ٨ ، مكتبة الدعوة الاسلامية ، القاهرة .

ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري . تأليف : الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ .

ـ فتح القدير . تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني .

نشر محفوظ العلي . بيروت .

ـ فقه السنة ، تأليف : الأستاذ سيد سابق .

دار الكتاب العربي ، بيروت .

ـ فقه السيرة . تأليف : د . محمد سعيد رمضان البوطي .

ط ٨ ، دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ .

ـ فقه السيرة ، تأليف : الأستاذ محمد الغزالي .

مطابع علي بن علي . الدوحة . قطر .

ـ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . تأليف : د . محمد البهي .

ط ٨ ، مكتبة وهبة ، القاهره ، ١٣٩٥ هـ .

ـ في ظلال القرآن . تأليف : سيد قطب .

ط ٦ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .

ـ القاموس المحيط . تأليف : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي

المؤسسة العربية ، بيروت .

ـ الكتاب المقدس

دار الكتاب المقدس في العالم العربي . ١٩٨٢ م .

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . تأليف : محمود بن عمر الزمخشري .
دار المعرفة ، بيروت .
ـ محاضرات في النصرانية . تأليف : محمد أبي زهرة .
ط ٥ ، دار الفكر العربي ، القاهرة . ١٣٩٧ هـ .
ـ محمد رسول الاسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه . تأليف : محمد فهمي عبد الوهاب .
ط ٢ ،دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ .
ـ محمد رسول الله (علامات النبوة) . تأليف : عبد الملك علي الكليب
ط ١ ، مكتبة دار الهجرة، الكويت ، ١٤٠٠ هـ .
ـ محمد في التوراة والانجيل والقرآن . تأليف : ابراهيم خليل أحمد .
ط ٤ ، مكتبة الوعي العربي ، القاهرة .
ـ محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل والقرآن . تأليف : محمد عزت الطهطاوي . مطبعة التقدم . القاهرة . ١٩٧٢ م .
ـ مدخل الى القرآن الكريم . تأليف : د . محمد عبد الله دراز .
ط ٣ ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠١ هـ .
ـ المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية . تأليف : د . عبد الكريم زيدان .
ط ٧ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ .
ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث . تأليف : أبي عبد الله محمد ابن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري .
دار الكتب العلمية .
ـ مسند الامام أحمد بن حنبل . تأليف : الامام احمد بن حنبل الشيباني .
دار صادر ، بيروت .
ـ المعجزات المحمدية . تأليف : وليد الأعظمي
ط ٢ ، المكتب الاسلامي . بيروت ، ١٣٩٧ هـ .
ـ المعجزة الكبرى (القرآن) . تأليف : محمد أبي زهرة.
دار الفكر العربي ، القاهرة .

ـ مع الطب في القرآن الكريم . تأليف : د . عبد الحميد دياب ود . أحمد قرقوز .
ط ٢ ، مؤسسة علوم القرآن . دمشق . ١٤٠٢ هـ .
ـ الملل والنحل . تأليف . أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني .
مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٨٧ هـ .
ـ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية . تأليف : مجموعة من الباحثين . مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ .
ـ مناهل العرفان في علوم القرآن . تأليف : محمد عبد العظيم الزرقاني .
ط ٣ مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .
ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام . تأليف : بندلي جوزي .
منشورات صلاح الدين ، القدس .
ـ الموافقات في أصول الشريعة . تأليف : ابراهيم بن موسى المعروف بأبي اسحق الشاطبي .
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
ـ موطأ مالك . تأليف : مالك بن أنس . تعليق : محمد فؤاد عبد الباقي .
دار احياء التراث العربي .
ـ النبأ العظيم . تأليف : د . محمد عبد الله دراز .
ط ٢ ، دار القلم ، الكويت ، ١٣٩٠ هـ .
ـ النبي محمد . تأليف : عبد الكريم الخطيب .
ط ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٥ هـ .
ـ نبوة محمد في القرآن. تأليف : د . حسن ضياء الدين عتر .
ط ١ ، دار النصر ، حلب ، ١٣٩٣ هـ .
ـ نبوة محمد في الكتاب المقدس . تأليف : د . أحمد حجازي السقا .
ط ١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ .

ـ نبوة محمد من الشك الى اليقين. تأليف : د . فاضل صالح السامرائي
ط ٢ ، مكتبة القدس ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ .
ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، تأليف : الامـام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية .
مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .
ـ وجوه من الاعجاز القرآني . تأليف: مصطفى الدباغ .
ط ٢ ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ١٩٨٢ م .
ـ وجوب تحكيم الشريعة الاسلامية . تأليف : مناع خليل القطان .
مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض ١٤٠٥ هـ .
ـ الوحي المحمدي . تأليف : محمد رشيد رضا .
ط ٤ ، دار المنار، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ .

فهـرس المـوضـوعـات

الموضوع	الصفحة